الدولة الفاطمية فى مصر

الأحوال السياسية والنظم الحضارية

دكتــور

محمود عرفة محمود

كلية الآداب ـ جامعة القاهرة

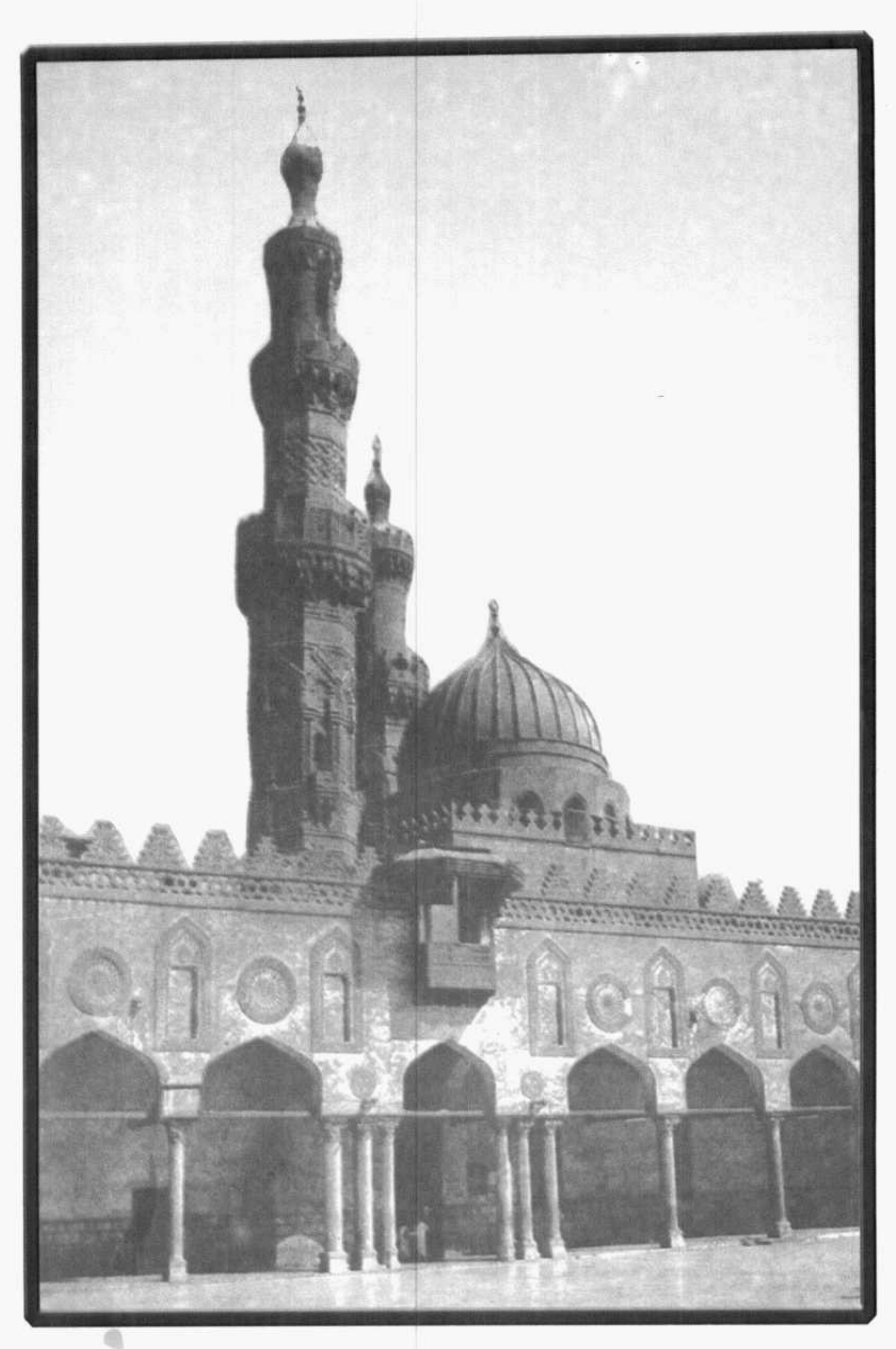
دار الثقافة العربية

٣ شارع المبديان بالسيدة زينب



بسم الله الرحمن الرحيم
﴿ سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا
عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾
صدق الله العظيم





واجهة الظلة الشمالية الغربية :

الجامع الأزهر بالقاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين وبعد ، فلا شك أن العصر الفاطمى بمصر يعد من أزهى العصور الإسلامية التى تمتعت أرض الكنانة خلاله بالاستقلال السياسى والتقدم الحضارى فى كافة المجالات والاتجاهات والنظم .

يتناول هذا الكتاب الأحوال السياسية والنظم الحضارية فى مصر خلال العصر الفاطمى ، يتجلى لنا فيه ظهور الشيعة وتعدد طوائفهم ، وقيام الدولة الفاطمية فى بلاد المغرب ، وامتداد سيادتها إلى مصر ، والحالة السياسية فى عهد الحاكم بأمر الله وخلفائه ، وعلاقة الفاطميين الخارجية مع بلاد الشام والعراق وأقطار الجزيرة العربية فضلا عن الأندلس وصقلية، وأهم النظم الحضارية التى تشتمل على الخلافة ، والوزارة ، والنظام الإدارى ، والمالى ، والقضاء، والشرطة ، والجيش، والبحرية ، فضلا عن مظاهر الحياة الاجتماعية.

ينتسب الأئمة الفاطميون « المستقرون » إلى الرسول ﷺ من جهة السيدة فاطمة ابنته وزوجها الإمام على بن أبى طالب الصهر وابن العم ، ولما كان الفاطميون يرون أنهم الأحق بالملك وإمامة المسلمين ، فقامت الحروب بينهم وبين الأمويين والعباسيين ردحا طويلا من الزمان ، حتى تحقق لهم النصر على يد الإسماعيلية ، وتكللت جهودهم بقيام الخلافة الفاطمية فى بلاد المغرب ، وبذلك انتهى دور الستر والتقية ، وتحول إلى الظهور والعلنية ، وهذا الدور يدين لإمامين هما الإمام عبيد الله المهدى (الإمام المستودع) ، والإمام أبى القاسم بن الحسين (الإمام المستقر) .

على الرغم من جلوس عبيد الله على كرسى الخلافة فى بلاد المغرب والتلقب بالمهدى ، إلاّ أن أبا القاسم ـ الأصل فى شجرة العائلة العلوية قد آل إليه الأمر بعد قيام الإمام المستودع بتسليم الأمانة إلى أصحابها من الأئمة

المستقرين (الأصول) ، فالعقيدة الشيعية تقوم على حماية الأئمة المستورين بنوابهم ، ويبدأ نسب الأئمة بالحسين بن على ويمتد إلى القائم (الخليفة الثانى بالمغرب) ، وينتسب النواب إلى سلمان الفارسى ويمتد النسب إلى ميمون القداح وينتهى بعبيد الله المهدى ، وجاء اتخاذ المستودعين لقب الإمام تنفيذا لمبادئ العقيدة الشيعية التى تتطلب مزيدا من الستر والتخفى لحماية الأئمة الأصول من بطش الأمويين والعباسيين ، غير أن انتقال الإمامة من المهدى إلى القائم إنما يعد بمثابة رد الوديعة إلى صاحبها الشرعى ، قال الداعى إدريس : « فقد أدى المهدى إلى القائم إمامته ، وسلم إليه رتبته ، وأعطاه وديعته التى استودعها الله إياه له ، وأقر الحق فى مقره ، وجعله فى مستقره »[1] .

ومهما يكن من أمر فقد قوبل إعلان قيام الخلافة الفاطمية فى المغرب بحفاوة بالغة من أهلها ، وأعلن زعماء القبائل المغربية الوقوف إلى جانبهم والتفانى فى خدمتهم ، فأحسن الفاطميون استغلال هذه العلاقة الوطيدة لمصلحة دولتهم فى التوسع ، وتم لهم فتح تلك البلاد وتوحيدها تحت رايتهم، غير أن قيام الثورات فى بلاد المغرب كان له أبلغ الأثر فى إدراك الخلفاء الفاطميين خطر بقائهم والحفاظ على دولتهم فى هذه البلاد ، فاتجهوا بأنظارهم نحو المشرق ، يتجلى ذلك من تأسيس المنصور لحاضرته الجديدة شرق المهدية .

أدرك الفاطميون يقينا أن مفتاح الشرق وتحقيق الآمال يكمن فى الاستيلاء على تلك البقعة الغالية مصر لموقعها الجغرافى الفريد الذى يجعل منها مركزا استراتيجيا لمد النفوذ إلى بلاد الشام والحجاز وتوجيه ضربات قاصمة للخلافة العباسية ، وهو ما تم فى عهد المستنصر الفاطمى فخطب له على منابر حاضرة العباسيين ، ورفرفت رايات الفاطميين على بغداد وواسط والكوفة وسائر المدن الشرقية ، وأرسلت ثياب الخليفة القائم بأمر الله العباسى

---

(١) الداعى عماد الدين إدريس : زهر المعانى فى توحيد المبدع الحق ، تحقيق حسين الهمدانى ، الثقافة الإسلامية ، ١٩٣٧ ، مجلد ٢ ، ص ٦٧ .

وعمامته إلى مصر سنة ٤٥٠هـ/١٠٥٨م .

على أية حال فقد تم للفاطميين فتح مصر وساعدهم على ذلك حالة الضعف التى كانت تعانى منها مصر نفسها مع ضخامة ثروتها ووفرة خيراتها، وعلامات الشيخوخة التى بدت واضحة على الدولة العباسية بسبب ضعف خلفائها الذين صاروا ألعوبة فى أيدي الوزراء والأمراء من العناصر الأجنبية ، حتى أصبح لا حول لهم ولا قوة فوصف الخليفة العباسى بأنه:ـ

خليفة فى قفص بين وصيف وبغا

يقول ما قالا له كما تقول الببغا

لما أزمع المعز لدين الله على المسير إلى مصر ، حمل معه أهله وحاشيته وخزائن ثرواته ، وحتى رفات آبائه ، حيث تم دفنهم بالقرافة الكبرى بتربة الزعفرانية (خان الخليلى فى الوقت الحاضر) ، ومنها انطلقوا إلى السيادة على بلاد الشام والحجاز ، فالشام تمثل البعد الاستراتيجى وخط الدفاع الأول عن حاضرتهم الجديدة ، وقاعدة الانطلاق نحو قلب الخلافة العباسية، وأما ضم الحجاز فيضمن لهم السيادة المذهبية التى يمتلكون بها قلوب وعقول رعاياهم ، فهى تضم الحرمين الشريفين مما يثير عاطفة المسلمين ويجذب أفئدتهم من كافة بقاع العالم الإسلامى .

لما تم للفاطميين توطيد سلطانهم السياسى ، انطلقوا نحو تطوير نظم الدولة ودواوينها ووضعوا لذلك ضوابط دقيقة محكمة حققت لهم السيطرة الكاملة على مقدرات البلاد ، وفى سبيل تحقيق ذلك احتكروا المؤسسات العامة والاجتماعية والتجارية وجعلوها ملكا خاصا لهم ، وخلطوا بين المال العام والخاص ، فعظم شأنهم وتضخمت ثرواتهم التى ظهرت آثارها فى ذلك البذخ الذى لم تشهد البلاد مثيلا له من قبل ، وتجلى ذلك فى الاحتفالات بالمواسم والأعياد الدينية والقومية ، ومن ناحية أخرى كان للنظام المالى الدقيق الذى وضعه رجالهم الأكفاء أثره الملحوظ فى نهضة الدولة ، فقد عنى الفاطميون بديوان الخراج ؛ واهتموا بالمكوس والتجارة الداخلية والخارجية ، وأسندوا جبايتها إلى أشد الناس إخلاصا فامتلأت خزائنهم

بالأموال الوفيرة والتحف الثمينة.

استغل الفاطميون جانبا كبيرا من ثرواتهم فى تكوين جيش قوى وأسطول عظيم مزود بأحدث الأسلحة والعتاد ، وجعلوا على قيادتهما أكفأ القادة وأشدهم بأسا ، وكانوا ينفقون عليهم بسخاء حتى يضمنوا ولاءهم ، فبلغت قوة الدولة الفاطمية مداها من العزة والسيادة ، وصارت لها هيبة واحترام بين الدول المعاصرة ، كما اهتموا بتنظيم الأمن الداخلى من خلال جهاز الشرطة ، فاختاروا لإدارته الثقاة المقربين من الرجال ، فكان عدتهم فى نشر الأمان بربوع البلاد ، والطمأنينة فى نفوس رعايا الدولة .

عنى الفاطميون بالقضاء ، فقاموا بتعيين قضاة يحكمون طبقا للفقه الشيعى ، وقضاة للسنة إلا أنهم قربوا قضاة الشيعة واستخدموهم فى بث العقائد الشيعية ، واهتموا بالنظر فى المظالم بأنفسهم والفصل فى قضاياها ، أو اسنادها للثقاة المقربين .

على الرغم من اهتمام الفاطميين بنشر المذهب الشيعى ، إلا أن اللافت للنظر أن هذا المذهب لم يلق قبولا عند المصريين مع طول العهد الفاطمى بمصر الذى دام أكثر من قرنين من الزمان ، والواقع أن المصريين لم يستسيغوا بعض المظاهر الشيعية ، والتى من أهمها تقبيل الأرض بين أيدى الخلفاء الفاطميين والركوع والسجود عند رؤيتهم ، كما لم يقبلوا ما قام به بعض الدعاة بسب الصحابة على المنابر فى الصلوات الجامعة ، وصار المجتمع المصرى فى نهاية الأمر يتألف من الناحية المذهبية من أغلبية سنية تحكمها أقلية شيعية مما يدل على أصالة الشعب المصرى وشموخه فى مواجهة الحركات الوافدة المتباينة من أجناس ومذاهب على امتداد القرون ، فكانت تنصهر فى بوتقته ، أو ترحل عن أرضه الطاهرة طالت مدة البقاء أو قصرت ، ويظل المصريون على الدوام سنيين معتدلين ، متسامحين غير متعصبين ، رائدهم فى أداء شعائرهم ونبراسهم قول الرسول ﷺ : « يسروا ولا تعسروا ، وبشروا ولا تنفروا » [البخارى : كتاب الجهاد ١٦٤] .

وعلى الله قصد السبيل فهو نعم المولى ونعم النصير ،

المؤلف

تمهيد
الشيعة ونسب الفاطميين

تمهيد

الشيعة ونسب الفاطميين

كان على بن أبى طالب كرم الله وجهه من السابقين الأولين الذين آمنوا بالدعوة الإسلامية فى مراحلها الأولى ، وفضلا عن ذلك كان أحد أهم أفراد بيت النبوة فهو ابن عم الرسول ﷺ ، وقد تدعمت أواصر ارتباطه بهذا البيت بزواجه من البتول فاطمة بنت رسول الله ﷺ .

أدرك المسلمون مكانة على بن أبى طالب ودوره البارز طوال مراحل الدعوة الإسلامية وحتى قيام الدولة العربية الإسلامية فى حياة الرسول ﷺ ، لذلك اتجهت أنظار وأفئدة كثير من المسلمين نحو توليته الخلافة بعد وفاة الرسول ﷺ ، لما كان يتمتع به من المواهب الربانية والحكمة الإلهية ، فضلا عن موهبة القيادة وعلامات النجابة والشجاعة النادرة ، التى كان لها أوج الإحترام فى قلوب وعقول معاصريه من كبار الصحابة خاصة والعرب عامة فقد كان من أهل المنعة والتجربة ومن ذوى البأس والخبرة ، إذ نشأ وتربى فى ظل الروح الإسلامية السامية .

لما ولى أبو بكر الصديق الخلافة ، تمسك فريق من المسلمين من ذوى الرأى بزعامة على بن أبى طالب ، وأدى ذلك إلى ظهور حزب من المسلمين على مسرح الأحداث التاريخية يناصر عليا ، منهم العباس بن عبد المطلب والفضل بن العباس والزبير بن العوام وخالد بن سعيد والمقداد ابن عمرو ، وسلمان الفارسى ، وأبو ذر الغفارى ، وعمار بن ياسر والبراء بن عازب وأبىّ بن كعب [(١)] ، يقول ابن قتيبة : « وأما على والعباس ومن معهما من بنى هاشم انصرفوا إلى رحالهم ومعهم الزبير بن العوام» [(٢)] . ويرجع ذلك إلى أن عليا كان قد تزعم المعارضة ضد بيعة أبى بكر حيث

---

(١) اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى ، مطبعة النجف ، العراق ١٣٥٨هـ ، جـ٢ ص ١٠٣ .

(٢) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ، بيروت ١٩٨٢ ، جـ١ ص ١٨ .

كان يرى أن الخلافة ينبغي أن تنتقل إليه ، فقد امتنع عن بيعة أبى بكر ستة أشهر (وذلك منذ اختيار أبى بكر للخلافة فى سقيفة بنى ساعدة وحتى وفاة السيدة فاطمة الزهراء) ، يدل على ذلك قول على لأبى بكر عندما قرر مبايعته بالخلافة : « فإنه لم يمنعنا أن نبايعك إنكارا لفضليتك ولا نفاسة عليك ، ولكننا كنا نرى أن لنا فى الأمر حقا ، فاستبددتم به علينا» ، ثم ذكر على قرابته من رسول الله ﷺ ، ثم أقبل على بن أبى طالب على الناس فعظم من حق أبى بكر وذكر فضيلته وسابقته فى الإسلام وبايعه بالخلافة[1] ، وقد عرف أنصار على بن أبى طالب فى التاريخ باسم الشيعة[2] ، وهم الذين قالوا بانحصار الخلافة فى بيت الرسول ﷺ وقصرها على آل بيت على بن أبى طالب ونادى فقهاؤها بانتقال الخلافة فى أولاده من بعده ، لأن على هو ابن عم الرسول ﷺ وصهره .

لم يحدث أى خلاف بين المسلمين حول خلافة عمر بن الخطاب لأبى بكر سنة ١٣هـ/ ٦٣٤م ، وظل الحال على ذلك طوال عهده وقبل وفاته عين ستة[3] من المهاجرين ليختاروا من بينهم من يصلح لخلافة الدولة

---

(١) الطبرى : تاريخ الطبرى ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٩م ، جـ٣ ص ٤٤٨ .

(٢) يعتقد فريق من الباحثين أمثال كارد فو ودوزى ويوافقهم ميلر أن التشيع ظاهرة إيرانية بحتة وأن الإيرانيين أوجدوا مذهب التشيع فى الإسلام وعملوا على إظهاره كمذهب دينى ، وأن التشيع فى مجمله لا يعدو أن يكون تفسيراً للإسلام من وجهة النظر الإيرانية وأن ذلك ليس إلا رد فعل للروح الإيرانية فى مواجهة العرب ، بينما يرى جولد تسيهر أن الحركة العلوية الشيعية نشأت فى أرض عربية بحتة فقد مال لإعتناق التشيع قبائل عربية آمنت بشرعية حق على فى الخلافة . للتفصيل انظر جولد تسيهر : العقيدة والشريعة فى الإسلام ، ترجمة محمد يوسف موسى وآخرون ، دار الكتاب العربى ، القاهرة ١٩٥٩، ص ١٦٩ .

(٣) عرف هؤلاء الستة بأهل الشورى وهم على بن أبى طالب وعثمان بن عفان والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص .
، الطبرى : المصدر نفسه جـ٣ ص٢٩٤ .

الإسلامية ، فإذا انقسمت الآراء حول الاختيار حكّموا عبد الله بن عمر ، وإن لم يرضوا بحكم عبد الله بن عمر عليهم العمل برأى الفريق الذى يضم عبد الرحمن ابن عوف . .

اجتمع خمسة من أهل الشورى الذين اختارهم الخليفة عمر بعد وفاته أواخر سنة ٢٣هـ/٦٤٣م ، وتشاوروا فيمن يلى الخلافة ، فلما ظهر التنافس على الخلافة واشتدت حدة الخلاف بين المجتمعين سألهم عبد الرحمن بن عوف أن يخرج نفسه من المرشحين ، وأن يستطلع رأى الأنصار فى المدينة حول اختيار الخليفة فأقره الحاضرون على ذلك[١] .

كان للأسلوب الذى اتبعه عبد الرحمن بن عوف فى اختيار خليفة عمر ابن الخطاب أثره فى معارضة بنى هاشم ، فعلى الرغم من الجهد الذى بذله عبد الرحمن بن عوف فى حصر الترشيح للخلافة بعد وفاة عمر بن الخطاب فى على وعثمان ، إلا أنه أصر على أن يستوثق من المرشحين بالقسم بالله وميثاقه على العمل بكتابه وسنة رسوله ﷺ والسير على نهج أبى بكر وعمر، فلما رفض على بن أبى طالب الالتزام والتقيد بسياسة أبى بكر وعمر خشية أن تضطره الظروف إلى عدم الوفاء بالعهد ، قام ورفع رأسه إلى سقف المسجد ويده فى يد عثمان بن عفان مما كان له أبلغ الأثر فى اختياره سنة ٢٤هـ/٦٤٤م[٢] ، مما أدى إلى ازدياد معارضة زعماء بنى هاشم وفى مقدمتهم على بن أبى طالب وطلحة بن خويلد والزبير بن العوام[٣] .

---

(١) لم يحضر الاجتماع طلحة بن عبيد الله لتغيبه عن المدينة ، اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى ، جـ٢ ص١٣٩ .

(٢) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك جـ٣ ص٩٧
، ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، دار صادر ، بيروت ١٩٩٥ ، جـ٣ ص٢٧ .

(٣) ابن الأثير : المصدر نفسه جـ٣ ص٥٨ .

استغل أحد المنافقين المعارضة ضد عثمان فى بث روح السخط والتمرد فى نفوس أهل الأمصار ، وهو عبد الله بن سبأ الذى كان يهوديا من أهل صنعاء ثم اعتنق الإسلام لغرس بذور الفتن بين المسلمين بعد أن هاله الانتصارات التى حققها المسلمون ، فسار إلى البصرة لإثارة الناس ضد عثمان ، لكن واليها عبد الله بن عامر طرده منها ، فاتجه إلى الكوفة ، ثم سار إلى الشام حيث أخرجه معاوية فذهب إلى مصر ، ومن هناك أخذ فى بث سمومه لإحداث الفرقة بين المسلمين فى ولايات الدولة الإسلامية مستغلا معارضة بنى هاشم لحكم عثمان، وعمد إلى إثارة الناس ضد عثمان وولاته بقوله: « إن عثمان أخذ الخلافة بغير حق ـ مدعيا ولاءه لعلى بن أبى طالب ـ وهذا على وصى رسول الله ﷺ خاتم الأنبياء ، فانهضوا فى هذا الأمر»[1]، وقد تأثر بدعوته كثير من العامة فى الأمصار المختلفة بسبب كتبه التى أنفذها إلى أشياعه هناك مما أثار الناس على عثمان[2] وولاته

---

(١) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك جـ٣ ص٣٧٨ ـ ٣٧٩ .

(٢) كان من بين الوشايات المغرضة والدعايات المسمومة ضد الخليفة عثمان بن عفان أنه كان متحيزا نحو الأمويين وذلك باسناد إدارة شئون الأمصار الإسلامية إلى كثير منهم ، وهو قول مردود على أصحابه من المغرضين لإثارة الفتن والفرقة بين المسلمين ، فقد حرص رسول الله ﷺ على إعلاء شأن بنى أمية لنجابتهم وكفايتهم وإخلاصهم فى العمل ، فأسند إلى كبرائهم إدارة الولايات العربية فعين عتاب بن أسيد بن أبى العاص ابن أمية على مكة ولم يزل واليا عليها حتى آخر عهد أبى بكر الصديق ، كما ولى خالد بن سعيد بن العاص بن أمية على صنعاء ، وإبان بن سعيد على البحرين وعمرو بن سعيد على تيماء وخيبر وتبوك وفدك ، وأبى سفيان بن حرب على نجران ، وظل كثير من بنى أمية عمالا على البلاد فى عهد الخليفتين أبى بكر وعمر، بل أن أبا بكر ولى بعضهم قيادة الجيوش فى حركة الفتوح الأولى ، فولى يزيد بن أبى سفيان قيادة أحد الجيوش التى أنفذها إلى بلاد الشام ، وعينه عمر أميرا على دمشق كما ولى أخاه معاوية على الأردن ، فلما مات يزيد أسند عمر إلى معاوية ما كان لأخيه ، وفضلا عن ذلك لم يعهد عمر لأحد من بنى هاشم بإمارة الجند ، كما لم يول منهم أحدا فى بلاد العرب ، ولا فى البلاد المفتوحة ، فكيف يلام الخليفة عثمان بن عفان على استعمالهم وقد =

واجتمعوا على شعار واحد هو مناصرة على بن أبى طالب والمطالبة بخلع عثمان بن عفان ، فظهرت منهم نواة حزب جديد يعرف بالشيعة وهم الذين قالوا بانحصار الخلافة فى بيت الرسول ﷺ وقصرها على آل بيت على بن أبى طالب ونادى فقهاؤها بالخلافة فى أولاده من بعده .

أدى اشتعال الفتن إلى توافد الثوار من كافة الولايات الإسلامية إلى المدينة وحصار عثمان بن عفان لإرغامه على خلع نفسه ، لكنه أبى النزول عن الخلافة قائلاً : « فلا أنزع قميصا ألبسنيه الله عز وجل ، وأكرمنى به وخصنى به على غيرى »[1]، فشدد الثائرون الحصار عليه ومنعوه من الخروج والصلاة فى مسجد النبى ﷺ وحالوا دون وصول الماء إليه ، واستمر الحصار نحو أربعين يوما ، فلما رأى ذلك نيار بن عياض الأسلمى ناشده أن يخلع نفسه ، فرماه أحد المدافعين عن عثمان بسهم فقتله ، فاستاء الثوار منه وطالبوا بتسليم القاتل ، ولم يمض غير قليل حتى اقتحموا دار عثمان ، وقتلوا الخليفة وذلك فى الثامن عشر من ذى الحجة سنة ٣٥هـ/ ٦٥٥م[2].

اعتقد الشيعة أن الأمور قد صفت لهم بمقتل عثمان بن عفان ، وتولية على بن أبى طالب الخلافة[3] وشرعوا فى وضع ضوابط انتقال الخلافة بعد

= وجد فيهم الإخلاص والمعونة والكفاية ، ولم يبتدع عثمان بن عفان سنة جديدة فى التولية بل سار على نهج رسول الله ﷺ هوأبى بكر وعمر فقد كان رسول الله ﷺ هو الذى أسس هذا الأساس ، وأظهر بنى أمية لجميع الناس بتوليتهم أعماله فيما فتح عليه من البلاد .

المقريزى : النزاع والتخاصم ـ المطبعة الإبراهيمية ، القاهرة ١٩٣٧ ، ص٢٥ ـ ٢٦ ، ٤٨ .

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ جـ٣ ص٦٥ .

(٢) الطبرى : تاريخ الطبرى جـ٣ ص٤١٢

، ابن الأثير : المصدر نفسه جـ٣ ص٦٨ .

(٣) ابن الأثير : المصدر نفسه جـ٣ ص٧٠ .

على الرغم من اجتماع أهل المدينة والثوار على اختيار على بن أبى طالب للخلافة إلا =

الإمام على فقالوا بإمامة الحسن بن على الذى يعتقدون أن الخليفة على قد نص على توليته من بعده ، وجعلوا منه إماما مستودعا لقائه أى لا يورث أحد من أبنائه من بعده ، وذلك حتى تنتقل الخلافة من بعده إلى أخيه الحسين الإمام المستقر الذى يستطيع توريثها لأبنائه بعد وفاته ، فلما تنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية بن أبى سفيان[١] لم يرض حزب الشيعة عن ذلك وحولوا ولاءهم إلى أخيه الحسين بن على ، وما زالوا به حتى قدم إليهم من

= أنه لقى معارضة قوية من بنى أمية وتخلف عن بيعته بعض المهاجرين والأنصار لأنه بويع فى فتنة قتل فيها خليفة ، ولأن قتلة عثمان هم الذين حرصوا على المناداة بعلى خليفة ، وكان من كبار المعارضين لبيعته سعد بن أبى وقاص وعبد الله بن عمر وأسامة بن زيد ، ومن الأنصار حسان بن ثابت ، ومسلمة بن مخلد وأبو سعيد الخدرى ، ومحمد بن مسلمة ، والنعمان بن بشير ، وزيد بن ثابت ، بينما بايعه طلحة والزبير كرها وهرب قوم من أهل المدينة إلى الشام معلنين استيائهم ومعارضتهم ، الطبرى : تاريخ الطبرى جـ٣ ص٤٥٤ .

(١) كان قد بويع للحسن بن على بالخلافة بعد مقتل أبيه سنة ٤٠هـ/ ٦٦٠م ، حيث دعا إلى بيعته قيس بن سعد بن عبادة ، رأى الحسن بعد أن بلغه قيادة معاوية لجند الشام وتصميمهم على الحرب ونزولهم بمسكن أن يقاتل جند الشام، فجعل على مقدمة جيشه قيس بن سعد بن عبادة فى اثنتى عشر ألفا ، وخرج بنفسه على رأس جند غفير من أهل العراق فبلغ المدائن ، فلما علم بذلك معاوية أنفذ إليه المغيرة بن شعبة وعبد الله بن عامر وعبدالرحمن بن أم الحكم ، فلما خرجوا من عند الحسن أشاعوا بين الناس أن الله قد حقن بابن رسول الله الدماء وسكن به الفتنة وأجاب إلى الصلح ، فدخل الناس على الحسن ونهبوا متاعه فأوجس منهم خيفة ، وقد أثبتت هذه الحادثة أن أهل العراق غير جادين فى نصرته ، فكتب إلى معاوية بطلب الصلح بشروط حتى يتزل له عن الخلافة ، فأجابه معاوية إلى كل شروطه ، ومن أهم شروطه التى شرطها الحسن فى مقابل أن يسلم له ولاية أمر المسلمين أن يعمل بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ وسيرة الخلفاء الصالحين، وألا يعهد معاوية لأحد بالخلافة من بعده وأن يكون الأمر من بعده شورى بين المسلمين ، فضلاً عن تأمين الناس على أنفسهم وأموالهم وذراريهم . لا شك إن الحسن آثر حقن دماء =

المدينة المنورة إلى معقلهم بالكوفة ، وهناك دارت الواقعة المأساوية بكربلاء بين الشيعة بزعامة الحسين بن على وبين الأمويين والتى انتهت بمقتل الحسين ، مما أثار الحماسة الدينية فى نفوسهم وبخاصة مع إحساسهم بالذنب الأليم لفرارهم من حوله وتركه يلقى مصيره المحتوم .

كانت خطة الشيعة[1] بعد نزول الحسن عن الخلافة تنحصر فى طاعته والانتظار حتى يأمرهم بالخروج لاستعادة سلطانهم ، وظلوا على ولائهم

= المسلمين بالصلح مع معاوية وتنفيذا لهذا القرار كتب إلى قائده قيس بن سعد بن عبادة بالدخول فى طاعة معاوية ، ولم يحفل الحسن برأى حزب الشيعة الذين اعتبروا أن الصلح إنما يعبر عن الهزيمة والتسليم لأعدائهم الأمويين فقد أظهر حجر بن عدى الكندى زعيم الشيعة بالكوفة استياء الشيعة من ذلك إلا أن الحسن رد عليه قائلاً : إنى رأيت الناس فى الصلح ، وكرهوا الحرب ، وبعد أن فرغ الحسن من اجراءات الصلح وتسليم الخلافة لمعاوية سار بأهله إلى المدينة المنورة وظل مقيما بها حتى توفى سنة ٥١هـ/ ٦٧١م . الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ، جـ٢ ص ١٢٦ ؛ ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ٣ ص ١٦٠ ؛ ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٩٢ ، جـ٣ ص ١٦٨ . وقد انتقد بعض المؤرخين موقف الحسن من قتال معاوية من ذلك قول بروكلمان إن الحسن لم يكن رجل الساعة الذى تحتاجه الدولة. تاريخ الشعوب الإسلامية جـ١ ص١٤٥ ، بينما عقب أوكلى Ockly أن الحسن لم يكن مؤهلاً للموقف حيث كان جانحًا إلى السلم وينظر إلى دماء المسلمين نظرة رعب يصعب علينا تصورها ، بينما يرى فلهاوزن أن الحسن قد أدخل الشك فى نفوس أهل الكوفة بموقفه المبهم فاستقر رأيهم على أنه ليس رجلهم المنشود . انظر :
The Arab Kingdom, Calcutta, 1947, P. 105 .

(١) يرى فلهاوزن إن أكثر المصادر التى يمكن إلى حد بعيد الوثوق بما جاء فيها عن تاريخ تلك الفترة هى كتابات أبو مخنف (ت١٥٨هـ/٧٧٤م) التى دثرت وضاعت ولم يصلنا منها إلا ما حفظه الطبرى فى تاريخه نقلا عنه ، وبذلك يعد تاريخ الطبرى من أكثر تلك المصادر المعاصرة تميزًا . انظر : Wellhausen : Op. Cit., P. 127 .

للحسن الذى اعتبروه زعيم الشيعة حتى وفاته سنة ٥٠هـ ، فلما صارت الرئاسة لأخيه أبى عبد الله الحسين رأوا أنه الأحق بالخلافة بعد وفاة معاوية سنة ٦٠هـ/٦٧٩م من ابنه يزيد بن معاوية ، وبخاصة أن الحسين رفض بيعة يزيد بن معاوية ، وأقام بمكة معارضا وانتهزوا هذه الفرصة فأنفذوا عدة رسائل إليه يطلبون منه القدوم عليهم ليولوه الخلافة وذلك إنه لما بلغ أهل الكوفة وفاة معاوية وامتناع الحسين عن بيعة يزيد ، اجتمع زعماء الشيعة فى منزل سليمان بن صرد ، واتفقوا على مراسلة الحسين يسألونه القدوم عليهم ليسلموا الأمر إليه ويطردوا الوالى النعمان ابن البشير [١].

لما رأى الحسين من إجماع أشراف الكوفة وزعماء القبائل بها على طلب القدوم إليه أنفذ إليهم ابن عمه مسلم بن عقيل بن أبى طالب ليتوثق من صدق دعوتهم ومعه رسالة جاء فيها : « وقد بعثت إليكم بأخى وابن عمى وثقتى من أهل بيتى مسلم بن عقيل وأمرته أن يكتب إليّ بحالكم وأمركم ورأيكم ، فإن كتب إليّ أنه قد إجتمع رأى ملئكم وذوى الفضل والحجة منكم على مثل ما قدمت على به رسلكم ، أقدم إليكم إن شاء الله » [٢].

استطاع مسلم[٣] أخذ البيعة للحسين من عدة آلاف وكتب بذلك إليه

---

(١) النويرى : نهاية الأرب ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٧ ، جـ١ ص ٢٤٣ .

(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ٤ ص ٨ .

(٣) ذكر بتروفسكى أن مسلم بن عقيل قد توفى وهو فى طريقه إلى الكوفة وأن خبر وفاته وصل إلى الحسين قبل أن يتحرك من المدينة باتجاه الكوفة . انظر : بتروفسكى : الإسلام فى إيران، ترجمة السباعى محمد السباعى ، القاهرة ١٩٩٤ ، ص ٩٣ ، بيد أنه ليس فى المصادر المعاصرة ما يؤيد زعمه ولسنا ندرى من أين جاء بتروفسكى بهذه الفرية .

وألح عليه فى القدوم إلى الكوفة [١]، وكتب إليه مؤكدا : « إن الرائد لا يكذب أهله ، وقد بايعنى من أهل الكوفة ثمانية عشر ألف رجل ، فاقدم فإن جميع الناس معك » [٢]، فسار الحسين من مكة قاصدا الكوفة فى يوم الثامن من ذى الحجة سنة ٦٠هـ/ ٦٧٠م ، وحاول بعض خاصته أن يثنوه عن هذا الأمر لكنه لم يستمع لنصحهم ، استمر الحسين فى طريقه إلى الكوفة وقد انضم إليه كثير من الأعراب [٣]، فلما اقترب من العراق لقيه رجلان من بنى أسد وأخبراه بمقتل مسلم بن عقيل وهانئ بن عروة الذى كان يأوى مسلما عنده ، وأشاروا عليه بالعودة من حيث أتى وقالا له : « إنه ليس لك بالكوفة ناصر ولا شيعة » ، فمال الحسين إلى العودة ، لكن إخوة مسلم أصروا على المضى ليأخذوا بثأر أخيهم [٤]، لما علم عبيد الله بن زياد والى الكوفة بقدوم الحسين أعد قوة من الجند برئاسة الحر بن يزيد التميمى لمنع الحسين من دخول العراق ، لكن هذا القائد لم يشأ محاربة الحسين ، فاستبدل به عبيدالله بن زياد قائداً أخر هو عمر بن سعد بن أبى وقاص ، فمضى عمر حتى لقى الحسين ، فانفذ إليه يسأله عن سبب مجيئه ، فلما رأى الحسين من تطور الأمور على النحو الذى ينذر بالصدام المسلح، رد على عمر بن سعد بأن يخلو بينه وبين طريقه إلى الحجاز ليرجع من حيث أتى ،

---

(١) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ، جـ٤ ص ٢٥٩ .

(٢) النويرى : نهاية الأرب ، جـ١ ص ٢٥٦ .

(٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ٤ ص ١٧ .

(٤) المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، العالمية للكتب ، بيروت، ط٢ ، جـ٣ ص١٠ .

أو يسير إلى ثغر من ثغور المسلمين أو يأتى بالشام ليرى فيه رأيه ، فكتب بذلك عمر بن سعد إلى الوالى عبيد الله بن زياد ، فأبى عبيد الله ابن زياد قبول هذه المطالب وأرسل كتابا إلى عمر بن سعد مع شمر بن ذى الجوشن أن يعرض على الحسين وصحبه الاستسلام والقدوم إلى عبيد الله أو يقاتلهم، فنهض عمر بن سعد إلى قتال الحسين وأصحابه فى اليوم التاسع من المحرم سنة ٦١هـ .

ولما كان عمر بن سعد يقود جيشًا كبيراً عليه أربعة رؤساء فقد انقضوا على الحسين وصحبه من كل مكان حتى قتلوا منهم نفراً كثيراً ، مما أدى إلى فرار أتباعه ، ولم يبق إلا هو وخاصته وأخذ شمر بن ذى الجوشن يحرض الناس عليه ، حتى انقض عليه كثير منهم طعنا وضربا حتى لقى مصرعه فى كربلاء فى اليوم العاشر من المحرم من نفس العام ، واجتمع الشيعة بالكوفة وتذاكروا دعوتهم للحسين وشعروا بكثير من الندم والأسى ، لأنهم خذلوا إمامهم الحسين فى أصعب المواقف ، وتركوه يقتل بأيدى أعدائهم الأمويين وعلى أرضهم فى كربلاء ، وولوا أمرهم سليمان بن صرد الخزاعى واتفقوا على الأخذ بثأر الحسين وكتب سليمان بن صرد إلى الشيعة بالمدائن والبصرة يحثهم على النهوض للأخذ بثأر الحسين فأجابوه واجتمعوا فى أول ربيع الثانى سنة ٦٥هـ فى معسكر النخيلة (قرب الكوفة) ، فمضوا إلى قبر الحسين بكربلاء وهناك أقاموا يوما وليلة وصاحوا جميعًا صيحة واحدة طالبين التوبة والمغفرة من الله لخذلانهم الحسين ، ولذلك عرفوا فى التاريخ بالتوابين [١].

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ، جـ٣ ص ١٠ .

يعتقد الشيعة أن الإمام الحسين كان قد أوصى أخاه محمد بن الحنفية[1] بابنه على بن الحسين الذى كان طفلا ، فأودع له أخاه محمد ابن الحنفيه واستكفله إياه ، وأوصاه أن يسلم إليه وديعته عند بلوغه أشده ، فقام محمد بالأمر وبث دعاته وأقام دعوته ، غير أن محمد بن الحنفية لم يسلم الإمامة إلى على زين العابدين بل أورثها لابنه أبى هاشم بن محمد بن الحنفية ، الذى تنازل بدوره عنها لمحمد بن على العباسى فى عهد الخليفة الأموى سليمان بن عبد الملك لأنه على حد قوله لم يجد من العلويين من يصلح لإقامة الأمر ، وهو ما أدى إلى قيام الدولة العباسية .

وهكذا أدى تنازل أبناء البيت العلوى مرتين إلى قيام خلافتين من أعظم الخلافات فى تاريخ العالم الإسلامى ، فقد أدى تنازل الحسن بن على بن أبى طالب عن الخلافة لمعاوية بن أبى سفيان إلى قيام الدولة الأموية ، وأدى تنازل أبى هاشم بن محمد بن الحنفية بن على بن أبى طالب عن الإمامة لمحمد ابن على بن عبد الله بن العباس إلى قيام الدولة العباسية .

على الرغم من واقع انتقال الخلافة فى الأمويين والعباسيين إلا أن طائفة الشيعة لم تهدأ ، ولم يخب صراعها مع أى من الدول الإسلامية فى الشرق والغرب الإسلامى ، بل اعتبر الشيعة أن زعماء هذه الدول قد اغتصبوا الخلافة من العلويين ، وظلوا على ذلك طوال عهدهم ولم يتركوا المطالبة

(١) هو محمد بن على بن أبى طالب أخ الحسن والحسين ، بيد أنه ليس من ولد فاطمة وأمه امرأة من بنى حنيفة كانت فى سبى المسلمين بعد تغلبهم على مسيلمة الكذاب ، وآلت إلى على فأنجب منها محمد هذا ، ولذلك عرف بابن الحنفية ، وقد أضعف ذلك من شأنه كثيراً فرغم إكبار غالبية الشيعة له ولكريم خلقه وتقديرهم لخصاله إلا أن غالبية الشيعة لم يعترفوا به إماماً .

بحقهم فى الخلافة ، وإن كانوا قد جنحوا إلى السلم والتستر أو ما يعرف بالتقية فى بعض الأحيان ، إلا إن الصراع السافر والمواجهة مع زعماء هذه الدول وولاتها لم ينقطع على مدار العصور الإسلامية .

على الرغم من أن الشيعة اعتبروا أنفسهم أصحاب الحق الشرعى للخلافة الإسلامية ، فإن العباسيين تطلعوا إلى نيل نصيب فى الخلافة مستغلين ضعف وإنهيار الأمويين أواخر عهدهم فوقعت الحروب الأهلية فى البيت الأموى أواخر عهدهم بالخلافة ، بعد أن دارت رحاها بين الخليفة الوليد بن يزيد بن عبد الملك الذى كان ينصره العنصر المضرى وبين يزيد بن الوليد بن عبد الملك زعيم العنصر اليمنى ، وانتهى الأمر بمقتل الخليفة الوليد بن يزيد فى جمادى الآخرة سنة ١٢٦هـ/٧٤٣م ، وكذلك ضعف العلويين بعد أن تعرضوا لضربات قاصمة طوال القرن الأول وأوائل الثانى ، وبثوا الدعاة لأنفسهم الذين أذاعوا بين الناس أن الخلافة تصير إلى العم إذا لم يكن هناك وارث من الأبناء .

لما كان أمر الدعوة العباسية يحتاج إلى أتباع وأنصار ، فقد بذل العباسيون جهدهم لنيل ولاء فرقة الكيسانية ، وقد لعبت الأقدار دورها فى تحقيق أغراضهم حين تعرض أبوهاشم بن محمد بن على بن أبى طالب لمؤامرة من قبل سليمان بن عبد الملك ، الذى أنفذ من دس إليه السم وهو فى طريقه إلى إقليم الشراة سنة ٦٨هـ/٦٨٧م ، فلما أيقن أبو هاشم من ذلك اتجه إلى الحميمة (جنوب البحر الميت على مقربة من العقبة)، وقابل هناك على ابن عبد الله بن عباس وابنه محمد ، وأوصى إلى على وأولاده

من بعده بالإمامة، وأمدهم بأسماء دعاته وسلمهم كتبا إلى هؤلاء الدعاة ، يطلب منهم فيها تحويل ولائهم إلى على بن عبد الله وأولاده فلما توفى على انتقل ولائهم إلى ابنه محمد سنة ١١٨هـ/٧٣٦م . وكان محمد قد وجه الدعاة إلى العراق وخراسان خلال حياة أبيه بمعاونة أبى عكرمة السراج الذى اختار اثنى عشر نقيبا فضلا عن سبعين من أهل خراسان [١]، وزودهم بأهم أسرار الدعوة وهى عدم الإفصاح عن الإمام الذى يدعون إليه وإنما يدعون إلى تولية أحد أفراد البيت النبوى ، فاكتسبوا بذلك ولاء الشيعة الذين لم يعرفوا شخص الإمام الذى يدعون إليه .

كانت الكوفة مهد التشيع حيث اتخذها الهاشمية أتباع أبى هاشم بن محمد بن الحنفية معقلا لهم ، فضلا عن خراسان الأرض البكر البعيدة عن الصراعات السياسية ، قال محمد بن على العباسى : « أما الكوفة وسوادها فشيعة على وولده ... عليكم بأهل خراسان فإن هناك العدد الكثير والجلد الظاهر ، وهناك صدور سليمة وقلوب فارغة لم تقسمها الأهواء . فإنى أتفاءل إلى المشرق وإلى مطلع سراج الدنيا ومصباح الخلق»[٢]، وقد وجدت هذه الدعوة تأييداً كبيراً من أهل خراسان ، لأن نقل الخلافة إلى بيت النبوة تتفق مع معتقداتهم عن الملكية الفارسية الوراثية ، إلى جانب معاناتهم من الاضطهاد الأموى ، وكان الدعاة يخفون أغراضهم بادعائهم الانتقال بالتجارة أو الذهاب لأداء فريضة الحج .

---

(١) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ، جـ٥ ص ٣١٧

، ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ٥ ص ٢٠ .

(٢) المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، تحقيق دى غويه ، ليدن ١٩٠٩ ، ص٢٩٤ .

ساعد على نشر الدعوة وكثرة أتباعها انضمام أبى مسلم الخراسانى الذى كان قد تلقى أسرار الدعوة عن بكير بن ماهان داعى العباسيين بالكوفة ، وقد عهد إبراهيم بن محمد بن على العباسى لأبى مسلم قيادة الحركة فى خراسان ، وشجعه قائلاً : « يا أبا عبد الرحمن إنك رجل من أهل البيت فاحفظ وصيتى »[1].

نزل أبو مسلم خراسان وبعد دراسة أحوال أهلها جهر بالدعوة إلى آل البيت سنة ١٢٩هـ/٧٤٦م ، بعد أن وصل سفيندنج (من ضواحى مرو) فى منتصف رمضان ١٢٩هـ/ ٧٤٦م، وأرسل قواده إلى نواحى خراسان فانتزعوها من عمال نصر بن سيار الأموى ، كما أرسل الآخرين إلى بلاد فارس فاستولوا على كثير من نواحيها .

لما أيقن إبراهيم الإمام بكشف أمره لدى مروان بن محمد أوصى بالإمامة إلى أخيه أبى العباس وأمر أهله بالرحيل من الحميمة إلى الكوفة ، وقد لقى حتفه فى السجن الأموى بحران ، وسار الأهل إلى الكوفة حيث يوجد أبو سلمة الخلال ، الذى حاول تحويل الإمامة إلى أحد العلويين ، لكن قواد العباسيين أحبطوا محاولته وجهروا بمبايعة أبى العباس عبد الله بالخلافة فى الكوفة فى ١٢ ربيع الأول سنة ١٣٢هـ/٧٤٩م[2].

كان لقيام الدولة العباسية أثر بالغ عند الشيعة فقد أدى إلى صدمة أليمة فى نفوس الشيعة الحسنية أتباع الحسن بن على بزعامة محمد بن عبد الله بن الحسن بن على بن أبى طالب ، والحنفية أتباع أبى هاشم

---

(١) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ، جـ٢ ص ٢١٨ .

(٢) اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى ، جـ٢ ص ٩٣ .

ابن محمد بن الحنفية بن على بن أبى طالب لأن عليا دفع إليه باللواء يوم الجمل دون أخويه .

كان المختار بن أبى عبيد الثقفى يطمع فى أن يتزعم الشيعة[١] لذلك سار إلى الكوفة بعد وفاة يزيد بن معاوية بخمسة أشهر ، ولما لم يستطع تحقيق ذلك لوجود سليمان بن صرد الخزاعى ، استمال شيعة بنى هاشم هناك وزعم أن محمد بن على بن أبى طالب الملقب بابن الحنفية[٢] بعثه إليهم أمينا ووزيرا ومنتخبا وأميرا ، وأمره أن يطالب بثأر الحسين وأهل بيته[٣] ، وانضم إليه التوابون الشيعة لأن دعوته هذه وجدت هوى فى نفوسهم ، فقوى أمره وأخذ يحمسهم بقوله : « ولكنى الأمير والمأمور وقاتل الجبارين » ، ولما استقر الأمر فى الكوفة أخذ يتعقب قتلة الحسين لإرضاء الشيعة فتخلص من شمر بن ذى الجوشن وعمر بن سعد بن أبى وقاص ، وأرسل جيشا بقيادة إبراهيم بن مالك بن الأشتر النخعى لمقاتلة عبد الله بن زياد بالموصل فلما

---

(١) الطريف أن المختار الثقفى قد بدأ حياته السياسية متحزبا لعثمان بن عفان ضد على وكان ممن قد أبدى غضبه لمصرع عثمان ، وسخط على قاتليه وامتنع المختار أيضا عن مبايعة الحسن بعد مقتل على ، بل تذكر المصادر أن المختار عرض على عمه سعد بن مسعود حاكم المدائن أن يقبض على الحسن بن على ويسلمه لمعاوية لينال رضاه بيد أن عمه أبدى حرجه من القبض على حفيد رسول الله ﷺ ، انظر : البلاذرى : أنساب الأشراف ، تحقيق دى غويه ، ليدن ١٩٨٩ ، جـ٥ ص٢١٤ ، الطبرى جـ٤ ص١٢٢ .

(٢) ظل محمد بن الحنفية يترقب ما قد تسفر عنه ثورة المختار فلم يذهب إلى العراق كما أنه لم ينضم إلى الثوار لكنه أيضا لم ينفصل عنهم ومع أن محمد بن الحنفية كان يعد إماما لإحدى الفرق الشيعية إلا أنه لم يكن له أى دور فعال حتى وفاته ٨١هـ/ ٧٠٠م ، وربما يفسر ذلك عدم تعرضه للإيذاء أو المطاردة من قبل الأمويين .

(٣) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ، جـ٤ ص ٤٤٩ .

التقى الجيشان على ضفاف نهر الخازرقى (أحد روافد دجلة) فى مستهل سنة ٦٧هـ ، هزم جند الشام وقتل عبد الله بن زياد والحصين بن نمير السكونى وكثير من أشراف أهل الشام وبذلك أخذ المختار ثأر الحسين [١]، فلما تم له ذلك أخذ يدعو إلى إمامة محمد بن الحنفية ، فى الوقت الذى تعرض فيه ابن الحنفية للأسر بمكة من قبل جند عبد الله بن الزبير ، فأرسل إليه المختار فريقًا من جند الشيعة إلى مكة فأخلوا سبيله ، وسرعان ما علا شأن المختار فانضم إليه الشيعة السبئية (أنصار عبد الله بن سبأ)[٢]، الذى كان يرى أحقية على بن أبى طالب بالخلافة منذ أيام عثمان [٣].

لما كثر أتباع المختار بن أبى عبيد من الشيعة كون فرقة منهم عرفت بالمختارية أو الكيسانية ، وكان كيسان رئيسًا لشرطة المختار الذى لعب دورًا هامًا فى ازدياد المتشيعين لابن الحنفية ، يتجلى ذلك من معتقداتهم أن

---

(١) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ، جـ٤ ص ٥٥٤ .

(٢) كان عبد الله بن سبأ من غلاة الشيعة ويعتقد فلهاوزن أنه المؤسس الحقيقى للتشيع ، ويروى أن ابن سبأ كان من يهود اليمن ثم أسلم ، وكانت له قراءات ودراية بالكتب الدينية فى اليهودية والمسيحية والإسلام ، وكان محبًا للجدل فى الدين وقد وضع ابن سبأ لبنات صارت الأساس فى فكر الشيعة الغلاة ، من ذلك فكرة الوصى فكان يقول بأن لكل نبى وصى ، فمثلاً اختار موسى هارون ، واختار أرميا باروخ ، واختار المسيح بطرس، واختار النبى ﷺ عليًا وصيًا له . وابن سبأ أيضًا واضع أسس نظرية الرجعة فقد نادى بأن النبى ﷺ لا بد أن يرجع ، وقد بنى هذه النظرية على تأويل متعسف لبعض آيات القرآن الكريم ، فكان يقول أنه كما ينبغى لعيسى أن يعود فإن محمدًا لا بد له من رجعة كذلك، وبنى فلهاوزن على ذلك رأيه القائل بأن أصل فكرة الرجعة عند الشيعة الغلاة اقترن بأصل رجعة النبى ﷺ فى صورة على وحلول روح على فى الأئمة من بعده .

(٣) الطبرى : المصدر نفسه ، جـ٤ ص ٥٧٦ .

محمد بن الحنفية هو الإمام الأول بعد على بن أبى طالب لأنه دفع إليه الراية يوم الجمل دون أخويه ، ويرى فريق آخر منهم بأن إمامته هى الرابعة بعد الحسن والحسين بوصية أخيه الحسين [1]، ويرى المغالون منهم أن محمد بن الحنفية لم يمت ، وأنه مقيم بجبل رضوى من أعمال ينبع وأنه سيعود ليملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً وظلماً ، بينما يرى أغلبهم أنه قد مات . ويتميز أتباع الكيسانية عن غيرهم من الشيعة بالقول بالبداء بمعنى أنه يجوز لله سبحانه وتعالى أن يغير ما أراد ، لأن الإمام عندهم يوحى إليه فإذا وعد أصحابه بحدوث شىء وصدق جعله دليلا على صدق دعواه ، وإن لم يحدث قال لأصحابه قد بدأ لديكم ، ومهما يكن من شىء فقد تبرأ محمد ابن الحنفية من هذه الخرافات والبدع [2].

أما الطائفة الثالثة فهم أتباع على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب ـ والذين كانوا يعرفون بالحسينيين ـ وهم الذين يعتقدون بأنهم الأحق بالإمامة لأن الحسين وبنوه كانوا من نسل الإمام المستقر وليس المستودع كأخيه الحسن، وفى تطور آخر قوى شأن أتباع زيد بن على زين العابدين بن الحسين وأطلقوا على أنفسهم الزيدية .

كان زيد بن على زين العابدين قد ظهر أمره فى خلافة هشام بن عبدالملك بن مروان ، وكان يرى أنه الأحق بالخلافة فبعث هشام إليه يستدعيه فلما قدم عليه نهره بقوله : « أنت الذى تنازعك نفسك فى

---

(١) الشهرستانى : الملل والنحل ، القاهرة ١٩٥١ ، جـ١ ص ٢٠٠ ـ ٢٠١ .

(٢) الشهرستانى : المصدر نفسه ، جـ١ ص ١٩٨ .

الخلافة وأنت ابن أمة ؟ فقال له زيد : « يا أمير المؤمنين إن لك جوابًا إن أحببت أجبتك به وإن أحببت أمسكت عنه ، فقال هشام : بل أجب ، قال إن الأمهات لا يقعدن بالرجال عن الغايات ، وقد كانت أم إسماعيل أمة لأم إسحق صلى الله عليهما وسلم ، فلم يمنعه ذلك أن بعثه الله نبيا ، وجعله للعرب أبا ، فأخرج من صلبه خير البشر محمدا صلى الله عليه وسلم فتقول لي هذا وأنا ابن فاطمة وابن علي » [١].

أرسل هشام زيد بن علي زين العابدين إلى يوسف بن عمر والي الكوفة للتحقيق فيما نسب إليه من الاستيلاء على وديعة لخالد بن عبد الله القسري، وبعد انتهائه من هذا الأمر هم بالخروج إلى المدينة، لكن نفرا كثيرا من أهل الكوفة لحقوا به ودعوه للعودة إلى بلادهم ، وقالوا له: « نحن أربعون ألفا لم يتخلف عنك أحد نضرب عنك بأسيافنا »، فقال لهم : « إني أخاف أن تخذلوني وتسلموني كفعلتكم بأبي وجدي ، ومازالوا به حتى استجاب لرأيهم على الرغم من أن بعض أنصاره وأقاربه حذروه من وعود أهل الكوفة » [٢].

أقام زيد في أماكن متعددة في الكوفة لتضليل الأمويين ، وأرسل دعاته إلى أهل السواد والموصل للدعوة ، وانتشرت دعوته في المدائن والبصرة وواسط وخراسان والري وجرجان والجزيرة . وقد تضمنت شروط البيعة لزيد ، العمل بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ، وجهاد الظالمين، والدفاع عن المستضعفين،

---

(١) ابن طباطبا : الفخري في الآداب السلطانية ، دار صادر ، بيروت ، د. ت. ص١١٢.

(٢) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، جـ٤ ص ٤٨٨

محمد جمال الدين سرور : قيام الدولة العربية الإسلامية ، دار الفكر العربي ، القاهرة ١٩٧٧ ، ص ١٥٠ .

والدفاع عن آل البيت ضد أعدائهم الذين اغتصبوا الخلافة منهم [١]، وما لبث أن أمر أتباعه بالتأهب للخروج ، وفى المقابل جهز يوسف بن عمر جيشاً لمحاربتهم من جند الشام ، لما علم أهل الكوفة بأمر تلك الخيانة اتفق رؤساؤهم على التخلى عن زيد ، وحاكوا من أجل ذلك مؤامرة مؤداها الإيقاع بزيد بطريق الحوار ، فسألوه عن رأيه فى أبى بكر وعمر، فقال زيد : « رحمهما الله وغفر لهما ما سمعت أحداً من أهل بيتى يتبرأ منهما ولا يقول فيهما إلا خيراً ، فردوا عليه : فلم تطلب إذن بدم أهل البيت ؟ فقال لهم زيد : إنا كنا أحق بسلطان رسول الله ﷺ من الناس أجمعين ، وإن القوم استأثروا علينا ودفعونا عنه ، ولم يبلغ ذلك عندنا بهم كفرا قد وُلُّوا فعدلوا فى الناس وعملوا بالكتاب والسنة » [٢]، فاتهموه بالتخاذل عن المطالبة بحقوقه لأنه اعتقد أن أبا بكر وعمر خليفتان شرعيان ، فانصرفوا عنه ونكثوا بيعته ، يتضح ذلك حين دعاهم للخروج فى ليلة أول صفر ١٢٢هـ/٧٣٩م، فلم يخرج معه سوى مائتين وثمانية عشر رجلا ، فاشتبك مع جند الشام فى عدة حروب انتهت بهزيمته ومقتله [٣].

لما قتل زيد بايع فريق الزيدية ابنه يحيى بالإمامة ، لكنه فر إلى خراسان وأقام بها حتى توفى الخليفة هشام وخلفه الوليد بن يزيد ، فطارده نصر بن سيار والى خراسان ، فلما وصل يحيى وأتباعه إلى الجوزجان (كورة من كور بلخ بخراسان) اشتبك مع الجند الأموى وظل يقاتل حتى قتل [٤].

---

(١) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ، جـ٥ ص ٤٩٢ .

(٢) الطبرى : المصدر نفسه ، جـ٥ ص ٤٩٨ .

(٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ٥ ص ٩٠

، ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية ، ص ١١٣ .

(٤) الطبرى : المصدر نفسه ، جـ٥ ص ٥٣٨ .

لما ضعفت سلطة عبد الله بن عمر بن عبد العزيز والى الكوفة الأموى ، قام الشيعة بمبايعة عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب بالإمامة وقالوا له : « أدع إلى نفسك فبنو هاشم أولى بالأمر من بنى مروان»[1]. فقبل وأخذ ينشر دعوته سرا فى الكوفة ثم خرج على رأس أتباعه لقتال جند الشام فى الحيرة فى المحرم ١٢٧هـ/ أكتوبر ٧٤٤م ، لكن كثيرا منهم فر أثناء القتال ولم يثبت معه غير ربيعة وفريقه من الزيدية الذين طلبوا الأمان له ولأنفسهم على أن يرحلوا عن الكوفة ، فلما وصل ابن معاوية إلى المدائن بايعه أهلها وعبيد الكوفة [2]، وسار إلى أصبهان واستقر بها ، ثم ارتحل عنها فى سنة ١٢٨هـ/٧٤٥م إلى اصطخر فى إقليم فارس ، إتسع سلطان الشيعة فى شرق الدول الإسلامية فضم بلاد الجبل والأهواز وفارس وكرمان وقد التجأ إليه جماعات من بنى أمية والعباسيين ، كما انضم إليه بعض الخوارج الفارين من مطاردة مروان بن محمد فى الموصل أواخر سنة ١٢٩هـ/٧٤٧م .

لكن والى العراق الأموى يزيد بن عمر بن هبيرة سيّر إليه جيشا ، فلما وصل إلى مرو الشاذان لقى ابن معاوية وأصحابه والحق بهم الهزيمة سنة ١٣٠هـ/٧٤٧م ، فمضى ابن معاوية إلى سجستان ثم خراسان طمعا فى اكتساب ولاء أبى مسلم الخراسانى ، لكن الآخر أعرض عنه ، بل أمر والى هراة بالقبض عليه وقتله ، وبذلك انتهت آخر ثورات الشيعة فى العصر الأموى[3].

التفت طائفة من الشيعة حول محمد الباقر عرفت بالباقرية ، والتى انتقل

---

(١) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ، جـ٥ ص ٥٩٩ .
(٢) الطبرى : المصدر نفسه ، جـ٦ ص ٣٨ .
(٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ٥ ص ١٣٩ .

ولاؤها إلى جعفر الصادق وهم الجعفرية ، ومن بعده إلى ابنه إسماعيل بن جعفر الصادق وهم الذين عرفوا بالإسماعيلية الذين ينتسب إليهم عبيد الله المهدى مؤسس الدولة الفاطمية فى بلاد المغرب .

قامت بعض الطوائف أصحاب المذاهب الفارسية القديمة بالتقرب من آل البيت كوسيلة لإحياء مذاهبهم ، واتخذوا من هذا التقرب وسيلة للتخلص من الدولة الأموية العربية ، وكانوا يظنون أنهم يجدون فى الدولة العباسية ضالتهم ، فقالوا بحلول الله فى شخص أبى جعفر المنصور ، فلما تصدى لهم وحاربهم ، نادوا بالحلول فى رؤسائهم أنفسهم وثاروا على العباسيين وانضموا للحركات الهدامة مع سنباذ سنة ١٣٨هـ/ ٧٥٥م ، وأستاذ سيس سنة ١٤٩هـ/٧٦٦م، والمقنع الخراسانى الثائر على المهدى بن أبى جعفر المنصور لينتقم لأبى مسلم الخراسانى ، ثم ظهرت حركة بابك الخرمى (المتفرعة عن الراوندية) ولما أخمدت ثورتهم انضمت فلولهم إلى صفوف الإسماعيلية [١].

وهناك طوائف قامت بتقديس الخلفاء العباسيين مع التظاهر بالميل إلى الأئمة العلويين الحقيقيين ، فمنهم الإسماعيلية جماعة البيانية (بيان بن سمان) ، والمغيرية (المغيرة بن سعيد العجلى) ، والأبى مسلمية (أتباع أبى مسلم الخراسانى وحفيده فيروز) ، ونادوا بألوهية أبى مسلم وتفرع عنهم جماعة نادت بزعامة فاطمة بنت أبى مسلم سموا (الفاطميين) نسبة إليها ، وجماعة الحنفية نادوا بألوهية محمد بن الحنفية ، ومنهم تفرعت الراوندية الذين نادوا بألوهية أبى جعفر المنصور ، وجماعة الأبوهاشميه (أتباع أبى هاشم بن محمد بن الحنفية) ، وكان الراوندية قد نادوا سابقاً بأبى هاشم إماما لها قبل أبى جعفر .

---

(١) الأشعرى : مقالات الإسلاميين ، تحقيق هلموت ريتر ، فرانكفورت ١٩٦٩ ، جـ١ ص١٩ .

ومن ناحية أخرى نادى بعضهم بإمامة جعفر الصادق وتأليههم إياه على اعتبار أنه من نسل الحسين بن على (أطلقوا على أنفسهم الحسينيين) وهم عدة طوائف ، من أهمها العميريين (أتباع عمير بن بيان العجلى) ، وعلى الرغم من تصدى خالد بن عبد الله القسرى لهم إلا أنها هبت من جديد على يد رجل خطير هو محمد بن زينب الأسدى الأجدع المعرف بأبى الخطاب ، أطلق على أنصاره الخطابية ومنهم ميمون القداح مؤسس الدعوة الإسماعيلية يقول النوبختى : « فأما الإسماعيلية فمنهم الخطابية — أصحاب أبى الخطاب انضمت فرقة منهم إلى محمد بن إسماعيل بن جعفر »[1].

كان جعفر الصادق قد تبرأ من الخطابية كما تبرأ المعتدلون من الشيعة من أقوال الخطابية فيه فقال جعفر : زعم هذا الكافر (أبو الخطاب) أنى أعلم الغيب ، إنما نحن خلائق مخلوقون وعباد مربوبون ، ونظم هرون بن سعد العجلى شعرا فيهم قائلا :—

ألم تر أن الرافضين تفرقوا ... فكلهم فى جعفر قال منكرا

فطائفة قالوا : اله ومنهم ... طوائف سمته النبى المطهرا

برئت إلى الرحمن من كل رافض ... يصير بباب الكفر فى الدين أعورا

إذا كف أهل الحق عن بدعة مضوا ... عليها وإن يمضوا إلى الحق قصرا

ولو قيل : إن للفيل ضب صدقوا ... ولو قيل : زنجى تحول أحمرا

فقبح أقوام رموه بفرية ... كما قال فى عيسى القرى من تبصرا[2]

---

(١) النوبختى : فرق الشيعة ، تحقيق هلموت ريتر ، النجف ، ١٩٥٩ ، ص ٥٨ — ٥٩ .

(٢) البغدادى : الفرق بين الفرق ، القاهرة ١٣٢٨هـ ، ص ٢٣٩ — ٢٤٠ .

أما عن الرجعة فتتجلى فى شعر كثير عزة (ت١٠٥هـ/ ٧٢٣م) الذى يلخص المبدأ فى إمامة على وأبنائه الثلاثة الحسن والحسين وابن الحنفية ويقول برجعه ابن الحنفية :ـ

ألا ان الأئمـــة من قـــريش	ولاة الحق أربعـــة ســـواء
على والثـــلاثة من بنيـــه	هم الأسباط ليس لهم خفاء
فـــسبط سـبط إيمان وبر	وسبط غيبته كربلاء
وسبط لا يذوق الموت حتى	يقود الخيل يتبعها اللواء
تغـــيب عنهم زمـــانا	برضوى عنده عسل وماء [1]

مما سبق نجد أن الفرع الحنفى وطائفته من الكيسانية قد ضعف ، وانضم الباقون إلى فريق الإسماعيلية بزعامة حمدان قرمط فى أواخر القرن الثالث الهجرى ثم خبا هذا الفرع ، كذلك ضعف الفرع الحسنى بعد الفتك بزعمائه ، فقضى أبو جعفر المنصور على محمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم ، وبدد الهادى شملهم فى موقعة لا تقل مأساة عن كربلاء ، وفر من بقى منهم بقيادة إدريس بن عبد الله إلى بلاد المغرب مكونًا دولة الأدارسة لكنه مات مسمومًا على أيدى أنصار الرشيد ، وفر أخوه يحيى بن عبد الله إلى بلاد الديلم ، واحتال عليه الرشيد فأحضره إلى بغداد وقتله سنة ١٧٦هـ .

---

(١) حسن إبراهيم : الفاطميون فى مصر ، مطبعة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٦٤، ص ٣٧.

لم يجد زعماء طوائف الشيعة إلا الفرع الحسينى والذى يمثله جعفر الصادق الإمام السادس عند الإمامية الإثنا عشرية والإسماعيلية على السواء ، وهم يؤمنون جميعًا بإمامة على بن أبى طالب ويعتبرونه وصى الرسول ﷺ، ومن ناحية أخرى يرى بعض الإسماعيلية أن عليا صاحب التأويل ومحمد ﷺ صاحب التنزيل ، وأن تأويل على خير من تنزيل محمد، وبعضهم من المغالين مثل النصيرية الإثنا عشرية التى تؤله عليا.

كان الإمام جعفر الصادق من الحنكة بحيث تجنب الاصطدام مع العباسيين فأعلن تبرأه من الخطابية وأنصارهم من الغلاة حتى لا يتعرض لسخط الرأى العام ، وكان يعمل فى الخفاء ويمهد السبيل لأبنائه للوصول إلى الخلافة ، وقد حقق كثيراً من التقدم بانضمام فلول الحنفية (أتباع محمد بن الحنفية) ، والحسنيين (أتباع الحسن بن علي) ، ومن ثم اتحد الجميع فى شخص جعفر ثم انقسموا من بعده إلى الإسماعيلية والإثنى عشرية .

لما توفى جعفر الصادق سنة ١٤٨هـ/ ٧٦٥م، انقسم الإمامية (أتباعه) إلى فريقين : فريق نادى بأحقية إسماعيل بن جعفر وهم الإسماعيلية أو السبعية (إسماعيل هو الإمام السابع)، وقد توفى إسماعيل فى حياة أبيه ودفن بالبقيع ١٤٥هـ/٧٦٢م . وفريق نادى بأحقية موسى الكاظم (الابن الأصغر لجعفر الصادق) وأبنائه من بعده حتى الإمام محمد الثانى عشر الذى اختفى بسرداب فى مدينة سامراء سنة ٢٦٠هـ/٨٧٣م ولا يزال أنصاره ينتظرون عودته (ولذلك سمى الإمام المنتظر) وعرفوا بالموسوية والإثنى عشرية .

لم تتكون فرقة الإسماعيلية فى الواقع إلا فى عهد محمد بن إسماعيل وأبنائه من بعده[١]، ويعتقد بعض الإسماعيلية فى إباحة شرب الخمر وارتكاب المحظورات على الأئمة وأنه لا جناح عليهم ، وأن تكاليف الشريعة إنما جعلت للعامة وحدهم [٢].

اتبع بعض الأئمة العلويين سياسة جديدة أيام إسماعيل تختلف عن تلك التى سار عليها على بن أبى طالب مع ابن سبأ ، ومحمد بن الحنفية مع المختار بن أبى عبيد الثقفى ، وجعفر الصادق مع أبى الخطاب وتتجلى هذه السياسة فى استغلال الفرص الملائمة لمصلحة الدعوة العلوية فسياستهم كانت تقوم على المنفعة وحدها ، يتجلى ذلك فى النزاع الذى قام بين الإسماعيلية والاثنى عشرية على الإمامة ، فادعى الإسماعيلية أن إسماعيل لم يمت فى حياة أبيه ، إنما اشهد على موت إسماعيل لابعاد خطر العباسيين ، ويؤكدون أنه توفى بالبصرة ١٥١هـ/ ٧٦٨م بعد أبيه ويعتقدون أن ذلك نوع من الغيبة التى اشتهر بها الشيعة ويقولون : « غيب شخصه فى حياة أبيه سراً من أعدائه ومحنة لأوليائه » [٣]. وهكذا لم يعترف الإسماعيلية للموسوية بأحقيتهم فى الإمامة ، ومن ناحية أخرى يؤكدون على نظرية الاستقرار والاستيداع للتوكيد على إمامة إسماعيل فيقولون : إن موسى

---

(١) De Sacy : Recherches sur L'imilation à La Sécle Ismaelienne (J. A. R. S) 1824, P. 302 .

(٢) Bernard Lewis : The Origins of Ismailism, Cambridge . 1940, P. 42.

(٣) النيسابورى : إستتار الإمام ، تحقيق ايفا نوف ، مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، مجلد ٤ جـ٢ مايو ١٩٣٦ ، ص ٤٦ .

وأبنائه لأنهم أئمة استقرار شأنه فى ذلك شأن الحسن مع الحسين وأبنائه ، وإن إسماعيل سأل أباه أن يعين وصيا لابنه محمد بن إسماعيل ، فعين جعفر ابنه موسى الكاظم وصيا على حفيد محمد ليكون سترا له[1]، إعمالاً لقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[2]، وقالوا إن موسى ادعى الإمامة لنفسه تقية منه على الإمام محمد ابن إسماعيل، ولو ملك الأمر لرده إلى أهله وأحله محله.

الخلاصة أن جعفر الصادق عهد إلى إسماعيل بالإمامة من بعده ، لكنه غير هذا التعيين الأول ومنحه ابنه الأصغر موسى الكاظم ، لوفاة إسماعيل فى حياة أبيه (أو لاتهامه بشرب الخمر) لكى يبعد الشك عن طائفته أو زيادة فى الخفاء حتى يستطيع الإمام المستقر الحقيقى وهو إسماعيل الاضطلاع بمسئولية النهوض بأعباء الدعوة سرا (الثابت أن إسماعيل توفى فى حياة أبيه ١٤٥هـ/٧٦٢م) .

من ناحية أخرى ظهرت جماعة شيعية أطلقت على نفسها (الأفطحية) أتباع عبد الله بن جعفر الصادق المعروف بالأفطح الزخرى أرادت بانتسابها إليه والتشيع لآل البيت تحقيق منافع ومكاسب مادية وسياسية ، ولكنها ضعفت واختفت لموت عبد الله فى حياة أبيه دون أن يخلف من ورائه ولدا.

أما المحمدية أتباع محمد بن جعفر الصادق ، فقالوا بإمامته وتشيعوا

---

(1) Defrémery : Essai sur l'Histoire des Ismaéliéns, Cambridge - 1940 , P.12 .

(٢) سورة الزخرف : آية ٢٨ .

لذلك ، لكن الإسماعيلية لا تعترف له بالإمامة لعدة اعتبارات لعل من أهمها أن جعفرا لم ينص على ذلك ، ولأنه حارب العباسيين فى الشهر الحرام وفى البلد الحرام ، ولأنه وأتباعه لم يتخذوا لأنفسهم دار هجرة يعتصمون بها ويهاجرون إليها حتى يفتحونها فيما بعد ، وفضلا عن ذلك لأنه أقر اعترافه بخطأ ما ذهب إليه من الشهادة على نفسه بالضلال .

كان إسماعيل بن جعفر الصادق قد حرص على تولية ابنه محمد الإمامة ونص على ذلك فى حياة الجد جعفر الصادق قبل وفاة إسماعيل سنة ١٤٥هـ/٧٦٢م، وكان جعفر قد تولى الحفيد محمد بالرعاية الفائقة حيث عهد إلى ميمون القداح وكان من أخلص الدعاة برعاية محمد بن إسماعيل فى طفولته ، فلما شب عن الطوق عين موسى الكاظم (العم) ستيرا على محمد ، لكن موسى استبد بالأمر دون محمد بعد موت جعفر الصادق ، وقد واجه محمد هذا الاستبداد بالدعوة لنفسه وهو بالحجاز وخاصة بعد وفاة جده، وأمر أنصاره بالإمعان فى التخفى باستخدام مبدأ التقية المشهور عند الشيعة ، لكن دعوته لم تستمر طويلاً بالحجاز بعد أن اكتشف أمرها رجال الرشيد ، فقرر الرحيل وقصد فرغانة ، ثم استقر فى نيسابور وتزوج هناك وأنجب ابنه عبد الله الرضى الذى عهد إليه بالإمامة من بعده[١] .

ويرى فريق آخر من المؤرخين أن محمد بن إسماعيل كان قد فر هارباً من المدينة إلى ديماوند بالقرب من الرى ، واستقر هناك بقرية سملا ، التى عرفت فيما بعد « محمد أباد » نسبة إليه[٢]، وقد أراد محمد بذلك أن يجعل منها مركزاً لنشر دعوته فى أرجاء العالم الإسلامى ، وكان محمد

(1) Ivanow : The Rise of Fatimids , Calcutta, 1924, P. 30 .

(٢) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ترجمة فؤاد عبد المعطى الصياد وآخرين ، القاهرة ١٩٧٠، ص ٢٢٢ .

يعرف بالإمام محمد قبل فراره وأصبح يطلق عليه فيما بعد « الإمام المكتوم أو المستور » ، وهو الإمام الناطق السابع ، وأول من جمع بين درجتى النطق والإمامة ، ورفع عن أتباعه التكاليف الظاهرية للشريعة بمناداته بالتأويل ، واهتمامه بالمعنى الباطن ، وكان محمد يعتمد فى نشر دعوته على صحبة ميمون القداح الذى يعتقد الإسماعيلية أنه من نسل سلمان الفارسى .

ولى عبد الله بن محمد الملقب بالرضى الإمامة بعد أبيه محمد واتخذ من عبد الله بن ميمون القداح حجة له وحجاباً وذلك إمعاناً فى التخفى فكان حجته وحجابه ستراً له كظلمة الليل الشديد[١] ، تتجلى أهمية حجته فى أخذ العهد من المستجيبين لدعوته ، فكان يأخذ منهم السمع والطاعة لولى العصر دون ذكر اسمه ، وفى عهده بلغ استتار الائمة غايته واتقاءً لشر ولاة الدولة العباسية اتجه إلى بلاد خوزستان ، وتزوج فى نهاوند واستقر بالأهواز، ولم يستقر فى مكان واحد بل قصد مازندران (طبرستان) ، ثم عاد إلى الأهواز ، ويعرف الإمام عبد الله الرضى عند الإسماعيلية بالإمام عبد الأكبر ، وهو أول الأئمة المستورين الذين استقروا بسلمية من أعمال حمص[٢].

لما توفى عبد الله بن محمد خلفه ابنه أحمد[٣] فى إمامة الإسماعيلية

---

(١) الداعى عماد الدين إدريس : زهر المعانى ، فى توحيد المبدع الحق ، تحقيق حسين الهمدانى ، الثقافة الإسلامية ، ١٩٣٧ ، ص ٥٩ .

(2) Ivanow : the Rise of the Fatimids P. 34 .

(٣) ذهب علماء الإسماعيلية إلى أن الإمام أحمد بن عبد الله هو مؤلف رسائل اخوان الصفا، وإلى أنه قد وضعها للمحافظة على الدين الصحيح ، بعد أن اتهموا المأمون بالإلحاد ، انظر ، حسن إبراهيم : عبيد الله المهدى ، بالاشتراك مع طه شرف ، القاهرة ١٩٤٧ ، ص ٤٣ .

بسلمية ، وظل معه عبد الله بن ميمون حجة له وحجابًا ، وازدهرت فى عهده سلمية حتى صارت المركز الرئيسى للدعوة الإسماعيلية ، فانتشر منها الدعاة فى الأقاليم المختلفة وقد تزوج أحمد فى سلمية وأنجب ابنه الحسين ، الذى ولى الإمامة بعد وفاة أبيه ، وكان يكنى المقتدى والزكى ، وكان حجته أحمد الحكيم بن عبد الله القداح ، وكان لقوة انتشار دعوته فى الآفاق أن اعتقد الإسماعيلية قرب ظهور المهدى ، وفى الوقت نفسه وجدت هذه الدعوة لها ميدانًا خصبًا فى كل من بلاد اليمن وبلاد المغرب وبلاد فارس وخراسان وحتى بين القرامطة على أيدى أبناء القداح وكبار دعاتهم[1] .

كان الإمام الحسين قد تفانى فى إظهار حبه للهاشميين إمعانًا فى التخفى ولاتقاء شر الولاة العباسيين ، وبخاصة أنه قد تقرب إلى طائفة من نسل عبد الله بن العباس بن عبد المطلب ، ودومًا كان يفخر أمام العامة بأنه عباسى .

كان أبو محمد عبيد الله المهدى حجة للإمام الحسين الذى كان مستودعًا لنقل الإمامة من الحسين إلى ولده أبى القاسم الذى ولى الخلافة بعد عبيد الله المهدى وتلقب بالقائم ، هكذا مهد الأئمة الحقيقيون السبيل للداعى عبيد الله المهدى لكى يلى هو نفسه الخلافة فى المغرب مع قيام الدولة الفاطمية .

استغل عبيد الله أحد المبادئ الهامة عند الإسماعيلية لتحقيق أغراضه وهو مبدأ يقوم على التبنى الروحانى ، وهذا المبدأ لا ينفى وجود بنوة

---

(1) Ivanow : A Guide to Ismaili Litterature, London, 1933, P. 30 .

جسمانية مثل بنوة المستعلى بن المستنصر ، وأن هناك بنوة روحانية جسمانية مثل بنوة الحسين بن على بن أبى طالب ، وعلى ذلك قال الإسماعيلية ببنوة أبناء القداح من الناحية الروحانية للأئمة المستورين ، وهم يعتقدون فى أن أبناء القداح يرجعون فى نسبهم إلى سلمان الفارسى الابن الروحانى لعلى بن أبى طالب ، فليس هناك ما يمنع بنوتهم بالتبعية من الناحية الروحانية للأئمة الإسماعيلية أحفاد على بن أبى طالب ، وقد أدعى ميمون أنه ابن روحانى للإمام محمد بن إسماعيل ، وأنه الوارث الحقيقى لمحمد فى إمامته ، والإسماعيلية لم يعارضوا ذلك ، إذن هم يعترفون بانتقال الإمامة من الأئمة الحقيقيين إلى الحجج .

جاء فى زهر المعانى : « استودع الإمام الحسين الإسماعيلى بعد سعيد الخير الإمامة ليردها إلى ابنه القائم وسعيد الخير هذا هو المهدى ، الحجاب الأعظم والباب الأشرف الأكرم ، حامل أمانة الله ووديعته ، ومسلمها إلى القائم بأمر الله »[١].

وعلى ذلك فالإمامة توكيداً يمكن أن تنتقل عند الشيعة من شخص إلى آخر بطريق التفويض سواء كان قريبًا من آل البيت أم غير ذلك ، فمن أئمة التفويض كان محمد بن الحنفية على ابن أخيه على زين العابدين بن الحسين ، وتطبيقًا لهذا المبدأ قامت الدولة العباسية عن طريق انتقال الإمامة من أبى هاشم بن محمد بن الحنفية إلى العباسيين ، فهم أئمة عن طريق التفويض .

---

(١) الداعي إدريس عماد الدين : زهر المعاني ، ص ٦٧ .

اختلف النسابون فى أصل عبيد الله الحجة فيرى فريق منهم[1] أنه من سلالة إسماعيل بن جعفر الصادق حيث يسمونه سعيد بن الحسين بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق الذى ينتهى نسبه بالحسين بن على ، وأمه فاطمة ، بينما يرى الفريق الآخر أنه من سلالة ميمون القداح وقد انتقلت إليه زعامة الدعوة الإسماعيلية سنة ٢٨٠هـ/٨٩٣م ، بعد وفاة أحمد بن عبد الله القداح ، وانتقلت إليه أيضاً الحجة حيث صار حجة الإمام المستور (الإمام العلوى الحسين بن أحمد) فى سلمية ، وقد أحاطه بكتمان شديد وستار كثيف من التخفى ، كما فعل من قبل أجداده وآباؤه مع الأئمة المستورين ، وهو نفسه الذى خلع ثوب الحجة وارتدى ثوب الإمام .

وعلى ذلك فعبيد الله وأسلافه أدعياء ، وأنهم إنما استتروا بالتشيع والإمامة ليحققوا مكاسب مادية وروحية ، ويرجع نسبهم إلى عبد الله بن ميمون القداح بن ديصان البرنى ، وهو فقيه وافر الذكاء من الأهواز يرجع إلى أصل مجوسى ، وهو من أعظم الدعاة السريين الذين عرفهم التاريخ ، وكان يدعو سرا إلى مذهب فلسفى إلحادى لإنكار الأديان والنبوة وجميع العقائد والشرائع (ومنها استمد القرامطة أصول دعوتهم وثورتهم الإباحية) ، وكان القداح يستتر بالتشيع ويدعو لإمام من آل البيت هو محمد بن

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ ٨ ص ٩ - ١٢
، ابن خلدون : المقدمة ، ص ١٧ - ١٩ .
، المقريزى : اتعاظ الحنفا فى أخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة ٢٠٠١ ، ص ١٢ - ١٨ .

إسماعيل بن جعفر الصادق من نسل الحسين بن على ، وقد خلف عبد الله ابن ميمون القداح فى الدعوة السرية ابنه أحمد ثم الحسين ثم أخوه سعيد ، وأقام سعيد بسلمية من أعمال حمص ، واستمر فى نشر الدعوة وبث الدعاة حتى استفحل أمره وحاول الخليفة المكتفى بالله القبض عليه ، لكنه فر إلى المغرب وبشر له هناك دعاته وقاتلوا معه حتى استولى على ملك الأغالبة وتلقب (عبيد الله المهدى) وادعى أنه من آل البيت وانتحل إمامتهم (١).

يرى فريق ثالث أن الحسين حفيد عبد الله بن ميمون هو الذى استقر بسلمية وتزوج من يهودية رائعة الجمال وكان لها ابن تبناه الحسين وعلمه وأدبه ولقنه أسرار الدعوة ، وزعم أنه هو الإمام وهو الوحى وانتحل له نسبا فى ولد على ، فكان هو عبيد الله المهدى .

أورد أبو المحاسن فى كتابه « النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة »(٢) آراء بعض النسابين والأخباريين على النحو التالى :ـ

قال القاضى عبد الجبار البصرى : « اسم جد الخلفاء المصريين سعيد، ويلقّب بالمهدى ، وكان أبوه يهوديا حدادا بسلمية ؛ ثم زعم سعيد هذا أنه ابن الحسين بن أحمد بن عبد الله بن ميمون القداح . وأهل الدعوة أبوالقاسم الأبيض العلوى وغيره يزعمون أن سعيدا إنما هو ابن إمرأة الحسين المذكور ، وأن الحسين رباه وعلمه أسرار الدعوة ، وزوجته بنت أبى الشلعلع،

---

(١) انظر ابن حجر : الإصابة فى تمييز الصحابة ، القاهرة ١٩٢٣ ، جـ١ ص ٢٤٢ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ، تحقيق إحسان عباس ، بيروت ١٩٧٢ ، جـ١ ص ١٩٣ . Dozy : Essai sur l'Islamisme, Paris - 1879, PP. 276 - 277 ،

(٢) انظر ، جـ٤ ص٧٥ ـ ٧٧ .

فجاءه ابن فسماه عبد الرحمن . فلما دخل المغرب وأخذ سجلماسة سمى بعبيد الله ثم تكنى بأبى محمد ، وسمى ابنه الحسن ، وزعمت المغاربة أنه يتيم رباه وليس بابنه ولا بابن زوجته ؛ وكناه أبا القاسم وجعله ولى عهده » .

وقال القاضى أبو بكر بن الباقلانى : « القدّاح جد عبيد الله كان مجوسيا ، ودخل عبيد الله المغرب وأدعى أنه علوى ولم يعرفه أحد من علماء النسب ، وكان باطنيًا خبيثًا حريصًا على إزالة ملّة الإسلام ؛ أعدم الفقه والعلم ليتمكن من إغراء الخلق ؛ وجاء أولاده أسلوبه وأباحوا الخمر والفروج وأشاعوا الرفض ، وبثوا دعاة فأفسدوا عقائد جبال الشام ، كالنصيرية[١] والدروزية [٢]. وكان القداح كاذبا مخترقا ، وهو أصل دعاة القرامطة » .

وقال ابن خلكان : « اختلف فى نسبهم ، فقال صاحب تاريخ القيروان : هو عبيد الله بن الحسن بن على بن محمد بن على بن موسى ابن جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم » . وقال غيره : هو عبيد الله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر المذكور فى قول صاحب تاريخ القيروان . وقيل : هو على بن الحسين بن أحمد بن عبد الله بن الحسن بن محمد بن على بن الحسين بن على بن

---

(١) النصيرية بالتصغير : طائفة من الزنادقة يقولون بألوهية على ، تعالى الله علوا كبيرا .

(٢) الدرزية : طائفة من الإسماعيلية ، وهى التى تقول باثبات الإمامة لإسماعيل بن جعفر الصادق لأنه ابنه الأكبر . حسن إبراهيم : عبيد الله المهدى ، ص ٨١ - ٨٢ .

أبى طالب رضى الله عنهم . وقيل : هو عبيد الله بن التقى بن الوفى بن الرضى ، وهؤلاء الثلاثة يقال لهم المستورون فى ذات الله . والرضى المذكور هو ابن محمد بن إسماعيل بن جعفر . واسم التقى الحسين . واسم الوفى أحمد . وسمى الرضى أيضًا عبيد الله . وإنما استتروا خوفا على أنفسهم لأنهم كانوا مطلوبين من جهة الخلفاء من بنى العباس ، لأنهم علموا أن فيهم من يروم الخلافة ، وإنما تسمى المهدى عبيد الله استتارا ، وقيل : هو عبيد الله بن الحسين بن على بن محمد بن على الرضى بن موسى الكاظم ابن جعفر الصادق . وقيل : هو على بن الحسين بن أحمد بن عبد الله بن الحسين بن محمد بن زين العابدين بن محمد بن الحسين ، وإنما سمى نفسه [عبيد الله] استتاراً ، وهذا على قول من يُصحح نسبهم . والذى ينكر نسبه يقول : اسمه سعيد ، ولقبه عبيد الله ، وزوج أمه الحسين بن أحمد القداح ، كان كحالاً يقدح العين إذا نزل فيها ماء .

ويختتم ابن خلكان قوله بما يلى : « وجاء المعز من إفريقية وكان يطعن فى نسبه . فلما قرب من البلد (يعنى مصر) وخرج الناس للقائه ، اجتمع به جماعة من الأشراف ؛ فقال له أحدهم وهو الشريف عبد الله بن طباطبا : إلى من ينتسب مولانا ؟ فقال له المعز : سنعقد مجلسا ونسرد عليكم نسبنا ، فلما استقر المعز بالقصر جمع الناس فى مجلس عام ، وجلس لهم وقال : هل بقى من رؤسائكم أحد ؟ فقالوا : لم يبق معتبر ، فسل عند ذلك سيفه وقال : هذا نسبى ! ونثر عليهم ذهبا كثيرا ، وقال : هذا حسبى ! فقالوا جميعا : سمعنا وأطعنا » . قلت : وفى نسب المعز أقوال كثيرة أخرى

أضربت عن ذكرها خوف الإطالة . والظاهر أنه ليس بشريف، وأنه مدع . والله أعلم » .

ترجع أهمية دراسة نسب الفاطميين على النحو السابق إلى إثبات حقيقة هامة ، هى أن عبيد الله المهدى لم يكن ابن الإمام المستور الحسين ابن أحمد كما لم يكن الخليفة القائم بأمر الله ابن المهدى ، وإنما كان ابن الإمام المستور الحسين بن أحمد ، وأن المهدى حمل الوديعة من الإمام الحسين بن أحمد وردها عند وفاته إلى ابنه القائم ، مما يجعل الإمام عبيدالله المهدى أول خليفة فاطمى بالتفويض أى الابن الروحانى ، وأن الخليفة القائم بأمر الله هو أول خليفة فاطمى روحانى جسمانى من سلالة على بن أبى طالب وفاطمة الزهراء الأصليين ، فالذين أنكروا نسب الفاطميين إلى على وفاطمة يعتبرون على حق إن قصدوا أول أئمتهم عبيد الله المهدي، ويكون الصواب قد جانبهم إن قالوا بأن كل الفاطميين كانوا من سلالة القداح ، ذلك أن المهدى لما حضرته الوفاة سلم الوديعة (الإمامة) إلى مستقرها ، فتسلمها محمد أبو القاسم (القائم بأمر الله) وجرت الإمامة فى عقبه [١]، ويؤكد ذلك ما جاء عند الدروز وهم فرع من فروع الإسماعيلية من أن المهدى من فرع غير ما ينتمى إليه الخليفة القائم ، فيجعلون المهدى فى رتبة الرسل ، والقائم وآبائه فى رتبة الآلهة .

وضع الإسماعيلية أسرار الدعوة الفاطمية ومعتقداتها فى إطار محكم

---

(١) النيسابورى : استتار الإمام ، ص ٩٧ .

متدرج المراتب تضم كل مرتبة منها طائفة من أتباع الدعوة الشيعية ، ويظل المدعو يرتقى فى سلم الدعوة إلى أن يبلغ الرتبة الرابعة[١] ، التى يسمح له من خلالها بالقسم على المبادئ والعقائد الأصلية التى لا يدركها إلاّ الأئمة أو أصحاب الزمان ، وهم الذين كانوا يمثلون عند أتباعهم كنوز المعارف وأصحاب العلم الصحيح وأنهم وحدهم أصحاب الصراط المستقيم ، فإذا ما بلغ المدعو الرتبة التاسعة يلقن الدعوات التسع[٢]، وهى منزلة رفيعة لا يبلغها إلاّ القلة من السادة المقربين ، فالمبادئ الدينية العامة أو الأدبية كانت تلقن للعامة[٣]، بينما اختص المستنيرون من أصحاب الرتب العليا بالأسرار والتى عرفت بالودائع فكان يقال لداعى الدعاة[٤] : « ولا تلق الوديعة إلا لحفاظ

---

(١) يمتاز أصحاب الرتبة الرابعة باطلاعهم على أسرار الدعوة السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، فمن مبادئهم الاقتصادية المساواة بين الذكر والأنثى ، وفرض ضرائب تصاعدية على كافة مستويات طبقات المجتمع لتقليل الفوارق بين الناس وحتى يضمن دافع الضرائب دخول الجنة (على غرار صكوك الغفران) فمنها ضريبة البلغة وقيمتها سبعة دنانير عن كل فرد لضمان دخول الجنة ، والخمس لما يملك الرجل وتغزله المرأة ، والنجوى فى ثلاثة وثلث درهم ، والهجرة دينار على الفرد ، وضريبة الفطرة درهم عن كل مولود . انظر النويرى : نهاية الأرب جـ٢٣ ص٦٥ - ٦٦ ، المقريزى : خطط جـ١ ص٣٩٣ .

(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ١ ص ٣٩١ - ٣٩٧ .

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٣٨، جـ١ ص٤٣٤ .

(٤) يقول البغدادى عن الدعاة : « أنهم كانوا يشككون الناس فى الكتب المنزلة فى القرآن والتوراة والزبور والأنجيل ، وينكرون الرسل والشرائع ويقولون بأن البعث مهزلة ، وإن كل من اتبع الشرائع المنزلة وأحكامها على ظواهرها فليس إلا كافر أو حمار ، فمنهم ملحدون لا يؤمنون بشيء ، إباحيون يستحلون المحرمات ، ويرتكبون أكبر الجرائم ، يبيحون لأتباعهم نكاح البنات والأخوات وشرب الخمر وجميع الملذات » .

انظر البغدادى : الفرق بين الفرق ص ص ٢٧٠ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ .

الودائع ، وهن أسرار الحكم ولا تبذلها إلا لمستحقيها ، ولا تكشف للمستضعفين ما يعجزون عن تحمله»[1].

وفى سبيل إنجاح مخطط دعاة الإسماعيلية فقد أسسوا خلايا سرية تعمل لنشر المبادئ العامة للمذهب فى أرجاء العالم الإسلامى ولا سيما التى يسيطر عليها العباسيون ، حتى ينتزعوا منهم السلطة وإعادتها إلى خلفاء على بن أبى طالب على اعتبار أن العباسيين قد اغتصبوا الخلافة ، ولترسيخ هذا المفهوم فى عقول الناس ، قالوا بانتظار ظهور المهدى وهو رجل مهدى من نسل على وفاطمة ، يسترد الملك ويسلمه إلى أصحابه ثم يقوم بتحرير أقاليم العالم الإسلامى تحت رايته ليملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت جورا وظلما ، واستمدوا أفكارهم عن الرجعة من ابن سبأ[2]، وقالوا أن محمد بن إسماعيل هو المهدى المنتظر ، وتدعيما لأفكارهم وضعوا الأحاديث كذبا على النبى ﷺ ، فادعوا قوله : « من كذب بالمهدى فقد كفر » ، وأشاعوا أن هذا المهدى قد ظهر بالفعل فى القيروان ، وعلى ذلك فلا طاعة بعد ذلك لبنى العباس خاصة أن هذا المهدى إمام معصوم قد تجسدت فيه صفات

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ١٠ ص٤٣٤ .

(٢) كان ابن سبأ يهوديا من أهل صنعاء فأسلم فى الظاهر سنة ٣٠هـ/٦٤٩م فى خلافة عثمان بن عفان ، واتخذ من أسلوب التشكيك فى العقائد وسيلة لبث السموم فى أفكار الأتباع من العامة الجهال ، ومنها رجعة الإمام على بن أبى طالب ، فقال « لو أتيتمونا بدماغه سبعين مرة ما صدقنا موته ، ولا يمكن أن يكون لكنه رفع وسيرجع ليملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا ».
الشهرستانى : الملل والنحل جـ١ ص١٩٦
، أحمد أمين : ظهر الإسلام ، مكتبة النهضة المصرية ، ط٧ ، القاهرة ١٩٩٩ ، ص١٩٠ .

الله سبحانه وتعالى طبقا للقول بالحلول ، وهو حلول الإله فى أجساد البشر التى ما تزال نزارية الهند يعتقدونها حتى الوقت الحاضر ، وكان مبدأ الرجعة قد وجد هوى فى نفوس الخلفاء الفاطميين لتحقيق مآربهم السياسية فى شهوة السلطة والحكم ، ولتحقيق المزيد من التقديس والمهابة فى قلوب أتباعهم ، ومن ذلك أن الخليفة المعز لدين الله أخذ بمشورة المنجمين ، فادعى الغيب وتوارى عن الناس لمدة سنة بعد أن أوصى بطاعة ولى عهده واختفى فى سرداب اتخذه لإقامته مدعيا أنه رفع إلى السماء ، وتأثر الناس بما حدث، فكان الفارس إذا رأى غماما فى السماء ترجل وقال : « السلام عليك يا أمير المؤمنين » ، واستمر الحال على ذلك حتى ظهر المعز لدين الله وجلس على سرير الخلافة، مما ألقى الرعب والروع فى قلوب الخاصة والعامة على السواء ودخلوا عليه فاخبرهم بما جرى لهم أثناء غيبته وذلك بلا شك من خلال ما نقله له خاصته من أخبار الرعية [١].

كما يتجلى هذا المبدأ فى ادعاء الحاكم بأمر الله الألوهية بعد أن اطمأن لاعتقاد أتباعه أن الروح الإلهية قد حلت فيه ، وخاطبه الجاهلون : يا واحد يا أحد ، يا محيى يا مميت ،وسجدوا له وقبلوا الأرض بين يديه ، وكتب السنيون بطاقات للحاكم بأمر الله وغيره وضعوها على منابر المساجد[٢] :-

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٥٩ ، جـ٤ ص٧١

، أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، دار المعرفة ، بيروت ، د. ت ، جـ٢ ص١١٥ .

(٢) أبو المحاسن : المصدر نفسه جـ٤ ص١١٦

، ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، تحقيق محمد مصطفى ، فيسبادن ١٩٦١ ، جـ١ ص ٥٦ .

بالظلم والجـور قـد رضينـا ∴ وليـس بالكفـر والحماقـة

إن كنت أوتيت علـم غيـب ∴ فبيـن لنا كاتـب البطاقـة

كان التأويل من المبادئ الأساسية عند الإسماعيلية التى استخدموها لتنفيذ أغراضهم السياسية والاجتماعية للسيطرة على الحكم والناس ، وهم يرون أن للقرآن باطنا غير ظاهره ، وأن الباطن هو الجوهر ، بينما الظاهر هو القشور ، وأن التفسير الحق هو تأويل آيات الشرائع وأحكامها تأويلا باطنيا وجعلوا مفاتيح التفسير لآيات القرآن فى يد الأئمة لأنهم المستودع الحقيقى للتأويل ، ومن أمثلة التأويل التى أوردها الغزالى [1]، قولهم أن إبليس وآدم المذكورين فى القرآن إنما هما أبو بكر وعلى ، إذ أمر أبو بكر بالسجود لعلى ابن أبى طالب والطاعة له فأبى واستكبر ، وأن الشجرة الملعونة فى القرآن هم بنو أمية ، فاستخدموا التأويل لجذب المريدين وإحاطة أنفسهم بهالة من التقديس لإلقاء الرعب فى نفوس الأتباع وتحقيق مآربهم السياسية والدينية التى تتمثل فى الجمع بين الخلافة التى تمثل السلطة الزمنية ، والإمامة التى تمثل السلطة الدينية [2]، غير أن الخطر الذى تعرض له الإسماعيلية فى سلمية من قبل العباسيين جعلهم يتخذون الإجراءات اللازمة لحماية الإمامة من الضياع فعهد الإمام الحسين بن أحمد بها إلى صحبه سعيد الخير حتى انتقل مركز الإسماعيلية من سلمية إلى بلاد المغرب .

---

(١) الغزالى : فضائح الباطنية ، مؤسسة دار الكتب ، الكويت ١٩٦٤ ، ص ١٣ .

(٢) الريس : النظريات السياسية الإسلامية ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٧ ، ط٤ ، ص٩٥ .

الفصل الأول

قيام الخلافة الفاطمية فى بلاد المغرب

الفصل الأول

قيام الخلافة الفاطمية فى بلاد المغرب[1]

ظلت سلمية موطنا للأئمة الشيعة المستورين ، ومركزاً رئيسيًا لدعوتهم إلى أرجاء العالم الإسلامى وذلك حتى اكتشاف العباسيين لخطرها على دولتهم، وبخاصة فى عهد المعتضد بالله العباسى فقرر عبيد الله المهدى هجرتها إلى بلاد المغرب بعد أن أيقن استحالة بقائه فى سلمية .

كان الداعية الشيعى الكبير ابن حوشب[2] قد استقر باليمن وحقق فيها أهداف الدعوة الشيعية ومن هناك وجه اثنين من أكفأ الدعاة المفوهين هما أبا سفيان والحلوانى إلى إفريقية التى كان يحكمها الأغالبة بزعامة إبراهيم ابن أحمد الأغلبى (٢٦١ - ٢٨٩هـ/ ٨٧٤ - ٩٠١م)[3]، وسارا إلى

---

(١) بلاد المغرب : كانت تشتمل بلاد المغرب على دولة الأغالبة فى إفريقية (تونس) ، ودولة الأدارسة التى أقامها الإمام إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب فى المغرب الأقصى سنة ١٧٢هـ/٧٨٨م ، وإمارة بنى مدرار فى سجلماسة ، وإمارة بنى رستم فى تاهرت بالمغرب الأوسط . راجع زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة ، ترجمة زكى محمد حسن وآخرون ، بيروت ١٩٨٠ ، جـ١ ص١٠٠ - ١٠٢ .

(٢) ابن حوشب : هو أبو القاسم رستم بن الحسين بن فرج بن حوشب الكوفى، اتخذ من جبل لاعة جنوبى صنعاء مقرا لنشر الدعوة الشيعية فى أرجاء اليمن ، وبعد أن لقيت دعوته قبولا كبيرا زحف على صنعاء وأخرج منها بنى يعفر ، وبعد التغلب على كثير من أرجاء اليمن ، بعث الدعاة إلى اليمامة والبحرين والسند والهند ومصر والمغرب ، وكان من بين أولئك الدعاة أبو عبد الله الشيعى الذى مكث عدة سنوات باليمن وتلقى أصول الدعوة الشيعية ومبادئها على يد ابن حوشب بناء على رغبة الإمام الحسين بن أحمد . جمال سرور : النفوذ الفاطمى فى جزيرة العرب ، دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٦٤، ص٦٢ - ٦٣ .

(٣) قامت دولة الأغالبة فى إفريقية (تونس) على يد إبراهيم بن الأغلب سنة ١٨٤هـ/٨٠٠م، وظلت قائمة حتى استولى عليها الفاطميون سنة ٢٩٦هـ/٩٠٩م . اليعقوبى : كتاب البلدان ، تحقيق دى غوبه ، ليدن ١٨٩١ ، ص٣٥٩ .

هناك يحملان وصية الإمام الحسين بن أحمد (الزكى) الذى قال لهما : «واذهبا فالمغرب أرض بور ، فاحرثاها حتى يجئ صاحب البذر»[١]، فنزل أحدهما بسوق جمار والآخر ببلدة مراغة ، وكلتاهما من أرض كتامة، فانتشرت هذه الدعوة فى تلك النواحى .

لما علم ابن حوشب بنبأ وفاة أبى سفيان والحلوانى بالمغرب ، عهد إلى أبى عبد الله الشيعى القيام بالدعوة للمذهب الشيعي، وقال له : « إن أرض كتامة من بلاد المغرب قد حرثها الحلوانى وأبو سفيان ، وقد ماتا وليس لها غيرك ، فبادر فإنها موطأه ممهدة لك »[٢].

غادر أبو عبد الله اليمن قاصدا مكة ، فوصلها فى موسم الحج سنة ٢٧٨هـ/ ٨٩١م ، وهناك اجتمع بحجاج كتامة واشترك معهم فى الحديث عن آل البيت وفضائلهم فتعلقوا به لما شهدوه من ورعه وزهده ، وطلبوا منه أن يصحبهم إلى بلادهم لأنهم أعرف بحقه عليهم ، وما زالوا به حتى أجابهم إلى المسير بصحبتهم[٣]، فوصل المغرب أوائل سنة ٢٨٠هـ/ ٨٩٣م ، وقد حقق أبو عبد الله الشيعى نجاحا باهرا مما جعل البربر يتوافدون إليه من جميع القبائل، فترأس أبو عبد الله هذا المجتمع الشيعى الناشئ واستطاع أن يحول أتباعه إلى جيش قوى متفانى من أجل نصرة الأئمة الشيعيين ، والنضال ضد الولاة العباسيين والعمل على إعادة الحق ونقل السلطة والسيادة لأصحابها من آل البيت .

---

(١) ابن خلدون : العبر جـ٤ ص٣١ .

(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ١ ص٥٥ .

(٣) المقريزى : المصدر نفسه جـ١ ص٥٦ .

استغل الدعاة الوضع المتردى فى افريقية من جراء حرص الأغالبة على جمع الأموال والبطش بخواصهم وأصحابهم ، فضلا عن ابتزاز الناس والتنكيل بهم ، فلما أرسل العامة بشكاياتهم إلى الخليفة العباسى من أميرهم إبراهيم الثانى بن أحمد بن الأغلب ، عزله وولى ابنه أبا العباس سنة ٢٩١هـ/ ٩٠٣م[١]، لكنه قتل ، فلما ولى ابنه زيادة الله بن أبى العباس الإمارة فى العام نفسه ازداد الأمر سوءا بسبب ازدياد البطش والجشع فى جمع الأموال من الناس بحجة إحتياجه لتكوين جيش قوى لمواجهة أعدائه ، مما شجع كثيرا من الناس على الهجرة والانضمام إلى أبى عبد الله الشيعى ، وخاصة مع قيام الحرب الأهلية بين الأغالبة أنفسهم ، بعد أن أساء زيادة الله السيرة فى حاشيته وأهله ، ولم يسلم أخواته وأبناء عمومته من بطشه ، فاعمل فيهم القتل والتنكيل حتى ينفرد بالسلطة والنفوذ ، وأهمل حقوق شعبه وأطلق أيدى الجباة على معايش الناس، وعكف هو على الشراب والملذات ، فاستاء الناس وباتوا ينتظرون يوم الخلاص ، وتطلعوا إلى الإمام الوعد الحق الذى يدعو إلى المطالبة بوحدة البشر فى خلافة إسلامية واحدة والقضاء على الجور والإجحاف الذى دمر حياة البشر ، وإقامة العدل والمساواة فوق الأرض ، وهى دعوة كان لها أبلغ الأثر فى انتشار الدعوة الشيعية بين البربر ونجاح الدعاة فى استئثار قلوبهم لصالح الإمام الشيعى [٢].

ومهما يكن من أمر فقد اصطحب المهدى فى هجرته ولى العهد أبا القاسم الإمام المستقر وفيروز باب الأبواب (داعى الدعاة) ، وجعفراً

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ، تحقيق كولان وبروفنسال ، ليدن ١٩٤٨، جـ١ ص ١١١.

(٢) ابن خلدون : العبر جـ٦ ص١٢١ .

الحاجب[1] ، اتجه الجميع إلى حمص ومنها إلى طرابلس الشام ، ثم دمشق وطبرية فالرملة التى وصلوها فى رجب ٢٨٩هـ/٩٠٢م ، ومكثوا فيها سنتان ، وذلك لأن والى الدولة من قبل الطولونيين كان إسماعيليا فتستر على المهدى وصحبه ، يتجلى ذلك من أنه رحب بالمهدى أيما ترحيب ورفعه فوق رأسه وقبّل يديه ورجليه ، وقام فى الوقت نفسه بتضليل العباسيين وتكتم وجود المهدى فى مدينته ، فلما صدر له الأمر من العباسيين بالقبض عليه وتسليمه بكى بكاء شديداً فهدأ المهدى روعته قائلاً : «طب نفسا وقر عينا ، فوالذى نفسى بيده لا وصلوا إلى أبداً ، ولنملكن أنا وولدى نواحى بنى العباس ، ولتدوس خيولى بطونهم ، فلا تخشى علىّ شيئًا مما ترى»[2] ، واكب خروج المهدى من الرملة بفلسطين انتصار محمد بن سليمان الكاتب العباسى على القرامطة بزعامة الحسين بن زكروية المهزول ، الأمر الذى تأكد معه مدى خطورة البقاء فى بلاد الشام ، فاتجه صوب مصر التى وجد فيها من الأنصار المخلصين الذين ساعدوه على التستر فى زى التجار ، فلما أيقن العباسيون بوجود المهدى ، أمروا والى مصر محمد بن سليمان الكاتب بالقبض عليه ، فأخبر بذلك المهدى الذى خرج منها بعد أن علم بأن العباسيين قد رصدوا عشرة آلاف دينار لمن يرشد عنه ، فاتجهت أنظاره إلى بلاد المغرب ، بخاصة بعد النجاح الكبير الذى أصابه هناك[3] .

لما وصل عبيد الله المهدى إلى طرابلس أرسل إلى داعيه أبى عبد الله

---

(١) النيسابورى : استتار الإمام ، ص ٩٧

(٢) النيسابورى : المصدر نفسه ، ص ٩٨ .

(٣) حسن إبراهيم : الفاطميون فى مصر ، ص ٧٨ .

الشيعى يبشره بقرب ظهوره ، وأنفذ الرسالة مع أخيه أبى عبد الله المكنى بأبى العباس وجماعة من الكتاميين ، إلا أنهم وهم فى طريقهم إلى هناك تم القبض عليهم من زيادة الله الأغلبى فى القيروان، وأرسل فى الوقت نفسه إلى والى طرابلس يأمره بالقبض على المهدى أو التاجر ، لكن المهدى استطاع برشوة هذا الوالى أن يجعله يضلل الأغلبى ويخبره بأن التاجر قد أفلت منه .

غادر عبيد الله طرابلس متجهًا إلى سجلماسة ، فنزل قسطيلية من أعمال تونس ، ومن هناك اتجه إلى توزر ومنها ركب القافلة إلى سجلماسة ووصلها وأقام بها [(١)]، وقد استقبل هناك استقبالاً رائعًا وبخاصة أن دعاته كانوا قد أشاعوا هناك عن قرب ظهور المهدى ، وكان الناس ينتظرون وصوله ويتمنون أن يظهر فى بلادهم ، فلما وصل إلى هناك أقام فى سجلماسة .

ظل المهدى يعيش فى سجلماسة فى كنف واليها اليسع بن مدرار ، إلى أن وصلت الأخبار عن انتصار أبى عبد الله الشيعى على الأغالبه وإزالة دولتهم سنة ٢٩٦هـ/٩٠٩م ، وتجهيزه الجيوش لفتح سجلماسة ، فتبدلت معاملة اليسع للمهدى وأعوانه ، وتتبعهم فى كل مكان وقام بتعذيبهم ، إلاّ أن ذلك لم يمنع دخول أبى عبد الله الشيعى سجلماسة وجلوس عبيد الله المهدى على سرير فخم نصب له هناك فى ميدان كبير بالمدينة ، واتخذ من مولاه جعفر حاجبا له ، وعن يمينه ولى العهد القائم وحولهما الأصحاب والأتباع ، ونادى أبو عبد الله الشيعى فى الناس فاجتمعوا فى الميدان فقال لهم : « هذا هو مولاكم » . أما الوالى اليسع فقد تم القبض عليه وضرب

---

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ٨ ص ٢٤ .

بالسياط ، وصار عبدا للقائم ، بينما قتل كثير من أتباعه .

لما استتب الأمر للمهدى بسجلماسة ، سار شرقًا نحو كتامة ومنها إلى فج الاخيار التى كان أبو عبد الله الشيعى قد أودعها الأموال الضخمة ، فاستولى عليها ، وكان أبو عبد الله الشيعى قد دخل رقادة وحذف اسم الخليفة العباسى من الخطبة وبات ينتظر وصول عبيد الله ، الذى غادر فج الأخيار وسار إلى إفريقية حتى وصل رقادة ، فنزل بأحد قصورها واتخذها حاضرة له فى ربيع الآخر سنة ٢٩٧هـ / يناير ٩١٠م ، وتلقب رسميا بالمهدى أمير المؤمنين ، وصار بذلك أول خليفة للدولة الفاطمية الناشئة .

هكذا قامت الدولة الفاطمية بشمال إفريقية بعد نجاح دعاة الإسماعيلية فى نشر العقيدة الشيعية بتلك الأنحاء النائية عن حاضرة الخلافة العباسية، والتى ساعد على نجاحها جهل البربر وكراهتهم لولاتهم الذين أثقلوا كاهلهم بالضرائب . أما عبيد الله المهدى فبعد أن تسلم زمام الأمور تسرب الشك إلى نفسه فأمر بقتل أبى عبد الله الشيعى وأخيه أبى العباس فى جمادى الآخرة سنة ٢٩٨هـ/٩١١م، وروى المقريزى أن عروبة بن يوسف لما أجهز على أبى عبد الله الشيعى لقتله ، قال له : لا تفعل ، فرد عليه : الذى أمرتنا بطاعته أمر بقتلك ثم أجهز عليه » ، هكذا تم قتله كما قتل أبوجعفر المنصور أبا مسلم الخراسانى الذى قامت على أكتافه الدولة العباسية [١] .

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ١ ص٦٨ .

، ابن خلدون : العبر جـ٤ ص ٣٦ ـ ٣٧ .

O'Leary , A Short Hist. of the Fatimid Khalifate, London, 1933, P. 72.

قامت الثورات ببلاد المغرب ضد الحكم الفاطمى وبخاصة فى سجلماسة وتاهرت لأن أهلها كانوا يعتنقون المذهب الخارجى ، فثار أهل سجلماسة على الوالى الشيعى وقتلوه وكثير من أتباعه الكتاميين [١]، فلما علم بذلك الخليفة الفاطمى أنفذ إليهم جيشا بقيادة مصالة بن حبوس الذى استطاع إعادتها إلى حظيرة الدولة الفاطمية[٢] أما تاهرت فرفضت الحكم الفاطمى وحارب أهلها الوالى أيضا واضطروه إلى الفرار ، وقتلوا نحو ألف فارس من أصحابه ، فأرسل إليهم المهدى جيشا بقيادة موسى بن محمد الكتامى لكنه هزم ، فأنفذ إليهم جيشا آخر كان جل جنده من الكتاميين بقيادة ابنه أبى القاسم ، وتمكن هذا الجيش من القضاء على الثوار والاستيلاء على قلاع الإباضية والصفرية فى نواحى تاهرت ، كما أخضع زناته وهوارة ولماية وكواية ، وانتهى إلى برقة وعاد إلى المهدية سنة ٣١٥هـ/٩٣٤م [٣].

لم يستتب الأمر للفاطميين فقد استمرت زناته تثير القلاقل ضد الحكم الفاطمى ، ولم يستطع الفاطميون القضاء على ثوراتهم ، مما اضطر الخليفة المنصور الفاطمى إلى اللجوء لتفريق وحدة هذه القبيلة التى كانت تتألف من فرعين كبيرين هما مغراوة وبنى يفرن وإثارة الحرب الأهلية فيما بينهما [٤]، وتمكن من استمالة مغراوة وأعطى زعماءها تفويضاً بحكم البلاد المسيطرين عليها ، الأمر الذى أدى إلى خلع بنى يفرن طاعة الفاطميين ، والخطبة

(١) ابن عذارى : البيان المغرب جـ١ ص١٥٤ .

(٢) السلاوى : تاريخ المغرب الاقصى ، الدار البيضاء ١٩٥٤ ، جـ١ ص ٥٦ .

(٣) ابن عذارى : المصدر نفسه جـ١ ص١٩٧ ـ ١٩٨ .

(٤) النويرى : نهاية الارب جـ٢٦ ص ٤٦ .

للخليفة الأندلسى الناصر على منابرهم ، فأرسل إليه الفاطميون جيشا بقيادة جوهر الصقلى فى عهد المعز لدين الله ، فانتصر عليهم ونودى باسم الخليفة الفاطمى على منابرها [١].

على الرغم من أن الكتاميين كانوا عدة الفاطميين فى إقامة دولتهم ببلادالمغرب إلاّ أن مقتل أبى عبد الله الشيعى على يد الخليفة المهدى سنة ٢٩٨هـ/٩١١م أثارهم لمكانته فى قلوبهم ، بعد أن عاش وسطهم وقام بنشر الدعوة الشيعية بينهم ، فعلت مكانته وكان موضع ثقة كثير من الكتاميين ، ولذلك اشتعلت فتنتهم وعاثوا فسادا فى طرابلس ، وأقاموا طفلا زعموا أنه المهدى وأنه يوحى إليه ، وأن أبا عبد الله الشيعى لم يمت وزحفوا إلى ميّله، واستولوا على عدة مدن ، إلاّ أن أبا القاسم محمد بن المهدى حاصر الثوار وقضى على حركتهم وقتل الطفل الذى أقاموه [٢].

تعرض النفوذ الفاطمى إلى القلاقل فى بعض مدن المغرب بسبب سوء معاملة الولاة الفاطميين لأهل تلك البلاد فمن بينها طرابلس والقيروان ، فقامت ثورة فى القيروان ضد الكتاميين بسبب اعتدائهم على حوانيت التجار هناك ، وجشعهم فى تحصيل الضرائب من أهلها ، فثار الناس وقتلوا ألف رجل من الجالية الكتامية التابعين للفاطميين ، وقد واجه الجيش الفاطمى بقيادة أبى القاسم بن المهدى كثيرا من الصعاب إلى أن استطاع القضاء على الثورة وإعادة القيروان إلى السيادة الفاطمية ، وطيف بكبراء الثورة وتم

---

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ جـ٨ ص٢١٥ .

(٢) ابن الأثير : المصدر نفسه جـ٨ ص٢١٩ .

قتلهم فى رقادة[١]، ومن ناحية أخرى تذمر أهل طرابلس على ولاتها بسبب بطشهم بالناس والاعتداء على حرماتهم ، وقاموا بطرد عاملها، وتقتيل كل من اعترض طريقهم ، ولم تستطع قوات الخلافة البرية أو البحرية القضاء على ثورتهم ، إلا بعد حصار المدينة وتضييق الخناق على أهلها حتى طلبوا الأمان من أبى القاسم بن المهدى ، فمنحهم الأمان بعد أن أخذ بعض وجوه أهلها كرهائن [٢].

على أن أخطر الثورات التى تعرض لها النفوذ الفاطمى فى بلاد المغرب كانت ثورة أبى يزيد مخلد بن كيداد[٣] من قبيلة زناته التى نقمت على الفاطميين لإيثارهم الكتاميين بالمناصب ، ولإنجاح حركته نادى بإقامة حكومة وطنية تتألف من البربر دون العرب والعمل على التخلص منهم ، فزحف إلى رقادة فى عهد القائم الفاطمى ، ثم تقدم للاستيلاء على مدن الشمال الإفريقى ، واستطاع أن يسيطر على كثير منها وتخريبها ، وقتل أتباع الفاطميين ودخل القيروان سنة ٣٣٢هـ / ٩٤٦م ودعا إلى القضاء

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب جـ١ ص١٦٩ .

(٢) البكرى : كتاب المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ، تحقيق دى سلان ، الجزائر ١٩٥٧ ، ص٢٧ ـ ٣٠ .

(٣) أبو يزيد بن مخلد بن كيداد : نشأ فى بلدة توزر ببلاد الجريد فى إمارة تونس وتعلم القرآن الكريم وخالط جماعة من الخوارج ، فمال إلى مذهبهم واعتنقه واتخذ من تاهرت مقرا لإقامته ، واهتم بنشر مذهب الخوارج بين أتباعه وصار يدعو الناس سنة ٣١٦هـ وأخذ البيعة من أصحابه سنة ٣٣١هـ على قتال الشيعة واستباحة الغنائم والسبى .
انظر ابن خلدون: العبر جـ٧ ص ١١ ـ ١٣ .
، المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ١ ص٧٥ .

على الدعـوة الشـيـعـيـة ، ثم اسـتـولى على رقـادة وباجـة ولم يـسـتـطع الفاطميون القضاء على الثورة إلاّ بإرسال ثلاثة جيوش فى نفس الوقت، فذهبت إحدى الفرق إلى رقادة والأخرى إلى القيروان ، والثالثة إلى باجة، وعلى الرغم من انتصار الفرقة الفاطمية بقيادة الفتى بشرى على الثائرين فى باجة إلاّ أن الكرة دارت على الفاطميين فى نهاية الأمر ، مما أدى إلى عودة الأمل لأبى يزيد الذى قويت شوكته ودانت له القبائل وأعلنت الوقوف بجانبه ، واستطاع أن يجمع نحو ألف من البربر زحف بهم إلى القيروان ، وقبائل الكتاميين المدافعين عنها وطاردهم حتى بلغ رقادة ، وفرض الحصار على جهتها الشرقية ، مما أرهب الوالى الفاطمى على المدينة وانتظر أن يأتيه المدد بقيادة الفتى ميسور ، إلاّ أن الأمر ازداد سوءا بوصول هذا الجيش إلى رقادة حيث تحول بنو كملان - الذين يمثلون القوة الضاربة للفرقة الفاطمية - إلى تأييد أبى يزيد ، وتحاملوا على القائد الفاطمى وقتلوه ، فلما وصلت الأنباء إلى المهدية، أمر الخليفة الفاطمى بحفر خندق ضخم حولها لتحصينها وأنفذ إلى زعماء كتامة وصنهاجة كتب تحثهم على المجئ إلى المهدية لنصرته ، فى هذه الأثناء زحف الثائرون بقيادة أبى يزيد نحو المهدية فلما وصلوها ضربوا حولها الحصار على بعد خمسة عشر ميلا من أسوارها، والتقى الثائرون مع المعسكر الفاطمى على بعد ستة أميال من المهدية، وحققوا انتصاراً كبيراً على الكتاميين المدافعين عنها ، وعاد أبو يزيد إلى معسكره لإعادة تنظيم قواته ، فقسمهم إلى فرقتين إحداهما تقاتل الجند الفاطمى المدافعين حول الخندق، والثانية اتجه بها إلى باب المدينة وخلال تنفيذه هذه الخطة وصلت جموع الصنهاجيين من الخلف ، وصارت قوات

أبى يزيد محاصرة من الناحيتين مما أضطر أبو يزيد إلى رفع الحصار عن المهدية ليعود أدراجه إلى معسكره سنة ٣٣٤هـ[١]، فلما رأى ذلك جنده تركوا تأييده واتجه كثير منهم إلى المهدية لإعلان التوبة على يد الخليفة الفاطمى والقتال فى صفوف جنده ، واضطر هو للعودة إلى القيروان حيث لم يبق معه سوى ثلاثين رجلا ، وزحف الجيش الفاطمى على المدن والقرى التى كانت فى حوزته حيث تم الاستيلاء عليها وقويت بذلك شوكة الفاطميين، إلاّ أن أبا يزيد رحل إلى القيروان وتمكن من إعداد جيش جديد دخل به فى حروب سجال مع الفاطميين ، وأخيرا التقى الطرفان فى معركة فاصلة انتصر فيها الفاطميون بقيادة الخليفة المنصور ، وفر كثير من أعوان أبى يزيد وولى هو هاربا ، إلاّ أن فرقة من الجيش الفاطمى قامت بمطاردته وأسره وجاءت به إلى المنصور سنة ٣٣٦هـ/٩٤٧م ، الذى ما إن رآه حتى خر ساجدا لله شكرا ، وحمل أبو يزيد إلى المهدية وصلب على سورها [٢]، وبنى الخليفة المنصور مدينة جديدة فى مكان انتصاره سماها المنصورية [٣]، مما تجدر الإشارة إليه أن الخلفاء الفاطميين كانوا يستخدمون سلاح فرق تسد دوما عندما تضيق بهم الحال فى مواجهة الثائرين إما فى داخل القبائل نفسها[٤]، أو بالاستعانة بالقوى الخارجية المعادية لبعضها البعض ، فمن ذلك استعانة الخليفة القائم الفاطمى بصنهاجة فى حربه ضد أبى يزيد ، ذلك أن زناتة التى أيدت أبا يزيد فى ثورته كانت على خلاف مع صنهاجة

---

(١) البكرى : كتاب المغرب ، ص ص ٥٧ ـ ٥٨ .

(٢) البكرى : المصدر نفسه ، ص ٥٩ .

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ١ ص ٢١٢ .

(٤) استطاع الخليفة الفاطمى استمالة مغراوة ضد بنى يفرن فقامت بين الفريقين ثلة من الحروب الأهلية .

بسبب الحروب التى دارت بين الطرفين من أجل السيادة والسيطرة على أقاليم بلاد المغرب وكان آخرها هزيمة زناتة التى انضمت إلى الثائر أبى يزيد للانتقام من الفاطميين ، فكان أن استعان الخليفة الفاطمى بأعدائهم الصنهاجيين بزعامة زيرى بن مناد الصنهاجى ضد عدوه وعدوهم من قبيلة زناتة ، واستمر الولاء وطيب العلاقات بين الفاطميين وصنهاجة حتى بعد انتقال الفاطميين إلى مصر .

كذلك تعرض الحكم الفاطمى فى فاس للخطر عندما ثار أهلها على الوالى الفاطمى وطردوه وأعادوا الحكم للأدارسة ، فأنفذ الخليفة الفاطمى جيشا بقيادة موسى بن أبى العافية ، اتجه به إلى هناك وتمكن من إعادة فاس إلى حظيرة الدولة الفاطمية ، ولم يكتف بذلك بل استطاع الاستيلاء على تلمسان ومليلة ونكير ، مما جعله يغتر بالنصر معتقدا أنه أصبح بغير حاجة للفاطميين ، فخلع طاعة الخليفة الفاطمى ودعا بالخطبة للخليفة الناصر بالأندلس سنة ٣٣١هـ/٩٤٥م ، الذى منحه تفويضا لحكم البلاد التى استولى عليها ، غير أن الخليفة الفاطمى لم يقف مكتوف الأيدى إزاء هذه الخيانة ، فأرسل إليه فرقة من الجيش الفاطمى بقيادة حميد الكتامى زحف بها نحو فاس ، والتقى مع موسى بن أبى العافية فى معارك شرسة انتهت بفرار موسى إلى تسول على بعد عشرة أميال من فاس، وأعيدت الخطبة على منابر فاس للخليفة الفاطمى ، إلا أنها لم تزعن بالطاعة والولاء للفاطميين إلا على يد جوهر الصقلى[1] الذى تمكن من دخول المدينة وهدم أسوارها

---

(١) جوهر الصقلى : ولد جوهر بجزيرة صقلية إحدى جزر الدولة الرومانية ، فهو رومى الأصل، صقلى النشأة ، ولد سنة ٣٠٠هـ/٩٣٣م تقريبا وقد شب بين موالى المعز =

وهزيمة الثائرين[١]، ولم يكتف بذلك بل سار على رأس الجيش الفاطمى الذى كان يضم كثيراً من رجالات المغاربة ومن بينهم زيرى بن مناد الصنهاجى ، وقام بفتح البلاد ودك الحصون حتى دانت له معظم بلاد المغرب، ولما وصل إلى البحر المحيط ، صاد كمية من أسماكه وأرسلها إلى الخليفة المعز لدين الله مع كتاب يحمل البشرى بما فتح الله على يديه من الأقاليم والمدن والنواحى [٢]، وأعلمه أن راية الفاطميين ترفرف على حصونها وأن الخطبة تؤدى باسمه من على منابرها ، والواقع أن الإذعان الحقيقى للمغرب لم يتم إلاّ فى عهد الخليفة المعز لدين الله على يد القائد جوهر الصقلى الذى تمكن من الاستيلاء على بلاد المغرب وقبض على صاحبى فاس وسجلماسة، وحملهما مع هدية إلى الخليفة المعز لدين الله[٣]، وبذلك يكون جوهر قد حقق لمولاه المعز لدين الله ما أراد فى أقل من سنة ، فأخضع لسلطانه أهالى هذه البلاد الذين دانوا له بالولاء والطاعة .

وبذلك ساد الفاطميون الشمال الإفريقى من حدود مصر الغربية إلى

= لدين الله فى كنف الدولة الفاطمية بالمغرب ، وصار من المقربين للخليفة لما اكتشفه فيه من المواهب الفذة والثقافة الواسعة ، ومن ثم اتخذه كاتبا له ولقبه بجوهر الكاتب منذ سنة ٣٤١هـ/٩٥٢م، ثم رقاه إلى منصب الوزارة سنة ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م ، ولعب جوهر دورا هاما فى توطيد اركان الدولة الفاطمية فى كل من المغرب ومصر .

على إبراهيم حسن : تاريخ جوهر الصقلى ، مصر ، ١٣٥٢هـ - ١٩٣٣م ص ٢٤ .

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ جـ٨ ص١٨٩ .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب جـ١ ص٢٣٠ .

(٣) المقريزى : خطط ، جـ١ ص٣٥٠ .

المحيط الأطلسى، واتجهت أنظارهم إلى السيادة على صقلية [١] بعد اندحار الأغالبة وكان لامتداد سلطان الفاطميين عليها أن تفجر الصراع مع البيزنطيين وانتهى الأمر بانتصار الفاطميين على القوات البيزنطية سنة ٣٥٣هـ/٩٦٤م فى عهد الامبراطور نيقفور فوكاس الثانى (٩٦٣ - ٩٦٩م)، واضطر البيزنطيون إلى عقد الصلح مع الفاطميين سنة ٣٥٥هـ/٩٦٧م مما أتاح الفرصة للخليفة المعز لدين الله إلى توجيه جهوده نحو الشرق، وتحقيق حلم أبائه فى الاستيلاء على مصر، فكان أن اختار جوهر لقيادة الحملة التى أرسلها لفتح مصر بعد أن عظم شأنه عند الخليفة الفاطمى.

---

(١) صقلية : إحدى جزائر البحر المتوسط ، بينها وبين إفريقية ١٤٠ ميلا تضم كثيرا من القرى ، حاضرتها مدينة بلرم ومن أكبر مدنها الخالصة ، فتحها الأغالبة سنة ٢١٢هـ/٨٢٧م على يد أسد بن الفرات قاضى القيروان قائد الجند ، وأسلم أكثر سكان جزيرة صقلية على أثر هذا الفتح ، وبنى بها كثيرا من المساجد ودور العلم .
ياقوت الحموى : معجم البلدان ، بيروت ١٩٦٦ ، جـ٥ ص٣٧٣ - ٣٧٤ .

* مما تجدر الإشارة إليه أن بعض المهتمين بدراسة صقلية يطلقون على مستوطنيها لفظ صقلبى وهو خطأ واضح ، لأن الصقالبة من الجنس السلافى ، والتسمية الصحيحة هى صقلى وليس صقلبى .

الفصل الثانى

السيادة الفاطمية فى مصر

الفصل الثانى

السيادة الفاطمية فى مصر

منذ قيام الخلافة الفاطمية ببلاد المغرب ، اتجهت أنظار أئمتها إلى مصر التى تتمتع بموقع متميز فى العالم الإسلامى ، فالسيطرة على مصر تعنى السيادة على القطرين التابعين لها وهما الشام والحجاز ، فيكتسب بذلك الفاطميون وضعا سياسيا ودينيا يستطيعون من خلاله السيطرة على البلدان الإسلامية ، وضم شعوبها تحت لواء خلافة شيعية ، يتيسر لها السبيل للزحف على العراق وإسقاط الخلافة العباسية ، والأخذ بثأرهم من العباسيين الذين نكلوا بالعلويين وطاردوهم فى كل مكان ، ومن ناحية أخرى أيقن الفاطميون أن بلاد المغرب لا تصلح لإقامة خلافة دائمة يتحقق معها أملهم فى السيادة والسيطرة على كافة أرجاء العالم الإسلامى ، وذلك لأن أهلها من البربر سريعو الغضب حادو الطباع كثيرو الثورات الأمر الذى يهدد الاستقرار ويعرقل خطط التنمية وتوطيد أركان الدولة .

لم تكن أحوال مصر السياسية والاقتصادية خافية عن الفاطميين فى المغرب ، ففى الوقت الذى قامت فيه خلافتهم ببلاد المغرب ، كانت مصر قد أعيدت إلى حظيرة الخلافة العباسية بعد انتهاء الحكم الطولونى سنة ٢٩٢هـ/٩٠٤م، وكان واليها وقتذاك أبو منصور تكين إلا أن القائد مؤنس الخادم عزل هذا الوالى وتولى تصريف شئون البلاد حتى تولى ذكا الرومى ، فلما توفى سنة ٣٠٧هـ/٩١٩م ، عاد تكين واليا للمرة الثانية ، إلا أن مؤنسا عزله مرة أخرى ، وتم تعيين الوالى هلال بن بدر الذى ازدادت

الأحوال فى عهده سوءا ، فثار عليه الجند ، واضطربت أحوال الناس وعم الفساد وانتشر السلب والنهب فى أرجاء البلاد ، وعلى الرغم من عزل هذا الوالى وتعيين أحمد بن كيغلغ إلا أن الجند ثاروا على هذا الوالى الجديد بعد أن أسقط أسماء العديد منهم من ديوان الجند ، ولم يستطع هذا الوالى القضاء على الثورة والسيطرة على الأمور فتم عزله وتعيين تكين للمرة الثالثة سنة ٣١٢هـ/٩٢٤م ، أما الخلافة العباسية فقد أصابها الوهن والضعف ولم تستطع السيطرة على ولاياتها ، وانتهت الأمور فى حاضرة الخلافة العباسية بمأساة دموية هى مقتل الخليفة المقتدر سنة ٣٢٠هـ/٩٣٢م ، وخلع القاهر ٣٢٢هـ/٩٣٤م ، ومع تعيين الراضى بالله خليفة ، ولى أحمد بن كيغلغ مع استمرار محمد بن على الماذرائى متوليا الخراج ، مما كان له أسوأ الأثر فى التمزق والتنافس بين المسئولين ، وما ترتب عليه من انتشار الفوضى والفساد وانهيار الأحوال المعيشية لأهل مصر ، وظل الحال على ذلك حتى ولى محمد بن طغج الأخشيد مصر فدخل الفسطاط سنة ٣٢٣هـ/ ٩٣٥م، الذى حاول جاهدا إعادة الاستقرار والأمن فى ربوع البلاد إلا أن طمع ابن رائق أمير الأمراء فى بلاد الشام أدى إلى الصدام الحتمى بينهما ، وقد باركت الخلافة ذلك النزاع فقد يؤدى إلى القضاء على الطرفين أو ضعفهما على أقل تقدير حتى تستطيع استرداد جزء من سلطتها المفقودة ، ولا شك أن هذا الاضطراب يبين مدى حجم الفوضى التى عمت أرجاء أراضى الدولة العباسية ، وفى حاضرة الخلافة نفسها دارت الحروب بين الترك والديلم فى عهد الخليفة المتقى ، الذى لم يكن له من الأمر شىء سوى النقش على السكة والدعاء فى الخطبة ، وبدخول البويهيين بغداد سنة

٣٣٤هـ/٩٤٦م ضاعت هيبة الخلافة بعد أن تجرأ معز الدولة بن بويه على شخص الخليفة المستكفى وقام هو وجنوده بسمل عينيه ، وصار الخلفاء ألعوبة فى أيدى الأمراء البويهيين ، هكذا كان وضع الخلافة العباسية المتردى الذى كان يسير بخطى واسعة نحو الهاوية ، وفى هذا العام توفى الإخشيد وولى الحكم فى مصر ابنه أنوجور وهو فى الخامسة عشرة من عمره فقام بتدبير أمره أبو المسك كافور[١] ، وقبض على زمام الأمور فى كافة الأقاليم الخاضعة للإخشيديين وهى مصر والشام والحجاز ، وتلقب بالأستاذ ودعى له على منابر هذه البلاد باسم أبى المسك كافور [٢] ، وكان لاستئثار كافور بالسلطة دون أنوجور أن انقسم الجند فى ولائهم إلى كافورية وإخشيدية ، مما أضر بالحالة السياسية والاقتصادية فى مصر ، وظل الحال على ذلك من التفكك حتى توفى أنوجور سنة ٣٤٩هـ/ ٩٦٠م ، وهو فى التاسعة والعشرين حتى قيل أن كافورا دس له السم[٣] ، وأقام كافور مكانه أخاه أبا الحسن على وهو فى الثالثة والعشرين ، واستبد بالأمر دونه ، وظل

---

(١) كان كافور عبدا مملوكا لأحد أهالى مصر فاشتراه محمد بن طغج بثمانية عشر دينارا ، ولما آلت مصر إلى الإخشيد ترقى كافور فى بلاطه حتى جعله أتابك أى المربى الأب ، وعهد إليه بتربية ولديه أبى القاسم أنوجور وأبى الحسن على . انظر السيوطى : حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ١٩٦٦ ، جـ٢ ص٣٧٣ .

(٢) أبو المسك كافور : أطلقت على كافور هذه الكنية من قبيل المشاكلة لأن المسك أسود اللون وكان كافور كذلك ، وأما كافور فهى تسمية من قبيل المقابلة بالضد لإبراز الصفة وهى صيغة شاعت فى العصر العباسى مثل قبيحة أم المتوكل التى أطلق عليها هذا الاسم لشدة جمالها ، وشغب أم المقتدر والتى سميت بهذا لشدة هدوئها .

(٣) Lane - Poole : The Story of Cairo , London, 1912, P.101.

أبو الحسن واليا على مصر يملك ولا يحكم حتى توفى سنة ٣٥٥هـ ، وفى نفس العام استولى كافور على حكم مصر ، وفى عهده استقبل دعاة الدولة الفاطمية الذين وفدوا على بلاطه من قبل المعز لدين الله ، مما كان له أثر كبير فى استمالة كثير من الجند والكتاب الإخشيدية والكافورية للمذهب الشيعى ، وكان للحالة السيئة فى مصر أواخر العهد الإخشيدى أن ساعدت على زوال حكمهم ، فقد تفشى فى البلاد الغلاء والفوضى والسلب والنهب[١] ، وعجز كافور عن دفع رواتب خواصه وغلمانه فتنكروا له وثاروا عليه[٢] ، ولم يستطع التصدى لغارات القرامطة على الشام وقيامهم بنهب حجاج مصر وهم فى طريقهم إلى مكة سنة ٣٥٥هـ/٩٦٥م ، كما لم يتمكن من صد غارات النوبيين الذين وصلوا إلى أخميم ، وتوفى كافور سنة ٣٥٧هـ/٩٦٨م[٣] تاركا مصر فى حالة سيئة من الفوضى والاضطراب ، واجتمع رجال البلاط وولوا أبا الفوارس أحمد حفيد الإخشيد وكان فى الحادية عشرة من عمره[٤] ، وعجز أولوا الأمر عن إقرار الأمن وتخفيف ما حل بالناس من المصائب والويلات[٥] ، وتطلع الناس إلى يوم الخلاص من حالة البؤس والشقاء التى كان يعانى منها المجتمع المصرى .

تعرضت مصر لمحاولات غزوها على يد الفاطميين منذ خلافة عبيد الله

---

(١) المقريزى : خطط جـ٣ ص٢٧ .

(2) Wiet : Precise de l'Histoire d 'Egypte . le Caire 1935, P.31 .

(3) Lane - Poole : The Story of Cairo P. 103 .

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ١ ص٤٥٧ .

(5) Lane - Poole : op. cit., P. 117 .

المهدى الذى أنفذ ثلاث حملات للاستيلاء على مصر ، الأولى سنة ٣٠١هـ/ ٩١٣م بعد أن تمكنت قواته من الاستيلاء على برقة سنة ٣٠٠هـ/٩١٢م[1] ، فاتخذها قاعدة له لمواصلة الزحف على البلاد المصرية ، فتوغلت فى الوجه البحرى حتى بلغت بلدة مشتول السوق [2]، فلما بلغ الخطر ذروته أمر والى مصر منادى الجهاد بالنفير فى الناس ، حتى تجمع له الناس ، وفى الوقت نفسه أرسل إلى الخليفة المقتدر مستنجدا ، فلما وصلت فرق الجيش العباسى من بغداد بقيادة مؤنس الخادم اشتبك الطرفان فى عدة معارك انتهت بهزيمة الفاطميين بقيادة حباسة ابن مصال الكتامى وفراره مع قواته ليلا ، حيث انسحبوا إلى برقة وهم فى حالة سيئة ، ولما وصل القائد الفاطمى إلى المغرب أمر الخليفة عبيد الله المهدى بإعدامه بسبب هزيمته [3].

وقد سُرّت الخلافة العباسية لهذا النصر ، فتصدق المقتدر بمائة الف درهم ، وفرق الوزير على بن عيسى أربعة آلاف دينار شكرا لله عز وجل [4]، وعلى الرغم من فشل الحملة الفاطمية الأولى على مصر إلا أنها حققت نجاحًا فى اتجاه الدعوة ، حيث تم لها ضم أنصار كثير من المصريين ممن أظهروا تعاطفهم مع الفاطميين وتوجهوا إلى دعوتهم ، يدل على ذلك أن الوالى تكين العباسى تتبع من اتهم بموالاة الفاطميين وسجن بعضهم وقطع

(1) Lane - Poole : The History of Egypt in the middle Ages London, 1901, P. 80 .

(٢) مشتول السوق : قرية بمركز بلبيس شرقية ، انظر محمد رمزى : القاموس الجغرافى للبلاد المصرية ، القسم الثانى ، القاهرة ١٩٥٨ ، جـ١ ص١٠٤ .

(٣) النويرى : نهاية الأرب جـ٢٦ ص٣٥ .

(٤) عريب بن سعد : صلة تاريخ الطبرى ، تحقيق دى غويه ، ليدن ١٨٩٧ ، ص٢٨ .

أيدى وأرجل البعض الآخر سنة ٣٠٢هـ/٩١٣م[١].

أما الحملة الثانية فتمت سنة ٣٠٧هـ/٩١٨م ، وتم الإعداد الجيد لها فحشدت الخلافة الفاطمية حشودا كبيرة من كتامة وبربر إفريقية وولى القيادة عليها أبو القاسم القائم بن عبيد الله المهدى ، وتم تدعيم الحملة البرية بقوات بحرية تتألف من مائة مركب حربية عبارة عن ثمانى طرادات وعشرين عشارى، بقيادة سليمان الخادم[٢]، اتجهت إلى الاسكندرية حيث تم احتلالها ، فلما وصلت الأنباء إلى الفسطاط ارتجف الناس ، وفر بعضهم إلى القلزم والحجاز ، وكان الوالى ذكا الرومى أو الأعور يعانى فى الوقت نفسه من ثورات الجند بسبب تأخره فى صرف رواتبهم وعطاياهم[٣]، وتوغلت القوات الفاطمية فى البلاد حتى تم لها الاستيلاء على الفيوم وبعض جهات الصعيد واستقر الفاطميون فى هذه النواحى وقاموا بتحصيل الخراج[٤]، مماجعل الخلافة العباسية ترسل مؤنسا الخادم على رأس فرقة من الجيش العباسى لنجدة مصر وحمايتها من الضياع ، فلما وصل مؤنس أغدق الأموال على الجند مما أدى إلى رفع معنوياتهم وإعادة الثقة فيهم ، واحتشد له جمع كبير منهم ، قام بتقسيمهم إلى عدة فرق لضرب الفاطميين فى عدة جهات فى وقت واحد ، فاتجهت فرقة بقيادة جنى

---

(١) المقريزى : خطط جـ١ ص٣٥١ .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب جـ١ ص ١٨٤ .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٣ ص ١٩٦ .

(٤) عريب بن سعد : صلة تاريخ الطبرى ص ٤٤ .

الخادم الصفوانى إلى الجيزة لحمايتها ، وزحف ثمل الغنى على رأس قوة إلى الاسكندرية لطرد الفاطميين منها واتجهت فرقة أخرى إلى الفيوم ، ولما أكمل مؤنس استعداداته وخططه الحربية ، سار على رأس القوة الرئيسية لقتال أبى القاسم الذى ما أن علم بما أقدم عليه العباسيون حتى جمع جنده وعاد بهم إلى إفريقية سنة ٣٠٩هـ بعد سنتين وثمانية أشهر[١] من بدء هذه الحملة التى انتهت دون تحقيق هدفها فى الاستيلاء على مصر ، وخاصة بعد أن تم تدمير أسطولهم البحرى .

توقفت الحملات الفاطمية على مصر حوالى ثلاثة عشر عاما بسبب انشغال الخلافة الفاطمية بتوطيد سيادتها فى بلاد المغرب والقضاء على فتن وثورات الخارجين على سلطاتها ،وفى سنة ٣٢١هـ/٩٣٣م أرسل عبيد الله المهدى حملته الثالثة تحت قيادة حبشى بن أحمد المغربى ، فحدثت مناوشات بين الجنود الفاطميين والمصريين ، وعلى الرغم من عقد هدنة بين الطرفين فى صفر سنة ٣٢٢هـ/٩٣٤م إلاّ أن القتال لم يلبث أن اشتعل بينهما فى الجيزة وبلبيس ، وانتهى الأمر بانتصار المصريين بقيادة محمد بن طغج فى جمادى الأولى سنة ٣٢٢هـ/٩٣٤م وعاد الجند الفاطمى إلى بلاد المغرب ، وخلال ذلك كان الخليفة الفاطمى قد توفى ، وأخفى ولى عهده خبر موته ولم يعلنه إلاّ بعد استقرار الأمور فى بلاد المغرب وتلقب بالقائم[٢]، واستكمالا لهذه الحملة الثالثة أرسل القائم جيشا سنة ٣٢٣هـ/٩٣٤م التقى مع الإخشيديين عند تروجه بالبحيرة لكن الجيش الفاطمى لم يستطع

---

(١) عريب بن سعد : صلة تاريخ الطبرى ص ٤٤ .

(٢) جمال سرور : الدولة الفاطمية فى مصر ص٦٢ .

الصمود في وجه قوات الإخشيد وفروا إلى برقة فتتبعتهم القوات المصرية وأسرت منهم عددا كبيرا من بينهم بعض وجوه الفاطميين ومشاهير قوادهم، وعاد باقي الجيش الفاطمي إلى إفريقية سنة ٣٢٤هـ/٩٣٥م [١].

لم تحقق الحملات الثلاث أهدافها في فتح مصر وفرض السيادة الفاطمية عليها لأن مصر كانت من القوة بحيث استطاعت أن ترد غارات الفاطميين وخاصة بمعاونة الجند العباسي ، فقد حرص الخلفاء العباسيون على الحفاظ على مصر مفتاح الغرب الإسلامي وتأمين الشمال الإفريقي ، ولأن الثورات التي قام بها الخوارج في بلاد المغرب حالت دون حشد القوات اللازمة لتنفيذ ذلك المخطط الكبير ، ولانشغال الخلافة الفاطمية ولأمد طويل بمواجهة الثائرين بقيادة أبي يزيد مخلد بن كيداد الذي قام بفتنة كانت شديدة الوقع على الدولة الفاطمية الناشئة فأفقدتها عددا كبيرا من كبار القواد وزهرة الرجال .

على الرغم من فشل الحملة الثالثة وعودتها إلا أنها أظهرت مدى انتشار الدعوة الفاطمية ، فقد انضم إليها بعض زعماء المصريين خلال وجودها في الإسكندرية مما شجع القائم على مكاتبة الإخشيد والي مصر لاستمالته نحو الدعوة الفاطمية التي وصفها في كتابه « اتباع الحق ولزوم الصدق » ، ودعوته إلى فتح صفحة جديدة في العلاقات تقوم على المودة والصداقة : « فإنني أرضى منك بالمودة والأمر والطاعة »[٢] ، على أن الإخشيد لم يعلن

---

(١) الكندي : الولاة والقضاة ، بيروت ١٩٠٨ ،ص ٢٨٦ ـ ٢٨٧ .

(٢) ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب ، تحقيق زكي محمد حسن وآخرون ، القاهرة ١٩٥٣ ، ص ٢٥ ـ ٢٦ .

موافقته على طلب القائم وبعث إليه : « أنا أتدبر الجواب وأجيب عنه وسيصل مع من أثق به واسألك حسن المؤازرة » ، وهو رد ينطوى على حكمة مفادها عدم خلع طاعة الخلافة العباسية التى منحته مصر طعمة له ولأبنائه من بعده ، وفى سبيل كسب ود الخليفة الفاطمى ، أنفذ إليه كتابا يعرض عليه زواج ابنته من ولى عهده المنصور ، وعلى الرغم من موافقة القائم على هذا العرض [1] ، إلا أن هذا المشروع فشل ولم تتحقق للإخشيد أمنيته فى أن يعتلى مركزا مرموقا فى كنف هذه الدولة الفتية ، ولما توفى الإخشيد سنة ٣٣٤هـ/٩٤٦م سار على نهجه كافور الإخشيدى ـ صاحب السلطة والسيادة الفعلية على مصر ـ فى الحرص على توطيد علاقته بكل من الخليفة العباسى والخليفة الفاطمى ، فكان « يهادى المعز صاحب المغرب ، ويظهر ميله إليه ، وكذا يذعن بالطاعة لبنى العباس ، ويدارى ويخدع هؤلاء وهؤلاء »[2].

كان للولاء الظاهرى من جانب كافور إلى الخليفة الفاطمى أن أنفذ إليه المعز لدين الله كتابا مع بعض رسله يدعوه فيه للاعتراف بسيادته ، لكن كافور رحب برسل الخليفة الفاطمى ولم يعطهم ردا قاطعا ، وقد انتهزوا فرصة وجودهم بمصر لأخذ البيعة للمعز من كثير من رجال الدولة[3].

قوى عزم المعز لدين الله على فتح مصر بعد أن تلقى من الرسل والدعاة

---

(١) ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ص ٢٧ .
(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٤ ص٦ .
(٣) المقريزى : خطط جـ٣ ص٢٧ .

والعيون التقارير عن حال مصر ، وأيقن أنه لن يلق مقاومة تذكر بعد أن اضمحل سلطان الخلافة العباسية وتقطعت أوصالها بالحركات الاستقلالية فى الشرق والغرب الإسلامى وانشغالها بالفتن الداخلية ، وعجزها عن دفع الاعتداءات البيزنطية عن أراضيها فصارت عاجزة عن إرسال الجيوش إلى مصر ، وعلم أن الأوضاع الداخلية بمصر فى أسوأ حالاتها ، فالقوم يعانون من مصائب الوباء والغلاء ، فأيقن أن تحقيق الحلم لم يعد بعيد المنال وشجعه على ذلك قول دعاته : « إذا زال الحجر الأسود (التخلص من كافور الإخشيدى) ملك مولانا الأرض كلها »[1]، ومن ناحية أخرى أطلعه عملاؤه على مدى استياء الشعب من الولاة الأتراك من الطولونيين والإخشيديين ، وذلك من خلال البطاقات التى عثروا عليها والتى يعبر فيها الناس عن استيائهم وتذمرهم بالقائها فى قصور الحكام ومنها بطاقة مرسلة إلى الإخشيديين جاء فيها : « وليتم فظلمتم ، وحكمتم ففجرتم ، واعتكفتم على اللذات ، فاعملوا ما شئتم فإنا صابرون ، وجوروا ما استطعتم فإنا عليكم بالله مستجيرون » ؛ ثم أن الجند أرسلوا للمعز لدين الله أوضحوا له مدى المشاق التى يعانى منها الجيش والشعب وطلبوا منه سرعة القدوم لإنقاذهم ، ولعب يعقوب بن كلس دورا مهما فى بعث الأمل فى نفس المعز لتحقيق آمال الفاطميين فى السيطرة على مصر ، فسافر ابن كلس خفية إلى بلاد المغرب وتسنى له الاتصال بالمعز ، فدله على حالة الضعف التى تعانى منها مصر وحثه على النهوض لغزوها ، وظل ابن كلس فى بلاد المغرب حتى قدم إلى مصر مع المعز بعد الفتح .

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٤ ص٧٢ .

أما فى مصر فقد زادت الحالة ضعفا واضطرابا بعد وفاة كافور الإخشيدى سنة ٣٥٧هـ/ ٩٦٨م . ورأى الفاطميون فى وفاة كافور الإخشيدى خاتمة لذلك الاستقرار الذى تمتعت به مصر فى عهد الإخشيديين ولاحظوا عوامل الانحلال والوهن التى صارت فى أوصال مصر المادية والمعنوية ووجدوا فى دعوة زعماء الشعب الفرصة المواتية لتنفيذ مخططهم لفتح مصر وقد سبق ذلك قيام الدعاة بالتبشير لهذا الفتح .

كان الخليفة المعز يعد العدة لفتح مصر قبيل وفاة كافور، فأمر بإنشاء الطرق وحفر الآبار فى طريق مصر منذ سنة ٣٥٦هـ / ٩٦٧م ، وأقام المنازل على رأس كل مرحلة ، فلما اكتملت الاستعدادات حشد الخليفة الفاطمى المعز لدين الله كل ما استطاع من جند وذخيرة ومال وعهد بتلك الحملة الزاخرة إلى أعظم قواده جوهر الصقلى ، وقد صور لنا المقريزى ضخامة هذه الاستعدادات بأن المعز لدين الله استدعى أبا جعفر حسين بن مهذب متولى بيت المال ، وقد جلس على صندوق وبين يديه ألوف الصناديق فقال له : هذه صناديق مال اضبطها ، قال الحسين : فأخذت أجمعها حتى رتبت ، وبين يدى جماعة من الفراشين والخدام ، فأمر المعز برفعها فى الخزائن على ترتيبها وأن يغلق عليها وتختم بخاتمه، وقال قد خرجت عن خاتمنا وصارت إليك فكانت جملتها أربعة وعشرين ألف ألف دينار وكان ذلك سنة ٣٥٧هـ/٩٦٧م، فأنفقت جميعها على الحملة التى سيرت إلى مصر ويقال إن الحملة على مصر بلغت نيفا ومائة ألف فارس غير الجند المشاة [١].

---

(١) المقريزي : الخطط ، جـ١ ص٣٧٨ .

هال ابن هانئ الأندلسى [1] منظر القوة الجبارة للجيش الفاطمى وقت خروجه من القيروان إلى مصر فى ربيع الأول ٣٥٨هـ/٩٦٨م [2] فأنشد فى وصفها :

رأيت بعينى فوق ما كنت أسمع ... وقد راعنى يوم من الحشر أروع

غداة كأن الأفق سد بمثله ... فعاد غروب الشمس من حيث تطلع

فلم أدر إذ ودعت كيف أودع ... ولم أدر إذ شيعت كيف أشيع

ألا إن هذا حشد من لم يذق له ... غرار الكرى جفن ولابات يهجع

إذا حل فى أرض بناها مدائنا ... وإن سار عن أرض غدت وهى بلقع

تحل بيوت المال حيث محله ... وجم العطايا والرواق المرفع

وكبرت الفرسان لله إذ بدا ... وظل السلاح المنتقى يتقعقع

وعب عباب الموكب الفخم حوله ... ورق كما رق الصباح الملمح

رحلت إلى الفسطاط أول رحلة ... بأيمن فأل فى الذى أنت تجمع

لما وصل الجيش الفاطمى إلى مشارف الإسكندرية قرر الزعماء إرسال جعفر بن الفرات للتفاوض مع جوهر القائد فأناب عنه أبا جعفر مسلم بن

---

(١) محمد بن هانئ : ولد باشبيلية سنة ٣٢٦هـ/٩٤٧م ، اتهم بالكفر والزندقة فغادر الأندلس ولحق بالبلاط الفاطمى بالمهدية ، والمعز يستعد لفتح مصر ، فأغدق عليه ، ولما سار المعز إلى مصر سار ابن هانئ للحاق به لكنه توفى فى طريقه سنة ٣٦٢هـ/٩٧٢م ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ١ ص ١٤٨ .

(٢) المقريزى : المصدر نفسه ، جـ١ ص٣٧٨ .

عبد الله الحسينى ، سار أبو جعفر مسلم على رأس وفد من ذوى الرأى والنفوذ إلى الإسكندرية فلقى جوهر القائد ، فى قرية تروجة على مقربة من الإسكندرية ١٨ رجب ٣٥٨هـ/٩٦٩م ، فسعد بلقائهم وكتب لهم الأمان الذى ضمنه غايات السياسة الفاطمية ومزاياها لحماية مصر ، واختتمه بدعوة المصريين إلى لقائه والتبرك بالسلام عليه ، والتزام الطاعة والولاء للإمام أمير المؤمنين .

تضمن عهد الأمان الذى أعلنه جوهر الصقلى للمصريين تحقيق مطالبهم والتى كانوا يتطلعون إلى تحقيقها فى ظل العهد الجديد ، فاشتملت بنوده الرئيسية الأمان لجميع المصريين مدنيين وعسكريين، مسلمين وغير مسلمين على أموالهم وأنفسهم وبلادهم ، والتعهد بنشر السلام والطمأنينة بين الناس ، وانقاذ الناس مما حاق بهم من الدمار والخراب، وأن يدافعوا عن مصر ويدرءوا عنها الاعتداءات الخارجية من قبل القرامطة والروم وكافة أعدائها ، لأن الفاطميين إنما جاءوا لنجدة العالم الإسلامى عامة ومصر خاصة ، فإنما أخرج المعز عساكره المنصورة وجيوشه المظفرة إلا لما فيه إعزازكم وحمايتكم ، والجهاد فيكم وعن كافة المسلمين ببلدان المشرق ، كما تعهد جوهر واعترف بالحرية الدينية ، وترك كل إنسان يقيم شعائره التى ألفها ؛ وفى نفس الوقت تعهد بتعمير المساجد وإصلاحها، وأكد لهم أن الإسلام سنة واحدة ، وشريعة متبعة وهى إقامتكم على مذهبكم ، وثباتكم على ما كان عليه سلف الأمة من الصحابة رضى الله عنهم والتابعين بعدهم ، وفقهاء الأمصار التى جرت الأحكام بمذاهبهم وفتواهم وأن يجرى الآذان والصلاة وصيام شهر رمضان وفطره وقيام لياليه ،

والزكاة والحج والجهاد على ما أمر الله فى كتابه ، ونص عليه نبيه ﷺ فى سنته وأجرى أهل الذمة على ما كانوا عليه [١]، وكان جوهر يقصد بذلك محو فكرة الغلو المذهبى الذى استغله السنيون ضد الإسماعيلية ، كما أخذ على نفسه عهدا بالإصلاح الشامل للبلاد وتطهيرها من العابثين ، ونشر العدل وإشاعة الأمن والأمان فى ربوع البلاد ليلا ونهارا ، وتمسك جوهر بأن يذاع عهد الأمان على المصريين كافة ليعلم كل مواطن ما له وما عليه وفى مقابل كل ما تعهد به أمرهم بالطاعة والولاء وعدم الاعتداء على الجند المغاربة ، وأن يستقبلوا أمير المؤمنين بكل مظاهر الحب والترحاب ، وكتبه فى شعبان ٣٥٨هـ/٩٦٩م ، ولا شك أن هذا العهد كان على جانب كبير من الأهمية، فهو يمتاز بالحكمة والإعتدال ، وعدم المبالغة فى العهود والآمال ، وتتجلى حكمته فى منحهم الحرية الدينية ، لأن المصريين طوال عهودهم التاريخية من أشد المتمسكين بأهداب الدين ومبادئه ، وبذلك فقد مس أوتار قلوبهم، وبتعهده بنشر ألوية العهد والطمأنينة فى البلاد يكون قد طمأن المصريين على أخص ما يمس حاجات الناس وهى الحياة الاجتماعية ، وبذلك زالت مخاوف الأهلين وأصبحوا فى أمن ودعة [٢].

اضطر جوهر الصقلى رغم الأمان الذى منحه للمصريين إلى خوض المعارك مع الجند الإخشيديين والكافوريين الذين أفاقوا على ضياع ملكهم ،

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ١ ص١٠٣ - ١٠٧ .
(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ١ ص١٢٠ .

فاحتشدوا لقتال جوهر عند الجيزة ، لكنه أنفذ بعض قواته التى عبرت النيل والتقت مع الجند المصريين، فانهزم الإخشيدية بعد أن خسروا كثيراً من جندهم، ولم يلق جوهر بعد ذلك مقاومة تذكر ، وتم له فتح مصر فى منتصف شعبان ٣٥٨هـ ، وسار إليه الوزير جعفر بن الفرات ، والشريف أبو جعفر مسلم الحسينى على رأس العلماء وكبار رجال الدولة ورؤساء الطوائف والحرف .

دخل جوهر الصقلى الفسطاط يوم الثلاثاء ١٧ شعبان ٣٥٨هـ[١] الموافق٧ يوليو ٩٦٩م ، ثم استكمل سيره إلى موضع المدينة الجديدة التى قرر الفاطميون إنشاءها لتكون قاعدة لهم وحفر أساس القصر الفاطمى فى وسطها، فكان ذلك إيذانا بمولد القاهرة المعزية ، ثم وضع أساس الجامع الأزهر بعد أشهر قليلة فى الرابع من شهر رمضان سنة ٣٥٩هـ/٩٧٠م ، يقول ابن هانئ بهذه المناسبة :ـ

يقول بنو العباس قد فتحت مصر ∴ فقل لبنى العباس قد قضى الأمر

وقد جاوز الإسكندرية جوهر ∴ تصاحبه البشرى ويقدمه النصر

ترتب على فتح مصر قطع الدعوة من على منابرها لبنى العباس وإقامتها للخليفة الفاطمى ، وكان ذلك فى عهد المطيع لله بعد أن ظلت لهم نحو قرنين وربع القرن ، وتم ادخال « حى على خير العمل » فى الآذان وإلغاء لبس السواد شعار العباسيين .

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ١ ص١٤٩ .

بدأ الحكم الفاطمي الفعلي على يد جوهر القائد بعد أن وضع أساس القاهرة والجامع الأزهر وقصر الخلافة ، وخلال التقدم فى البناء والتطور ظهر خطر القرامطة الذين كانوا قد حققوا انتصارات متوالية فى بلاد الشام ، وبدأوا زحفهم على مصر أوائل ٣٦١هـ/٩٧١م بقيادة زعيمهم الحسن الأعصم ولما التقى بهم جوهر الصقلى فى ظاهر الخندق على مقربة من القاهرة ألحق بهم هزيمة ساحقة فارتدوا على أدبارهم إلى الشام .

سار المعز لدين الله من إفريقية إلى القاهرة بأهله وأمواله فى ركب عظيم من الأبهة والفخامة [١]، ووصل الإسكندرية فى ٢٤ شعبان ٣٦٢هـ/٩٧٣م وقابله عظماء مصر وكبراؤها عند المنارة ، فشكرهم على حسن استقبالهم له، وقطع وعدا على نفسه بإقامة الحق ونصرة الإسلام ، والجهاد من أجل الله والدين [٢]، وأخيراً وصل المعز القاهرة فى السابع من رمضان ٣٦٢هـ منتصف يونيو ٩٧٣م ، ودخل قصره وسجد لله شكراً على نعمائه ، وصلى ركعتين ومن ورائه الحاضرون ، وبذلك صارت القاهرة حاضرة الخلافة الفاطمية بدلا من رقادة والمهدية [٣].

مما هو جدير بالذكر أن الأمور لما استقرت للمعز لدين الله بمصر بدأ الزعماء العلويون الأشراف فى الجدال حول نسب الفاطميين ، وأخيراً استقر

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ٢ ص ١٣٤ .
(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ١ ص ١٣٣ .
(٣) المقريزى : المصدر نفسه ، جـ١ ص ١٣٤ .

رأيهم على إيفاد عبد الله بن طباطبا إلى الخليفة ومناقشته فى هذا الأمر ، فرد المعز بأنه سيعقد مجلسا يعلن فيه نسبه ، وبالفعل عقد المعز مجلسًا عظيما دعا إليه الكبراء وممثلى الأمة ، وبعد المقدمات اللازمة سل نصف سيفه من غمده وقال لهم هذا نسبى ، ونثر عليهم ذهبا كثيراً ، وقال هذا حسبى ، فقالوا سمعنا وأطعنا [١]، وعلى الرغم من ذلك لم تتخل الخلافة الفاطمية عن إمامتها وانتسابها إلى آل البيت ، لأنه تدعيم لسيادتها وسيطرتها على رعايا الدولة .

أنفذ المعز لدين الله قواته إلى بلاد الشام ، وعين فيها أبو محمود بن جعفر بن فلاح نائبا له ، وأعلن بنو حمدان فى حلب ولاءهم للسادة الجدد، وبذلك امتدت الدولة الفاطمية من بلاد المغرب إلى شمال الشام .

لكن القرامطة ما لبثوا أن انتزعوا بلاد الشام من واليها الفاطمى ، وساروا إلى مصر حيث التقت قواتهم بقيادة الحسن الأعصم مع جند المعز عند بلبيس أواخر ٣٦٣هـ/٩٧٤م فهزموهم ، وفى هذا الوقت هاجم البيرنطيون شمال الشام واستولوا على أنطاكية ، فأنفذ إليهم المعز جيشا لقتالهم ، لكن البيزنطيين هزموهم بجوار طرابلس ٣٦٤هـ/٩٧٤م ، ومن ناحية أخرى تحالف أفتكين التركى[٢] المستولى على دمشق معهم ، لكن ريان والى

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ١ ص ٣٢٦
، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ٤ ص ٧٧ .

(٢) (أبو منصور أفتكين الشرابى غلام معز الدولة بن بويه ، وكان من أكابر الجند فى بلاط بغداد فسار إلى بلاد الشام واستولى على دمشق ودعا القرامطة للقدوم إلى دمشق وتحالف معهم على غزو مصر) .

طرابلس من قبل المعز سار إليهم فى جيش كثيف انتصر عليهم وفرق شملهم ، ووصلت الأنباء إلى المعز فى مرض موته ، وتوفى فى ١٤ ربيع الثانى ٣٦٥هـ / ديسمبر ٩٧٥م .

ولى الخلافة العزيز بالله أبو منصور نزار من ٣٦٥ ـ ٣٨٦هـ/ ٩٧٥ ـ ٩٩٦م ، وقد اعتمد العزيز على العناصر غير المغربية التى اعتمد عليها أبوه من قبل ، فعين بنجوتكين التركى قيادة الجيش وولاية دمشق ، ووفا الصقلى حكم عكا ، وبشارة الإخشيدى حكم طبرية ، ورباحا حكم غزة ، وبرجوان إمارة القصر ، وقد أدى ذلك إلى قيام النزاع والخلاف بين الترك والمغاربة(١) . ومن ناحية أخرى ولى العزيز أهل الذمة بعض المناصب العليا ، ومنهم أبو الفرج يعقوب ابن كلس ـ وقد ولى الوزارة فى عهد المعز مكافأة له على المساعدة فى فتح مصر ـ واستمر فى عهد العزيز بالله ، وبذلك يكون ولى الوزارة زهاء اثنى عشر عاما .

كما ولى منشا اليهودى ، وعيسى بن نسطورس النصرانى الوزارة أيضًا فى عهد العزيز ، وكان هناك طبيب للعزيز ولابنه الحاكم يدعى أبو الفتح منصور بن مقشر المصرى (٢) .

شجع الفاطميون أهل الذمة وتسامحوا فى إقامة الكنائس والأديرة إلى أبعد حد . وأدى ذلك إلى تولى أهل الذمة أغلب المناصب الهامة فى الدولة

---

(١) المقريزى : الخطط جـ٢ ص٢٨٤ .

أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٤ ص ١١٧ .

(٢) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، تحقيق أنطون صالحانى اليسوعى ، بيروت ١٩٠٨ ، ص ٣١٦ .

واستـأثروا بمعظم السلطات ، وأدت هذه السيـاسة من قبل العزيز بالله إلى استياء عامة الشعب المصرى وزعماء المسلمين ، فلما انتهى إلى أسماع العزيز بالله ذلك اتخذ بعض الإجراءات التى تحد من سلطانهم ، فاشترط على ابن نسطورس أن يولى المسلمين فى الدواوين (١).

وفى عهد العزيز زحف القرامطة وحليفهم أفتكين على مصر ، لكن جيوش العزيز بقيادة جوهر هزمتهم شر هزيمة عند الرملة من أعمال فلسطين وردتهم نحو الشمال ، لكنهم عاودوا الحرب مع جوهر ، الذى اضطر تحت وطأتهم إلى الإنسحاب إلى مصر .

لما علم العزيز بالله بذلك سار بنفسه للقاء القرامطة وانتصر عليهم وأسر أفتكين ثم عفا عنه سنة ٣٦٨هـ/٩٧٨م، وعين العزيز بالله غلامه بنجوتكين التركى على الجيش وولاية الشام ، ولما أراد بنجوتكين فتح حلب، استغاث حاكمها أبو الفضائل بن حمدان ـ حفيد سيف الدولة ـ بالإمبراطور باسيل الثانى ـ إمبراطور القسطنطينية ، فأرسل باسيل الثانى الأمر إلى قائده بأنطاكية نيقفوروس أورانوس بمحاربة الفاطميين وحماية حلب ، لكن البيزنطيين انهزموا وأسر قائدهم عند نهر العاص (الأرند) سنة ٣٨١هـ/ ٩٩١م ، وعاد بنجوتكين إلى دمشق ، وفى العام التالى سار إلى حلب وضرب حولها الحصار لكن حاكمها ووزيره لؤلؤ أرسلوا إلى باسيل الثانى فى طلب المعونة فسار بنفسه إليهم وانضموا إليه ، فساروا إلى حصن

---

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ٨ ص ٤٠ .

شيزر على مقربة من حماة ، واستولوا عليها ثم حمص وطرابلس التى حاصروها أربعين يوما ولم تفلح محاولات الفاطميين التصدى لهم ، وعاد باسيل الثانى إلى القسطنطينية بعد انتصاراته العديدة فى بلاد الشام سنة ٣٨٥هـ/٩٩٥م [١].

حاول العزيز بالله استرداد سلطانه على بلاد الشام فخرج إلى بلبيس على رأس جيش كثيف، لكنه مرض وتوفى فى ٢٨ رمضان ٣٨٦هـ/٢٧ سبتمبر ٩٩٦م[٢]، فخلفه ابنه أبو على منصور الذى لقب «الحاكم بأمر الله»، وكان مع والده فى الحملة ، فرجع فى اليوم التالى ودخل القاهرة .

مما هو جدير بالذكر أن زوجة العزيز النصرانية كان لها أخوان هما : أرسانيوس (أرسانى) وأريستيس ، رفعهما العزيز إلى قمة السلم الكنسى ؛ فعين أريستيس بطريركا للملكانيين (الكاثوليك أتباع الملك أو الإمبراطور) ببيت المقدس سنة ٣٧٥هـ/ ٩٨٦م ، وأرسانيوس مطرانا للقاهرة فى نفس العام ، ثم بالاسكندرية سنة ٣٩٠هـ/١٠٠٠م [٣]، وقد أنجبت للعزيز ولدان

---

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ٩ ص ٣١ ،
أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ٤ ص ١١٩ ـ ١٢١ ،
Finday : History of the Byzantine Empire, Everyman , London 1856, pp. 355 - 356 .

(٢) ابن الأثير : المصدر نفسه ، جـ ٩ ص ٤٠ ،
أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ٤ ص ١٢١ .

(٣) يحيى بن سعيد الأنطاكى : تاريخ الأنطاكى ، تحقيق عمر عبد السلام تدمرى ، بيروت ١٩٩٠ ، ص ص ١٦٤ ـ ١٦٥ ، ١٨٥ ، ٢٤٧ ، ٢٩٨ .

هما الحاكم وست الملك التى كانت تكبره بنحو ١٥ عاما وهى حازمة عاقلة بصيرة بالأمور[١]، ولها أثر كبير فى توجيه سياسته نحو النصارى ، ذكر ابن العميد أن العزيز بالله صاحب مصر كان له زوجة نصرانية ملكية ، ورزق منها بنتا ولم يذكر الحاكم ، وكان للمرأة أخوان أحدهما اسمه أرميسار (أريستيس) صيره على بيت المقدس ، والآخر أرسانيس جعله بطريركًا للملكانيين على القاهرة ومصر، وكان لهما من العزيز جانب لأنهما أخوال ابنه ، ويشير المقريزى إلى ذلك دون إظهار قرابة البطركين للعزيز[٢] ، يرى عنان[٣] أن أم ست الملك هى الجارية النصرانية ، بينما أم الحاكم هى الزوجة الشرعية وهى أخرى غير النصرانية إذ لم تشر الروايات الإسلامية إلى أن الجارية الرومية كانت هى أم الحاكم بل تنعتها دوما (بالست العزيزية) .

ولى الحاكم بأمر الله الخلافة صبيا دون الثانية عشرة[٤] وقد تمت البيعة له فى بلبيس أثر وفاة أبيه العزيز ومسيره إلى حاضرة الخلافة فى كوكبة تحفه الأبهة والجلال والأسى والحزن وجلال الموت يقول ابن خلكان[٥]: «وفى

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ٤ ص ١٩٥ .

(٢) المقريزى : الخطط ، جـ٤ ص ٤٥١ .

(٣) عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية ، القاهرة ١٩٥٩ ، ص ٤٤ .

(٤) ولى الحاكم بأمر الله الخلافة صبيا دون الثانية عشرة (كان عمره إحدى عشر سنة وخمسة أشهر وستة أيام) ، المقريزى : الخطط ، جـ٢ ص ٢٨٥ .
ولد فى الرابع والعشرين من ربيع الأول سنة ٣٧٥هـ / الرابع عشر من أغسطس ٩٨٦م وأمه أم ولد (جارية رومية نصرانية من الكاثوليك) كان لها نفوذ عظيم أيام العزيز بالله الوالد .

(٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ٢ ص ٢٠١ .

صباح يوم الأربعاء التاسع والعشرين من رمضان سار الحاكم إلى عاصمة ملكه فى مواكب فخمة تظلله أبهة الخلافة ، رهيب يظلله جلال الموت ، وأمامه جثة أبيه ، وقد وضعت فى عمارية برزت منها قدماه ، وعلى رأسه المظلة يحملها ريدان الصقلبى ، وبين يديه البنود والرايات ، وقد ارتدى دراعه مصمته وعمامة يكللها الجوهر ، وتقلد السيف ، وبيده رمح ، فدخل القاهرة عند مغيب الشمس فى هذا الحفل الرهيب الفخم ، وفى الحال أخذ فى تجهيز أبيه ، فتولى غسله قاضى القضاة محمد بن النعمان ، ودفن عشاء إلى جانب أبيه المعز فى حجرة القصر ، وفى صباح اليوم التالى (الخميس) بكر سائر رجال الدولة إلى القصر ، وقد نصب للخليفة الصبى فى الإيوان الكبير ، سرير من الذهب ، عليه مرتبة مذهبة ، وخرج من القصر إلى الإيوان راكبا وعلى رأسه معممة الجوهر ، والناس وقوف فى صحن الإيوان، فقبلوا الأرض ومشوا بين يديه حتى جلس على عرشه ، وسلم عليه الجميع بالإمامة وباللقب الذى اختير له وهو « الحاكم بأمر الله » ، ونودى فى القاهرة والبلدان أن الأمن موطد والنظام مستتب ، فلا مؤنة ولا كلفة ، ولا خوف على النفس أو المال ».

* * *

الفصل الثالث

الحالة السياسية فى عهد الحاكم بأمر الله وخلفائه

الفصل الثالث

الحالة السياسية فى عهد الحاكم بأمر الله وخلفائه

تمت الوصاية على الحاكم من قبل ثلاثة أكابر من رجال الدولة هم : برجوان الصقلبى خادمه وكبير خزانه ، والحسن بن عمار الكتامى زعيم كتامة عماد الدولة الفاطمية ، ومحمد بن النعمان قاضى القضاة . كان برجوان يلقب (أبو الفتوح) رباه العزيز واصطفاه وولاه إمارة القصر ولقبه (بالاستاذ) وهو من ألقاب الوزارة فى الدولة الفاطمية ، وكان برجوان بحكم موقعه أوثق صلة وقربا من الخليفة وأشد تأثيراً فى قراراته وله مقدرة على توجيهه . ولذلك وقع الخلاف بين برجوان وابن عمار الكتامى ـ الذى لقب فى سجل تعيينه (أمين الدولة) ـ أول لقب من نوعه فى الدولة الفاطمية ـ وقد طغى ابن عمار وتكبر على الناس فرفع شأن طائفة الكتاميين (التى كانت قد ضعفت أيام ابن كلس) ، أما هو فقد كان يدخل القصر ويخرج على فرسه ، وجعل الناس تترجل لها مهابة منه ، واحتجب عن الناس فلم يستطع أحد مقابلته إلا الكبار ، وقصر العطاء والأرزاق على كتامة المغربية بينما حرم منها الغلمان الأتراك ، وكثر اعتداء المغاربة على الناس بعد أن سيطروا على كل إدارات الدولة وشئونها ومرافقها [١].

أدرك برجوان ما يحيق به من أخطار فكاتب بنجوتكين فى الشام لإنقاذه

---

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ٩ ص ٤٠ ـ ٤١ .
، المقريزى : الخطط ، جـ٢ ص ٣ ، ٤ .

وسيده مما يحيق بهما من الأخطار ، فسار على رأس قواته لمحاربة الكتاميين لكنه هزم على يد ابن عمار في عسقلان في جمادى الأولى سنة ٣٨٧هـ/٩٩٨م ، فاشتد طغيان كتامة وزادت سطوتهم ، مما جعل برجوان يؤلب عليهم جماعة كبيرة من زعماء الجند وأتباعهم ، فهاجموا الكتاميين في ظاهر القاهرة في شعبان سنة ٣٨٧هـ/٩٩٨م ، وأعملوا فيهم القتل والتنكيل ، وقبض برجوان على ابن عمار ثم تركه بعد تأديبه وذلك حتى يسكن من غضب الكتامية ، واستأثر برجوان بكل السلطات ، واستخدم كاتبا له من النصارى هو فهد بن إبراهيم ، ولقبه بالرئيس ، وفوض إليه كل أمور الخلافة ، بينما سيطر برجوان على الحاكم سيطرة تامة ولم يجعله يغيب عن عينيه ، وصارت كل أمور الخلافة طوع يديه ، ومن ناحية أخرى استطاع توطيد سلطانه بإرسال ابن الصمصامة على رأس جيش أنفذه إلى بلاد الشام للقضاء على بعض ثورات الخوارج هناك، فضلا عن محاربة الروم البيزنطيين الذين حاولوا مهاجمة حدود الدولة مستغلين الاضطرابات الداخلية بها ، ومن ناحية أخرى سير برجوان جيشا بقيادة يانس الصقلبي للقضاء على الثورة التي اندلعت في الناحية الغربية ، ويرجح أن يكون السبب هو اعتماد العزيز الوالد على الأتراك والصقالبة والبعد عن المغاربة عماد الدولة الأصليين [١]، وكانت هي نفس سياسة برجوان (لأصله الصقلبي) ، الذي عمل جاهدا على القضاء على نفوذ المغاربة وإعلاء شأن الصقالبة والأتراك ، فعين كثيراً منهم في بلاطه بالقصر الحاكم ، بينما عين ميسور الخادم على طرابلس ، ويمن الخادم على غزة وعسقلان حتى يكونوا سندا

---

(١) المقريزي : الخطط ، جـ٢ ص ٣ ، ٤ .

له وولاء لشخصه ، وساعده على ذلك جنوح الروم إلى السلم بعد هزيمتهم، فتم الاتفاق بين برجوان وباسيل الثانى قيصر القسطنطينية على وقف القتال والجنوح إلى السلم .

على الرغم من الاضطرابات التى لاحقت عصر الحاكم فى بدايته إلا أن وجود الوصى برجوان على رأس الدولة أدى إلى القضاء على اضطرابات الكتاميين وزعيمهم ابن عمار ، وتدعيم نفوذ الصقالبة فى القصر والإدارة بدءا من سنة ٣٨٧هـ/ ٩٩٨م ، وفق خطة زمنية مضبوطة محكمة .

بدأ برجوان بالرملة التى خرج زعيمها المفرج بن دغفل الجراح ، فأرسل إليها جيشا كبيراً بقيادة جيش بن الصمصامة وهو من زعماء كتامة الموالين لبرجوان ، وبعد القضاء على فتنته اتجه إلى صور واستطاع ضمها للخلافة الفاطمية بعد حصار بحرى بقيادة الحسين بن ناصر الحمدانى، وهجوم برى بقيادة فايق الخادم ترتب عليه إعدام زعيم صور المسمى علاقة ، ثم سار جيش بن الصمصامة إلى دمشق وكان عليها سليمان بن جعفر الكتامى الموالى لابن عمار ، وواصل قائد الجيش الفاطمى سيره إلى «إفامية» وهنالك التقى بالروم ، وعلى الرغم من هزيمة المسلمين فى المعركة الأولى ، إلا أن أحد الجند المسلمين تسلل إلى المعسكر البيزنطى ، واستطاع أن يقتل القائد البيزنطى داميانوس ديلاسينوس المعروف بـ « الدوقى » فوقع الاضطراب فى صفوف الروم ، فهاجمهم المسلمون ومزقوهم شر ممزق وطاردوهم حتى أبواب أنطاكية ، وتم أسر كبار القادة البيزنطيين وإرسالهم إلى مصر حتى تم الافتداء سنة ٣٨٩هـ / ٩٩٩م .

حاول باسيل الثانى الثأر لماحل بجيشه فنزل على طرابلس ودارت معارك

شديدة مع القائد جيش بن الصمصامة ، لكن باسيل الثانى ارتد بجيشه إلى الشمال لما بلغه تحرك البلغار ، بينما مرض جيش وتوفى فى ربيع الأول سنة ٣٩٠هـ/ ٩٩٩م ، فخلفه فى ولاية الشام فحل بن تميم . وقد عقد برجوان مع باسيل الثانى هدنة حتى يستطيع التفرغ لتوطيد السلطان الداخلى ، وكذلك حاجة باسيل الثانى لمواجهة الخطر البلغارى . وانتدب برجوان البطريك أريسطيس بطريرك بيت المقدس - خال الأميرة ست الملك - لتقرير شروط الهدنة مع القيصر ، وعقدت أواصر الصداقة بين الدولتين ، وتم إقرار الهدنة عشر سنوات ، ووقعت معاهدة السلام فى ٣٨٩ - ٣٩٠هـ / ٩٩٩م قبيل مقتل برجوان بأشهر قلائل[1].

أنفذ برجوان جيشًا آخر إلى طرابلس الغرب بقيادة يانس الصقلبى وكانت تحت حكم باديس بن منصور الصنهاجى ، لكنه هزم وقتل .

كان الحاكم يرقب الموقف لكنه لا يستطيع أن يتدخل لسطوة برجوان فى ذلك الوقت ، الذى أراد صرف الخليفة إلى حياة اللهو واللعب للاستئثار بمقدرات الخلافة ، فلما ازدادت سطوة برجوان على الخليفة نفسه ، وأحس الخليفة بمدى المهانة التى يتعرض لها من قبل خادمه التى عبر عنها المقريزى : « استدعى الحاكم خادمه ذات يوم فسار إليه وهو راكب فرسه ، وقدلنى رجله على عنق الفرس ، وصار باطن قدمه وفيه الخف فى وجه الحاكم» ، ومن ناحية أخرى علم الحاكم أن برجوان يسميه الوزعه (

---

(١) الأنطاكى : تاريخ الأنطاكى ، ص ١٨٤
، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ٤ ص ١٩٢ .

أى الحبة الصغيرة) فأرسل إليه من يخبره أن الحاكم يقول له : « إن الوزغة الصغيرة قد صارت تنينا كبيرا » ، وهكذا بدأت الحرب الكلامية بين الطرفين، إذ عقد الحاكم العزم على التخلص من برجوان الطاغية، وخاصة إن ريدان الصقلبى حامل مظلة الحاكم قد أوغر صدر الحاكم ضد عدوه برجوان .

قرر الحاكم التخلص من برجوان فاستدعى قائد القواد الحسين بن جوهر وعهد إليه بهذه المهمة ، وتم ذلك باستدعاء الحاكم لبرجوان للركوب معه وانتظره فى بستان قصر اللؤلؤة[١] . فانتظره الحاكم هناك ومعه ريدان حامل المظلة فوافاه برجوان ، وبعد ذلك وثب عليه ريدان فطعنه فى عنقه بسكين ، وانقضت عليه جماعة كانت قد أعدت للفتك به ، فأثخنوه طعنا بالخناجر ، واحتزوا رأسه ودفن فى مكانه فى ربيع الثانى ٣٩٠هـ / إبريل ٩٩٩م ، وصاح ريدان فى أنصار برجوان : « من كان فى الطاعة فلينصرف إلى منزله ويبكر إلى القصر المعمور » ، وصودرت أموال برجوان واختفى أصدقاؤه من الميدان[٢] .

وهكذا بدأ الحكم الحقيقى للحاكم بأمر الله وعمره نحو خمسة عشر عاما ، وقام بتعيين الحسين بن جوهر الصقلى مدبرا للدولة مكان برجوان ، وخلع عليه وقلده النظر فى أمور الدولة والتوقيعات ، ولقبه فى سجل

---

(١) (قصر عظيم جميل على الخليج بالقرب من باب القنطرة شرق البستان الكافورى ومخصص للاحتفالات والمقابلات الهامة) ،

المقريزى : الخطط ، جـ٢ ص ٣ ، ٤ .

(٢) المقريزى : المصدر نفسه ، جـ٢ ص ٤ .

التعيينات « قائد القواد » وكان الحسين متواضعا يعرف مكانته وقدره ، فأمر ألا ينادى بغير لقبه الحقيقى دون تعظيم أو تبجيل ، وفتح داره للجميع ، وعاونه فى الأمر صهره عبد العزيز بن محمد بن النعمان الذى كان قد خلف أباه فى منصب قاضى القضاة .

أما الحاكم فتفرغ للإدارة العليا للدولة ، وكان يعقد مجلسا كل ليلة يحضره أكابر الدولة للبحث فى الشئون العامة للدولة ، وأبطل هذا المجلس بعد فترة من عهده ، لكن أكثر ما يميز عهد الحاكم بأنه على النقيض من برجوان ، عمد إلى رفع مكانة المغاربة والقضاء على سلطان الصقالبة والأتراك، هذا فضلا عن عفته عن الاستيلاء على أموال الرعية والأتباع ، وفى نفس الوقت وعلى الرغم من حداثة سنه قبض على الأمور بحزم وحسم بالغين وقد باشر ذلك وهو فى السادسة عشرة من عمره بمشورة وزرائه (١).

يقول المعاصرون أن شخصية الحاكم كانت مهيبة لدرجة أنه إذا أشرف على أحد سقط على الأرض مغشيا عليه ، ويُقال فى وصفه : « كان منظره مثل الأسد وعيناه واسعتان ، وإذا نظر إلى إنسان ارتعد لعظم هيبته ، وكان صوته جهورا مخيفا » حيث كان من عائلة قوية الشكيمة عظيمة الهيبة وأنه ورث ذلك عن أبيه العزيز وجده المعز (٢).

أدى اضطراب شخصية الحاكم إلى اضطراب آراء المؤرخين حول

---

(١) ابن الصيرفى : الإشارة إلى من نال الوزارة ، تحقيق أيمن فؤاد سيد ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ١٩٩٠ ، ص ٢٦ .

(٢) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ص ٢٨٥ .

شخصيته فبينما يصفه ابن العميد بصورة مروعة مثيرة ، فى صورة جبار منتقم سفاك للدماء ، طاغية مضطرم الأهواء والنزعات ، متناقض الرأى والتصرفات - ليس هناك باعث لأعماله - شرسا جموحا ، ميالا للشر ، خؤونا وافر الغدر لا يستقر على صداقة ، وبالجملة تقدمه فى ثوب شخصيته بغيضة خطره فاقدة الإتزان والرشد ، يغلب عليها الجانب الأسود ، ومع ذلك فهو خير جواد زاهد متقشف . ثم تعود الرواية لتصفه : كثير الذنب ، حاداً، لا يملك نفسه عند الغضب ، ردئ السيرة ، فاسد العقيدة ، مضطربا فى جميع أموره ، يأمر بالشيء ويبالغ فيه ثم يرجع عنه ويبالغ فى نقيضه [١]، يقول ابن خلدون عنه [٢]: « وكان حاله مضطربا فى الجور والعدل والإخافة والأمن والنسك والبدعة » ، ولذلك علينا تفهم شخصيته ونفسيته على أضواء أخرى .

قال أبو المحاسن[٣] : « وكانت خلافته متضادة بين شجاعة وإقدام ، وجبن وإحجام ، ومحبة للعلم وانتقام من العلماء ، وميل إلى الصلاح وقتل الصلحاء ، وكان الغالب عليه السخاء ، وربما بخل بما لم يبخل به أحدٌ قط . وأقام يلبس الصوف سبع سنين ، وامتنع من دخول الحمام ؛ وأقام سنين يجلس فى الشمع ليلا ونهاراً ، ثم عنّ له أن يجلس فى الظلمة فجلس فيها مدة ، وقتل من العلماء والكتاب والأئمة ما لا يحصى ؛ وكتب على

---

(١) ابن العميد : تاريخ المسلمين ، ليدن ١٩٢٥ ، ص ٢٥٩ .

(٢) ابن خلدون : المقدمة جـ٤ ص ٦٠ .

(٣) النجوم الزاهرة : جـ٤ ص ص ١٧٦ - ١٧٨ .

المساجد والجوامع سبّ أبى بكر وعمر وعثمان وعائشة وطلحة والزبير ومعاوية وعمرو بن العاص (رضى الله عنهم) فى سنة خمس وتسعين وثلثمائة، ثم محاه فى سنة سبع وتسعين ؛ وأمر بقتل الكلاب وبيع الفقاع ، ثم نهى عنه ؛ ورفع المكوس عن البلاد وعما يُباع فيها ، ونهى عن النجوم، وكان ينظر فيها ؛ ونفى المنجمين وكان يرصدها؛ ويخدم زحل وطالعه المريخ، ولهذا كان يسفك الدماء ، وبنى جامع[1] القاهرة ، وجامع راشدة[2] على النيل بمصر ، ومساجد كثيرة ، ونقل إليها المصاحف المفضضة والستور الحرير وقناديل الذهب والفضة ؛ ومنع صلاة التراويح عشر سنين ، ثم أباحها؛ وقطع الكروم ومنع بيع العنب ، ولم يبق فى ولايته كرما ؛ وأراق خمسة آلاف جرة من عسل فى البحر خوفا من أن تُعمل نبيذا ؛ ومنع النساء من الخروج من بيوتهن ليلا ونهارا ؛ وجعل لأهل الذمة علامات

---

(١) جامع القاهرة : « جامع الحاكم » الذى يقال له « الجامع الأنور » وهو بشارع باب الفتوح بالقاهرة . أسسه والده العزيز بالله نزار سنة ثمانين وثلثمائة وأكمله هو سنة إحدى وأربعمائة . راجع المقريزى ، جـ٢ ص ٢٧٧.

(٢) قال المقريزى : « إن هذا الجامع كان واقعا بين مدينة الفسطاط ودير الطين ، وعرف بهذا الاسم لأنه بنى فى خطة راشدة بن أدب بن جديلة من لخم ، وقال : وخطتهم بمصر بالجبل المعروف الرصد المطل على بركة الحبش » . وقد زال هذا الجامع ، ومحله اليوم مساكن قائمة بالجهة الغربية من عزبة اصطبل عنتر ، قبل الطريق الموصلة بين هذه العزبة وبين جسر النيل ، فى الزاوية التى تتقابل فيها هذه الطريق بالجسر الفاصل بين العزبة وبين الأراضى الزراعية . وهذا الموضع يعرف عند أهل الجهة بمقام الست راشدة . وأما عزبة واصطبل عنتر المذكورة فإنها من توابع ناحية أثر النبى واقعة تحت سفح جبل اصطبل عنتر (جبل الرصد) جنوبى مصر القديمة ، راجع المقريزى : خطط جـ٢ ص ٢٨٢ .

يعرفون بها ، وألبس اليهود العمائم السود ، وأمر ألا يركبوا مع المسلمين ، وألا يستخدموا غلاما مسلما ، ولا يركبوا حمار مسلم ، ولا يدخلوا مع المسلمين حماما ، وجعل لهم حمامات تقتصر عليهم ؛ ولم يبق فى ولايته ديراً ولا كنيسة إلا هدمها؛ ونهى عن تقبيل الأرض بين يديه والصلاة عليه فى الخطب والمكاتبات ؛ وجعل مكان الصلاة عليه : السلام على أمير المؤمنين ، ثم رجع عن ذلك ؛ وأسلم من أهل الذمة خوفاً منه ثم ارتدوا؛ وأعاد الكنائس إلى حالها » .

نقل أبو المحاسن[1] عن الحافظ أبى عبد الله الذهبى قوله: «كان الحاكم بأمر الله جوادا سمحا خبيثًا ماكرا ، ردئ الاعتقاد ، سفاكا للدماء ؛ قتل عددا كبيرا من كبراء دولته صبراً ؛ وكان عجيب السيرة ، يخترع كل وقت أمورا وأحكاما يحمل الرعية عليها ؛ فأمر بكتب سب الصحابة على أبواب المساجد والشوارع ، وأمر العمال بالسب فى الأقطار فى سنة خمس وتسعين وثلثمائة ، وأمر بقتل الكلاب فى مملكته وأبطل الفُقّاع والملوخيا ؛ ونهى عن السمك ، وظفر بمن باع ذلك فقتلهم ؛ ونهى فى سنة اثنتين وأربعمائة عن بيع الرطب ثم جمع منه شيئا عظيما فأحرق الكل ؛ ومنع بيع العنب وأباد كثيرا من الكروم ؛ وأمر النصارى بأن تحمل فى أعناقهم الصلبان ، وأن يكون طول الصليب ذراعا وزنته خمسة أرطال بالمصرى ؛ وأمر اليهود أن يحملوا فى أعناقهم قرامى الخشب فى زنة الصلبان أيضاً ، وأن يلبسوا العمائم السود ، وأن

---

(١) انظر « النجوم الزاهرة جـ٤ ص١٧٨ ـ ١٧٩ .

يدخلوا الحمام بالصلبان ، ثم أفرد لهم حمامات . وفى العام التالى أمر بهدم كنيسة القيامة [١]. ولما أرسل إليـه ابن باديس[٢] ينكر عليه أفعاله، أراد استمالته فأظهر التفقه وحمل فى كمه الدفاتر ، وطلب إليه فقيهين وأمرهما بتدريس مذهب مالك فى الجامع ؛ ثم بدا له فقتلهما صبرا ؛ وأذن للنصارى الذين أكرههم على الإسلام فى الرجوع إلى الشرك، وفى سنة أربع وأربعمائة منع النساء من الخروج فى الطريق ، ومنع من عمل الخفاف لهن ؛ فلم يزلن ممنوعات سبع سنين وسبعة أشهر حتى مات . ثم إنه بعد مدة أمر ببناء ما كان أمر بهدمه من الكنائس . وكان أبوه العزيز قد ابتدأ ببناء جامعه الكبير بالقاهرة (يعنى الذى هو داخل باب النصر) فتممه هو . وكان على بنائه ونظره الحافظ[٣] عبد الغنى بن سعيد . وكان الحاكم يفعل الشيء ثم ينقضه . وخرج عليه أبو ركوة الوليد ابن هشام العثمانى الأموى الأندلسى بنواحى برقة فمال إليه خلق عظيم؛ فجهز الحاكم لحربه جيشًا فانتصر عليهم أبو ركوة وملك ؛ ثم تكاثروا عليه وأسروه؛ ويقال : أن عدد من قُتل من أصحابه يقدر بنحو سبعين ألفا . وحمل أبو ركوة إلى الحاكم فذبحه فى سنة سبع وتسعين وثلاثمائة » .

---

(١) موضع هذه الكنيسة بيت المقدس وهى فى وسط البلد والسور يحيط بها ، راجع المقريزي، الخطط جـ٢ ص ٢٨٧ .

(٢) ابن باديس : هو المعز بن منصور بن بلكين الحميرى الصنهاجى .

(٣) هو الإمام الحافظ عبد الغنى بن سعيد أبو محمد المصرى ، كان إمام زمانه فى علم الحديث وحفظه ، ثقة مأمونا . ولد سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة وتوفى سنة تسع وأربعمائة. ومن تأليفه كتاب « المؤتلف والمختلف » .

كما أورد أبو المحاسن رأى ابن خلكان الذى جاء فيه : « وكان أبو الحسن على المعروف بابن يونس المنجم قد صنع له (الحاكم بأمر الله) «الزيج» المعروف بالحاكمى ، وهو زيج كبير مبسوط . قال : نقلت من خط الحافظ أبى طاهر أحمد بن محمد السلفى رحمه الله تعالى أن الحاكم المذكور كان جالسا فى مجلسه العام وهو حفلٌ بأعيان دولته ، فقرأ بعض الحاضرين : ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾(١) ، والقارئ فى أثناء ذلك كله يشير إلى الحاكم . فلما فرغ من القراءة قرأ شخص يعرف بابن المُشجر (والمشجر بضم الميم وفتح الشين المعجمة والجيم المشددة وبعدها راء مهملة) وكان ابن المشجر رجلا صالحا فقرأ : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾(٢). فلما انتهت قراءته تغير وجه الحاكم ، ثم أمر لابن المشجر المذكور بمائة دينار ، ولم يطلق للآخر شيئا . ثم إن بعض أصحاب ابن المشجر ، قال : أنت تعرف خلق الحاكم وكثرة استحالاته ، وما تأمن أن يحقد عليك [وأنه لا يؤاخذك فى هذا الوقت] ثم يؤاخذك بعدها فالمصلحة عندى أن تغيب عنه ، فتجهز ابن المشجر إلى الحج وركب فى البحر وغرق . فرآه صاحبه فى النوم [فسأله عن حاله] فقال : ما قصر الرُّبان معنا ، أرسى بنا على باب الجنة » .

---

(١) سورة النساء آية ٦٥ .

(٢) سورة الحج الآيتان ٧٣ ، ٧٤ .

ويعرض أبو المحاسن لرأى ابن الصابئ :[١] « كان الحاكم يواصل الركوب ليلا ونهارا ، ويتصدى له الناس على طبقاتهم ، فيقف عليهم ويسمع منهم ، فمن أراد قضاء حاجته قضاها فى وقته ، ومن منعه سقطت المراجعة فى أمره . وكان المصريون موتورين منه ؛ فكانوا يدسون إليه الرقاع المختومة بالدعاء عليه والسب له ولأسلافه ، والوقوع فيه وفى حرمه ، حتى انتهى فعلهم إلى أن عملوا تمثال امرأة من قراطيس بخف وإزار ، ونصبوها فى بعض الطرق وتركوا فى يدها رقعة كأنها ظلامة ؛ فتقدم الحاكم وأخذها من يدها . فلما فتحها رأى فى أولها ما استعظمه ، فقال : انظروا هذه المرأة من هى ؟ فقيل له : إنها معمولة من قراطيس ؛ فعلم أنهم قد سخروا منه ، وكان فى الرقعة كل قبيح ، فعاد من وقته إلى القاهرة ، ونزل فى قصره واستدعى القواد والعرفاء ، وأمرهم بالمسير إلى مصر وحرقها بالنار ونهبها ، وقتل من ظفروا به من أهلها ؛ فتوجه إليها العبيد والروم والمغاربة وجميع العساكر ، وعلم أهل مصر بذلك فاجتمعوا وقاتلوا عن أنفسهم ، وأوقعوا النار فى أطراف البلد؛ فاستمرت الحرب بين العبيد والعامة والرعية ثلاثة أيام،

---

(١) هو أبو الحسن هلال بن المحسن بن إبراهيم الصابئ الكاتب ، ولد سنة تسع وخمسين وثلثمائة ، وتوفى فى السنة الثامنة والأربعين بعد الأربعمائة ، كان أبوه المحسن صابئا ، فأما هو فأسلم ، وكان من كبار العلماء والأدباء ، وله كتاب التاريخ الذى ذيل به على تاريخ ثابت بن سنان ، وبدأ به من سنة إحدى وستين وثلثمائة إلى سنة سبع وأربعين وأربعمائة ، وكان من الفصحاء وله الكلام الفصيح والنثر المليح ، وله عدة مؤلفات. للتفصيل راجع ترجمته بمقدمة كتاب تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء ، بيروت سنة ١٩٠٤ .

والحاكم يركب فى كل يوم إلى القرافة ، ويطلع إلى الجبل ويُشاهد النار ويسمع الصياح ويسأل عن ذلك ، فيقال له : العبيد يحرقون مصر وينهبونها، فيظهر التوجع ، ويقول : لعنهم الله ! من أمرهم بهذا . فلما كان اليوم الرابع اجتمع الأشراف [والشيوخ] إلى الجوامع ورفعوا المصاحف وضجوا بالبكاء وابتهلوا إلى الله تعالى بالدعاء ، فرحمهم الأتراك ورقوا لهم وانحازوا إليهم وقاتلوا معهم ، وكان أكثرهم مخالطا لهم ومداخلاً ومصاهرا ، وانفرد العبيد وصار القتال معهم ؛ وعظمت القصة وزادت الفتنة ، واستظهرت كتامة والأتراك عليهم ، وراسلوا الحاكم ، وقالوا : نحن عبيد ومماليك ، وهذا البلد بلدك وفيه حرمنا وأموالنا وأولادنا وعقارنا ، وما علمنا أن أهله جنوا جناية تقتضى سوء المقابلة ، وتدعو إلى مثل هذه المعاملة ، فإن كان هناك باطن لا نعرفه فأخبرنا به ، وانتظرنا حتى نخرج بعيالنا وأموالنا منه ، وإن كان ما عليه هؤلاء العبيد مخالفًا لرأيك فأطلقنا فى معاملتهم بما يُعامل به المفسدون والمخالفون . فأجابهم بأنه ما أراد ذلك ، ولعن الفاعل له والآمر به، وقال : أنتم على الصواب فى الذب عن المصريين ، وقد أذنت لكم فى نصرتهم ، والإيقاع بمن تعرض لهم . وأرسل إلى العبيد سراً يقول : كونوا على أمركم؛ وحمل إليهم سلاحا قواهم به . وكان غرضه فى هذا أن يطرح بعضهم على بعض ، وينتقم من فريق بفريق . وعلم القوم بما يفعل ، فراسلته كتامة والأتراك : قد عرفنا غرضك ، وهذا هلاك هذه البلدة وأهلها وهلاكنا معهم؛ وما يجوز أن نسلم نفوسنا والمسلمين لفتك الحريم وذهاب المُهَج . ولئن لم تكُفَّهم لنحرِقنّ القاهرة ، ونستنفرن العرب وغيرهم ؟ فلما سمع الرسالة .

وكانوا قد استظهروا على العبيد . ركب حماره ووقف بين الصّفّين وأومأ للعبيد بالانصراف فانصرفوا ، واستدعى كُتَامة والأتراك ووجوه المصريّين واعتذر إليهم ، وحلف أنه برىء مما فعله العبيد ؛ وكذب في يمينه ؛ فقبّلوا الأرض بين يديه، وشكروه ، وسألوه الأمان لأهل مصر ، فكتب لهم ، وقُرئ الأمان على المنابر ، وسكنت الفتنة وفتح الناس أسواقهم ورجع الناس إلى أسواقهم وراجعوا معايشهم . واحترق من مصر ثلثها ونُهِب نصفُها . وتتبّع المصريون مَنْ أخذ أزواجهم وأخواتهم ، وابتاعوهنّ من العبيد بعد أن فضحوهنّ ، وقتَل بعضُهن نفوسَهنّ خوفًا من العار . واستغاث قوم من العَلَوِيِّين الأشراف إلى الحاكم ، وذكروا أنّ بعض بناتهم في أيدى العبيد على أسوأ حال ، وسألوه أن يَستخلصَهُنّ ؛ فقال الحاكم : [انظروا] ما يطالبونكم به عنهنّ لأطلقه لكم ؛ فقال له بعضهم : أراك الله في أهلك وولدك مثل ما رأينا في أهلنا وأولادنا ، فقد اطرحتَ الدّيانة والمروءة بأن رضيتَ لبنات عمّك بمثل هذه الفضيحة ، ولم يلحقك منهن امتعاض ولا غيره . فحَلُمَ عنه الحاكم وقال له : أنت أيها الشريف مُخْرَج ونحن حَقيقيون باحتمالك وإلا غضبنا عليك زاد الأمر على الناس فيما يَفْجؤهم به حالا بعد حال من كل ما تنخرق به العادات وتفسد الطاعات .

ثم عنّ له أن يدّعى الرُّبوبية ، وقرّب رجلا يُعرف بالأخرم ساعده على ذلك وضمّ إليه بسطهم للأفعال الخارجة عن الدّيانة . فلما كان في بعض الأيام خرج الأخرم من القاهرة راكبًا دابته ، ومعه أصحابه على دوابهم

وقاضى القضاة ابن [أبى] العوّام[١] جالسٌ فيه ينظر فى الحكم ، فنهبوا الناس وسلبوهم ثيابهم وسلّموا للقاضى رقعة فيها فتْوَى ، وقد صُدِّرت باسم الحاكم الرحمن الرحيم . فلما قرأها القاضى رفع صوته منكرًا ، واسترجع وثار الناسُ بالأخرم وقتلوا أصحابه وهرب هو . وشاع الحديث فى دعواه الرُّبوبية ، وتقرب إليه جماعة من الجهال ، فكانوا إذا لَقُوه قالوا : السلام عليك يا واحد يا أحد يا محيى يا مميت ، وصار له دُعاة يدعون أوباش الناس ، ومن سَخُفَ عقله إلى اعتقاد ذلك ، فمال إليه خَلق [كثير] طمعًا فى الدنيا والتقرب إليه . وكان اليهودى والنّصرانى إذا لقيَه يقول : إلهى رغبتُ فى شريعتى الأولى ، فيقول الحاكم : افعل ما بدا لك ، فيرتدّ عن الإسلام . وزاد الأمر بالناس .

كما نقل أبو المحاسن عن ابن الجوزى قوله : « رأيت فى بعض التواريخ بمصر أن رجلا يعرف بالدُّرزى[٢] قدم مصر ، وكان من الباطنية القائلين بالتناسخ ؛ فاجتمع بالحاكم وساعده على ادعاء الربوبية وصنف له كتابًا ذكر فيه أن رُوح آدم عليه السلام انتقلت إلى علىّ بن أبى طالب ، وأن رُوح علىّ انتقلت إلى أبى الحاكم ، ثم انتقلت إلى الحاكم . فرضى عليه الحاكم وفوض الأمور إليه ، وبلغ أعلى المراتب ، بحيث إن الوزراء والقواد والعلماء كانوا يقفون على بابه ولا ينقضى لهم شغلٌ إلا على يده . وكان قصد الحاكم الانقياد إلى الدرزى المذكور فيطيعونه . فأظهر الدُّرزى الكتاب الذى

---

(١) وهو أحمد بن محمد بن عبد الله بن أبى العوام ، كان قاضى مصر فى أيام الحاكم وولده الظاهر لإعزاز دين الله . مات سنة ثمانى عشرة وأربعمائة .

(٢) الدرزى . هو محمد بن إسماعيل داع أعجمى ، انظر تاريخ الانطاكى ص٢٠٠ .

فعله وقرأه بجامع القاهرة ، فثار الناس عليه وقصدوا قتله ، فهرب منهم، وأنكر الحاكم أمره خوفاً من الرعية ، وبعث إليه فى السرّ مالاً، وقال: اخرج إلى الشام وانشر الدعوة فى الجبال ، فإنّ أهلها سريعوا الانقياد . فخرج إلى الشام ، ونزل بوادى تيم الله بن ثعلبة غربى دمشق من أعمال بانياس، فقرأ الكتاب على أهله ، واستمالهم إلى الحاكم وأعطاهم المال ، وقرّر فى نفوسهم الدُرزىُّ التناسخ ، وأباح شرب الخمر والزنا وأخذ مال من خالفهم فى عقائدهم وإباحة دمه ؛ وأقام عندهم يبيح [لهم] المحظورات إلى أن انتهى ».

ويختتم أبو المحاسن نقولاته : « وكان يحبّ العزلة ـ يعنى الحاكم ـ ويركب على بهيمة وحدَه فى الأسواق ، ويقيم الحِسْبةَ بنفسه ، وكان خبيث الاعتقاد ، مضطربَ العقل . يقال : إنه أراد أن يدعى الألوهية وشرع فى ذلك ؛ فكلّمه أعيان دولته وخوفوه ، بخروج الناس كلّهم عليه فانتهى . [واتفق انّه خرج ليلا سنة إحدى عشرة] من القصر إلى ظاهر القاهرة ، فطاف ليلته كلّها ، ثم أصبح فتوجّه إلى شرقى حُلوان ومعه رِكَابيان ، فرد أحدهما مع تسعة من العرب السويديين(١)، ثم أمر الآخر بالانصراف . فذكر أنه فارقه عند قبر الفقاعى(٢)، فكان آخر العهد به (يعنى الحاكم) » (٣).

---

(١) هذه النسبة إلى رجل من قضاعة يسمى سويد بن الحارث بن حصين بن كعب ابن عليم .

(٢) كان واقعا فى طريق الذاهب من القاهرة إلى ناحية البساتين ، وقد زال . وموقعه اليوم فى الفضاء الواقع غربى جبانة سيدى عقبة قبل الإمام الشافعى وعلى بعد ٥٠٠ متر تقريبًا من الجهة الغربية لجامع سيدى عقبة . راجع تربة الفقاعى ص ١٢٧ من الكواكب السيارة لابن الزيات .

(٣) انظر ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ٤ ص١٧٨ وما بعدها .

مما سبق يتجلى لنا أن الحاكم قام فى بداية عهده بقتل برجوان وصيه ومدبر دولته وكان للجريمة باعث سياسى قوى ، إلا أنه تبعه بضربة دموية أخرى هى قتل الحسن بن عمار زعيم كتامة وأمين الدولة السابق ، وقد قتله بعد أن أعطاه الأمان ، وحدث ذلك عندما كان منصرفًا من القصر فانقض عليه جماعة من الغلمان الترك قد هيئت للفتك به ، فقتلوه وحملوا رأسه إلى الحاكم فى شوال ٣٩٠هـ/ ١٠٠٠م[١]، وتعليلها التخلص من الزعماء الأقوياء وسحقهم ، وخاصة أنه أقوى الزعماء ويمثل أقوى القبائل المغربية ، وقد تبعه بوزرائه وغلمانه تباعا .

ثم قتل وزيره فهد بن إبراهيم النصرانى الذى قضى فى منصبه ست سنوات وأقام مكانه على بن عمر العداس ، ثم أمر بقتله بعد ثلاثة أشهر وقتل معه الخادم ريدان الصقلبى حامل المظلة ، ثم قتل عددا كبيراً من الغلمان والخاصة دون حكمة ظاهرةسنة ٣٩٤هـ/١٠٠٣م ، « إلا ما كان من نزعة مؤقتة أو سخط فجائى ». ثم قتل الحسين بن النعمان الذى شغل منصب القضاء منذ ٣٨٩هـ/٩٩٨م ، فقتل وأحرقت جثته ومن ورائه خلق كثير قتلوا أو احرقوا ، مع جماعة من الأعيان[٢].

لا شك إذن أنها نزعة وحشية إلى البطش والفتك وبخاصة أن أكثر من تعرض لذلك هم من خاصة الوزراء والكتاب والغلمان والخاصة فضلاً عن

---

(١) المقريزي : الخطط ، جـ٢ ص ١٢ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ٤ ص ٢١٢ .

العامة من الذين تعرضوا للقتل لأتفه الأسباب وأقل الذنوب ، أو لاتهامهم بمخالفة المراسيم وأحكامه الصارمة التى توالى صدورها، وكان رجال الدولة وكبار القصر يرتجفون رعبا وروعا أمام ضرباته القاصمة .

يقول المسبحى صديق الحاكم ومؤرخه : « أن الحاكم أمر فى سنة ٣٩٥هـ/١٠٠٤م بعمل شونة كبيرة ملئت بالسنط والبوصى والحلفا ، فظن رجال القصر والمقربين أنها أعدت للاعدام ، وسرت فى ذلك الشائعات المخيفة ، فاجتمع الكبار من طوائف الشعب وذهبوا إلى بابه يتضرعون ويسألون العفو عنهم ، ورفعوا مع القائد الحسين بن جوهر رقعة يلتمسون فيها العفو ويطلبون الأمان ، فأمرهم بالانصراف بعد إجابة طلبهم على أن يحضروا مبكرين لتلقى سجل العفو [١]، وتوالت العهود بالأمان لكافة الطوائف حتى صدرت لكل من الغلمان الاتراك ، وصبيان الخاصة وخدم القصر والتجار وأرباب المهن والحرف ، وقرئ على أهلها وأورد المسبحى نص إحداها الذى نقله المقريزى : « هذا كتاب من عبدالله ووليه المنصور أبى على الحاكم بأمر الله أمير المؤمنيين لأهل مصر الآمنين : انكم من الآمنين بأمان الله الملك الحق المتين ، وأمان جدنا محمد خاتم النبيين وأبينا على خير الوصية ، وآبائنا الذرية النبوية المهدية صلى الله على الرسول ووصيه وعليهم أجمعين وأمان أمير المؤمنين على النفس والحال والدم والمال

---

(١) كانت الأوامر التى تصدر عن دار الخلافة تسمى بالسجلات ثم سميت بالعهود .
، القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ١٠ ص ٣٠٨ .

لا خوف عليكم ولا تمد يد بسوء إليكم ، إلا فى حد يقام بواجبه ، وحق يؤخذ بمستوجبه فيوثق بذلك ، وليقول عليه إن شاء الله تعالى ، وكتب فى جمادى الآخرة بسنة خمس وتسعين وثلثمائة والحمد لله وصلى الله على محمد سيد المرسلين وعلى خير الوصية وعلى الأئمة المهديين ذرية النبوة وسلم تسليمًا كثيراً » ، (كان عمره وقتذاك لم يجاوز عشرين عاما ولكن تصرفاته كلها تبث الرعب فى النفوس) .

على أى حال فقد حدث فى السنوات التالية بعض حوادث القتل المروعة والتنكيل بكبار رجال الدولة فكانت خدمتهم غالبًا ما تنتهى بسفك دمائهم ، ففى شعبان ٣٩٨هـ/١٠٠٨م تم عزل القائد الكبير الحسين بن جوهر وعين مكانه صالح بن على الروزبارى ولقبه ثقة ثقات السيف والقلم، وبعد أسابيع قلائل أمر بالقبض على الحسين بن جوهر وصهره قاضى القضاة على بن عبد العزيز ، فهرب الحسين واضطربت البلاد ، إلا أن الحاكم عفا عنهما وأعادهما إلى مناصبهما ، لكنهما فرا هاربين خشية الغدر ، فأمر الحاكم بمصادرة أملاكهما وسائر المال والمتاع وسير الجند فى طلبهما وأنفذ لهما كتاب الأمان فعادا للقاهرة وقرئ سجل الأمان علنا ، وبعد أن دخلا القصر واطمئنا، قتلا فجأة فى ١٢ جمادى الآخرة سنة ٤٠١ هـ/١٠١٠م وصودرت الأموال، ورغم أنه أعطى أولاد الحسين الثلاثة الأمان وخلع عليهم لكنهم فروا إلى الشام طالبين الحماية من حاكم أنطاكية البيزنطى ، لكنه أرسل فى طلبهم واحتال عليهم والى الشام وقتلهم وأرسل رؤوسهم إلى القاهرة سنة ٤٠٣هـ/١٠١٢م[١] .

---

(١) الأنطاكى : تاريخ الأنطاكى ص ١٩٩. المقريزى : الخطط ، جـ٢ ص ٢٨٧ .
وقد كان لمقتل الحسين وقع خطير لأنه ابن فاتح مصر ومؤسس الدولة الفاطمية ، =

وفى سنة ٣٩٩هـ/١٠٠٨م تم قطع أيدى طائفة كبيرة من الغلمان والكتاب والخدم الصقالبة ثم قتلوا ، كما قتل الفضل بن صالح وهو من أعظم قواد الجيش وهو الذى ظفر بأبى ركوة وقضى على ثورته ، كذلك فى سنة ٤٠٠هـ/١٠٠٩م قتل طائفة أخرى منهم ، وجماعة من علماء السنة وقبض على صالح بن على الروزبارى وقتله ، ثم قتل ابن عبدون النصرانى الذى خلف الروزبارى وكذلك خليفة ابن عبدون وهو أحمد بن محمد القشورى لأنه كان يميل إلى الحسين بن جوهر ويبجله ، أما غبن خادمه المقرب وهو من الصقالبة فبعد أن قربه الحاكم إليه وعينه فى الشرطة والحسبة وخلع عليه لقب قائد القواد وعهد إليه تنفيذ المراسيم الدينية والاجتماعية ، إلا أنه غضب عليه فأمر بقطع إحدى يديه ، ثم سخط عليه مرة أخرى وأمر بقطع يده الثانية وحملت إلى الحاكم فى طبق ، ورضى عنه وأمر الأطباء بمعالجته وأغدق عليه الأموال ثم غضب عليه وأمر بقطع لسانه فقطع وحمل إلى الحاكم ، حتى مات « غبن » الصقلبى متأثراً بجراحه فى جمادى الأولى ٤٠٤هـ/١٠١٣م ، أما كاتبه أبو القاسم الجرجرائى فقد أمر الحاكم بقطع يديه لوشاية صدرت فى حقه وعاش أقطع اليدين طيلة حياته [١].

شهدت سنة ٤٠٥هـ/١٠١٤م سلسلة أخرى من القمع والبطش ، فقد أمر بقتل قاضى القضاة مالك بن سعيد الفارقى ، والوزير الحسين بن طاهر الوزان ، وعبد الرحيم بن أبى السير الكاتب وأخاه الحسين متولى الوساطة والسفارة ، وقلد الوساطة الفضل بن جعفر بن الفرات ثم قتله

= وكذلك لمقتل عبد العزيز بن النعمان الذى حمل زعامة الدولة الروحية منذ نشأتها ، وكانت الخاتمة المأساوية كارثة محققة لنفوذ الأسرتين .

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ٤ ص ٢٢٣ .

بعد أيام ، وتقرر الروايات عدد القتلى من مختلف الطبقات بنحو ١٨ ألف شخص .

كان الإرهاب والسفك هما وسيلتا الحاكم فى توطيد حكمه ، وإذا تنصل الناس من أوامر الحاكم ورغباته فيجب حينئذ قمع مجموعة منهم حتى تعود الأغلبية إلى الهدوء والخضوع لأوامره . كان طاغية قوى النفس والشكيمة مسرفا فى القمع والقتل والإرهاب ، ووحش ضارى ، حاد لا يملك نفسه عند الغضب فأفنى أمما وأباد أجيالا وأقام هيبة عظيمة ... وهو مع هذا القتل العظيم والطغيان المستمر يركب وحده منفردا تارة ، وفى موكب تارة أخرى ... والناس كافة على غاية الهيبة له والخوف منه والوجل لرؤيته وهو كالأسد الضارى ، فلم يزل كذلك مدة ملكه وهى إحدى وعشرين سنة .

جمعت هذه الشخصية بين خلال وصفات يحمل أكثرها طابع العنف والشذوذ والتناقض ، وذلك من خلال دراسة أعمال الحاكم وغريب أحكامه وتصرفاته التى افاض فى وصفها المؤرخون[1] ويرجع سبب الشذوذ الفكرى واضطراب الأهواء هو ذلك المرض الذى أصاب الحاكم وهو فى الثامنة من عمره، وغلب عليه وهو ضرب من (المانخوليا) ، يقول المقريزى : « إن الحاكم كان يعتريه جفاف فى دماغه ، فلذلك كثر تناقضه ، غير أن أحسن ما يمكن قوله هو أن أفعاله كانت لا تعلل ، وأحلامه ووساوسه لا تؤول ،

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ٤ ص ١٧٨ .
، المقريزى : الخطط ، جـ٢ ص٢٨٩ .
، النويرى : نهاية الأرب ، جـ ٢٦ ص ٥٢ ـ ٥٦ .

ولا شك أن شخصية الحاكم تعد من أعجب وأغمض الشخصيات التى عرفها التاريخ ، يقول دوزى : « وهو أعجب أمير أنجبته أسرته كان أسطورى الشخصية ، علـى أن مؤرخيـه اعتبروه فقط [مجنونا] »(١) .

منذ سنة ٣٩١هـ/١٠٠٠م بدأ الحاكم مرحلة جديدة فى تصرفاته ، إذ شغف بالعمل ليلاً ، فكان يعقد مجلسه بعد دخول الظلمة ، وأمر بقيام كل الأعمال ليلا وفى سبيل ذلك صدرت الأوامر بتعليق المصابيح على الحوانيت وأبواب الدور والمحال المختلفة فى جميع طرقات القاهرة والفسطاط ، وكان يزور الأحياء ليلا قائمًا بعمل الحسبة ، فضلاً عن استطلاع الأحوال العامة، وهكذا صارت القاهرة كشعلة مضيئة ، وسطعت الميادين بالوقود والزينات . لكن بعض الناس استغلوا الخروج ليلاً فى اللهو والمجون وازدادت أعدادهم خلال عدة أشهر ، وتفاقم الأمر مما دعا الحاكم إلى الأمر بعدم خروج النساء ليلاً بدءاً من العشاء للقضاء على أسباب الفتن والمنكرات . وفى خطوة تالية منعت الأعمال كلها ليلا ، وصار هناك ما يشبه حظر التجول ليلاً ، وعاد الظلام منتشرا بين أرجاء القاهرة بعد ثلاث سنوات أى فى سنة ٣٩٤هـ/١٠٠٣م ، بل إن الحاكم نفسه صار مشغوفًا بالظلام يؤثره ويستمتع بالجلوس طويلا فى جنباته(٢) .

ومن بعض تصرفاته الشاذة أنه كان يأمر بإحراق الشون للاستمتاع بمنظر

---

(1) Dozy : Essai sur l'Islamisme P. 287 - 288 ,

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ٤ ص ١٧٩ .

النيران ، وكان يقتل أتباعه وخواصه ويتركهم فى مواضعهم خلال جولاته ، ثم يأمر فى اليوم الثانى بدفنهم ، والذى كان فيما مضى يستمتع بمناظر اللهو والمجون[١].

كذلك كان يصدر أوامر ومراسيم غريبة تعرف بالسجلات والتى لم يكن لها مثيل فى أى دولة إسلامية ، ومن العجيب حقا أنها كانت تصدر ثم تلغى بعد فترة قصيرة ثم تعاد مرة أخرى ، مما دعا المعاصرين ، ومن جاء بعدهم ممن اهتموا بسيرة الحاكم بأمر الله إلى الاعتقاد بأن الحاكم كان مضطربًا ذهنيًا ، إذ أنها لا يمكن أن تصدر عن حاكم عاقل .

ففى سنة ٣٩٥هـ/١٠٠٤ صدرت القوانين المدهشة بمنع الناس من أكل الملوخية والترمس والجرجير والمتوكلية والدلينس (الصدف الصغير يؤكل نيئًا مملوحًا ربما تكون أم الخلول ، وحرم ذبح الأبقار السليمة إلاّ فى أيام النحر أو ما كان ذى عاهة ، وحرم بيع الفقاع وحرم صيد السمك الذى لا قشر له وكذلك بيعه ، وحرم دخول الحمام بلا مئزر ، أما النساء فحرم عليهن الزينة والتبرج وكشف الوجه ، والبكاء والعويل والصياح خلف الجنائز ، وكان المخالفون يعاقبون بالجلد والتشهير أو الإعدام فخلت الطرق من المارة ، واقفرت الشوارع والميادين ليلاً ، كما منع شرب الخمر وكسرت أوانيها وأريقت فى كل مكان ، وأزيلت دور البغاء وأوكارهم[٢]، وأمر بقتل

---

(١) الأنطاكى : تاريخ الأنطاكى ، ص ٢٠٩ ، ٢١٧ .
(٢) الأنطاكى : المصدر نفسه ، ص ١٨٦ .

الكلاب عدا كلاب الصيد حتى خلت منها الطرق[١] ، ويرجع السبب إلى كثرة نباحها ليلاً مما أزعجه[٢] ، وأمر بقتل الخنازير فى أنحاء مصر فظهرت منها البلاد وحظر على الباعة والتجار والمارة الاقتراب من سور القصر والجلوس على باب الزهومة (من أبواب القصر)[٣].

وفى سنة ٣٩٨ هـ/١٠٠٧م صدرت عدة مراسيم (سجلات) جديدة، ومنع الناس من التظاهر بالغناء ، وركوب البحر ، ومنع الناس كافة من الخروج ليلاً من العشاء وحتى الفجر ، فازدادت المعاملات اضطراباً وسرى اليهم الخوف والجوع والجزع واشتد الغلاء وهلك الزرع ، وظهرت الأوبئة والأمراض وعز القوت فقلت الأدوية .

ولتنفيذ أوامره جنح إلى التشديد فى عقوبة كل من يخالف ما سبق مع سد أبواب القاهرة التى تلى الخليج وأبواب الدور والطاقات المطلة عليه[٤]. كما استولى على أموال زوجاته وأولاده وأقاربه وخواصه وخدمه سنة ٣٩٩هـ/ ١٠٠٨م ثم أعادها لهم[٥]، ويبدو أنه كان يعاقبهم لأمر ما ، وفى سنة ٤٠٢ هـ/١٠١١م تشدد فى منع النساء من زيارة القبور ، والاجتماع

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ٢ ص ١٦٦
، المقريزى : الخطط ، جـ٢ ص٢٨٦ .
(٢) الأنطاكى : تاريخ الأنطاكى ، ص ١٨٨ .
(٣) المقريزى : المصدر نفسه جـ٢ ص٢٨٦ .
(٤) المقريزى : المصدر نفسه جـ٢ ص٢٨٧ .
(٥) الأنطاكى : المصدر نفسه ، ص ١٩٥ .

على شاطئ النيل للتفرج ، وحرم لعبة الشطرنج ، وحظر بيع العنب إلا أربعة أرطال مما دون حتى لا يستعمل فى صنع النبيذ، وأتلف كثيرا منه وأغرقه فى النيل ، وأتلف كروم الجيزة العامرة ، وكسرت الجرار وأريقت فى النيل[١].

صدر سنة ٤٠٢هـ/١٠١١م تحريم التنجيم والكلام فيه ، ونفى سائر المنجمين من البلاد فلما استغاثوا بالقاضى الأكبر مالك بن سعيد الفارقى ، عقد لهم التوبة وأعفوا من قرار النفى ، وحدث نفس الشىء مع المغنيين ، وفى شعبان من العام نفسه تشدد مع النساء فأصدر مرسوما بمنعهن من الخروج من بيوتهن ليلاً ولا نهاراً ، عدا القابلات وغاسلات الموتى ولظروف السفر من وإلى القاهرة ، والخارجات للحج ويكون الخروج برقاع خاصة ترفع إلى القصر ، ولتنفيذ أوامره بكل صرامة منع الأساكفة من عمل أخفافهن (أحذية لهن) ، فاختفت النساء ، وساد الذعر بينهن ولزمن بيوتهن ، وذهبت كثيرات منهن إلى القصر متظلمات فلم يفزن بطائل واستغاث نساء العامة بأولى الأمر ، فكان أن سمح للباعة ارتياد الدروب لنقل السلع إلى المنازل ويبيعون للنساء فى منازلهن ، على أن يتم التسليم والتسلم بأداة تشبه المغرفة الكبيرة دون أن يسمح للنساء بالظهور[٢]، واستمر الحال

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ٢ ص ١٦٦
، المقريزى : الخطط ، جـ٢ ص٢٨٧ .
(٢) الأنطاكى : تاريخ الأنطاكى ، ص ٢٠٨
، ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ٩ ص ١٠٩
، ابن خلكان : المصدر نفسه ، جـ٢ ص ١٦٧
، المقريزى : المصدر نفسه ، جـ٢ ص ٢٨٨ .

على ذلك نحو سبع سنين .

لا شك أن ما قام به الحاكم بأمر الله يعد حادثا غير مسبوق فى تاريخ المجتمعات الإسلامية ، بل إنه لم يحدث فى أى عصر سابق أو لاحق أن عانى النساء مثل هذه المحنة القاسية ، وبخاصة استخدام الشدة فى تنفيذها ، بكل صرامة بيد مدبر الدولة أو قائد القواد ، ومن ذلك السجل الصادر بتعيين (غبن) الصقلبى قائدا للقواد ومدبرا للشرطة والحسبة سنة ٤٠٢هـ/١٠١١م الذى جاء فيه التشديد على تنفيذ تحريم الخمور والفقاع وأكل الملوخية والسمك الذى لا قشر له ، ومنع اللهو والنساء من حضور الجنائز وتحريم بيع الزبيب والعنب والعسل إلا ثلاثة أرطال فما دونها[١]، وكانت العقوبة تتراوح بين الجلد والتشهير والإعدام .

فى سنة ٤٠٣هـ/١٠١٢م أمر الحاكم فى سجل له قرئ بجامع عمرو النهى عن معارضة أمير المؤمنين ، فيما يفعل أو يصدر من أحكام وترك الخوض فيما لا يعنى ، وأمر فيه بإعادة « حى على خير العمل » فى الآذان وإسقاط « الصلاة خير من النوم » والنهى عن صلاة التراويح والضحى .

أما بالنسبة لأهل الذمة فقد أصدر سنة ٣٩٥هـ/١٠٠٤م أمرا للنصارى واليهود بلبس الخمار وشد الزنار ولبس العمائم السود ، وفى سنة ٣٩٩هـ/١٠٠٨م أمر بهدم بعض كنائس القاهرة ونهب ما فيها ، وصدر مرسوم خاص بهدم كنيسة القيامة أو القبر المقدس ببيت المقدس ، وكان حادثا جللا فى تاريخ الكنيسة .

---

(١) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ص ٢٨٦ .

ويقول هذا المرسوم : «خرج أمر الإمامة إليك بهدم قمامة ، فاجعل سماءها أرضاً ، وطلها عرضاً » كتبه كاتب نصرانى يسمى ابن شترين ، وقد توفى بعد كتابته بأيام قلائل حزناً ، وأنفذ السجل إلى يارختكين والى الرملة (فلسطين) ، فقام بتنفيذه فى الحال وأحيطت سائر رحابها وقبابها ، وأزيلت كنيسة مارى قسطنطين التى بداخلها وأصبحت الكنيسة أثراً بعد عين ، وهدم الدير الملاصق لها (١).

يرجع الأمر بهدمها للوشاية التى ساقها الراهب يونس إلى الخليفة الحاكم ضد البطريرك زخاريا لأنه لم يرسمه أسقفا ، فقال فى نصها « أنت ملك الأرض ، لكن للنصارى ملك لا يعبأ بك لكثرة ما قد اكتنز من الأموال الجزيلة لأنه يبيع الأسقفية بالمال » ، وقد كان لهدم كنيسة القيامة أثر عميق فى الأمم النصرانية فى العالم أجمع ، وكان له أثره فى إذكاء الدعوة الصليبية لإنقاذ فلسطين والقبر المقدس ، وعلى الرغم من هدمها إلا أنها ظلت مزاراً سنين طويلة ، وظلت على ذلك حتى تم إعادة بنائها فى عهد المستنصر بالله .

كما ألغى الأعياد النصرانية كعيد الصليب والغطاس وعيد الشهيد فى جميع الأنحاء ، وكان يتم الاحتفال فيها ببذخ طائل ولا سيما على ضفاف النيل والخليج مع الترانيم والصلوات ورفع الصلبان ، فأبطل كل ذلك ، كما ألغى رسوم الشعانين فى بيت المقدس ، فضلا عن إلغاء الأحباس

---

(١) الأنطاكى : تاريخ الأنطاكى ، ص ١٩٦ .

المرصودة على الكنائس والأديار بأعمال مصر وضمت إلى الديوان ، وخربت الكنائس وأبيحت للنهب وهدم دير العصير بالمقطم ونهب ، وكان يأوى إليه البطريرك أرسانيوس خال الأميرة ست الملك ، ثم قتل أرسانيوس نفسه بعد ذلك بأشهر قليلة فى ذى القعدة سنة ٤٠٠هـ/١٠٠٩م[١] كما أمر بنزع النواقيس والصلبان فى أبراج الكنائس .

وفى سنة ٤٠٢هـ/١٠١١م صدر مرسوم جديد ضد النصارى واليهود يقضى أن يلبسوا العمائم والثياب السود ، وأن يعلق النصارى فى أعناقهم صلبانًا ظاهرة من خشب ذراع فى ذراع ووزن خمسة أرطال ، وأن يعلق اليهودى قرامى من الخشب زنتها خمسة أرطال ، وان تختم بخاتم من الرصاص يحمل اسم الخليفة ، وحرم على الجميع ركوب الخيل ويكتفى بالحمير والبغال بسروج خشب وسيور سوداء ، وألا يستخدموا مسلما أو يقتنوا عبدًا مسلمًا أو جارية مسلمة ، وحظر على المكارية حمل الذميين على دوابهم ، كما حرم ذلك على الملاحين المسلمين فى سفنهم ، وأن يحمل الجميع الأجراس عند دخولهم الحمام تمييزًا لهم عن المسلمين ثم جعلت لهم حمامات خاصة ، وتم تمييز حمامات النصارى بالصلبان واليهود بالقرامى الخشبية ، وأنشئ لليهود حى خاص بجوار باب زويلة لكى لا يختلطوا بالمسلمين ، وطرد الذميون من وظائفهم واضطهدوا جميعًا واشتد الأمر عليهم وقد أدى ذلك إلى أن أسلم كثير منهم فرارًا من هذا الاضطهاد

---

(١) الأنطاكى : تاريخ الأنطاكى ، ص ١٩٤ ـ ١٩٧ .
، المقريزى : الخطط ، جـ٢ ص ٥٠٩ .

وكثر الفزع والإرجاف ، كما هاجر بعضهم إلى بلاد الروم ، ونفى مجموعة منهم خارج مصر وكانوا يتعبدون سراً بين أطلال الكنائس المهدومة ويقيمون الشعائر سراً [١].

وفى سنة ٤٠٣ هـ/ ١٠١٣م صدر سجل جديد بهدم كافة الكنائس ، وسأل جماعة من النصارى الحاكم أن يقوموا هم بهدمها وأن يبنوا مكانها مساجد ، وصدرت الأوامر للمتصرفين فى الولايات بهدمها فتم ذلك فى أنحاء القطر واستمر الحال ثلاثة أعوام[٢] ، وتم تعذيب الأنبا زخاريا بطريرك الكنيسة القبطية سنة ٤٠٠ هـ/١٠٠٩م ثم أصدر سجلا بإطلاق الحرية للنصارى واليهود بالهجرة إلى بلاد الروم أو الحبشة أو النوبة ، وأن يحملوا أموالهم مطمئنين ، ولجأ كثير منهم إلى أنطاكية وغيرها تحت حماية الروم[٣].

وفى سنة ٤١١هـ/١٠٢٠م وفى تطور مفاجئ قبيل اختفاء الحاكم بقليل ، صدرت عدة سجلات جديدة[٤] بإلغاء هذه القوانين والفروض

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ٢ ص ١٦٢

، ابن المقفع : سير الآباء البطاركة ، تحقيق يسى عبد المسيح وآخرون ، القاهرة ١٩٧٤ ، ص ٤٦ .

، المقريزى : الخطط ، جـ٢ ص ٢٨٧ ـ ٢٨٨ .

، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ٤ ص ١٧٧ ـ ١٧٨

(٢) المقريزى : المصدر نفسه ، جـ٢ ص٢٨٨.

(٣) الأنطاكى : تاريخ الأنطاكى ، ص ٢٠٧ .

، المقريزى : المصدر نفسه ، جـ٢ ص٤٩٤ .

(٤) الأنطاكى : تاريخ الأنطاكى ، ص ٢٣٢ .

، محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله ، ص ٧٣ ـ ٧٤ .

المرهقة وإطلاق حرية الشعائر للنصارى واليهود ، ورد ما أخذ من أحباس الكنائس والأديار والسماح للنصارى بتجديد ما درس من الكنائس والبيع والأديار ، ورد ما أخذ منها من الذخائر والتحف والأخشاب والعمد ، وأطلقت الحرية للذميين الذين دخلوا فى الإسلام كرها عنهم أن يرتدوا إلى دينهم الأصلى ، فارتد كثير منهم . وتضع الرواية النصرانية تاريخ هذه السجلات فى سنة ٧٣٦ للشهداء[١] وهى الموافقة لسنة ٤١١هـ/ ١٠٢٠م بعد تسعة أعوام من الخطوب والمحن ، وبجانب ذلك فإن الفضل فى كشف هذه الغمة المرهقة وفى إعادة الكنائس يرجع إلى راهب يدعى بمين كان قد أسلم أيام المحنة ، ثم عاد إلى دينه ، واستأذن الحاكم فى عمارة دير شهران فى ضاحية مصر ، وأن الحاكم كان يزوره فى الدير ويستمع إليه وينفذ رغباته ، وأنه كان واسطة التفاهم بين الحاكم وبين الأنبا زخاريا، وأن الحاكم كان فى هذه الفترة يبدى إعجابه بالنصرانية، ويعطف عليها وعلى نبيها[٢] .

وصدر يومئذ إلى النصارى سجل أمان شامل هذا نصه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من عبد الله ووليه المنصور أبى على الإمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين ابن الإمام العزيز بالله أمير المؤمنين لجماعة النصارى بمصر : عندما أنهوا إليه الخوف الذى لحقهم ، والجزع الذى

(١) الأنطاكى : تاريخ الأنطاكى ص ٢٣٢ .

(٢) أبو صالح الأرمنى : تاريخ أديرة مصر وكنائسها ، تحقيق الأب ايفتس ، اكسفورد ١٨٩٤، ص٦٠ .

هالهم فأقلقهم ، واستظلالهم بظل الدولة وتحرمهم بحضور الحضرة بما رآه وأمر به من تكميل النعمة عليهم ، بتوخيه لهم ذمة الإسلام وشرعه من تصييرهم تحت كنفه بحيث تصفو لهم موارد الطمأنينة ، وتصفو عليهم ملابس السكون والدعة وإجابتهم إلى ما سألوا فيه من كتب أمان لهم يخلد حكمه على الأحقاب ، ويتوارثه الأخلاف منهم والأعقاب ؛ فأنتم جميعًا آمنون بأمان الله عز وجل ، وأمان نبيه محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين ﷺ ، وعلى آله الطاهرين ، وأمان أمير المؤمنين على بن أبى طالب سلام الله عليه ، وأمان الأئمة من آباء أمير المؤمنين سلام الله عليهم : هذا على نفوسكم ودمائكم وأولادكم وأموالكم وأحوالكم وأملاككم وما تحويه أيديكم أمانًا صريحًا ثابتًا ، وعقدًا باقيًا ، فثقوا به واسكنوا إليه ، وتحققوا أن لكم جميل رأى أمير المؤمنين وعاطفته ونصرته تحميكم ، وعصمته تقيكم ، لا يقدم عليكم بسوء أحد ، ولا تتطاول إليكم بمضرة يد إلا كانت زواجر أمير المؤمنين مقصرة من باعه وعظم إنكاره ، مضيقًا فيه من ذراعه ، والله عون أمير المؤمنين على ما تعتقدون من صلاح وإطلاح لسكان أقطار مملكته ، ومن له وسيلة الثواب فى كنف دولته ، وإياه يستشهد على ما أمضاه من أمانه لكم ، وعهده الذى يشرفه طرفكم ، وكفى بالله شهيدًا ، وليقرر فى أيديهم حجة بما أسبغ من النعم عليهم إن شاء الله تعالى » (١).

وصدرت عدة سجلات أخرى بإطلاق الحرية للنصارى فى إقامة الشعائر وإعادة الكنائس ، ومنها سجل إلى نيقفور بطريرك بيت المقدس يؤذن فيه

(١) الأنطاكى : تاريخ الأنطاكى ص ٢٣٢ .

بإقامة الصلاة فى عرصة كنيسة القيامة وأطلالها ؛ وسجل بإعادة بناء دير القصير ؛ وثالث برد أوقاف دير طور سينا ؛ وأورد لنا الأنطاكى صور بعض هذه السجلات التى تدلى روحها ونصوصها بأهمية الانقلاب الذى طرأ على سياسة الحاكم إزاء الذميين [١].

كانت هذه المطاردة للذميين من أهم ظواهر عصر الحاكم بأمر الله؛ وكانت بلا ريب سياسة مقررة ، ولم تحمل فى مجموعها إلا طابع التناقض؛ بيد إنها كانت فى الوقت نفسه انقلابًا جوهريًا فى السياسة الفاطمية إزاء اليهود والنصارى ؛ ذلك أن الدولة الفاطمية كانت منذ قيامها بمصر ، تؤثر كما رأينا سياسة التسامح الدينى ، وتذهب فى هذا التسامح إلى أبعد مدى ، فتصطفى اليهود والنصارى بتوليتهم مناصب الثقة والنفوذ ؛ ومنذ أيام المعز نرى جملة من الوزراء اليهود والنصارى يحتلون أرفع مناصب الدولة ، ويستأثرون بمعظم السلطات والنفوذ ؛ ولم يشذ الحاكم لأول عهده عن هذه السياسة ، فتقدم النصارى فى مناصب الوزارة والكتابة ، وتولى وزارته ثلاثة منهم هم الرئيس فهد بن إبراهيم ، وابن عبدون ، ودرعة بن عيسى بن نسطورس ، ونعم الذميون بما نعموا به من قبل من حرية ونفوذ ؛ ولم يك ذلك سوى استمرارا فى سياسة التسامح الفاطمية ، وربما كان راجعًا من بعض الوجوه إلى نفوذ ست الملك ابنة العزيز وأخت الحاكم .

قصارى القول أن سياسة الدولة الفاطمية تغيرت تغيرا جذريا فى عهد

---

(١) راجع الأنطاكى : تاريخ الأنطاكى ، ص ٢٢٨ و ٢٢٩ و ٢٣٠ و ٢٣١ .

الحاكم بأمر الله عما جرت علية العادة خلال عهدى المعز والعزيز ، فحدث انقلاب حقيقى من قمة التسامح والحرية الدينية وتعيين الذميين فى أرفع مناصب الدولة إلى ما حدث فى عهد الحاكم بعد ولايته الخلافة بسنوات ، ولا شك أن السبب الرئيسى فى ذلك يرجع إلى استئثار الذميين وأبناء جلدتهم بالمناصب وإقصاء المسلمين عنها ، فضلا عن امتلاك الأراضى الشاسعة وجنى الثروات الطائلة ، واقتناء كثير من العبيد والجوارى المسلمين بينما تقلصت الأكثرية الإسلامية فى الوظائف الإدارية فانقلب عليهم الحاكم بأمر الله [١].

ومهما يكن من أمر فقد كانت الخلافة الفاطمية تحكم شعبا لا يتبعها مذهبًا ، وعمل الحاكم وأسلافه على صبغ الشعب المصرى بصبغتهم المذهبية ، ولكن بالقسوة والقوة دون إقناع ، يتجلى ذلك فى علاقة الحكام بأهل السنة ، فمن شواذ سجلاته سب السلف (أبى بكر وعمر وعثمان وعائشة ومعاوية ...) التى كتبت على أبواب الجوامع والمساجد خاصة جامع عمرو بن العاص ، فضلا عن أبواب الحوانيت والمقابر والدور والقياسر ... وأجبر الناس على المجاهرة به ونقشه فى سائر الأماكن ، وكان سب السلف مظاهرة شيعية عملية ، وألغى المرسوم ٣٩٧هـ/١٠٠٦م [١].

وفى سنة ٣٩٨هـ/١٠٠٧م صدر مرسوم يقرر بعض الأحكام ويفسرها ، على إثر ما وقع بين الشيعة وأهل السنة من خلاف وشغب على فهم بعض

(١) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ص ٢٨٦ .

الأحكام وتطبيقها ، وهو مرسوم (سجل) يشف عن روح العصر ، ويحمل طابع التوفيق بين المذهبين وإليك نصه بعد الديباجة :

« أما بعد فإن أمير المؤمنين يتلو عليكم آية من كتاب الله المبين ، لا إكراه فى الدين ... مضى أمس بما فيه ، وأتى اليوم بما يقتضيه ؛ معاشر المسلمين : نحن الأئمة وأنتم الأمة ... من شهد الشهادتين ... ولا يحل عروة بين اثنين ، تجمعهما هذه الأخوة ، عصم الله بها من عصم ، وحرم عليها ما حرم ، من كل محرم من دم ومال ومنكح ، الصلاح والإصلاح بين الناس أصلح ؛ والفساد والإفساد من العباد يستقبح ، يطوى ما كان فيما مضى فلا ينشر ، ويعرض عما انقضى فلا يذكر ، ولا يقبل على ما مر وأدبر من إجراء الأمور على ما كانت فى الأيام الخالية أيام آبائنا الأئمة المهتدين ، سلام عليهم أجمعين ، مهديهم بالله ، وقائمهم بأمر الله ، ومنصورهم بالله ومعزهم لدين الله ، وهوإذ ذاك بالمهدية والمنصورية ، وأحوال القيروان تجرى فيها ظاهرة غير خفية ، ليست بمستورة عنهم ، لا مطوية ؛ يصوم الصائمون على حسابهم ويفطرون ، ولا يعارض أهل الرؤية فيما هم عليه صائمون ومفطرون ؛ صلاة الخميس للدين بها جاءهم فيها يصلون ، وصلاة الضحى وصلاة التراويح لا مانع لهم منها ولا هم عنها يدفعون ؛ يخمس فى التكبير على الجنائز المخمسون ، ولا يمنع من التكبير عليها المربعون ؛ يؤذن بحى على خير العمل المؤذنون ، ولا يؤذن من بها لا يؤذنون ؛ لا يسب أحد من

(١) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ص ٢٨٦ ـ ٢٨٧ .

السلف ، ولا يحتسب على الواصف فيهم بما يوصف ، والخالف فيهم بما خلف ؛ لكل مسلم مجتهد فى دينه اجتهاده ، وإلى الله ربه ميعاده عند كتابه وعليه حسابه ؛ ليكن عباد الله على مثل هذا عملكم منذ اليوم ؛ لا يستعلى مسلم على مسلم بما اعتقده ، ولا يعترض معترض على صاحبه فيما اعتمده ، من جميع ما نصه أمير المؤمنين فى سجلة هذا ، وبعده قوله تعالى[١] : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، كتب فى رمضان سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة » .

إلا أن التاريخ للمرسوم الحقيقى هو ٣٩٨هـ/١٠٠٧م عن المقريزى ، ويبدو أن الخطأ الذى ورد عند ابن خلدون جاء بسبب النسخ أو النقل[٢] ، ويجمع هذا المرسوم بعض الأحكام المذهبية المتناقضة فى صعيد واحد وذلك فى محاولة لتهدئة النزعات المذهبية وعقد الوئام بين الطوائف .

وفى تطور آخر صدر سجل بإلغاء الزكاة والنجوى (رسوم الدعوة) سنة ٤٠٠هـ/ ١٠٠٩م وأعيدت صلاة الضحى وصلاة التراويح ، بل ركب

(١) سورة المائدة : آية ١٠٥ .

(٢) نقلنا نص المرسوم عن ابن خلدون جـ٤ ص ٦٠ . والظاهر أن هناك خطأ ماديًا فى التاريخ وأن صحته هى « ثمان وتسعين » لأن الأمر بسب السلف صدر سنة ٩٥ أى قبل صدور المرسوم ، وصدر الأمر بمحوه سنة ٩٧ . راجع المقريزى : الخطط جـ٢ ص٢٨٦.

الحاكم نفسه إلى جامع عمرو وأدى فيه صلاة الضحى (وهو ما لم يفعله خليفة فاطمى من قبل لأن جامع عمرو يعتبر ملاذ السنة) ، وأمر بإسقاط حى على خير العمل وتستبدل الصلاة خير من النوم ، ثم أعيدت حى على خير العمل فى ربيع الآخر سنة ٤٠٣هـ/ ١٠١٢م وألغيت صلاة الضحى والتراويح .

ينسب الأنطاكى[١] إلى الحاكم بأمر الله محاولة تعديل بعض أحكام الصلاة والصوم والحج والشرع فى الغائها ، فقد ألغى الزكاة ، وصلاة الجمعة الرسمية فى رمضان أو العيدين والحج وإبطال الكسوة النبوية غير مرة (لكنه قد يكون زعما من بعض الدعاة السريين الذين بشروا بألوهيته) ، فلم يوجد دليل قاطع على أنه فعل أو أقدم على ذلك ؛ فابن خلدون يعترض على القول بكفر الحاكم وإلحاده وإلغائه للصلاة ، ويقول إنه زعم لا يقبله ذو عقل ولو صدر فيه لقتل لساعته[٢] ، لكن ابن خلدون ذهب بعيدا حيث أن أفعال الحاكم وتصرفاته الدينية ومؤازراته للدعاة السريين تدل على عكس رأى ابن خلدون .

على الرغم من رأينا الواضح فى شخصية الحاكم بأمر الله المتناقضة وعرض الدلائل الثابتة على ذلك ، إلا أن الأمانة التاريخية تستوجب الإشارة إلى الجوانب الإيجابية فى هذه الشخصية العجيبة ، والتى تتجلى فى أنه كان

---

(١) انظر تاريخ الأنطاكى ، ص٢٢٤ .

(٢) ابن خلدون : العبر ، جـ٤ ، ص٧٧ .

كريما ، زاهدا فى المال ، على الرغم مما جنته الخلافة الفاطمية من ثروات طائلة منذ قيامها [١]، لكنه كان يميل إلى التقشف والبساطة ، وحتى الأموال المصادرة كان يضيفها إلى الأموال العامة فى ديوانها الخاص بها ، ويعرف بالديوان (المفرد) الذى تضاف إليه الأموال المصادرة وتستخدم فى تغطية نفقات الشئون العامة [٢].

كان الحاكم سخيا فى عطائه ، ولما اعترض عليه أمين الأمناء الحسين ابن طاهر الوزان بعث إليه برقعة بخطه فى ٢٨ رمضان سنة ٤٠٣هـ/ ١٠١٤م :-

« بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله كما هو أهله ومستحقه :-

أصبحت لا أرجو ولا أتقى — إلا إلهى وله الفضل

جدى نبيى ، وإمامى أبى — ودينى الإخلاص والعدل

ما عندكم ينفد ، وما عند الله باق ، والمال مال الله عز وجل ، والخلق عيال الله ، ونحن أمناؤه فى الأرض ، أطلق أرزاق الناس ولا تقطعها والسلام» [٣].

ومن ناحية أخرى أمر فى رجب سنة ٤٠٣هـ/ ١٠١٤م فى سجل جديد أن يوقف العديد من الضياع للبر بالفقراء والمعوزين والفقهاء والمؤذنين

---

(١) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ص ٢٥١

، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ٤ ص ١٩٢ .

(٢) المقريزى : المصدر نفسه ، جـ٢ ص٢٨٧ .

(٣) الصيرفى : الإشارة إلى من نال الوزارة ، ص ٢٩ .

بالجوامع، كما كان يقضى بنفسه فى حاجات الناس وظلاماتهم ويقضى حاجات الكثيرين وينثر العطايا على المحتاجين [١].

كذلك اهتم بالعمارة الدينية فقام بتجديد الجامع الأزهر وإنشاء دار الحكمة (دار العلم) سنة ٣٩٥هـ/١٠٠٤م ، كما أنشأ جامع الحاكم (أو الحاكمى أو الجامع الأنور ، وقد أتم بناؤه حيث كان أبوه العزيز بالله قد بدأ بإنشائه فأمر الحاكم بإتمامه ، واستغرق البناء عشر سنوات ، وقد فرشه بالستور الفخمة والتنانير الفضية وأقيمت فيه الجمعة فى رمضان ٤٠٣هـ/ ١٠١٤م وصلى فيه الحاكم بالناس (يقع بين باب الفتوح وباب النصر داخل السور)، كما أمر الحاكم بإنشاء جامع راشدة سنة ٣٩٣هـ/ ١٠٠٢م وأتم البناء سنة ٣٩٥هـ/ ١٠٠٤م ، وأقام فيه الجمعة فى رمضان ٣٩٨هـ/ ١٠٠٧م وخطب فى الناس وأنشأ جامع المقس ، وعنى بفرش المساجد وتجميلها وتزويدها بالخطباء والمؤذنين كما أنشأ فى سطح جبل المقطم مصلى فخما يعرف بمصلى العيد [٢].

وفى سنة ٤٠٥هـ/١٠١٤م وقف الحاكم عدة ضياع وأملاك وقياسر على خدام المساجد التى بلغت ثمانمائة وثلاثين مسجدا، وفعل ذلك فيما يخص البيمارستانات ، ومن قبل كان الحاكم قد وقف على الأزهر ودار الحكمة التى كان قد أنشأها سنة ٣٩٥هـ/ ١٠٠٤م من أملاكه

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ٤ ص ١٨٠ .

(٢) النويرى : نهاية الأرب ، جـ٢٦ ، ص ٥٦ .

الخاصة ورباعه بالفسطاط للإنفاق عليها ، وأورد المقريزى هذا الوقف فى الخطط[١].

لم يقتصر الحاكم على الاهتمام بدور العبادة ، بل قام فى حادثة غير مسبوقة بعتق العبيد والإماء بالقاهرة وغيرها ومنحهم ما يلزمهم من نفقة وذلك فى سنة ٤٠٤هـ/ ١٠١٣ [٢]، كما أجزل العطاء للعلماء العاملين بدار الحكمة[٣]. ومن خلاله الحميمة عند اعتدال المزاج العدل ، يقول الانطاكى :

« وأظهر من العدل ما لم يسمع به ، ولم تمتد يده قط إلى أخذ من مال من أحد ، بل كان جزيل العطاء ، وقتل من رؤساء دولته الذين تضخمت أموالهم ، بينما لم يتعرض لأخذ مال أحد منهم ممن له وارث ، وأسقط كثيرا من الرسوم والمكوس التى جرت العادة بأخذها ، وأعاد كثيراً مما تم الاستيلاء عليه سالفا من العقار والأملاك بغير واجب ، وما تم مصادرته فى أيام أبيه وجده [٤]. ومن ناحية أخرى أدى الحاكم إلى أحد التجار قيمة ما تم إتلافه من الزبيب والعسل بعد أن تبين عدم استخدامها فى صناعة الخمور ، وعنى بتطهير القضاء من الرشوة وتوطيد أركان العدالة والضرب على أيدى المجرمين [٥].

(١) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ص٧٣ - ٧٤ .
(٢) الأنطاكى : تاريخ الأنطاكى ، ص ٢٠٧ .
(٣) المقريزى : المصدر نفسه ، جـ٢ ص ٢٤٢ .
(٤) الأنطاكى : تاريخ الأنطاكى ، ص ٢٠٦ .
(٥) الأنطاكى : المصدر نفسه ، ص ٢٠٥ .

ومن ناحية أخرى أجمع المؤرخون بتمتع الحاكم بزهده وتقشفه ، وتواضعه المؤثر ، واحتقاره للرسوم والألقاب الفخمة التى تحيط بالملك ، ومن ذلك أنه قد أمر بمنع الناس من مكاتبته بسيدنا ومولانا إلا أمير المؤمنين وحده، وألا يقبل أحد له الأرض ، ولا ركابه ولا يده عند السلام عليه ، وقال إنها بدعة من صنع الروم لا يحبذها أمير المؤمنين ويكتفى فقط : «السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته» ، وفى المكاتبات يقتصر على « سلام الله وتحياته وبركاته على أمير المؤمنين » .

كما منع ضرب الطبول والأبواق حول القصر ، وصار الحرس يطوفون بلا طبل ولا أبواق ، وطبق الحاكم ذلك يوم عيد الفطر ٤٠٣هـ/ ١٠١٢م وسار إلى المصلى بلا زينة ولا موكب فخم ، وكانت أفراسه عليها سرج ولجم محلاة بفضة خفيفة ومظلة بيضاء بلا ذهب ، وعمامة دون جوهر ، كما ركب فى عيد الأضحى من العام نفسه على هذا المنوال ، وترك معظم الرسوم الفخمة التى امتازت بها مواكب الخلفاء الفاطميين ، وانسحبت هذه الاتجاهات حتى على المواكب والاستقبالات الرسمية ، تروى الروايات أن البساطة تجلت أيضًا فى ملبسه الخاص فكان يرتدى دراعه صوف ويتعمم بفوطة وينتعل حذاء عربيا بسيطا ، ورؤى وهو راكب الحمار ، وكثر طوافه بالقاهرة ليلا على الحمير دون موكب ليس معه سوى بعض الركابية .

ومن فضائله أنه كان طوال حياته يميل للاتصال بالشعب والاختلاط به، ويتلقى بنفسه الرقاع منهم خلال طوافه ليلا ونهارا ، ويقضى فى ظلاماتهم وتحقيق حوائجهم ، وكان يرتدى السواد مع الثياب البيض كثيرا .

يعتقد أن البساطة والتقشف جاء نتيجة نزعة صوفية فلسفية يحتقر من خلالها متاع الحياة الدنيا ، وكان لا يميل إلى اللهو والعبث فكان يجانب الخمر ويحرمها على نفسه ورعاياه ، وكان يتشدد فى ذلك ، ولم يعرف عنه شرب النبيذ إلا فى فترة مرضه بتوصية من طبيبه النصرانى أبى يعقوب إسحق ابن إبراهيم، لكنه فى أواخر عهده جنح إلى النسك والزهد والورع ، وأضرب عن الملاذ الحسية والنفسية ولبث أعواما يرتدى الصوف الخشن ، خلاصة القول أن هذا الجانب من شخصية الحاكم تدعو إلى الإعجاب والتأمل بما كشفت عنه من الترفع عن الدنايا واحتقار الشهوات الإنسانية .

يتجلى التناقض الواضح فى شخصية الحاكم بأمر الله فى ظهور نزعة روحانية لتكتمل بذلك معالم تلك الشخصية ثلاثية الاتجاهات ، فبعد أن استقرت الأمور للحاكم بأمر الله داخليا وخارجيا بعد جهاد مرير استغرق من حكمه زهاء خمسة عشر عاما ، فلما هدأت الأحوال فى طول البلاد وعرضها ، بدأت مرحلة جديدة من مراحل حكمه تتسم بالوغول فى عالم الروحانيات ، التى استغلها بعض الدعاة السريين أصحاب النزعات الإلحادية المتطرفة لتحقيق أغراض سياسية ، استغلالا لما أسفرت عنه نزعات الحاكم بأمر الله التى توصف بالاضطراب والتناقض ، وهى دعوات وجدت هوى فى نفس الحاكم بأمر الله الذى نزع إلى التكبر والتعالى بعد تلك الانتصارات التى تحققت فى عهده على الصعيدين الداخلى والخارجى ، وقد نمت هذه الدعوات وترعرعت فى ظل الحاكم حتى تحولت إلى دعوة متطرفة تدعو إلى ألوهية الحاكم واتخذت لنفسها شعاراً بأن الحاكم هو : « قائم الزمان وناطق النطقاء » .

ولا شك أن سياسة القمع التى اتبعها الحاكم فى القضاء على مناوئيه وحتى أعوانه هى التى أدت إلى ظهور هذه الطائفة التى تتمنى رضاءه والسير فى ركابه ، وهذه الظاهرة هى من طبائع البشر فى كل زمان ومكان مع ظهور الطغاة من الحكام نجد من يستغل سياستهم فى البطش والطغيان فيأججون نيرانها ، حتى ينتهى الأمر بتأليه هؤلاء الطغاة فلقد ذاق الشعب المصرى الويلات من الخطوب والمحن بسبب سياسة الحاكم المضطربة والقوانين الصارمة التى كانت تصدر بلا روية ولا وعى ، ولم يكن أمام عامة الناس إلا الرضوخ بعد أن صار الناس لا حول لهم ولا قوة، وبعد أن صارت أقدارهم كلها بيدى الحاكم بأمر الله و الذى اتخذ من زمرة من رجاله فريقا لتنفيذ رغباته وأهوائه وقراراته الباغية .

اتسمت أفعال الحاكم بأمر الله فى فترة ما بعد الاستقرار بالتخفى والشغف بالطواف ليلا ونهارا ، فضلا عن دراسة حركة النجوم والكواكب والانغماس فى الحياة الروحانية التى أدت إلى تقديس شخصية هذا الحاكم واعتباره إلها يعلو فوق مستوى البشر ، وهو اتجاه جديد على الدعوة الشيعية التى كانت الإمامة عنوانها ، فصارت الألوهية قمة مرتبتها المذهبية الدينية ، وقد زاد من قوة هذه الدعوة السرية الجديدة أن صارت جهرية ينطق بها دعاتها فى دار الحكمة التى أنشأها الحاكم بأمر الله ، والتى سمح فيها للفلسفات الإلحادية الغريبة أن تناقش ويتحاور بها كبار رجال الفكر الفاطمي، الأمر الذى أفرز تلك الدعوة الغريبة التى تزعم أن الحاكم إله يجب أن يعبد ويسجد له عند اللقاء ، لأنه روح عليا ظهرت للناس فى صورة بشر .

لقد فتحت هذه الغمة التى جسمت على صدر البلاد الباب على مصراعيه للتفكير الجدى فى كيفية التخلص من الحاكم بأمر الله والملاحدة جميعا ، بعد أن انفجر السخط الشعبى العارم ضد دعوى الألوهية غيرة لله وللإسلام ، مما أدى إلى مقتله واختفاء جثته ، الأمر الذى فتح المجال لاختلاف الروايات حول وفاته ودلالتها[١] .

ترى أغلب الروايات[٢] أن الحاكم بأمر الله قد تم اغتياله بتدبير من أخته ست الملك باتفاقها مع ابن دواس - صاحب الكلمة العليا مدبر شئونها الداخلية - الذى عهد بالتنفيذ إلى عبدين من المخلصين ، وقد خلعت عليهما وعلى رئيسهما ووهبتهما مالا وخيلا ووسائل الاغتيال ، واتفق أن يتم التنفيذ ليلا خلال طواف الحاكم وأن يتم فى منطقة المقطم . وقد استغل المخططون شغف الحاكم بالطواف ليلا والاعتزال بالمبنى الذى أمر ببنائه فى صحراء الجب بالمقطم من أجل دراسة حركة النجوم والكواكب فى تنفيذ المخطط ، وذلك بعد دراسة دقيقة ولمدة ليست بقصيرة لحركة الحاكم وخروجه من قصر الخلافة إلى وصوله إلى مكان خلوته ، وتم لهم ما أرادوا فى ذى القعدة سنة ٤١١هـ/ ١٠٢١م .

وبعد مصرع الحاكم بنحو ستة أسابيع نودى بابنه الظاهر للخلافة فى

---

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ جـ٩ ص١٠٨
أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٤ ص١٨١ .
الأنطاكى : تاريخ الأنطاكى ص٢٢٤ ، ٢٢٥ .

(٢) انظر الملحق رقم (٤) .

العاشر من ذى الحجة سنة ٤١١هـ/ ١٠٢١م، وكان وقتذاك فى السابعة عشرة من عمره وكان له أخ أكبر هو أبو الأشبال الحارث توفى فى حياة أبيه ولم يبق إلا أبو الحسن على (الظاهر لإعزاز دين الله) وأخته ست مصر (سيدة مصر) وكان الظاهر يملك ولا يحكم فقد كانت مقاليد الأمور كلها بيد عمته ست الملك ، وبعد أن استلم مقاليد الحكم أقيم مأتم الحاكم بعد عشرة أيام من تولية الظاهر (١).

وصف الظاهر بأنه رحب الصدر ، حليمًا ، كريمًا يتمسك بتطبيق قواعد الدين الإسلامى وأهداب الشريعة السمحاء ، مع الرغبة فى البعد عن التحريف والشرك والإلحاد ، لكنه بينما بدأ حياته بالاعتدال فى السنين الأوائل إلا أنه سرعان ما أساء السيرة ، وتردى فذهبت هيبة الدولة ، وضاع القانون ، وصار الحكم للعصابات الخارجة على النظام ، اتجه إلى الاستمتاع والحرية والانطلاق تاركًا لعمته «ست الملك» إدارة شئون الدولة ، والتى أدت مهمتها على أكمل وجه وبخاصة أن الخليفة أصدر مرسومًا بتلقيبها بلقب « نائبة الخليفة » مع تفويضها بأمر التصرف كما تشاء بأمورالدولة حتى وفاتها سنة ٤١٤هـ/ ١٠٢٣م عن عمر يناهز الخامسة والخمسين أى بعد اختفاء الحاكم بثلاث سنوات ، وبعد وفاتها أخذت الأمور الداخلية والخارجية فى التدهور .

---

(١) الأنطاكى : تاريخ الأنطاكى ص٢٤٣ .
، النويرى : نهاية الأرب جـ٢٦ ص٦٠ .
، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ٤ ص١٩٢ .

على الرغم من أن الخليفة الظاهر كان عاقلا معتدلا جواداً يجنح للحلم والتواضع ، إلاّ أنه كان شغوفا باللهو والشراب والطرب ، وكان يعوض ذلك قيام عمته بتدبير الشئون وتوطيد السلطان فصدرت الأوامر باسم ابن أخيها الخليفة بإلغاء القرارات الصارمة التى صدرت فى عهد الحاكم ومنها إلغاء تحريم الخمر والفقاع وارتياد الملاهى ، والسماح بأكل الملوخية والسمك وسمح للناس بالخروج ليلا ونهارا ، وبالحرية الاجتماعية للمرأة .

أما عن الشئون الداخلية للسلطة والحكم ، فتتجلى فى التخلص من كبير الوزراء خطير الملك مدبر الدولة الذى كان على علم بأسرار مقتل الحاكم ، فضلا عن ازدياد سطوته وانقياد الخليفة الظاهر إليه ، فقتل فى ربيع الأول سنة ٤١٢هـ/ ١٠٢١م ، كما دبرت التخلص من ولى العهد السابق عبد الرحيم بن إلياس الذى كان معتقلا منذ استقدامه من دمشق، فدست له من قتله مسموما بفاكهة أرسلت إليه ، وكان ذلك قبيل وفاتها فى أواخر سنة ٤١٤هـ/١٠٢٣م [١]، كما تخلصت من عزيز الدولة فاتك الوصيدى والى حلب بالاتفاق مع غلامه بدر ، وقام بتنفيذ الخطة فتى هندى كانت له عند فاتك حاجة ، وأقرت بدراً على ولاية حلب [٢].

على صعيد آخر صدر مرسوم إلى أهل الذمة يتضمن سياسة التسامح

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ٤ ص ١٩٣ - ١٩٤ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ٤ ص ١٩٥ .

الدينى لليهود والنصارى ، كما كانت على عهد المعز والعزيز والتى تنص على حرية العقيدة والشعائر وأنه لا إكراه فى الدين ، فمن آثر الدخول فى الإسلام اختيارا من قلبه وهداية من ربه فليدخل ، ومن آثر البقاء على دينه ، كان عليه ذمته وحياطته [١]. أما الملاحدة فقد صودروا وطوردوا فى كل مكان وفى سائر الأنحاء ، وتم ملاحقة زعيمهم حمزة بن على الهارب وتم القبض عليه وإعدامه .

ومن ناحية أخرى ، فقد رأت ست الملك إبطال كثير من الأوقاف التى كان الحاكم قد قررها ، والتى لعبت دورا فى إرهاق ميزانية الدولة ، وإلغاء كثير من الرواتب والأرزاق التى كانت مقررة دون أهمية لذلك ، وإعادة فرض المكوس التى كان الحاكم قد أبطلها ، فانتظمت ميزانية الدولة وتحسنت الحالة الاقتصادية [٢].

وعلى صعيد السياسة الخارجية أنفذت نقفور بطريرك بيت المقدس سفيرا إلى باسيل الثانى قيصر الروم ، لعقد اتفاقيات التفاهم والاحترام وعدم الاعتداء ، وليطلعه على الإجراءات التى اتخذت داخليا ومن أهمها سجل التسامح الدينى ، وتجديد الكنائس ، والإشارة إلى اهتمام ست الملك باستئناف العلاقات التجارية مع البيزنطيين ، وعلى الرغم من وفاة ست الملك خلال هذه السفارة سنة ٤١٤هـ/ ١٠٢٣م [٣]، إلا أن الاتفاقية تمت بين

---

(١) الأنطاكى : تاريخ الأنطاكى ، ص ٢٣٥ .
(٢) الأنطاكى : المصدر نفسه ، ص ٢٣٥ .
(٣) الأنطاكى : تاريخ الأنطاكى ، ص٢٤٤ .

الطرفين سنة ٤١٨هـ/١٠٢٨م ، ومن أهم بنودها إعادة بناء المسجد الجامع بالقسطنطينية وكنيسة القبر المقدس ببيت المقدس[١] .

ولى الخلافة المستنصر بالله بعد وفاة أبيه الظاهر سنة ٤٢٧هـ/١٠٣٥م وكان له من العمر وقتذاك سبع سنين ، وعلى الرغم من طول مدة حكمه التى بلغت زهاء ستين عاما ، إلاّ أن البلاد لم تتمتع فى عهده إلاّ بفترات قليلة من الرخاء والطمأنينة ، وذلك لما تعرضت له من الكوارث الطبيعية فضلا عن الاضطرابات السياسية ، فخرجت على حكمه ولايات شمال أفريقية والولايات الشامية ، التى استولى عليها السلاجقة منذ سنة ٤٦٩هـ/١٠٧٦م، كما فقدت صقلية التى كانت تعد من القواعد العظمى للدولة الفاطمية[٢].

وفضلا عن ذلك واجه المستنصر بالله فتنة كبيرة فى أوائل عهده من جراء خروج الأتراك بقيادة ناصر الدولة الحسين بن حمدان التغلبى على سلطة الخلافة ، ومطالبتهم الخليفة بزيادة مرتباتهم ، وعلى الرغم من خضوع المستنصر بالله لمطالبهم ورفع أعطياتهم من ثمانية وعشرين ألف دينار إلى أربعمائة ألف دينار فى كل شهر [٣]، إلاّ أنهم لم يقنعوا بذلك

---

(١) المقريزى : الخطط ، جـ١ ص ٣٥٥ ؛ اتعاظ الحنفا جـ٢ ص١٧٦ .
(٢) انظر الفصل الرابع : العلاقات الخارجية .
(٣) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ٢ ص ٢١٥ .

وازداد جشعهم ونهمهم لمزيد من المال ، ولم يتمكن الخليفة من التخلص من فتنتهم إلا بعد أن قام الوزير خطير الملك بتأليب الجند الأتراك على ناصر الدولة ، وبينما لقى خطير الملك مصرعه ، فقد تمكن الخليفة المستنصر بالله من طرد ناصر الدولة بعد أن خرج إليه على رأس فريق من قواته ، فولى هاربا إلى إقليم البحيرة فى نفر قليل من أصحابه .

لم تستقر الأوضاع للمستنصر بالله بعد خروج ناصر الدولة ، ذلك أن ناصر الدولة بعث رسولا إلى ألب أرسلان سلطان السلاجقة سنة ٤٦٢هـ/١٠٦٩م يطلب منه الإمداد لكى يتمكن من قطع الخطبة للفاطميين من على منابر مصر وإقامتها للخليفة العباسى(١)، فلما بلغ المستنصر بما أقدم عليه ناصر الدولة أنفذ إليه جيشًا من الأتراك لمحاربته بالبحيرة، إلا أنه أوقع بهم الهزيمة ، ورد على ذلك بإقامة الخطبة للخليفة العباسى القائم بأمر الله على منابر الإسكندرية ودمياط وجميع أنحاء الوجه البحرى ، ومنع إرسال المؤن والأقوات إلى القاهرة ومصر(٢)، التى كانت البلاد فى أمس الحاجة إليها بعد أن تعرضت للمجاعة منذ سنة ٤٥٧هـ/ ١٠٦٤م ، واستمرت سبع سنين والتى عرفت بالشدة العظمى ، فقد ترتب عليها قلة الأقوات وغلاء الأسعار حتى بلغ ثمن الرغيف من الخبز زنة رطل أربعة عشر درهما والبيضة الواحدة دينارا(٣)، وعانى الأغنياء وكبار رجال الدولة من هذه المجاعة كما عانى الفقراء(٤).

---

(١) ابن ميسر : أخبار مصر ص٣٥ ـ ٣٦ .

(٢) المقريزى : خطط جـ١ ص ٣٣٦ .

(٣) ابن ميسر : أخبار مصر ص٢٥ ، ٢٦ .

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٥ ص١٦ ـ ١٧ .

لم يكتف ناصر الدولة بالاستيلاء على البحيرة بل سار على رأس جموع العربان إلى الجيزة واستولى عليها ، واضطر كثير من أقارب المستنصر وأولاده إلى النزوح إلى المغرب والعراق ، خشية أن يتعرضوا لبطش ناصر الدولة، ولم يتم التخلص من فتنة ناصر الدولة إلا بعد أن تم اغتياله بيد الجند الأتراك بزعامة ألدكز سنة ٤٦٥هـ/ ١٠٧٢م[١]، إلا أن الأمور عادت سيرتها الأولى، حيث استفحل نفوذ ألدكز وأتباعه من الأتراك واستبدوا بالأمور دون المستنصر حتى ضاق بهم ذرعا ، ولم يجد بدا من الإستعانة بعنصر آخر ، فأرسل إلى بدر الجمالى والى عكا يستقدمه لإنقاذ الخلافة ، فسار إلى مصر على رأس الجند الأرمن ولما دخل القاهرة ، استقبله الأتراك استقبالا وديا خشية أن يبطش بهم ، إلا أنه دبر مؤامرة تخلص بها من أغلب زعمائهم[٢] .

خلع المستنصر بالله على بدر الجمالى العقد المرصع بالأحجار الكريمة ، وقلده سيفا للتعبير عن تفويضه فى إدارة شئون البلاد ، فصار وزيرا للسيف والقلم ، وزاد فى ألقابه السيد الأجل أمير الجيوش كافل قضاة المسلمين وداعى دعاة المؤمنين[٣]، واتخذ بدر الجمالى مقرا له بحارة برجوان بالقاهرة، وعمل بجد من أجل إعادة الأمن ونشر الطمأنينة فى ربوع البلاد ، فبدأ

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ٢ ص ٣٠٩ .

(٢) المقريزى : خطط جـ٢ ص ١٢ .

Lane - Poole : A History of Egypt P. 151 .

(٣) السجلات المستنصرية ، سجل رقم ٥٦ .

، ابن منجب : الإشارة ص٩٤ .

، ابن ميسر : أخبار مصر ص٤٥ .

بتوطيد نفوذ الخلافة بالوجه البحرى واخضاع بنى لواته ، ثم اتجه إلى الصعيد فحارب الجند السودان وأتباعهم من عرب جهينة والثعالبة والجعافرة وانتصر عليهم وغنم منهم مغانم كثيرة[١] ، واستطاع بدر الجمالى بمهارته وشدة بأسه أن يعيد البلاد المصرية إلى حالة الرخاء بعد الشدة العظمى ، فزاد خراجها بنحو ١٠٠,٠٠٠ر١ دينار[٢] ، وعلى الرغم من الدور الكبير الذى قام به بدر الجمالى فى سبيل استعادة الخلافة لنفوذهاعلى أرجاء البلاد ، إلا أنه استبد بالسلطة فى أواخر عهد المستنصر بالله ، وقام بتعيين ابنه الأفضل وليا لعهده فى الوزارة [٣].

لما توفى بدر الجمالى فى جمادى الأولى سنة ٤٨٧هـ/١٠٩٤م خلفه ابنه وولى عهده الأفضل شاهنشاه فى الوزارة ، فحجر على المستنصر بالله[٤] ، وظل الحال على ذلك حتى وفاة الخليفة فى الثامن عشر من ذى الحجة من نفس العام[٥] ، ولما كان الأفضل يمثل السلطة التنفيذية العليا فى الدولة فإنه قد تدخل فى اختيار الخليفة ،وقام بتعيين أبا القاسم أحمد بن المستنصر ولقبه المستعلى بالله ، وبذلك يكون الأفضل قد أقصى نزارا الابن الأكبر للمستنصر الأحق بالخلافة ، وقدم عليه أخيه الأصغر المستعلى (ابن أخت الأفضل) وعليه يكون الأفضل قد خالف نظام الخلافة الذى ينص على أن

---

(١) المقريزى : خطط جـ١ ص٣٨٢ .
(٢) جمال سرور : الدولة الفاطمية ص١٠٩ .
(٣) المقريزى : المصدر نفسه جـ١ ص ٣٥٦ .
(٤) ابن ميسر : أخبار مصر ص٥٤ .
(٥) المقريزى : المصدر نفسه جـ١ ص ٣٨٢ .

يلى الابن الأكبر بعد وفاة أبيه(١)، وأدى ذلك إلى اضطراب الأمور فثار أهل الإسكندرية وانحازوا إلى نزار وبايعوه بالخلافة ولقبوه المصطفى لدين الله ، ووعد نزار والى الإسكندرية ناصر الدولة أفتكين بالوزارة إن حظى بالخلافة ، إلا أن الأفضل لم يقف مكتوف الأيدى إزاء ثورة الإسكندرية فسار على رأس الجند إلى الإسكندرية أواخر شهر ذى الحجة سنة ٤٨٧هـ/١٠٩٤م غير أنه منى بالهزيمة ، فعاد إلى القاهرة حيث أعد حملة جديدة أوائل سنة ٤٨٨هـ/١٠٩٤م ، وحاصر الإسكندرية لأكثر من سبعة أشهر ، مما اضطر واليها إلى طلب الأمان فوافق شريطة أن يقوم كل من ناصر الدولة ونزار بتسليم أنفسهما له ، فأنفذهما مكبلين إلى القاهرة فى شوال سنة ٤٨٨هـ/١٠٩٥م(٢).

وعلى الرغم من القضاء على ثورة الإسكندرية والقبض على واليها والتنكيل بنزار بن المستنصر ، إلا أن الإسماعيلية من أهالى بلاد فارس ظلوا متمسكين بخلافة نزار ، وخاصة بعد أن أشاع الحسن بن الصباح(٣) بين أنصاره أن المستعلى قد اغتصب الخلافة والإمامة من نزار .

---

(١) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٤ ص ٦٦ .

(٢) انظر تفاصيل الحصار والحروب فى رسالة المستعلى إلى الملكة أروى الصليحية باليمن ضمن السجلات المستنصرية رقم ٤٣ ، ص١٤٦ -١٥١ .

(٣) الحسن بن الصباح : كان من تلاميذ أحمد بن عبد الملك بن عطاش زعيم الدعوة الإسماعيلية فى أصبهان، وتقلد الحسن بن الصباح رئاسة الدعوة هناك بعد عبد الملك ثم رحل إلى مصر وتعمق فى دراسة المذهب الإسماعيلى فى دار الحكمة وغيرها ، وقد حدث خلاف كبير بين الحسن بن الصباح وبدر الجمالى أثناء وجوده فى القاهرة ، فزج به بدر الجمالى فى السجن بمدينة دمياط ، لكن الحسن بن الصباح استطاع الخروج =

هكذا أدت سياسة الأفضل بن بدر الجمالى التى تقوم على الاستئثار بالسلطة دون الخلفاء ، والتدخل فى العزل والتولية إلى وجود خليفتين فى دولة واحدة هى مصر ، أحدهما يدعى له على منابر القاهرة وهو المستعلى بالله، والآخر بالإسكندرية وهو نزار (المصطفى لدين الله) الذى امتدت سلطته إلى بلاد فارس .

ومهما يكن من أمر فقد استبد الأفضل شاهنشاه بالسلطة فى البلاد خاصة بعد نجاحه فى القضاء على ثورة نزار ، وصار هو سلطان مصر وصاحب الحل والعقد ، وإليه الحكم فى الكافة من الأمراء والأجناد والقضاة والكتّاب وسائر الرعية ، وذلك بعد أن قلده المستعلى منصب قاضى القضاة فضلا عن الوزارة وخلع عليه بالعقد المنظوم بالجوهر ، وزيد له فى زيه الحنك مع الذؤابة المرخاة والطيلسان المقور (زى قاضى القضاة) ، ومنحه الخليفة السيف إشارة إلى أنه قد صار من أرباب السيف والقلم [١].

استفحل نفوذ الأفضل شاهنشاه فى الخلافة واستأثر لنفسه بتعيين الخلفاء[٢] واختيار الأصغر سنا دون النظر إلى تعاليم الإسماعيلية فى شروط ولاية العهد والخلافة ، فلما توفى المستعلى سنة ٤٩٥هـ/١١٠١م أحضر

= من السجن وسافر إلى عكا فى رجب سنة ٤٧٢هـ/ ١٠٧٩م ، ثم قصد حلب وبغداد ، ثم اتجه إلى خوزستان ومنها اتجه إلى اصبهان حيث أخذ ينادى بإمامة المستنصر بالله وابنه نزار من مقره ، انظر : طه شرف : دولة النزارية أجداد أغاخان ، القاهرة ١٩٥٠ ص٢١١ـ ٢١٢ ـ ٢١٣ .

(١) المقريزى : خطط جـ٢ ص ٣٠٥ ـ ٣٠٦ .

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة جـ٢ ص ١٤ .

ابنه أبا على وعمره خمس سنين ، فأقامه مكان أبيه ولقبه بالآمر بأحكام الله، وصار الآمر ألعوبة فى يدى الأفضل ، الذى تدخل فى أخص سلطات الخلفاء ، فألغى كثيراً من المواسم والأعياد الدينية التى قامت عليها الشيعة ، فأبطل الإحتفال بمولد النبى ﷺ ، ومولد السيدة فاطمة الزهراء ، ومولد الإمام على بن أبى طالب ، ومولد الخليفة القائم الفاطمى، والتى كان يتم الاحتفال بها منذ قدوم المعز لدين الله إلى مصر ، وكان يهدف من وراء ذلك إلى إضعاف النفوذ الفاطمى فى مصر والعالم الإسلامى ، لأن هذه الأعياد كانت تؤيد انتساب الفاطميين لآل بيت النبوة[1].

لا شك أن سجل التولية الذى صدر عن ديوان الإنشاء بخاتم الآمر بأحكام الله يدل بجلاء على مدى سيطرة الأفضل شاهنشاه على شئون الخلافة ودواوينها ، فتضمن سلطات لا حدود لها للأفضل إذ نص على العبارات الآتية : « وكان مما ألقاه إلىّ (الأب المستعلى) وأوجبه علىّ أن أعلى محل السيد الأجل الأفضل من قلبه الكريم ، وما يجب له من التبجيل والتكريم ، وأن الإمام المستنصر بالله كان عندما عهد إليه (المستعلى) ونص بالخلافة عليه ، أوصاه أن يتخذ هذا السيد الأجل خليفة وخليلا ، ويجعله للإمام زعيما وكفيلا ، ويفوض إليه تدبير ما وراء السرير ، وأنه عمل بهذه الوصية ... فأوصانى أن أجعله لى ـ كما كان له صفيا وظهيراً ، وألا أسّر عنه من الأمور صغيراً ولا كبيرا ، وأن اقتدى به فى رد الأحوال إلى تكليفه وإسناد الأمور إلى تدبيره » ، والسجل لا يحتاج إلى تعليق بل يدعو إلى العجب إذ كيف يتضمن سجل تولية خليفة النص على تفويض الوزير

---

(١) جمال سرور : الدولة الفاطمية ص١١٩ .

واختصاصاته ؟، فالأجدر أن يأتى ذلك فى سجل تولية الوزارة وليس الخلافة، وهل يمكن أن يصدر ذلك عن طفل لم يبلغ الخامسة من عمره !

ظل الخليفة الآمر بأحكام الله محجورا عليه حتى بلغ رشده وشعر بحاجته إلى الاستقلال بالأمر ، فأوعز إلى أبى عبد الله محمد بن البطائحى أحد خواص الأفضل بالتخلص من الوزير ، ووعده بتوليته الوزارة ، فقتل الأفضل وصار ابن البطائحى وزيرا فى سنة ٥١٥هـ/١١٢١م[١].

لم يتمتع الخليفة الآمر طويلا باستقلاله بالخلافة عن سلطة الوزراء فقتل فى ذى القعدة سنة ٥٢٤هـ/١١٣٠م[٢]، وقبض كبار قواد الجيش على زمام الأمور واختاروا أبا الميمون عبد المجيد - ابن عم الخليفة المقتول - لمنصب ولى العهد ، على أن يكون إماما مستودعا وأقيم كفيلا لحمل منتظر فى بطن أمه (إحدى زوجات الآمر بأحكام الله)[٣]، ولقب الحافظ لدين الله[٤]، لكن زعيم الجند أبا على أحمد بن الأفضل بن بدر الجمالى منع الحافظ من التصرف فى شئون الخلافة وحجر عليه، فلما اعترض على ذلك أمر الخطباء بحذف اسمه من الخطبة واستأثر أبو على أحمد بالسلطة والنفوذ[٥]، كما استغل أبو على أحمد فرصة إطلاق يديه فى شئون البلاد فى إظهار مذهب

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص٢٠٤ .
، ابن ميسر : أخبار مصر ص٨٧ .
(٢) المقريزى : خطط جـ٢ ص ٢٩١ .
(٣) ابن ميسر : المصدر نفسه ص١١٣ .
، ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ٣ ص ٢٣١ .
، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٥ ص ٢٤١ .
(٤) حسن الباشا : الألقاب ص ٥٧ .
(٥) أبو المحاسن : المصدر نفسه جـ٥ ص ٢٤٠ .

الإمامية الاثنى عشرية ، وإضعاف الإسماعيلية السبعية التى تنتمى إليها الدولة الفاطمية، وتجلى ذلك فى إبطال فقرة « حى على خير العمل » من الآذان وقول المؤذن « محمد وعلى خير البشـر » ، واختياره أحد ألقابه التى اختارها لنفسه وهو : « ناصر إمام الحق فى حالتى غيبته وحضوره»[١] ؛ وفضلا عن ذلك قام بتعيين أربعة قضاة اثنين من السنة واثنين من الشيعة ، أحدهما إمامى والآخر إسماعيلى ، ومنحهم حق إصدار الأحكام وفقا لمذاهبهم سنة ٥٢٥هـ/ ١٠٣١م[٢].

غير أن زعماء الإسماعيلية لم يرضوا عن قرارات أبى على أحمد التى تنطوى على مناهضة مذهبهم ، فقاموا باختيار قائدا لهم هو الأمير يانس[٣]، وقرروا التخلص من أبى على، فكمن له جماعة منهم وقتلوه وأخرجوا الحافظ من معتقله الذى كان قد أودعه به الوزير المقتول ، وأعيد إلى الحكم واستعاد المذهب الإسماعيلى مكانته واحتفل بهذا اليوم الذى أطلق عليه عيد النصر[٤].

أعيد الحافظ لدين الله وليا للعهد وكفيلا لولدالآمر الذى كان قد ولد خلال فترة اعتقال الحافظ ، وتم إخفاؤه فى القرافة بعد أن نقل فى قُفّة على وجهها سلق وكرات فعرف بقفيفة[٥]، وذلك خوفا على حياته من الطامعين فى الخلافة[١]، لما كان الحافظ ليس له حق شرعى فى الخلافة لأنه ابن عم

---

(١) ابن الصيرفى : قانون ديوان الرسائل ص٤١ - ٤٢ .

(٢) جمال الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية ص٩٠ .

(٣) كان الأمير يانس مولى ارمينيا ، أهدى إلى الوزير الأفضل بن بدر الجمالى ، وظل يترقى فى المناصب حتى أصبح أميرا .

، المقريزى : خطط جـ٢ ص ١٧٠ .

(٤) المقريزى : المصدر نفسه جـ١ ص ٣٥٧ .

(٥) المقريزى : المصدر نفسه جـ٢ ص٤٤٨ .

الآمر ، ولأن الإسماعيلية تنص على انتقال الخلافة فى الأبناء من نسل الحسين بن على بن أبى طالب بعد أن انتقلت إليه من أخيه الحسن ، لذلك عمد الحافظ إلى البحث عن ذلك المولود الذى يقف عقبة فى سبيل استيلائه على الحكم واستقلاله بالخلافة ، فلما اهتدى إلى مكانه أسرع إلى القبض عليه وقتله ، ثم أعلن نفسه خليفة بعد شهرين من عودته وليا للعهد ، وأمر أن يدعى له على المنابر بعبارة : « مولانا وسيدنا وإمام عصرنا وزماننا عبد المجيد أبى ميمون وعلى أبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين صلاة دائمة إلى يوم الدين»[٢] ، وذلك فى الثالث من ربيع الآخر سنة ٥٢٦هـ/ فبراير ١١٣٢م، ويلاحظ على هذا الدعاء النص على انتقال الإمامة فى أبنائه، وبذلك يكون قد قضى على انتقال الخلافة فى الأصول منذ قيامها ، إذ يعتبر الحافظ لدين الله أول خليفة يلى حكم الدولة الفاطمية بلا أصل أو سند فى سلسلة النسب المتعاقبة فى الأبناء والأحفاد منذ عودتها إلى الإمام المستقر القائم بأمر الله ، وتحولت إلى أبناء العمومة وهو ما يخالف أسس العقيدة الإسماعيلية ورسومها، غير أن الدولة الفاطمية كانت فى تلك المرحلة تعانى من الاضمحلال والذبول ، وتسير بخطى واسعة نحو الإنهيار والسقوط ، فلم يعد هناك من يهتم بتعاليم أو مذاهب بعد أن تغلبت المصالح والأهواء على العقائد والأصول .

كان للدور الذى قام به يانس الأرمنى فى القضاء على أبى على أحمد ابن الأفضل وإعادة السلطة للحافظ أن كافأه باتخاذه وزيراً له ، ولقبه أبا الفتح ناصر الجيوش ، وظل يانس يلى الوزارة حتى وفاته ، فلم يستوزر الحافظ

---

(١) مجموعة الوثائق الفاطمية ص٩٤ - ٩٥ .

(٢) ابن ميسر : أخبار مصر ص١٤١ .

أحداً، إلى أن طمع بهرام الأرمنى والى الغربية فى هذا المنصب ، فقدم إلى القاهرة على رأس أتباعه من الجند وولى الوزارة عنوة بعد أن حاصر الحاضرة يوما ، وعمل على جلب الأرمن واستكثر منهم حتى يكونوا سندا له فى مواجهة غضب الطوائف الشعبية وثورتهم ضد إجراءاته المجحفة ، والتى تتجلى فى جوره ومصادرته الأموال وفرض الضرائب الثقيلة ، إلا أن هذا الأمر لم يستمر طويلا، فبعث زعماء الشعب بالرسائل إلى رضوان بن ولَخشى والى الغربية يستنجدون به ويطلبون منه القدوم إلى القاهرة لإنقاذهم ، فقدم إلى القاهرة واستولى على الوزارة سنة ٥٣٠هـ/١١٣٦م ، وتلقب بالسيد الأجل الملك الأفضل، وهو أول من تلقب بالملك[١].

على الرغم من ملاحقة رضوان لأعوان بهرام والقضاء على طائفة كبيرة منهم ، إلا أن الأمور لم تصف له مع الخليفة الحافظ ، فقد حاول رضوان الاستئثار بالسلطة دون الخليفة ، وقامت بينه وبين جند الخلافة عدة معارك سنة ٥٣٤هـ/١١٣٨م ، ولى على أثرها هاربا إلى الوجه القبلى حيث طلب الأمان من أبى الفضائل بن مصّال قائد جند الخلافة ، وتم اعتقاله بعد تسليمه للقصر الخلافى سنة ٥٤٢هـ/١١٤٧م ، إلا أنه تمكن من الفرار ودارت بينه وبين جند الخليفة السودانيين معركة كبيرة انتهت بمقتله ، وانفرد الحافظ بالخلافة والوزارة حتى وفاته فى جمادى الآخرة سنة ٥٤٤هـ/١١٤٩م[٢].

ولى الخلافة أبو منصور إسماعيل بعد وفاة أبيه الحافظ ولقب بالظافر بأمر

---

(١) على إبراهيم حسن : مصر فى العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٤٩م ، ص١٢٢ .
(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٥ ص٢٨٤ .

الله واتخذ من الأمير نجم الدين بن مصال وزيرا ، لكن طمع الأمراء فى هذا المنصب دفع الأمير المظفر على بن السّلار والى الإسكندرية إلى المسير على رأس جنده إلى القاهرة ، واشتبك مع ابن مصال فى عدة معارك اضطر على أثرها ابن مصال إلى الفرار للوجه القبلى ، فتعقبه ابن السلار حتى أوقع به الهزيمة وقضى عليه ، وولى منصب الوزارة وتلقب بالعادل ، لكنه ما لبث أن قتل سنة ٥٤٨هـ/١١٥٣م بإيعاز من الخليفة وأعوانه لأن ابن السلار كان سنيا شافعيا معاديا للمذهب الإسماعيلى ، وخلفه أبو الفضل عباس الذى أقدم على تدبير مؤامرة لإغتيال الخليفة سنة ٥٤٩هـ/١١٥٤م[١].

اضطربت الأحوال اضطرابا شديدا بمقتل الخليفة الظافر ، وفى وسط هذه الأجواء غير المستقرة تم اختيار عيسى بن الظافر خليفة ولقب بالفائز بنصر الله وهو فى الخامسة من عمره[٢]، وساد الفزع أرجاء القصر بعد أن انعدم الأمن ، وأرسلت نساء القصر إلى والى الأشمونين طلائع بن رُزّيك لإنقاذهن من تلك الأخطار[٣]، فقدم إلى القاهرة وولى الوزارة[٤]، وتلقب بالملك الصالح واستبد ابن رزيك بالأمر دون الخليفة بعد أن صدر له مرسوم بالتفويض فى كافة شئون الدولة : « وفوض إليك تدبير ممالكه وكفالته ، وجعل لك إمارة جيوشه الميامين وكفالة قضاة المسلمين ... وكافة رعاياه

---

(١) ابن ميسر : أخبار مصر ص١٤٧ .
(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ٣ ص ٢١٤ .
(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ٣ ص ٤٩٢ .
(٤) المقريزى : خطط جـ٢ ص ٢٩٣ .

بالحضرة وجميع أعمال المملكة دانيها وقاصيها وسائر أحوال الدولة باديها وخافيها »[١].

لما توفى الخليفة الفائز فى رجب سنة ٥٥٥هـ/١١٦٠م أقام الوزير ابن رزيك مكانه العاضد لدين الله ، وكان عمره وقتذاك نحو إحدى عشرة سنة ، وبايعه بالخلافة وتبعه سائر الناس فى الثامن عشر من رجب من نفس العام، وفى سنة ٥٥٨هـ/١١٦٣م عاد النزاع بين كبار رجال الدولة على منصب الوزارة سيرته الأولى ، فسار شاور والى الصعيد إلى القاهرة واستولى على المنصب بعد أن تم له التخلص من ابن رزيك ، غير أن ضرغام - أحد قواد الجيش - ثار عليه وخلعه وتقلد الوزارة ، ولم يجد شاور بدا من الإلتجاء إلى القوى الخارجية ، فسار إلى بلاد الشام مستنجدا بنور الدين محمود - صاحب دمشق، فأعانه بحملة بقيادة أسد الدين شيركوه سارت إلى القاهرة واشتبكت مع ضرغام وتغلبت عليه ، وتم لشاور استعادة منصبه فى رجب سنة ٥٥٩هـ/ ١١٦٤م ، فلما استقرت الأمور لشاور طالب شيركوه بالعودة إلى الشام ، فلما رفض استعان شاور بأملريك (ملك بيت المقدس) ، فأرسل له جيشاً أرغم شيركوه على العودة بحملته إلى الشام ، إلا أن نور الدين محمود أعاد حملته إلى مصر بقيادة شيركوه وبصحبته بعض الأمراء من بينهم صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب ، الأمر الذى أدى إلى استنجاد شاور مرة أخرى بالفرنجة الذين قدموا من بيت المقدس ، حيث دارت عدة معارك بينهم

---

(١) جمال الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية ص١٥٢ - ١٥٣ .

وبين قوات نور الدين محمود ، وتم الصلح بينهم فى نهاية الأمر على شرط عودة جيش الشام إلى دمشق ، والفرنجة إلى بيت المقدس ، وكانت هذه الأحداث تجرى فى البلاد ، والعاضد صاحب مصر ليس له من الأمر شىء ولا يعلم شيئا عن ذلك[١].

لم يلتزم الفرنجة بالإتفاق الموقع مع قائد جيش الشام ، فخرج أملريك على رأس حملة اتجهت إلى القاهرة سنة ٥٦٤هـ/١١٦٨م ، فلما اقتربوا منها قام شاور بإخلاء الفسطاط وأضرم النار فيها حتى لا يأوى إليها الصليبيون ، فظلت النار مشتعلة بها أربعة وخمسين يوما ولا تزال آثار الحريق باقية فى خراباتها إلى الوقت الحاضر[٢]، وفى الوقت نفسه أرسل شاور إلى نور الدين محمود يستنجده ، فسير إليه حملة بقيادة أسد الدين شيركوه ، وصلت القاهرة فى ربيع الآخر سنة ٥٦٤هـ/ ١١٦٨م، فاستقبلها الخليفة العاضد وخلع على قائدها ، وكان أن تخلص شيركوه من شاور وترك العامة يستولون على أمواله ومتاعه ، وصار أسد الدين شيركوه وزيرا ولقب بالملك المنصور أمير الجيوش ، لكنه ما لبث أن تُوفى بعد ثلاثة أشهر ، فاستدعى العاضد القائد صلاح الدين يوسف بن أيوب وولاه الوزارة ، وعلى الرغم من تعرض صلاح الدين لمؤامرة من كبار رجال القصر بزعامة جوهر مؤتمن الخلافة ، إلاّ أنه تمكن من القضاء عليها باغتيال مؤتمن الخلافة أواخر سنة

---

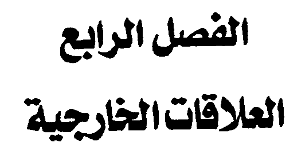
(١) ابن واصل : مفرج الكروب فى أخبار دولة بنى أيوب ، تحقيق جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٦٠م ، جـ١ ص ١٥٢ .

(٢) جمال سرور : الدولة الفاطمية ص١٢٩ .

٥٦٤هـ/١١٦٩م، ولما استقرت سلطة صلاح الدين ، وجه اهتمامه إلى القضاء على المذهب الشيعى وإعادة المذهب السنى لسابق عهده ، مما كان له أبلغ الأثر فى زوال الخلافة الفاطمية(١) ، وتم ذلك بإقامة الخطبة للخليفة العباسى على منابر مصر والقاهرة فى أوائل المحرم سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م ، وكان العاضد لدين الله مريضًا فلم يعلمه أحد بذلك حتى توفى فى العاشر من المحرم سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م ، وبذلك زالت الخلافة الفاطمية بعد أن حكمت مصر لأكثر من قرنين من الزمان (٢) .

---

(١) المقريزى : خطط جـ١ ص ٣٥٩ .
(٢) المقريزى : المصدر نفسه جـ٢ ص١٧٥ .
، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٥ ص ٣٣٩ .
، ابن إياس : بدائع الزهور جـ١ ص ٦٨ .



الفصل الرابع

العلاقات الخارجية

الفصل الرابع

العلاقات الخارجية

أولا : بلاد الشام :

تعرضت بلاد الشام لغارات قرامطة البحرين[١] ، فقام أحمد بن أبى سعيد بغزو بلاد الشام سنة ٣٥٣ هـ/٩٦٣م واستولى على طبرية[٢] ، ودخلها بمعاونة الحمدانيين ، وتبع ذلك بحملة أخرى سنة ٣٥٧هـ/٩٧٦م على الرملة فسقطت فى أيديهم ، ولم ينج الحسن بن عبيد الله بن طغج الإخشيد الا بالاتفاق على دفع إتاوة سنوية قدرها ثلاثمائة ألف دينار[٣] ، وبذلك صارت بلاد الشام موطنا لنزاع القوى

---

(١) القرامطة : ينتسب القرامطة إلى حمدان بن الأشعث المعروف بقرمط الذى أسند إليه الفاطميون أمر الدعوة لهم بالعراق فابتنى له دارا بسواد الكوفه سنة ٢٧٧ هـ/ ٨٩٠م ، سميت دار الهجرة ، ومن ناحية أخرى انتشرت الدعوة الاسماعيلية فى البحرين على يد الحسن بن بهرام القرمطى الملقب بأبى سعيد الجنابى الذى تمكن من دخول الاحساء والاستيلاء على هجر التى أسس بها دولة القرامطة فى البحرين ، وظل ولاء القرامطة يتأرجح بين العباسيين والفاطميين تبعا لمصالحهم حتى ولى أمرهم الحسن الأعصم سنة ٣٢٨هـ/ ٩٣٩م الذى أظهر ولاء للعباسيين مما أدى الى الدخول فى نزاع كبير مع الفاطميين، ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ٨٨ - ٩٠ .

(٢) المقريزى : خطط جـ٢ ص٢٣٣ .

(٣) المقريزى : اتعاظ جـ١ ص١٨٧ .

De Goeje : memoire sur Les Carmattes du Bahrain, leyden 1879, p. 186

الإسلامية من الإخشيديين والحمدانيين والقرامطة فضلا عن الأخطار التي كانت تتهددها من قبل الدولة البيزنطية .

أيقن الفاطميون الذين استقر نفوذهم في مصر أن الامتداد الإستراتيجي لتأمين حدود مصر لايتحقق الا بفتح بلاد الشام ، وذلك لتأمين حدود مصر الشمالية الشرقية حتى يتسنى لهم التصدي للمعتدين ودرء الأخطار الخارجية وبخاصة من ناحيتي الدولة البيزنطية والقرامطة .

وعلى ذلك أنفذ جوهر الصقلي حملة إلى فلسطين بقيادة جعفر بن فلاح الكتامي آواخر سنة ٣٥٩هـ/٩٦٩م[١]، فلما وصل إلى الرملة دعا كبار رجال الدولة في الشام إلى طاعة المعز لدين الله ، فأجابه فريق منهم ، وحاول الحسن بن عبيد الله بن طغج الإخشيد والي بلاد الشام الاستنجاد بعماله على دمشق وطبريه فلم يجبه أحد منهم ، مما اضطره لقتال الكتامي الأمر الذي أدى إلى هزيمته وأسره مع كثير من جنده [٢]، وسيق إلى الفسطاط ومنها إلى بلاد المغرب فظل بها حتى توفي سنه ٣٧١هـ/ ٩٨١م[٣] ، أما جعفر بن فلاح فسار إلى طبرية بعد انتصاره في الرملة ، ودخلها دون مقاومة تذكر بعد فرار واليها ابن ملهم [٤]، وأدى الانتصار إلى قيام أهل دمشق بإرسال وفد إلى جعفر يطلبون الأمان ، الا أنه لم يحسن استقبالهم، وسار إليها لفتحها عنوة [٥]، وعاث جنده فيها فسادا [٦]،

---

(١) المقريزي : اتعاظ جـ١ ص ١٨٦ .

(٢) المقريزي : المصدر نفسه جـ١ ص١٨٧ .

(٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، مطبعة الآباء اليسوعيين ، بيروت ١٩٠٨ ص١.

(٤) أبوالفدا : المختصر جـ ٣ ص ٥٩١ .

(٥) استولى جعفر بن فلاح على حوران وهو في طريقه إلى دمشق وكان يليها بنوعقيل، الذين ولوا هاربين إلى حمص ، ابن ظافر الأزدي : ص ٢٤ .

(٦) المقريزي : المصدر نفسه ، جـ١ ص١٨٧ .

وقد ألح عليه أهلها فى طلب الأمان ، فدخل مسجد دمشق وأقيمت فيه الخطبة للمعز لدين الله بعد حذف اسم المطيع لله العباسى فى المحرم سنة ٣٦٠هـ/ ٩٧٠م[١].

أدى العنف الذى تعامل به جند جعفر بن فلاح مع أهالى بلاد الشام إلى اندلاع الثورات الشعبية من حين لآخر فمن ذلك قيام الشريف أبى القاسم إسماعيل بن أبى يعلى الهاشمى بإبطال الخطبة للمعز لدين الله وإعادتها للمطيع العباسى فضلا عن قيامه وأتباعه من عامة الناس بلبس السواد شعار العباسيين [٢]، على أن جعفر بن فلاح استطاع إخماد هذه الفتنة بعد أن ألحق جنده الأذى بأهالى دمشق وأحداثها ، ولم يعف جعفر عنهم إلا بعد أن وعده وجوه القوم بدفع دية من قتل من جنوده [٣]، فضلا عن لجوء كثير منهم إلى الحمدانيين فى حلب ، ومن ناحية أخرى واجه الفاطميون فى الشام خطراً كبيراً من قبل الروم الذين كانوا قد استولوا على أنطاكية ، وعلى ذلك قام جعفر بن فلاح بتهدئة ثائرة أهالى بلاد الشام حتى يتفرغ لملاقاة العدو البيزنطى، وقام بتجهيز جيش كبير ضم إليه جنودا من دمشق وفلسطين ، وأنفذ هذا الجيش إلى أنطاكية لطرد الروم ، الا أنه لم يتمكن من دخول المدينة[٤].

يعد قرامطة بلاد البحرين من أشد الأخطار التى هددت الحكم الفاطمى فى الشام ، وقد بدأ النزاع منذ رفض جعفر بن فلاح أداء

(١) المقريزى : المصدر نفسه ، جـ١ ص ١٨٨ .
(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ١ ص١٨٨ .
(٣) أبوالمحاسن : النجوم جـ ٤ ص ٥٨ .
(٤) المقريزى : المصدر نفسه جـ١ ص٢٧٥ ، أبوالمحاسن : النجوم الزاهرة حـ ٤ ص٥٩ .

الأتاوة التى كان يدفعها الإخشيديون للقرامطة، لذلك استعد الحسن بن أحمد بن أبى سعيد الملقب بالأعصم زعيم القرامطة لمحاربة الفاطميين وإجلائهم عن بلاد الشام ، وطلب من العباسيين[١] والبويهيين الامداد بالمال والرجال ، فأنفذ إليه عز الدولة بختيار السلاح والمال كما طلب من الحمدانيين[٢] بالموصل مساعدة الأعصم ، بأن طلب من أبى تغلب الغضنفر بن ناصر الدولة الحمدانى أن يؤدى إليه أربعمائة ألف درهم[٣] ، كما سار إليه فريق من الجند الإخشيدى من مصر وفلسطين [٤]، فلما اكتملت الإمدادات سار الحسن بن أحمد إلى دمشق سنة ٣٦٠هـ/ ٩٧٠م ليقضى على النفوذ الفاطمى ، وحمل جنده الأعلام السود عليها اسم المطيع الكريم وتحته السادة الراجعون إلى الحق [٥].

وعلى الرغم من انتصار جعفر بن فلاح على الروم بأنطاكية لكنه هزم

---

(١) مما تجدر الإشارة إليه أن الخليفة المطيع لله امتنع عن إجابة طلب الأعصم قائلا : «كلهم قرامطة وعلى دين واحد قتلوا الحجاج ، وقلعوا الحجر الاسود من الكعبة »، أبوالمحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٤ ص٧٤ .

(٢) الحمدانيون : ظهر أمرهم فى عهد الخليفة المقتدر بالله العباسى سنة ٣٠٣هـ/ ٩١٥م حينما ولى أتباع الحسن بن حمدان وأخوته الولايات بأقاليم الخلافة وأعمالها ، واشتهر منهم أبناء وأخوة أبى الهيجاء عبدالله بن حمدان ، فمنهم أبو محمد الحسن الملقب ناصر الدولة مؤسس دولة الحمدانيين فى الموصل، وأبوالحسن على الملقب سيف الدولة مؤسس دولة الحمدانيين فى حلب ، ابن مسكويه : تجارب الأمم ، تحقيق آمدروز ، مكتبة المثنى ، بغداد ١٩١٦ ، جـ ٢ ص ٦ .

(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١ ،
النويرى : نهاية الأرب جـ ١٣ ص ٩٠

(٤) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ١ ص١٨٨ .

(٥) أبو المحاسن : المصدر نفسه جـ ٤ ص ٧٤ .

فى موقعة الدكة بالقرب من دمشق ، وقتل مع كثير من أتباعه ودخل الحسن بن أحمد القرمطى دمشق ، وعلى الفور أعطى الأمان لأهلها وأمر بقطع الخطبة للفاطميين وإقامتها للخليفة العباسى ، فلقى ترحيبا بذلك[١].

وسار القرمطى إلى الرملة للقضاء على النفوذ الفاطمى هناك فلما علم واليها سعادة بن حيان المغربى بمسيره إليه تركها وفر إلى يافا ، فدخلها القرامطة وأقيمت فيها الدعوة للعباسيين [٢]، كان للانتصارات الكبيرة التى حققها القرامطة فى بلاد الشام أن قام الحسن بن أحمد بالزحف إلى مصر أواخر سنة ٣٦٠هـ/٩٧٠م [٣]، فدخل مدينة القلزم وأسر واليها الإخشيدى عبدالعزيز بن يوسف ، ثم تقدم إلى عين شمس واستولى عليها، وتقدم نحو القاهرة [٤].

لما علم القائد جوهر الصقلى بمسير القرامطة نحو القاهرة ، أعد العدة للتصدى لهم فحفر خندقا عظيما حول القاهرة [٥]، ورتب الجند المغاربة والمصريين للدفاع عنها فتمكنوا من صدهم ومطاردتهم وحصارهم فى الرملة ويافا التى فروا اليها، مما اضطر القرامطة إلى الرحيل إلى الأحساء [٦]،

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ١ ص ٣١٢ .

(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ١ ص١٨٨ .
أبو المحاسن : النجوم جـ ٢ ص ٧٤ .

(٣) لما أزمع ابن الأعصم المسير إلى مصر ولى ظالم بن موهوب العقيلى على دمشق، وأبا محمد بن عبدالله الحسينى على الرملة ، ابن القلانسى ذيل تاريخ دمشق ص ٢٠١.

(٤) المقريزى : المصدر نفسه : جـ١ ص١٨٨ .

(٥) المقريزى : المصدر نفسه جـ٢ ص .

(٦) المقريزى : المصدر نفسه جـ٢ ص٢٠٧ .
Lane Poole : A History of Egypt , P. 107.
ابن ظافر : أخبار الدول المنقطعة ص ٢٥ .

وذلك فى ربيع الأول سنة ٣٦١هـ/٩٧١م .

من ناحية أخرى لما قدم المعز لدين الله إلى مصر سنة ٣٦٢هـ/٩٧٢م، وجه اهتمامه إلى القضاء على نفوذ القرامطة ، واتبع فى ذلك السياسة الدعائية التى تقوم على الشدة واللين وتأليب الأتباع ، فأنفذ إلى الحسن بن أحمد القرمطى كتابا يذكره فيه بما كان من ولاء أجداده للفاطمين، ويلومه ويعنفه بأسلوب متشدد قائلاً : «فأما أنت أيها الغادر الخائن ؛ الناكث البائس، عن هدى أبائه وأجداده، المنسلخ عن دين أسلافه وأنداده ، والموقد لنار الفتنة، والخارج عن الجماعة والسنة ، فلم أغفل أمرك ، ولاخفى عنى خبرك ، أما كان لك بجدك أبى سعيد أسوة ، وبعمل أبى طاهر قدوة ؟ أما نظرت فى كتبهم وأخبارهم ولا قرأت وصاياهم وأشعارهم ؟ أكنت غائبا عن ديارهم وما كان من آثارهم ؟ ألم تعلم أنهم كانوا عبادا لنا أولى بأس وعزم شديد ، وأمر رشيد ، وفعل حميد ، يفيض إليهم مرادنا ، وينشر عليهم بركاتنا ، حتى ظهروا على الأعمال ودان لهم كل أمير ووال ، ولقبوا بالسادة فسادوا ، منحة منا واسما من أسمائنا ، فعلت أسماؤهم واشتعلت هممهم ، واشتد عزمهم ، فسار إليهم وفود الآفاق ، وامتدت نحوهم الأحداق ، وخضعت لهيبتهم الأعناق ، وخيف منهم الفساد والعناد وأن يكونوا لبنى العباس أضداد ، فعبئت الجيوش وسار إليهم كل خميس بالرجال المنتجه والعدد المهذبة والعساكر الموكبة ، فما لقيهم جيش إلا كسروه ولا رئيس إلا أسروه ، ولاعسكر إلا هزموه ، وبركتنا ترفعهم ونصرنا يلحقهم ، كما قال الله عز وجل ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ (١) ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ (٢)، وإن حزبنا لهم

(١) سورة غافر آية ٥١.
(٢) سورة الصافات آية ٧٣

المنصورون ، فلم يزل ذلك دأبهم وعين الله ترقبهم ، إلى أن اختاره لهم ما اختاروه من نقلهم عن دار الفناء إلى دار البقاء ، ومن نعيم يزول إلى نعيم لايزول فعاشوا محمودين ، وانتقلوا مفقودين ، إلى روح وريحان وجنة نعيم فطوبى لهم وحسن مآب واستطرد المعز فى كتابه : فيا أيها الناكث ما الذى أرداك وصدك ؟ أشئ شككت منه ، أم أمر استربت به ، أم كنت خليا من الحكمة وخارجا عن الكلمة ، فازالك وصدك ، وعن السبيل ردك ؟ إن هى إلا فتنة لكم ومتاع إلى حين ، وأيم الله لقد كان الأعلى لجدك ، والأرفع لقدرك والأفضل لمجدك ، والأوسع لوفدك ، والأنضر لعودك ، والأحسن لعذرك الكشف عن أحوال سلفك وإن خفيت عليك ، والقفو لآثارهم ، وإن عميت لديك، لتجرى على سننهم وتدخل فى زمرهم وتسلك فى مذهبهم ... لم لم تقنع من انتكاسه وترديك فى ارتكاسك وارتباكك وانعكاسك، من خلافك الآباء ومشيك القهقرى ، والنكوص على الأعقاب ، والتسمى بالألقاب ، بئس الإثم الفسوق بعد الإيمان ، وعصيانك مولاك، وجحدك من ولاك ، حتى انقلبت على الأدبار ، وعملت عظيم الأوزار ، لتقيم دعوة قد درست ، ودولة قد طمست (القصد الدولة العباسية) إنك لمن الغابرين وإنك لفى ضلال مبين ، أم تريد أن ترد القرون السالفة ، والأشخاص الغابرة ، أما علمت أن المطيع آخر ولد العباس وآخر المتاريس فى الناس أم تراهم كأنهم أعجاز نخل خاوية ، فهل ترى لهم من باقية ، ختم الله الحساب وطوى الكتاب ، وعاد الأمر إلى أهله، والزمان إلى أوله ، وأزفت الآزفة ، ووقعت الواقعة ، وقرعت القارعة ، وطلعت الشمس من مغربها ، والآية من موطنها ، وجيء بالملائكة والنبيين ،

وخسر هنالك المبطلون ، هنالك الولاية لله الحق ، والملك لله الواحد القهار، فله الأمـر من قـبل ومن بعـد ، ثم لم يكفك ذلك - مع بلائك وطول شقائك حتى جمعت أرجاسك وأنجاسك ، وحشدت أوباشك وأقلاسك (ماخرج من الحلق وملأ الفم أى البلغم) ، وسرت قاصدا دمشق وبها جعفر بن فلاح فى فئة قليلة من كتامة وزويلة ، فقتلته وقتلتهم - جرأة على الله وردا لأمره - واستبحت أموالهم وسبيت نساءهم ... ثم سرت أمامك ولم ترجع ، وأقمت على غيك ولم تقلع ، حتى أتيت الرملة وفيها سعادة بن حيان فى زمرة قليلة وفرقة يسيره ، فاعتزل عنك إلى يافا ، مستكفيا شرك ، وتاركا حربك ، فلم تزل ماكثا على نكثك باكرا وصابحا، وغاديا رائحا ، تقعد لهم بكل مقعد وتأخذ عليهم بكل مرصد ، وتقعدهم بكل مقصد، كأنهم ترك وروم وخزر ، لاينهاك عن سفك الدماء دين ولايردعك عهد ولايقين ، ونحن معرضون ثلاث خصال - والرابعة أردى لك (فيها هلاكك) وأشقى لبالك ، وما أحسبك تحصل الأ عليها فاختر ، إما قدت نفسك لجعفر بن فلاح وأتباعك بأنفس المستشهدين معه بدمشق والرملة من رجاله ورجال سعادة بن حيان ، ورد جميع ما كان لهم من رجال وكراع ومتاع إلى آخر حبة من عقال ناقة وخطام بعير ، وهى أسهل ما يرد عليك وإما أن تردهم أحياء فى صورهم وإيمانهم وأموالهم وأحوالهم - ولاسبيل لك إلى ذلك ولا اقتدار ؛ وإما سرت ومن معك بغير زمام ولا أمان فأحكم فيك وفيهم بما حكمت ، وأجريكم على إحدى ثلاث ، إما قصاص ، وإما منًا بعد ، وإما فداء ، فعسى أن يكون تمحيصا لذنوبك وإقالة لعثرتك ، وإن أبيت إلا فعل اللعين (فاخرج منها فإنّك رجيم،

وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين) ، فاخرج منها فما يكون لك أن تتكبر فيها، وقيل إخسئوا ولاتكلمون فما أنت إلا كشجرة خبيثة أجتثت من فوق الأرض مالها من قرار ، فلا سماء تظلك ولا أرض تقلك ، ولاليل يجنك، ولا نهار يكنك ، ولا علم يسترك ولافئة تنصرك » [١].

أظهر الحسن بن أحمد الأعصم عدم اكتراثه بتهديد المعز لدين الله له وكتب اليه : «وصل كتابك الذى قل تحصيله وكثر تفصيله ونحن سائرون إليك على أثره والسلام » [٢]، ثم سار إلى مصر على رأس جنوده متوغلا فى الأرض المصرية متجهاً نحو القاهرة .

لم يجد المعز بدا من كسر شوكة الأعصم ، واستخدم فى سبيل تحقيق ذلك الحيلة ، فعمد إلى استمالة أهم حلفاء الأعصم حسان بن الجراح – زعيم الجند العربى – واتفق معه على التخاذل فى ساحة الوغى فى مقابل مائة ألف دينار [٣]، فلما اشتبك الطرفان انسحب ابن الجراح مما أدى إلى هزيمة الحسن بن أحمد وفراره إلى بلاد الشام ، بينما أسر كثير من أصحابه القرامطة [٤]، وقام الجيش الفاطمى بمطارده القرامطة نحو بلاد الشام ، مما حمل الأعصم على الرحيل إلى الإحساء [٥]، ومن ناحية

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ١ ص١٨٩ ـ ٢٠١ .

(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ جـ ٨ ص ٢١١ ، المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ١ ص٢٠٠ .

(٣) ابن الأثير : المصدر نفسه جـ ٨ ص ٢١١ .

(٤) أبوالفدا : المختصر جـ ٣ ص ١٤٣ .

(٥) ابن الأثير : المصدر نفسه جـ ٨ ص ٢١١ .

أخرى ولى المعز لدين الله ظالم بن موهوب العقيلى دمشق ، فدخلها وقبض على واليها من قبل الأعصم أبى المنجا القرمطى وعلى كثير من أصحابه، وبذلك تيسر للمعز لدين الله استعادة بلاد الشام فى رمضان سنة ٣٦٣هـ/٩٧٤م[١] ، إلا أن الأمور لم تستقر بسبب شغب الجند المغاربة الذين عاثوا فى دمشق فسادا وعمدوا إلى السلب والنهب مما أدى إلى تذمر أهلها ودارت بين الطرفين حروب أهلية موسعة ، عزل على أثرها العقيلى ، وتم تعيين جيش ابن الصمصامة فى ربيع الآخر سنة ٣٦٤هـ/٩٧٤م . لكن الأمور لم تستقر [٢] الا بتعيين ريان الخادم والى طرابلس على دمشق فبذل جهداً كبيرا فى سبيل إقرار الأمور بها [٣] .

لم تعان بلاد الشام من هجمات القرامطة فحسب بل تطلع الأتراك للاستيلاء عليها ، فدخل فريق منهم بزعامة أفتكين[٤] ، زعيم الجند

---

(١) ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ٩٠ .

(٢) ذلك أن الفتنة أطلت برأسها من جراء اصطدام أهالى دمشق مع جند المغاربة ، فاضطرب الناس وانتشرت الفوضى مما اضطر جيش بن الصمصامة إلى الفرار ، فطارده أهل دمشق من رعيتها وأحداثها ، فلما علم بذلك المعز لدين الله أيقن أن المغاربة لايمكن أن يتفقوا مع أهل الشام والتعايش معهم ، فكتب إلى ريان الخادم واليه على طرابلس يأمره بالمسير إلى دمشق .
أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ١٠٨ .

(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٠ ـ ١١ .

(٤) هو الحاجب أبو منصور أفتكين ، كان من بين موالى معز الدولة أحمد بن بويه ثم انضم إلى جانب الخليفة العباسى المطيع لله ومن بعده الطائع، وذلك أثناء الحروب والنزاعات التى قامت ضد عز الدولة بختيار بن بويه ، ولما اشتدت الفتن والاضطرابات والحروب بين الديلم والاتراك ، استقر رأى الاتراك على تولية افتكين زعامتهم . =

التركى ببغداد على عهد الأمير البويهى عز الدولة بختيار ، بلاد الشام واستقبل فى حمص استقبالا حافلا ، بعد أن عاونه الحمدانيون بالجند الكثير ، وسار من حمص إلى دمشق إجابة لطلب أهلها لإخراج الجند الفاطمى من بلادهم ، وخرج أشرافها لاستقباله لما علموا بقدومه ، ودخل دمشق فى شعبان ٣٦٤هـ/ ٩٧٥م ، وأخرج منها واليها ريان الخادم ، وأمر بإقامة الدعوة على منابرها للخليفة الطائع العباسى[١] ، وفى نفس الوقت أنفذ إلى الخليفة المعز لدين الله يعلن له الولاء والطاعة حتى يتجنب إرسال الجيوش الفاطمية إلى هناك ، ورد عليه المعز لدين الله يدعوه للحضور إليه ليخلع عليه ويقره على ولايته لكنه لم يفعل [٢] ، واتجه إلى الاستيلاء على باقى بلاد الشام فسار إلى صيدا واستولى عليها ثم ضم عكا وطبرية وعاد إلى دمشق .

ظل الحال على ذلك حتى ولى العزيز بالله الخلافة الفاطمية فى ربيع الآخر سنة ٣٦٥ هـ/ ٩٧٥م فوجه اهتمامه إلى استعادة النفوذ الفاطمى على بلاد الشام، واختار جوهر الصقلى قائدا للجيش الفاطمى لتحقيق ذلك، فسار فى ذى القعدة نحو بلاد الشام وفرض الحصار حول دمشق لمدة طويلة مما أدى إلى تذمر أهلها وطلبوا من أفتكين الاستعانة بالحسن بن

= أبو شجاع : ذيل تجارب الأمم ، تحقيق هـ. أمدروز ، مكتبة المثنى ، بغداد ١٩١٦ ، ص ٣٣٤ .

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ٢٨٨ .

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٢ .

أحمد زعيم القرامطة ، الذى وافق على طلبه على الفور وسار إليه من الأحساء ، فلما علم بذلك جوهر الصقلى رأى أنه لا قبل له بمواجهة عدوين ، فرفع الحصار عن دمشق واتجه إلى الرملة لكن الأتراك والقرامطة ساروا فى أثره فاتجه إلى عسقلان ، ومن هناك أرسل إلى أفتكين يطلب المهادنة ، وظل يلح عليه فى طلب الصلح[1] حتى أجابه مقابل مبلغ من المال ، وأن يخرج من تحت سيفه ورمح الحسن بن أحمد إمعاناً فى المهانه والإذلال فمر جوهر من تحتهما وهما معلقان على باب عسقلان وعاد إلى مصر[2].

لما رأى الخليفة العزيز بالله ما أصاب قائده وقواته من الضعف والانحلال استقر رأيه على الخروج بنفسه لاستعادة سلطان الفاطميين على بلاد الشام وجعل على مقدمة قواته جوهر الصقلى[3]، وفى مقابل ذلك أعد أفتكين والأعصم قواتهما لملاقاة الفاطميين ، فدارت بين الفريقين عدة معارك فى المحرم ٣٦٧هـ/ ٩٧٧م بالقرب من الرملة ، أبدى أفتكين خلالها شجاعة كبيرة كانت مثار إعجاب الخليفة العزيز بالله ، الا أن العزيز

---

(١) أنفذ جوهر الصقلى إلى أفتكين رسالة يرجوه فيها الأمان قائلاً : «لقد ضاق بى الأمر ، وامتنع الصبر ، وأريد أن تحسن على بنفس ، لما أخبره عن الفتوة عندك وبها ولاء المسلمين الذين معى وعندى، وتذم بى لأمضى ، وأعود إلى صاحبى شاكراً وتكون قد جمعت بين حقن الدماء ، واصطناع المعروف ، وعقدت على وعلى صاحب منه ، تحسن الأحدوثه فيها ، وربما أملت المقابلة لك ذلك » .

ابن ظافر : أخبار الدول المنقطعة ص ٣١ .

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٧ .

(٣) ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ٢١٩ .

أوقع به الهـزيمة وتم القبض عليه مع بعض أنصاره وسيق الجميع إلى القاهرة، فعفا عنه الخليفة وخصص له داراً لإقامته بمصر [١]، أما الحسن ابن أحمد فسار منهزما إلى طبرية ثم رحل إلى الأحساء مع أنصاره من القرامطة [٢]، وبذلك استعاد الفاطميون نفوذهم على بلاد الشام [٣].

كان الخليفة المعز لدين الله يعتمد على قبيلة طيء في ضرب القوى المناوئة للنفوذ الفاطمي ببلاد الشام ، فاستمالهم بما بذل من الأموال ضد القرامطة وأعلن زعيمهم مفرج بن دغفل بن الجراح الطاعة للفاطميين دون الدخول في مذهبهم ، وساعد ابن الجراح الجيش الفاطمي ضد أفتكين التركي وقام بالقبض عليه وتسليمه لهم مقابل مائة ألف دينار [٤] ، وعلى الرغم من الود الظاهر بين الفاطميين وبني الجراح ، الا أن إخلاصهم كان يعتمد على مدى ما تقتضيه مصالحهم ، يتجلى ذلك في قيام ابن الجراح بخلع طاعة العزيز بالله الفاطمي سنة ٣٧١هـ/٩٨١م، مما اضطر الأخير إلى تجهيز الجيش الفاطمي لمحاربته بقيادة بلتكين التركي ، فلما وصل الرمله انسحب منها ابن الجراح وفي المعركة الفاصله انهزم ابن الجراح وقصد أنطاكية واستجار بصاحبها [٥].

---

(١) المقريزي : الخطط جـ٢ ص٢٨٤ .

(٢) ابن الأثير : المصدر نفسه جـ ٨ ، ص ٢١٩ ،
ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ٩١ .

(3) Gaston Wiet : Histoire de la Nation Egyptienne, Paris, 1931, Vol. 4, p. 182.

(٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٩ .

(٥) ابن الجوزي : المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، حيدر أباد ، الدكن ١٣٥٩ ، جـ ٥ ص ١٤٧ .

شهد عصر الحاكم بأمر الله أولى محاولات الأمراء العرب من أجل الاستقلال بفلسطين ، فخلع مفرج بن دغفل بن الجراح [١] أمير طيء الطاعة بالرملة لكنه منى بالهزيمة على يد جيش بن الصمصامة قائد الجيش الفاطمى الذى أرسله برجوان الوصى على الخليفة الفاطمى ، واضطر إلى طلب الأمان فعفا عنه سنة ٣٨٨هـ/٩٩٨م [٢] . قامت الثورة الثانية على يد حسان بن مفرج بن دغفل سنة ٤٠٠هـ/١٠٠٩م الذى سار إلى الرملة واستولى عليها وقتل واليها من قبل الفاطميين [٣] .

ومن ناحية أخرى عرض بنو الجراح على أبى الفتوح الحسن بن جعفر الحسن أمير مكة سنة ٤٠١هـ/١٠١٠م أن يبايعوه بالخلافه [٤] ، فرحب أمير مكه بهذه الدعوة وأقام الخطبة لنفسه وتلقب بالراشد بالله ، وسار إلى الرملة حيث تلقاه أميرها حسان بن مفرج وأولاده وشرفاؤها بالترحاب وبايعوه بالخلافة ، وأقيمت الخطبة له فى كثير من بلاد الشام [٥] ، وقد استفحل خطرهم بعد أن استطاعوا التغلب على القوات التى أنفذها

---

(١) بنو الجراح أسرة عربية من قبيلة طيء اليمانيه ، كانوا يقطنون سلسلة جبال أجا وسلمى فى المناطق الشمالية من الصحراء العربية ، ثم ساروا إلى الشام والعراق فى صدر الإسلام ، واستوطنوا فلسطين فى أواخر القرن الرابع الهجرى ثم استطاعوا إقامة دولة لهم بها بزعامة بن الجراح ، واتخذوا من الرملة عاصمة لهم واختاروا حسان بن الجراح زعيما لهم منذ سنة ٣٥٨هـ/ ٩٦٨م .
القلقشندى : صبح الاعشى جـ ١ ص ١١٠ ،
المقريزى : اتعاظ ، جـ١ ص٢٤٠ .
(٢) ابن الأثير : الكامل جـ ٩ ص ٤١ .
(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٥٠ .
(٤) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ ٤ ص ٥٧ .
(٥) ابن خلدون : المصدر نفسه جـ ٤ ص ١٢٠ ،
ابن القلانسى : المصدر نفسه ص ٥٥ .

الحاكم بأمر الله لاستعاده نفوذه هناك .

لم يجد الحاكم بأمر الله بدا من استعمال الحيلة والخداع كما فعلها من قبل جده المعز لدين الله ، فاستمال حسان وأبيه مفرج وغيرهم من بنى طيئ بالأموال لخذلان أمير مكة ، فلما أيقن بذلك أبوالفتوح سار إلى مفرج ابن الجراح وقال له : «أريد أن تبعث معى من يوصلنى إلى مكة ولاتحرجنى» ، فأرسل معه جماعة من قومه حتى بلغ مكة سنة ٤٠٣هـ/١٠١٢م، ومن هناك أنفذ إلى الحاكم بأمر الله كتابا قدم فيه الاعتذار عما بدر منه فقبل الحاكم هذا الاعتذار وأعاده إلى إمارة مكة [١]، مما كان له أبلغ الأثر فى نفس أبى الفتوح الحسن بن جعفر فأقام الدعوة للحاكم بأمر الله ونقش اسمه على السكة إمعانا فى إظهار الطاعة والولاء[٢].

أما بنو الجراح فقد عانوا من الحملات المتتالية من الفاطميين تعرضوا خلالها للهزائم على يد جعفر بن فلاح القائد الفاطمى مما أدى إلى فقدانهم الرملة ودمشق[٣] .

أعاد بنو الجراح ترتيب أنفسهم وقواتهم ، وتحالفوا مع صالح بن مرداس أمير بنى كلاب ، وسنان بن عليان أمير العليين من أجل الإتحاد فى مواجهة الفاطميين ، وتقسيم النفوذ على بلاد الشام فيما بينهم على أن تكون

---

(١) ابو شجاع : ذيل تجارب الأمم ص ٢٣٨ .
(٢) المقريزى : خطط جـ ٢ ص ١٥٧ ، ١٥٨ .
(٣) ابن الأثير : الكامل جـ ٩ ص ٤٣ .
ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ٥٧ .

المنطقـة من حلب إلى عـانة على نهـر الفـرات من نصـيب صـالح بن مرداس[١]، ومن الرملة إلى حدود مصر لحسان بن الجراح ، ودمشق وما يحيط بها لسنان بن عليان [٢]، وحاولوا استمالة الإمبراطور البيزنطى باسيل الثانى الا أنه لم يجب طلبهم [٣].

لما علم الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله بما عزم عليه الأمراء العرب جهز جيشا كبيرا سنه ٤٢٠هـ/ ١٠٢٩م لمحاربتهم بقيادة أنوشتكين الدزبرى[٤]، فسار إلى بلاد الشام حيث التقى بالمتحالفين العرب وألحق بهم الهزيمة عند الأقحوانية بطبرية ، وقتل صالح بن مرداس ، وفر حسان بن الجراح إلى باسيل الثانى للاحتماء فى بلاطه ، واسترد الفاطميون سلطانهم على البقـاع الجنوبية والوسطى من الشام [٥]، عدا حلب التى ظلت بيد

---

(١) ينتسب بنو مرداس إلى قبيلة بنى كلاب بن ربيعة ، إحدى بطون عامر بن صعصعة من عرب الشمال كانت مساكنهم تقع بالقرب من يثرب ثم رحلوا إلى اليمامة ومنها إلى مشارف الشام والعراق فى صدر الإسلام ثم استقروا فى الجزيرة الفراتية ، وابتدأ ظهور أمرهم على عهد محمد بن طغج الإخشيد عندما ولى عثمان بن سعيد الكلابى أميراً على حلب من قبله ، وقوى شأنهم بانضمام كثير منهم إلى عثمان ، واشتهر من بينهم أبوعلى صالح بن مرداس ، الذى قادهم إلى العراق والشام أواخر القرن الرابع الهجرى ، فلما قويت شوكتهم حارب صالح بن مرداس مرتضى الدولة وضيق عليه، حتى اضطر الى الهرب ملتجئا إلى امبراطور الروم، ابن العديم : جـ ١ ص٢١٠.

(٢) الانطاكى : تاريخ الأنطاكى جـ٢ ص٢٤٤ ، ٢٤٥ .

(3) Gaston Wiet : Histoire de la Nation Egyptienne, Vol. 4, p. 217.

(٤) ابن الأثير : الكامل جـ ٩ ص ١٢٨ .

(٥) جمـال سرور : النفوذ الفاطمـى فى جزيرة العرب ، دار الفكر العربى ، القـاهرة ١٩٦٤ ، ص ٢٥ .

نصر بن صالح ابن مرداس الذى تلقب بشبل الدولة [١].

على الرغم من توطيد الحمدانيين سلطانهم فى حلب [٢] إلا أن الخلاف الذى قام بين سعد الدولة بن سيف الدولة الحمدانى والقائد بكجور أدى إلى استعانة الأخير بالفاطميين ومن ثم وجه اهتمامهم للإستيلاء على هذه المدينة [٣]، فلما استعان بكجور بالعزيز بالله [٤] أرسل إليه الخليفة الفاطمى الإمدادات الحربية سنة ٣٧٣هـ/٩٨٣م ، حيث قام بحصار حلب لكنه اضطر إلى رفع الحصار والمسير إلى دمشق لاستعانة سعد الدولة بالروم ، ثم رحل بكجور إلى الرقة على نهر الفرات ، ووجه بكجور

---

(١) ابن الوردى : تاريخ ابن الوردى ، النجف ، العراق ١٩٦٩ ، جـ ٢ ص ٣٢٤ .

(٢) على الرغم من وصول كتاب الحمدانيين إلى جوهر الصقلى وما يحتوى عليه من بذل الطاعة للفاطميين ، الا أن المعز لدين الله لم يكن يطمئن اليهم ، يتضح ذلك من كتابه الذى أرسله إلى القائد جوهر وقد جاء فيه : «وأما ما ذكرت ياجوهر من أن جماعة من بنى حمدان ، وصلت اليك كتبهم ، يبذلون الطاعة ، ويعدون بالمسارعة فى المسير اليك ، فاسمع لما اذكره لك ، احذر أن تبتدئ أحدا من بنى حمدان بمكاتبته ترهيباً ولاترغيباً ، ومن كتب إليك منهم ، فأجبه بالحسن الجميل ولاتستدعه إليك ، ومن ورد إليك منهم فأحسن إليه ، ولاتمكن أحداً منهم قيادة الجيش ، ولاملك طرف، فبنو حمدان يتظاهرون بثلاثة أشياء عليها مدار العالم ، وليس لهم فيها نصيب : يتظاهرون بالدين وليس لهم فيه نصيب ، ويتظاهرون بالكرم وليس لواحد منهم كرم فى الله ، ويتظاهرون بالشجاعة وشجاعتهم للدنيا لا للآخرة فاحذر كل الحذر من الاستكانة إلى أحد منهم» .

المقريزى : اتعاظ جـ١ ص٩٨ ، ٩٩ .

(٣) أبو الفدا : المختصر جـ ٣ ص ١٣٦ .

(٤) كان بكجور قد كتب إلى العزيز بالله : «أن أنفذ إلىّ عسكرا لآخذ لك حلب» ، ابن القلانسى : ذيل ص ٢٩ .

اهتمامه إلى الإستيلاء على حلب فراسل فريقا من أصحاب سعد الدولة لاستمالتهم إلى جانبه ، فضلا عن طلب النجدة من العزيز بالله مرة أخرى[١] ، الأمر الذى أدى إلى استعانة سعد الدولة بالإمبراطور باسيل الثانى البيزنطى ، وقامت الحرب فى نهاية الأمر بين بكجور يعاونه المغاربة والعرب ، وبين سعد الدولة يعاونه الروم والديلم والأتراك وبعض العرب من بنى كلاب ، وخلال ذلك حاول سعد الدولة استمالة بكجور بإقطاعه الأراضى الممتدة بين حمص والرقة ، الا أنه رفض وأبى إلا مواصلة القتال فحلت الهزيمة به وقتل واستولى سعد الدولة على أمواله [٢] سنة ٣٧٨هـ/ ٩٨٨م، إلا أن سعد الدولة لم يتمتع بانتصاره طويلا فقد توفى فى نفس العام وخلفه ابنه سعيد الدولة أبو الفضائل .

انتهز الخليفة العزيز بالله فرصة وفاة سعد الدولة ، وأسند ولاية الشام إلى منجوتكين التركى ، فسار إلى دمشق وبعد فتحها اتجه إلى حلب للاستيلاء عليها فحاصرها ، ولم يجد سعيد الدولة وقائد جنده لؤلؤ الخادم بدا من الاستعانة بالإمبراطور البيزنطى وحذراه من عاقبة سقوط حلب فى أيدى الفاطميين : «متى أخذت حلب ، أخذت انطاكية ، ومتى أخذت أنطاكية أخذت القسطنطينية » [٣] ، فسار باسيل الثانى على رأس جيشه لرفع الحصار عن حلب الا أنه اضطر للعودة إلى أنطاكية ثم إلى القسطنطينية[٤] ،

---

(١) كتب بكجور إلى العزيز بالله : «إن حلب دهليز العراق ، متى أخذت كان ما بعدها أسهل » ، أبوالفدا : المختصر جـ ٤ ص ٢٠ .

(٢) ابن القلانسى : ذيل ص ٣٨ .

(٣) ابوالمحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ١٢١ .

(٤) أبوشجاع : ذيل تجارب الأمم ص ٢٢١ .

وعلى الرغم من انسحاب الإمبراطور البيزنطى دون تحقيق أهدافه ، الا أن منجوتكين رفع الحصار عن حلب وعاد إلى دمشق . عزم الخليفة العزيز بالله على المسير بنفسه لفتح بلاد الشام والاستيلاء على حلب ، فلما وصل إلى بلبيس اشتد عليه المرض فجأة فتخلف بها وتوفى سنة ٣٨٦هـ/ ٩٩٦م [١].

لم ينعم سعيد الدولة ببسط سلطانه على حلب طويلا فقد نازعه الحكم فيها لؤلؤ الخادم [٢]، فقتل الأمير الحمدانى وانتزع ولاية حلب لنفسه من ولديه أبى الحسن على وأبى المعالى شريف ولم يكتف بذلك بل أرسلهما إلى القاهرة ، وطلب من الخليفة الحاكم بأمر الله مرسوما بولايته، معلنا الطاعة له ، بعد أن أمر بحذف اسم الخليفة العباسى من الخطبة [٣].

سار منصور بن لؤلؤ الخادم الذى ولى الإمارة بعد وفاة أبيه سنة٣٩٩هـ/١٠٠٨م على نهجه فى التقرب من الفاطميين ، وأرسل له الحاكم بأمر الله مرسوما بولايته على حلب ولقبه مرتضى الدولة [٤] .

قامت الحرب بين مرتضى الدولة وبين بنى كلاب لنكثه العهد بتوليتهم بعض الإقطاعات ، ولما عجز عن الاحتفاظ بسلطته عليها رحل إلى أنطاكية ، فدخلها نواب الحاكم بأمر الله وبذلك استولى عليها الفاطميون دون إراقة الدماء ، ثم عهد الحاكم لأحد أمراء بنى حمدان وهو عزيز الملك فاتك بولايتها ولقبه أمير الامراء [٥]، وظل يلى أمرها طوال عهد الحاكم وأوائل عهد الظاهر لاعزاز دين الله إلى أن قتل على يد غلام له

---

(١) أبوالمحاسن : المصدر نفسه جـ ٤ ص ١٢٢ .
(٢) جمال سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص ١٤٧ .
(٣) ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ٢٢١ .
(٤) ابن الأثير : الكامل جـ ٩ ص ٧٨
(٥) ابن الأثير : المصدر نفسه جـ ٩ ص ٧٩ .

يدعى بدر، الذى استولى على حلب ثم سلمها للخليفة الفاطمى ، ومنذئذ زال سلطان الحمدانيين من حلب [١].

لم يستطع الفاطميون الاحتفاظ بسلطانهم طويلا على حلب ، فقد تمكن صالح بن مرداس - أمير بنى كلاب - من الاستيلاء عليها سنة ٤١٤هـ/٩٨٠م ، وظل يلى حكمها حتى سنة ٤٢٠هـ/١٠٢٩ حينما استطاع الفاطميون استردادها بعد مقتله ، لكن نصر بن صالح ظل يؤرق الفاطميين حتى عهد المستنصر بالله الفاطمى ، الذى أنفذ إليه جيشاً بقيادة أنوشتكين الدزبرى فزحف به إلى حلب واستردها بعد مقتل نصر بن صالح [٢]، ووليها حتى وفاته سنه ٤٣٣هـ/١٠٤١م [٣].

انتهز ثمال بن صالح بن مرداس الذى كان يقيم اذ ذاك بالرحبه فرصة وفاة أنوشتكين وزحف إلى حلب واستولى عليها سنة ٤٣٤هـ/١٠٤٢م، وظل يلى أمرها حتى عجز عن ضبط الأمور بها فسلمها إلى الخليفة المستنصر بالله الفاطمى سنة ٤٤٩هـ/١٠٥٧م، فعهد إلى مكين الدولة الحسن بن ملهم بولايتها، لكن أهلها ثاروا على هذا الوالى، وأرسلوا إلى المستنصر يطلبون توليته محمود ابن نصر بن صالح بن مرداس ، فأجاب طلبهم سنة ٤٥٢هـ/١٠٦٠م، وعاد ابن ملهم إلى مصر [٤]، غير أن الأمراء المرداسيين لم يكونوا على وفاق مع الفاطميين ، ومن ثم ظلوا فى

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ، تحقيق سامى الدهان ، المعهد الفرنسى للدراسات العربية، دمشق ١٩٦٨ ، جـ ١ ص ١٩٨ - ١٩٩ .

(٢) ابن ظافر : اخبار الدول المنقطعة ص ٩٣ .

(٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ جـ ٩ ص ٧٩ .
، ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ ٤ ص ٢٢٢

(٤) ابن خلدون : المصدر نفسه جـ ٤ ص ٢٧٤ .

نزاع معهم حتى استولى عليها شرف الدولة مسلم بن قريش بن بدران العقيلى صاحب الموصل سنة ٤٧٣هـ/١٠٨٠م [١].

كان للنزاع الذى قام بين الفاطميين والأمراء المحليين فى بلاد الشام أثره البالغ فى ازدياد النفوذ السلجوقى[٢] هناك والقضاء على النفوذ الفاطمى، وبخاصة أن السلاجقة كانوا من السنة المتحازين للخلافة العباسية، وساعدهم على ذلك استئثارهم بالنفوذ فى العراق وظهر ذلك واضحا فى طلب السلطان ألب ارسلان من محمود بن صالح بن مرداس إقامة الخطبة للخليفة العباسى على منابر حلب فأجابه إلى طلبه سنة ٤٦٢هـ/١٠٦٩م[٣]، وفى سنة ٤٦٥هـ/١٠٧٢م قام القائد التركمانى أتسز بالاستيلاء على معظم بلاد الشام، وقام بحذف اسم الخليفة الفاطمى من على منابرها وإقامتها للخليفة العباسى المقتدى بأمر الله [٤].

لم يكتف أتسز بما حققه من انتصارات فى بلاد الشام بل قام

---

(١) ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ٢٧٥ .

(٢) يرجع أصل السلاجقة إلى أحدى قبائل الغز التركية ، وكانوا يقطنون أقصى بلاد التركستان ، إلا أنهم اضطروا للهجرة بداية من القرن الثانى الهجرى تحت وطأة سوء الأحوال الاقتصادية ، وحدوث المجاعات ، وعرفوا بالسلاجقة نسبة إلى قائدهم سلجوق بن دقاق الذى لم شملهم تحت قيادته ، اعتنق سلجوق الإسلام هو وأتباعه على المذهب السنى لمجاورة منازلهم السامانيين والخانيين والغزنويين وكلهم كانوا من أهل السنة ، وعلى ذلك قامت بينهم وبين الخلافة العباسية أواصر الود والاحترام . راجع : ابن الأثير : الكامل جـ ٩ ص ١٧٦ .

(٣) ابن الأثير : المصدر نفسه جـ ١٠ ص ٢٢ .

(4) Lane Poole : A History of Egypt , p. 161.

بالزحف إلى مصر على رأس جيش يتألف من التركمان والعرب والترك سنة ٤٦٩هـ/ ١٠٧٦م ومكث بالدلتا نحو خمسين يوما [١]، لكن بدر الجمالى تصدى لهم واستطاع استمالة فريق من جند أتسز كما فعل المعز من قبل مع القرامطة ، مما عجل بهزيمة أتسز وفراره إلى غزة ثم رحيله إلى دمشق[٢].

ظلت بلاد الشام تتأرجح فى ولائها بين السلاجقة والفاطميين تبعا لقوة وانتصار كل طرف منهم ، فمن ذلك استيلاء تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان على حلب بعد قتله أتسز سنة ٤٧١هـ/١٠٧٨م [٣]، ومن ناحية أخرى فشل بدر الجمالى فى الاستيلاء عليها ورحيله إلى مصر سنة ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م[٤]، وعلى الرغم من استيلاء الفاطميين على بعض المدن الساحلية ببلاد الشام سنة ٤٨٢هـ/ ١٠٨٩م[٥]، إلا أن السلاجقة تمكنوا من استعادة السيطرة عليها فضلا عن حمص وقلعتى عرقة وأفامية .

لم يكتف تتش ببسط سلطانه على بلاد الشام فقط بل عمد إلى الاستيلاء على بلاد الجزيرة وفارس ، مما أدى إلى قيام الحروب بينه وبين ابن أخيه بركيارق وانتهى الأمر بهزيمة تتش وقتله سنة ٤٨٨هـ/١٠٩٥[٦]،

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ص ٢٦ .
(٢) ابن الأثير : المصدر نفسه جـ ١٠ ص ٣٦ ،
ابن ميسر : المنتقى من أخبار مصر ، انتقاء شمس الدين الذهبى ، تحقيق أيمن فؤاد سيد ، المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية ، القاهرة ١٩٨١، ص ٣٥ .
(٣) خواندمير : حبيب السير ، تهران ١٣٣٣ ، ص ٤٩٢ .
(٤) ابن الأثير : المصدر نفسه جـ ١٠ ص ٦٦ .
(٥) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص١٢٠ .
(٦) ابن الأثير : المصدر نفسه ج ١٠ ص ٨٥ .

فرأى الفاطميون أن ينتهزوا فرصة الخلاف بين السلاجقة لإستعادة سلطانهم على مدن الشام ، فسار الأفضل بن بدر الجمالى على رأس حمله إلى بيت المقدس سنة ٤٨٩هـ/١٠٩٦م وكان يليها إيلغازى وسقمان إبنا الأمير أرتق ، فحاصرها ونصب على أسوارها المجانيق ، مما اضطر أهلها إلى طلب الأمان، فأمنّهم ، وفتحوا له أحد أبوابها فدخلها واستولى عليها وسار إيلغازى إلى الرها وسقمان ومنها إلى بغداد [١].

أدى النزاع بين الفاطميين والسلاجقة على بسط سلطانهم فى بلاد الشام إلى ضعف الجبهة الإسلامية فى مواجهه الغزو الصليبى[٢] فزحفوا على أنطاكية بقيادة بوهمند النورمندى أواخر القرن الخامس الهجرى [٣] مما دعا الحكومة الفاطمية إلى بذل جهدها لمنع زحفهم على بيت المقدس التى كان يلى أمرها من قبلهم افتخار الدولة[٤]، لكن الصليبيين دخولها بعد استسلام واليها الفاطمى[٥] الذى رحل إلى مصر[٦]. فلما علم بذلك الأفضل بن بدر الجمالى سار على رأس الجيش الفاطمى لاسترداد

(١) أبوالمحاسن : النجوم جـ ٥ ص ١٥٩ .
(٢) جمال سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص ١٥٦ .
(٣) أرنست باركر : الحروب الصليبية ص ٣٦ .
(٤) ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ص ٩٨ .
(5) Runciman : A History of the Crusades, Cambridge 1951, Vol. I, P 284.
(٦) حسن حبشى : الحرب الصليبية الأولى ص ٨٥ ،
Setton : A Hist. of the Crusades, Pennsylvania 1958, p 316.

بيت المقدس ، وعسكر بعسقلان وهددهم بالعقاب الشديد ، إلا أنه هزم في المعارك التي بين الطرفين وعاد إلى مصر سنة ٤٩٢هـ/ ١٠٩٨م [١]، ومما زاد أمر الفاطميين سوءاً قيام النزاع بين طائفتي النزاريه أتباع نزار ابن المستنصر بالله والمستعلي مما أضعف البيت الفاطمي لمصلحة الأتراك والصليبيين جميعا [٢].

---

(١) أبو المحاسن : النجوم : جـ ٥ ص ١٤٩ .
(٢) جمال سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص ١٥٩ .

ثانياً : بلاد العراق والمشرق الإسلامى :

على الرغم من اهتمام الفاطميين بإرسال دعاتهم إلى أرجاء العالم الإسلامى وبخاصة ولايات الخلافة العباسية ، لنشر الدعوة الفاطمية منذ قيام دولتهم فى بلاد المغرب [١] ، إلا أن نشاطهم فى هذا الصدد تجلى بصورة واضحة بعد انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر فى منتصف القرن الرابع الهجرى ، فصاروا يتطلعون إلى بسط سيادتهم على حاضرة الخلافة العباسية نفسها ، يتضح ذلك من قول الخليفة المعز لدين الله لرسول الإمبراطور البيزنطى خلال الاحتفال باستقباله سنة ٣٦٥هـ/٩٧٥م : «أتذكر إذ أتيتنى رسولا وأنا بالمهدية ، فقلت لك : لتدخلن علىّ وأنا بمصر مالكا لها . قال : «وأنا أقول لتدخلن علىّ ببغداد وأنا خليفة» [٢] .

بذل دعاة المذهب الشيعى جهدا كبيرا فى سبيل نشر الدعوة فى الحاضرة بغداد ، كما عملوا كعملاء سريين يمدون الخلفاء الفاطميين ببلاد المغرب بأخبار العباسيين ، إلى جانب مهمتهم الرئيسية التى تتجلى فى نشر الدعوة الفاطمية فى العراق ، والتى كان من ثمارها انحياز بعض كبار رجال الدولة

---

(١) جاء فى رسالة الخليفة المعز لدين الله إلى الحسن بن أحمد - زعيم القرامطة ببلاد البحرين : «فما من جزيرة فى الأرض ولا إقليم الا ولنا فيه حجج ودعاة يدعون إلينا ويدلون علينا ويأخذون بيعتنا ويذكرون رجعتنا وينشرون علمنا ويبشرون بأيامنا بتصاريف اللغات ، واختلاف الألسن» .
المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ١٩٦ .

(٢) ابن الأثير : الكامل جـ ٧ ص ٦٧ .

العباسية إلى الرأى القائل بأحقية الفاطميين فى الخلافة ، فمنهم يوسف بن أبى الساج القائد العباسى الذى حدثته نفسه بالخروج على طاعة العباسيين والدخول فى طاعة الفاطميين ، فبعث إلى عبيد الله المهدى رسالة يعترف فيها بإمامته ويعلن استعداده للقاء به وتنفيذ ما يكلفه به من مهام [(١)]، كما انتشر هذا المذهب بين كثير من أهل العراق باعتقاد راسخ على أحقية الفاطميين فى الخلافة ، فقال أحدهم عند محاكمة على بن عيسى وزير المقتدر بالله له : « وإمامنا المهدى فلان بن فلان بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق ببلاد المغرب » [(٢)]. ولاشك أن ضعف سلطة الخلفاء العباسيين واستبداد الأتراك والبويهيين بالنفوذ والسلطان دونهم كان له أثره فى فقد السيطرة على بلاد العراق وإفساح المجال لانتشار المذاهب المختلفة ، يتقدمها المذهب الإسماعيلى ، مما جعل المعز لدين الله يتباهى بانتشار دعوته فى المشرق فى خطبته التى ألقاها بالمنصورية[(٣)] على زعماء كتامة فقال : «وإنى مشغول بكتب ترد علىّ من المشرق والمغرب ، أجيب عنها بخطى»[(٤)] .

---

(١) مسكويه : تجارب الأمم جـ ١ ص ١٦٨ ،
المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ١ ص١٨١ .
(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ جـ ٨ ص ٧٤ .
(٣) المنصورية : مدينة أسسها الخليفة المنصور الفاطمى على مقربه من القيروان بعد انتصاره هناك على أبى مخلد بن كيداد واتخذها حاضره له سنة ٣٣٧هـ/٩٤٨م .
أبو عبيد البكرى : المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ص ٢٥ .
(٤) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ١٣٧ .

كانت الظروف فى بلاد العراق مهيأة لنشاط الدعاة بسبب ضعف الخلافة العباسية من جراء استبداد بنى بويه بالسلطة فى إماراتهم واستئثارهم بالسلطة دون الخلفاء فى العراق وبخاصة أن البويهيين كانوا يعتنقون المذهب الشيعى على مبادئ الزيدية [١]، وهم يعتقدون أن العباسيين قد اغتصبوا الخلافة ، وليس لهم حق فى السيادة على العالم الإسلامى ، بل أن معز الدولة بن بويه كان قد عقد العزم على نقل الخلافة العباسية إلى أحد العلويين الا أنه لم يلبث أن تحول عن هذه الافكار، بعد أن حذره خواصه من سخط الناس وفقد السيطرة على الجند ، يقول ابن الأثير : «لقد بلغنى أن معز الدولة استشار جماعة من خواص أصحابه فى إخراج الخلافة من العباسيين والبيعة للمعز لدين الله العلوى أو لغيره من العلويين، فكلهم أشار بذلك ما عدا بعض خواصه فقالوا : ليس هذا برأى ، فإنك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من أهل الخلافة ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه ، ومتى أجلست العلويين خليفة كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته ، فلو أمرهم بقتلك لفعلوها» [٢]، ولذلك عدل معز الدولة عن تلك المحاولة حتى

---

(١) كانت بلاد الديلم التى جاء منها البويهيون قد انحازت للشيعة بعد أن نشر حسن ابن على الزيدى الإسلام بين أهلها فى أوائل القرن الرابع الهجرى على الزيدية وقضى على الوثنية والمجوسية فى هذه البلاد فضلا عن طبرستان .

Arnold : The Caliphate, Oxford, 1924, p. 61.

(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ جـ ٦ ص ٣١٥ .

يضمن ولاء الجند الديلم وطاعتهم له ، غير أن معز الدولة لم يلبث أن قام بتنفيذ ما أقدم عليه بعد أن تم له الاستقرار فى بغداد ، يقول ابن الأثير : «فلما مضى اثنان وعشرون يوما من جمادى الآخرة حضر معز الدولة والناس عند الخليفة ، وحضر رسول صاحب خراسان ومعز الدولة جالس ، ثم حضر رجلان من نقباء الديلم يصيحان فتناولا يد المستكفى بالله فظن أنهما يريدان تقبيلها ، فمدها اليهما فجذباه عن سريره وجعلا عمامته فى حلقه ونهض معز الدولة ، واضطرب الناس ونهبت الأموال وساق الديلمان المستكفى بالله ماشيا إلى دار معز الدولة ، واعتقل بها ونهبت دار الخلافة حتى لم يبق بها شئ» .

ويعلق ابن الاثير على تلك الحادثة بقوله : «وازداد أمر الخلافة إدبارا ولم يبق لهم من الأمر شئ البته ، وقد كانوا يراجعون ويؤخذ أمرهم فيما يفعل والحرمة قائمة بعض الشئ ، فلما كان أيام معز الدولة زال ذلك جميعه» (١).

وذهب خلفاء معز الدولة بن بويه إلى أكثر مما قام هو به فسمحوا لدعاة الشيعة بنشر عقائد مذهبهم فى بلاد العراق وغيرها فى ظل حمايتهم(٢)، فضلا عن اتصال عضد الدولة بن ركن الدولة بالخليفة الفاطمى العزيز بالله ، واعترافه بإمامته وذلك فى ظل غياب النفوذ العباسى وانهيار سلطة الخلفاء العباسيين وتركهم أمور الدولة كلها فى أيدى

---

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ جـ ٦ ص ٣١٥ .

(2) Lane - Poole : Mahammadan Dynasties , London, 1895, p. 104.

البويهيين، وليس أدل على ذلك من الاحتفال المهيب الذى استقبل به رسول الخليفة العزيز بالله الفاطمى فى الحاضرة بغداد وكان يحمل خطابا إلى عضد الدولة فقد اصطفت الجند على جانبى الطريق ، وأخذ القواد وكبار رجال الدولة ، فاصطف كل على حسب مكانته ، أما فحوى الخطاب فإنه يدل دلالة قاطعة على انحياز عضد الدولة ممثل السلطة فى بغداد إلى الفاطميين فقد جاء فيه : « وصل إلى حضرة أمير المؤمنين مع الرسول المنفذ إليك ، فأدى ما تحمله من إخلاصك فى ولاء أمير المؤمنين ومودتك ومعرفتك بحسن إمامته ، ومحبتك لآبائه الهادين المهديين ، فسر أمير المؤمنين بما سمعه عنك ووافق ما كان يتوسمه فيك ، وأنك لاتعدل عن الحق» [١]، وقد رد عضد الدولة على خطاب العزيز بالله ، بإصراره على الانتماء لأهل بيت رسول الله ﷺ ، وأظهر استعداده لتنفيذ أوامره .

من ناحيه أخرى تعرضت الخلافة العباسية لتقلص نفوذها حينما قام أبوالدرداء محمد بن المسيب بن رافع بن المقلد العقيلى أمير الموصل بالدعاء للخليفة العزيز بالله الفاطمى على منابر إمارته سنة ٣٨٢هـ/٩٩٢م، وما قام به قرواش بن المقلد الملقب بمعتمد الدولة أمير بنى عقيل بالدعاء على منابر الموصل بعد أن آلت إليه إمارتها للحاكم بأمر الله الفاطمى ولم يكتف بذلك بل قام بنشر الدعوة الفاطمية فى الأنبار والمدائن والكوفة [٢]، الأمر

---

(١) أبوالمحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ١٢٥ .

(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ جـ ٩ ص ٢٦ ،
ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ ٤ ص ٢٥٦ .

الذى أدى إلى نشر الدعوة الفاطمية فى بعض مدن الخلافة العباسية، فخلع معتمد الدولة قرواش بن المقلد طاعة الخليفة القادر بالله العباسى فى المحرم سنه ٤٠١هـ وأظهر طاعة الحاكم بأمر الله فى الموصل [١]، وانتقلت الدعوة إلى البلاد الخاضعة لسلطته وهى الأنبار والقصر والمدائن والكوفة »[٢].

وكان معتمد الدولة قد أحضر الخطيب يوم الجمعة رابع المحرم سنة ٤٠١هـ/١٠١٠م، وخلع عليه قباء دبيقياً وعمامة صفراء وسراويل ديباج أحمر وخفين أحمرين وقلده سيفا وأعطاه نسخة ما يخطب به ، ومما تضمنته الخطبة « ... اللهم وصلى على وليك الأزهر ، وصديقك الأكبر على بن أبى طالب أبى الخلفاء الراشدين المهديين ، وصلى على السبطين الطاهرين الحسن والحسين ، وعلى الأئمة الأبرار والصفوة الأخيار ؛ من أقام وظهر ، ومن خاف فاستتر ، اللهم وصلى على الإمام المهدى بك ، والذى بلغ بأمرك وأظهر محبتك ونهض بالعدل فى بلادك ، اللهم وصلى على القائم بأمرك والمنصور بنصرك ، اللذين بذلا نفوسهما فى رضائك ، وجاهدوا أعدائك ، اللهم وصلى على العزيز بك الذى مهدت به البلاد وهديت به العباد ، اللهم واجعل نواهى صلواتك وزواكى بركاتك ، على سيدنا ومولانا إمام الزمان وحصن الإيمان وصاحب الدعوة العلوية ، عبدك

---

(١) أبوالمحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ١٢٤ .

(٢) ابن الجوزى : المنتظم فى تاريخ الامم والملوك جـ ٧ ص ٢٤٩ ـ ٢٥١ .
ابن الوردى : تاريخ ابن الوردى ص ٣٢٢ ـ ٣٢٣ .

ووليك المنصور أبى على الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين ، كما صليت على أبائه الراشدين ، اللهم وفقنا لطاعته، واجمعنا على كلمته ودعوته اللهم وأعنه على ما وليته، واحفظه فيما استرعيته ... وانصر جيوشه وأعل أعلامه فى مشارق الأرض ومغاربها ، إنك على كل شئ قدير» (١).

من ناحية أخرى كان للتشابه بين أفكار القرامطة والدعوة الشعية أثره فى انتشار المذهب الشيعى فى الولايات العباسية القريبة من القرامطة وبخاصة بلاد السواد بالعراق .

لما أيقن الخليفة القادر بالله من الخطر الذى يهدد سلطانه من جراء انتشار الدعوة الفاطمية فى بلاده ؛ أنفذ القاضى أبا بكر الباقلانى إلى الأمير بهاء الدولة ليعمل على مناهضة النفوذ الفاطمى ، فأجاب بهاء الدولة البويهى طلب الخليفة حيث أنفذ جيشا إلى قرواش بن المقلد فتمكن من إعادة الخطبة إلى الخليفة العباسى على منابر بلاده(٢) . كذلك لجأ الخليفة القادر بالله إلى الأسلوب الدعائى(٣) الذى نشط الفاطميون فى استعماله ولكن بطريقة أخرى ، وهى استخدام سلاح التشهير ضد الفاطميين بإنكار نسبهم العلوى وتشويه سمعتهم فى العالم الإسلامى ، فأصدر بلاط بغداد محضرا رسميا موقعا عليه من كبار الفقهاء والقضاة

---

(١) أبوالمحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٢٢٤ _ ٢٢٧.

(٢) ابن الأثير : الكامل جـ ٩ ص ٧٧ ،
ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ ٤ ص ٤٤٢ .

(٣) أبو المحاسن : المصدر نفسه جـ ٤ ص ٢٣٠ .

وبعض زعماء الشيعة يتضمن الطعن فى نسب الفاطميين حكام مصر وأنهم ليسوا من آل البيت ، بل هم ديصانيه ينتسبون إلى ميمون بن ديصان وهم كفار زنادقة ، وفساق ملاحدة أباحوا الفروج وأحلوا الخمور ، وسبوا الأنبياء وادعوا الربوبية وقد جاء فيه : «وهم منسوبون إلى ديصان بن سعيد الخرمى من إخوانه الكافرين ، ونطف الشياطين ؛ شهادة يتقربون بها إلى الله ومعتقدين ما أوجب الله على العلماء أن ينشروه للناس ، فشهدوا جميعا أن الناجم بمصر وهو منصور بن نزار الملقب بالحاكم - حكم الله عليه بالبوار والخزى والنكال - ابن معد ابن اسماعيل بن عبدالرحمن بن سعيد - لا أسعده الله - فإنه لما صار إلى المغرب تسمى بعبيد الله وتلقب بالمهدى ، وهو ومن تقدمه من سلفه الأرجاس الأنجاس ، عليه وعليهم اللعنه ، أدعياء خوارج لانسب لهم فى على بن أبى طالب وإن ذلك باطل وزور ، وإنهم لايعلمون أن أحدا من الطالبيين توقف عن إطلاق القول فى هؤلاء الخوارج أنهم أدعياء. وقد كان هذا الإنكار شائعا بالحرمين فى أول أمرهم بالمغرب ، منتشرا انتشارا يمنع من أن يدلس على أحد كذبهم ، أو يذهب وهم إلى تصديقهم ؛ وأن هذا الناجم بمصر هو وسلفه كفار وفساق فجار زنادقة ، ولمذهب الثنوية والمجوسية معتقدون ؛ قد عطلوا الحدود ، وأباحوا الفروج وسفكوا الدماء ، وسبوا الأنبياء ، ولعنوا السلف، وادعوا الربوبية وكتب فى (شهر) ربيع الآخر سنة اثنتين وأربعمائة» . وكتب خلق كثير فى المحضر المذكور منهم الشريف الرضى والمرتضى أخوه ، وابن الأزرق الموسوى ، ومحمد بن محمد بن عمر بن أبى يعلى وهم علويون ، والقاضى أبو محمد عبدالله الأكفانى ، والقاضى

أبوالقاسم الجزرى ، والإمام أبوحامد الإسفراينى [١] والفقية أبومحمد الكشفلى [٢]، والفقية أبوالحسين القدورى الحنفي[٣] والفقيه أبوعلى بن حمكان[٤] وأبوالقاسم التنوخى [٥]، والقاضى أبوعبدالله الصيرمى، انتهى أمر المحضر باختصار وأرسلت منه نسخ إلى بلدان الخلافة العباسية[٦]، فلما بلغ الحاكم قامت قيامته وهان فى أعين الناس لكتابة هؤلاء العلماء الأعلام فى المحضر [٧].

على الرغم من مناهضة الخليفة القادر بالله للدعوة الفاطمية والطعن فى نسبهم ، الا أن الخلفاء الفاطميين واصلوا جهودهم فى نشر دعوتهم

---

(١) هو أحمد بن محمد بن أحمد . انتهت إليه رياسة الدنيا والدين ببغداد ، وكان يحضر مجلسه أكثر من ثلاثمائة فقيه . وكان تدريسه فى مسجد عبدالله بن مبارك وهو المسجد الذى كان يحضر درسه سبعمائة متفقه ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ ١ ص ٢٧ .

(٢) الكشفلى (بفتح الكاف والفاء وبينهما شين معجمه ساكنه وآخره لام) : نسبه إلى كشفل من قرى طبرستان .

(٣) هو أحمد بن محمد بن أحمد بن جعفر البغدادى ، انتهت إليه رئاسة أصحاب أبى حنيفه بالعراق .

(٤) كذا فى شرح القاموس وطبقات الشافعية وشذرات الذهب ، وهو أبو على الحسن بن الحسين ، وضبطه صاحب الشذرات بالعبارة فقال : بحاء مهمله وميم مفتوحه وفى الأصل «ابن حمركان» وهو تحريف .

(٥) هو على بن الحسن بن على بن محمد . كان أديبا فاضلا ، صحب أبا العلاء المعرى وأخذ عنه كثيرا . ابن خلكان : المصدر نفسه ، جـ ١ ص ٦٣٦ .

(٦) ابن الجوزى : المنتظم فى تاريخ الأمم والملوك ، جـ١ ص ٢٥٦ .

(٧) أبوالمحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٤ ، ص ٢٢٩ - ٢٣٠.

مستغلين الاضطراب الذى ساد بلاد العراق بسبب النزاع بين أمراء بنى بويه على السلطة وثورات الجند ، وتدخل قادتهم فى تولية الأمراء وعزلهم، فأرسل الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله الفاطمى الدعاة إلى بغداد سنة ٤٢٥هـ/١٠٣٣م ، فاستجاب لهم كثير من الناس [١].

كما سير المستنصر بالله الفاطمى إلى قرواش بن المقلد . (أمير الموصل) أعلاما وخلعا فى عام ٤٣٦هـ/١٠٤٤م ، فأرسل اليه الخليفة القائم يعاتبه فاعتذر له، ولبس السواد مرة أخرى ورجع عن دعوة المستنصر[٢].

ومن ناحية أخرى كان لقدوم المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى من بلاد فارس إلى الحِلّة أن ازداد الخطر الشيعى الذى تعرضت له بلاد العراق، وبخاصة أن هذا الداعى كان يقيم بدار أمير الحلة منصور بن الحسن ، وقد ظل هبة الله الشيرازى مقيما هناك . ومن ناحية أخرى رأى أبو كاليجار الذى كان يطمح فى تولى السلطة فى بغداد بعد وفاة جلال الدولة ، أن يعمل على إبعاد المؤيد فى الدين لإرضاء الخليفة العباسى ، فكتب إلى صاحب الحِلّة يخبره أن وجود المؤيد فى بلده فيه خطر على دولة بنى بويه طالبا إبعاده ويتجلى ذلك فيما جاء فى رسالة أبى كاليجار إلى منصور بن الحسن : «إنك من الشفقة على ملكنا

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ١٨١ .

(٢) المقريزى : المصدر نفسه جـ ٢ ص ١٩٣ .

ودولتنا بحيث لاتعتمد لأحد هوادة فيه ، وقد عرفت صورة أبى فلان (المؤيد فى الدين هبه الله الشيرازي) .... وإننا كل يوم فى صراع من جهه الديلم - الذين اعتنق كثير منهم الدعوة الفاطمية فى بلاد فارس والعراق - باحتجاجات باطلة يتشبثون بها ظاهرا ، وهو مغزاهم وغرضهم منها باطنا ، ثم أنه قامت رغبتنا فى بغداد وامتلاكها وليس يكاد يتم الغرض فيه إلا بالمجلس الخليفى الإمامى (مواقعة الخليفة القائم بأمر الله العباسي) ، إذ استقر به العالم أن هذا الإنسان مقيم بفناء حضرتنا على جملته، كان ذلك ردحا فى وجه ما تؤثر بلوغه وحاجزا بيننا وبينه، وقد انتهى الينا على معاودة الأهواز ، فالله الله أن توجد سبيلا إلى ذلك فإنه إن عاود وقعت فتنة نصلى بنارها صليا » [١] . اضطر المؤيد فى الدين إلى الرحيل عن الحِلّة وأخذ فى التنقل بين مدن العراق فسار إلى الكوفة ، ثم اتجه إلى الموصل حيث أقام فترة قصيرة عند قرواش بن المقلد - أمير بنى عقيل - وأخيرا رحل إلى مصر سنة ٤٣٨هـ/ ١٠٤٦م [٢] ، بعد أن أعرض عنه الجميع تحت وطأة المعارضة السنية وخوفا من غضب الخليفة القائم بأمر الله العباسى .

على الرغم من رحيل المؤيد فى الدين إلى مصر ، إلا أن جهوده فى نشر الدعوة الفاطمية ببلاد العراق تركت أثاراً خطيرة على الخلافة العباسية فى عهد القائم بأمر الله ، إذ انضم إليها كثير من قادة الترك والديلم وهم الذين يمثلون عماد القوة العسكرية التى تعتمد عليها البلاد فى التصدى

---

(١) هبة الله الشيرازى : سيرة المؤيد فى الدين ص ٥٦ .
(٢) هبة الله الشيرازى : المصدر نفسه ص ٧٤ - ٧٥ .

لأعداء الخلافة فظلوا يشجعون الدعوة الفاطمية ويقربون إليهم أتباعها .

كان من آثار السياسة التى اتبعها البويهيون فى المذهب الشيعى فى بلاد العراق ورسوخ أقدامه أن احتدم النزاع بين السنة والشيعة ، فلما انحاز بهاء الدولة بن عضد الدولة لأهل الشيعة سنة ٣٩٨هـ/١٠٠٧م الذين صاحوا فى وجه أهل السنه يا حاكم يا منصور (الحاكم بأمر الله الفاطمى) ، قام الخليفة القادر بالله بإمداد أهل السنة بفريق من حرسه للدفاع عن أنفسهم فى مواجهة الشيعة ، فلما اشتبك الطرفان انهزم أهل الشيعة [١] .

ازداد الخلاف بين الطرفين بطريقة سافرة ، فكان أصحاب المذاهب السنية فى عداء دائم مع الشيعة واتخذوا من المناسبات الدينية فرصة للاعتداء عليهم ، وبخاصة احتفال الشيعة بعيد غدير خم والعاشر من محرم، ذكرى مقتل الحسين بن على ، فلما قام الشيعة بالاستعداد للاحتفال بعيد الغدير فى الثامن عشر من ذى الحجة سنة ٤٢٢هـ/ ١٠٣١م ، وأشعلوا النيران فى ليلة العيد ونحروا الذبائح فى صبحه ، قام أهل السنة بتعليق الثياب ، وأظهروا السلاح والزينة ، ونصبوا الأعلام فى الأسواق ، مما أدى إلى اصطدام الطائفتين ونتج عن ذلك الحاق الضرر البالغ بالعامة بعد أن استولوا على منازلهم [٢] .

كذلك اصطدمت الطائفتان فى يوم عاشوراء سنة ٤٢٣هـ/ ١٠٣١م

---

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٧٤ .
(٢) ابن الجوزى : المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم جـ ٨ ص ٦٠ ؛
ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ ٤ ص ٤٨١ .
(٣) ابن الجوزى : المصدر نفسه جـ ٨ ص ٦٢ .

إذ لم يرض أهل السنة عن قيام الشيعة بتعليق المسوح فى الأسواق والصراخ والعويل فى المشاهد ، فاشتبكا فى قتال حتى تدخلت قوات الخلافة لإخماد الفتنة [٣].

وفى ليلة عاشوراء سنة ٤٤١هـ/١٠٤٩م ، أصدرت دار الخلافة مرسوما إلى أهل الكرخ [١]، الذين كانوا يمثلون مركز طائفة الشيعة ، لاينوحوا ولايعلقوا المسوح على ما جرت به عادتهم خوفا من الفتنة غير أنهم لم يمتثلوا لهذا المرسوم ، فجرى بينهم وبين أهل السنة مايزيد عن الحد من الجرح والقتل ، ونقضت المحال ورميت فيها النار ، حتى تدخل الجند التركى [٢]. غير أنهم لم يستطيعوا إيقاف الصراع حتى عهد الخليفة القائم بأمر الله إلى أبى محمد بن النسوى صاحب الشرطة بإصلاح الحال ـ فتمكن من القضاء على الفتنة [٣].

لم يقتصر الصراع بين السنة والشيعة على أيام الأعياد والمناسبات الدينية بل كانت كل طائفة تتربص بالأخرى للاحتكاك بها ، فقد تجددت الفتن ببغداد بين السنة والشيعة فى صفر ٤٤٣هـ/١٠٥١م وزادت على أضعاف ما كانت عليه بين الطائفتين من الإحسان ، ويرجع سبب ذلك

---

(١) يقول القاضى أبوالقاسم على بن المحسن التنوخى عن أهل الكرخ «هذه طائفة نشأت على سب الصحابة وما منعت فيه الا وجدت به ولاكان لدار الخلافة أمر عليها» .
انظر ابن الجوزى : المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم جـ ٨ ص ١٤٢ .

(٢) ابن الجوزى : المصدر نفسه جـ ٨ ص ١٠٤ .

(٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ جـ ٨ ص ٥٣ .
أبوالمحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٤٩ .

إلى أن أهل الكرخ من الشيعة عملوا أبراجا كتبوا عليها بالذهب ـ محمد وعلى خير البشر ـ وأنكر أهل السنة ذلك وادعوا أن المكتوب هو «محمد وعلى خير البشر فمن رضى فقد شكر ومن أبى فقد كفر» بينما أنكر أهل الكرخ الزيادة ، فأرسل الخليفة القائم بأمر الله نقيبى العباسيين (السنة) والعلويين للوقوف على حقيقة الأمر . فكتبا بتصديق قول الكرخيين . إلا أن الوزير أبو القاسم على بن المسلمة الملقب برئيس الرؤساء تشدد على الشيعة وأصر على تغيير العبارة من خير البشر إلى عليهما السلام . وعلى الرغم من تنفيذ ذلك إلا أن السنة قالوا لانرضى إلا بقلع الآجُر الذى عليه محمد وعلى ، وأن لايؤذن بحى على خير العمل ، فامتنع الشيعة وتمسكت كل طائفة بموقفها واشتبك الطرفان ، وانتشرت الفتن حتى أوائل شهر ربيع الأول فدخل السنة مشهد باب التبنى ـ ونهبوا مافيه ، وقاموا بإشعال النيران فى الترب فاحترق كثير من الأضرحة الخاصة بكبار الشيعة ، وأمراء بنى بويه والوزراء « وجرى من الأمر الفظيع مالم يجر فى الدنيا مثله »[1]. أما أهل الكرخ من الشيعة فقاموا بنهب خان الفقهاء الحنفية وقتلوا أبا سعد الرخسى مدرس الحنفية وأحرقوا الخان ودور الفقهاء . وقد أدت هذه الفتن إلى قيام دبيس بن مزيد[2] بقطع الخطبة للخليفة القائم بأمر الله ، على اعتبار أن الخليفة لم يتمكن من كف السفهاء عما فعلوه بالمشهد ، ثم أعاد الخطبة بعد أن هدأت الفتنة[3].

---

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ جـ ٨ ص ٦٠ .

(٢) كان دبيس بن مزيد وسائر أهله وعماله من الشيعة .

(٣) ابن الجوزى : المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم جـ ٨ ص ١٤٩ ـ ١٥٠ .

وفى العام التالى عادت الفتن بين السنة والشيعة أدراجها وانتشر العيارون وتسلطوا على الأسواق وأخذوا ما كان يأخذه أرباب الأعمال وكتب الشيعة على مساجدهم محمد وعلى خير البشر وجرى القتال بينهم وعظم الشر[١].

لما وجد الخليفة القائم بأمر الله أن الدعوة الفاطمية قد استفحل خطرها فى بلاده ، أصدر محضرا سنة ٤٤٤هـ/١٠٥٢م ، تضمن الطعن فى نسب الفاطميين والتشكيك فى نسبهم إلى آل البيت ، وقد وقع عليه الفقهاء والقضاة والأشراف والشهود وأرسلت منه نسخ إلى بلدان الخلافة ، وذلك فى محاولة لإيقاف ذيوع التشيع فى بلاد المشرق والعراق [٢].

ازدادت الفتن بين السنة والشيعة اشتعالا ببغداد بسبب انضمام طائفة من الجند إلى جانب السنة ، فقبض الجند على رجل علوى من أهل الكرخ وقتلوه سنة ٤٤٥هـ/١٠٥٣م فاستغاث أهله بشيعة الكرخ فدار بينهم وبين القواد والعامة قتال شديد ، وقام الجند الأتراك بإلقاء النيران على أسواق الكرخ ، وأنكر الخليفة القائم بأمر الله ذلك ، وأمر الأتراك بالكف وعدم التمادى فى الأمر [٣].

كان الخليفة القائم بأمر الله يتخذ من سياسة الاعتدال سبيلا لحل المنازعات بسبب مما حل بأمراء البيت البويهى من الضعف ، إلا أنه مع قدوم السلاجقة ودخولهم بغداد سنة ٤٤٧هـ/١٠٥٥م ، بدأت مرحلة جديدة فى النزاع بين السنة والشيعة فانحاز الخليفة القائم بأمر الله إلى جانب السنة

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ جـ ٨ ص ٦٤ .
(٢) ابن الجوزى : المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم جـ ٨ ص ١٥٥ .
أبوالمحاسن : النجوم الزاهرة جـ٥ ص ٥٣ .
(٣) ابن الأثير : المصدر نفسه جـ ٨ ص ٦٥ .

مستندا فى ذلك على قوة السلاجقة السنية ، ففى سنة ٤٤٨هـ/ ١٠٥٦م استغل الخليفة وجود طغرلبك فى بغداد وأمر بأن يؤذن بالكرخ والمشهد العلوى وغيرها ـ (الصلاة خير من النوم) والامتناع عن الآذان ـ (بحى على خير العمل) ـ فنفذ الشيعة ما أمرهم به خوفا من السلطنة وقوتها [١] ، وتم إزالة ماكتب على أبواب الدور والدروب من عبارات «محمد وعلى خير البشر» ، وانتهز متطرفو السنة هذه الفرصة فدخلوا الكرخ وأنشدوا الأشعار فى مدح الصحابة ، وقتل أبوعبدالله بن الجلاب شيخ البزازين وصلب على باب دكانه لما كان يتظاهر به من الغلو فى التشيع [٢] ، وفى العام التالى نهبت دار أبى جعفر الطوسى [٣] بالكرخ وأخذ مافيها بعد أن فارقها إلى الشط الغربى [٤] .

ظل الشيعة يتحينون الفرصة لمعاودة الجهر بشعائرهم التى اعتادوا عليها فى أعيادهم ومواسمهم الدينية ، فلما دخل البساسيرى بغداد فى ذى القعدة سنة ٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م، وأعلن الخطبة للمستنصر بالله الفاطمى تلقاه أهل الكرخ بالترحيب وهاجموا بعض مناطق السنة للرد على مالقوه من العنت بسبب منعهم إظهار شعائرهم . كما عادوا للآذان «بحى على خير العمل» وعملوا راية بيضاء نصبوها وسط الكرخ وكتبوا عليها اسم «المستنصر بالله» [٥] .

---

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ جـ ٨ ص ٧٩ .
(٢) ابن الجوزى : المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم جـ ٨ ص ١٧٢ ـ ١٧٣ .
(٣) أبوجعفر الطوسى فقية الإمامية ، متكلم الشيعة .
ابن الجوزى : المصدر نفسه جـ ٨ ص ١٧٩ .
(٤) ابن الأثير : المصدر نفسه جـ ٨ ص ٨١ .
(٥) ابن الجوزى : المصدر نفسه جـ ٨ ص ١٩١ ـ ١٩٢ .

لما فشلت حركة البساسيرى وعاد الخليفة القائم بأمر الله إلى بغداد سنة ٤٥١هـ/١٠٥٩م ، قوى أمر السنة فتوجه جماعة منهم إلى الكرخ فنهبوا وطرحوا النار فى أسواقها ودورها ونهبت الكوفة نيفاً وثلاثين يوما [١] .

ضعف أمر الشيعة بعد سيطرة السلاجقة على مدن العراق ، وقد تجلى ذلك فى إيقافهم منازعاتهم مع السنة لعدة سنوات ، وحرصهم على عدم المغالاة فى احتفالاتهم وأحزانهم ، بينما تشدد الخليفة القائم بأمر الله فى معاملتهم ، فلما بلغه أن أهل الكرخ أغلقوا دكاكينهم يوم عاشوراء سنة ٤٦٨هـ/١٠٧٥م ، وأظهروا عادتهم السابقة أنكر الخليفة ذلك على الطاهر بن أبى الغنائم المعمر بن عبيد الله - نقيب الطالبيين ، فذكر أنه لم يعلم به إلا بعد فعله وأنه ينكر ذلك ، فأخرج الخليفة مرسوما يلعن من يسب الصحابة ويظهر البدع [٢] .

ازداد نفوذ السنة وتدخل فقهاؤهم فى النزاع مع الشيعة وغيرهم ممن يعتبرونهم من المبتدعة ، فلما عزم أبوعلى بن الوليد المعتزلى على تدريس مذهب المعتزلة فى جمادى الأولى ٤٦٠هـ/١٠٦٧م ، أنكر علماء السنة عليه ذلك وساروا إلى ديوان الخلافة مطالبين بإخراج الاعتقاد القادرى [٣] فأجيبوا إلى طلبهم وقرئ على الناس فى أماكن متفرقة من بغداد [٤] .

---

(١) ابن الجوزى : المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم جـ ٨ ص ٢٠٥ .

(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ جـ ٨ ص ١٠٤ .

ابن الجوزى : المصدر نفسه جـ ٧ ص ٢٣٩ .

(٣) الاعتقاد القادرى : ينسب إلى الخليفة القادر بالله العباسى ٣٨١ - ٤٢٢هـ . ويتضمن لعن الرافضة من الشيعة وتكفيرهم وتكفير من لايكفرهم ولعن المبتدعه .

انظر : نص الاعتقاد فى المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم جـ ٨ ص ١٠٩ - ١١١ .

(٤) براون : تاريخ الأدب فى إيران ص٢٦٢ - ٢٦٤ .

كان لظهور السلاجقة وانتصارهم للمذهب السنى ، وبخاصة بعد القضاء على النفوذ البويهى ، تأثير واضح فيما تجلى من ضعف شأن الشيعة بعد أن كشف الوزير السلجوقى نظام الملك مايدبرون من مؤامرات فى قوله : «يدبرون من وراء أسوارهم نكبة هذه المملكة وإفساد مذهبها ودينها ، مما تزال آذانهم تتسقط الأنباء وعيونهم تتربص الفرص حتى إذا أصابت الدولة مصيبة خرج هؤلاء الكلاب من مكانهم لنشر الدعوة الشيعية » [١].

هكذا استغل كبار رجال الدولة العباسية الاتجاهات المذهبية فى تحقيق الأطماع السياسية وتهديد الخصوم ، فانحاز قائد قواد الجند التركى أبو الحارث أرسلان البساسيرى إلى الفاطميين لضرب خصومه الذين ينازعونه النفوذ والسلطان ، ومن أهمهم الوزير أبوالقاسم بن المسلمة رئيس الرؤساء الذى كان يتطلع إلى الاستئثار بالسلطة والتحكم فى أمور البلاد ، فعمل الوزير على إفساد الأحوال بين الخليفة القائم بأمر الله والبساسيرى فى محاولة للتخلص منه بعد أن حقد عليه لعلو شأنه [٢].

بينما استغل البساسيرى مركزه فى الجيش لضرب مصالح الوزير والخلافة جميعا . فلما استولى قريش بن بدران ـ أمير الموصل على مدينة الأنبار وأقام الخطبة فيها للسلطان السلجوقى طغرلبك سنة ٤٤٦هـ/ ١٠٤٤م استاء البساسيرى من ذلك لأن المدينة كانت تحت نفوذه ، ونسب هذا العدوان إلى تدبير رئيس الرؤساء . فقام باسقاط مشاهرات[٣] الخليفة ووزيره .

---

(١) براون : تاريخ الأدب فى إيران ص ٢٦٢ ـ ٢٦٤ .
(٢) جمال سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص ١٨٥ .
(٣) المشاهرات : مقدار من المال كان يحمل إلى الخليفة والوزير والحاشية من دار الضرب ببغداد فى كل شهر .

ثالثا : جزيرة العرب :

كانت بلاد الحجاز مطمعا للحكومات فى العصور الإسلامية الأولى وذلك لأنها تضم الحرمين الشريفين فى مكة والمدينة ، وعلى ذلك فهى تمنح المسيطر عليها الزعامة الروحية للعالم الإسلامى ، وهى مركز دعاية دولى حيث يأتى إليها الحجاج من كل صوب ، والناس لا يعترفون بإمرة المؤمنين إلاّ لمن استطاع بسط سلطانه عليها ، لذلك تنازع عليها العباسيون والفاطميون والعلويون من أحفاد الحسن والحسين .

لعب المعز لدين الله دورا مهما فى النزاع بين بنى الحسن وبنى جعفر ابن أبى طالب بعقد الصلح بين الطرفين ودفع دية قتلى بنى الحسن سنة ٣٤٨هـ/٩٥٩م ، مما كان له أثرا طيبا فى نفوسهم ، فبادر الحسن بن جعفر الحسنى بالدعاء على منابر مكة للمعز لدين الله منذ ٣٥٨هـ/ ٩٦٨م ، وبعث له المعز تقليدا بولايتها من المغرب [١]، وفى سنة ٣٥٩هـ/ ٩٦٩م أنفذ المعز عسكرا وأموالا عدتها عشرون حملاً فنودى باسم المعز على المدينة، وبذلك ساد النفوذ الفاطمى على بلاد الحجاز[٢].

لما توفى المعز لدين الله سنة ٣٦٥هـ/٩٧٥م ، انقطعت الخطبة للفاطميين ببلاد الحجاز غير أن العزيز بالله الذى خلف أباه أرسل إليها إدريس بن زيرى الصنهاجى أميرا على الحج فاستولى على الحرمين وأقام الخطبة[٣]،

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ١ ص١٠١ .
(٢) المقريزى : المصدر نفسه ص ١٧٢ .
(٣) ابن خلدون : العبر جـ٤ ص١٠١ .

لكن الأمور لم تستقر للعزيز بالله فقد دعا أمير الحج العراقى للأمير البويهى عضد الدولة مما دعا العزيز إلى إرسال حملة عسكرية إلى هذه البقاع أعادت الخطبة له على المنابر سنة ٣٨٠هـ/٩٩٠م [(١)].

ظل طاهر بن مسلم من بنى الحسين على ولائه للفاطميين حتى وفاته ٣٨١هـ/٩٩١م وسار ابنه الحسن بن طاهر (مهنى) على نهج أبيه فى المدينة، كما فعل الشىء نفسه أمراء مكة ، فلما توفى عيسى بن جعفر من بنى الحسن سنة ٣٨٤هـ/٩٩٤م خلفه أخوه أبو الفتوح الحسن الذى ظل على ولائه أيضًا للفاطميين رغم الإغراءات التى وعده بها الخليفة القادر بالله العباسى، وأقام الدعوة على المنابر للحاكم بأمر الله ، ولما بلغه طعن بنى مهنى فى نسب الفاطميين سار إلى المدينة وخطب على منابرها للفاطميين، لكن بنى مهنى انتهزوا فرصة رحيله عن المدينة واستعادوا سلطتهم وخطب للفاطميين .

لما قويت شوكة الأمير أبو الفتوح على مكة ، عول على خلع طاعة الفاطميين وإعلان نفسه خليفة ، وقد شجعه على ذلك الوزير أبو القاسم حسين بن على بن المغربى انتقاما من الحاكم بأمر الله الذى غدر بأبيه وأعمامه ، فاتجه إلى الرملة وأقنع حاكمها حسان بن مفرج بن الجراح - أمير طئ بخلع طاعة الحاكم والاستقلال فاستجاب له ، ثم اتجه إلى مكة وأطمع الأمير أبا الفتوح فى التلقب بالخلافة فرحب بذلك ولقب نفسه

---

(١) ابن خلدون : العبر جـ٤ ص١٠١ .

(الراشد بالله) ، وسار إلى الرملة حيث استقبل هناك استقبالا حافلا ونودى بالخلافة ونزل فى دار حسان الذى تحالف معه على النصرة والدعوة له فى بلاد الشام حيث أقيمت له الخطبة على كثير من منابرها [١].

استاء الحاكم بأمر الله مما قام به الأمير أبو الفتوح وانحياز حسان إليه ، وعول على إعادة نفوذه ببلاد الحجاز ، فأستعمل الحيلة وبذل الأموال دون إرسال جيوش ، فكتب إلى أبى الطيب ابن عم أبى الفتوح مرسوما بتوليته الحرمين ، وأنفذ إليه مالا كثيراً ؛ وتعهد له على أن يرسل إليه ولكل فرد من أهل بيته خمسين ألف دينار سوى الهدايا ، فانصرفوا عن تأييد أبى الفتوح وتحولوا إلى طاعة الحاكم ، كما أغرى حسان وأبيه مفرج وكبار رجال إمارته بالأموال ، فتركوا أبا الفتوح ودخلوا فى طاعة الحاكم .

لما رأى أبو الفتوح ضياع نفوذه وأيقن أنه قد فقد كل شئ ، اتجه إلى الوزير أبى القاسم بن المغربى وعاتبه بشدة قائلاً : « أنت أخرجتنى من بلدى وجعلتنى فى أيدى هؤلاء ينفقون سوقهم بى عند الحاكم ويبيعوننى بيعا بالدراهم فيجب عليك أن تخلصنى كما أوقعتنى وتسهل لى طريق عودتى إلى الحجاز ، فإنى راض من القسمة بالإياب »[٢]، وطلب من مفرج بن الجراح حراسة تصاحبه إلى الحجاز ، فبعثه مع طائفة من طئ حتى بلغ مكة سنة ٤٠٣هـ/١٠١٢م ، ومن هناك كاتب الحاكم بأمر

---

(١) المقريزى : الخطط جـ١ ص٣٢٠ .
، عبد القادر الأنصارى : دررالفوائد المنتظمة جـ١ ص٢٠٨ .
(٢) المقريزى : المصدر نفسه جـ٢ ص١٥٧ ، ١٥٨ .

الله واعتذر إليه ، فعفا عنه وأعاده إلى إمارته بمكة فأقام الخطبة على المنابر باسم الحاكم بأمر الله ونقش اسمه على السكة .

ظل أبو الفتوح على ولائه للخلفاء الفاطميين حتى توفى سنة ٤٣٠هـ/١٠٣٨م ، وخلفه ابنه شكر الذى تمكن من بسط سلطانه على المدينة ، وأقام بها الخطبة للمستنصر بالله الفاطمى على إمارته وظل حتى وفاته سنة ٤٥٣هـ/١٠٦١م[١]، ولى الأمر من بعد شكر رئيس الهواشم محمد بن جعفر بن أبى هاشم محمد وأقام الخطبة للخليفة الفاطمى فى بداية عهده ثم مال عنه إلى القائم بأمر الله العباسى ، لكن المستنصر بالله أنفذ إليه على بن محمد الصليحى داعيه باليمن سنة ٤٥٥هـ/١٠٦٣م، فسار إلى مكة واستطاع استمالة أهلها ، وأعاد النفوذ الفاطمى إلى مكة وقام بكسوة الكعبة بثياب بيض [٢].

لما انقطعت الأموال التى كانت ترد إلى محمد بن جعفر من مصر بسبب الشدة العظمى فى عهد المستنصر بالله الفاطمى ، أمر بحذف اسم الخليفة الفاطمى وأمر باقامتها للخليفة العباسى القائم بأمر الله ، وبعث رسالة إلى السلطان السلجوقى ألب أرسلان فى بغداد سنة ٤٦٢هـ/ ١٠٦٩م يخبره بذلك ، فكافأه السلطان بثلاثين ألف دينار فضلا عن الخلع وأمر له بعشرة آلاف فى كل عام ، وطلب منه فى رسالة أنفذها إليه أن يحاول استمالة مهنى - أمير المدينة بمكافأة عشرين ألف دينار وخمسة الآف

---

(١) ابن خلدون : العبر جـ٤ ص١٠٢ .

(٢) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ص٥ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٥ ص٧٢ .

فى كل سنة إن فعل ذلك[1]، ومن ناحية أخرى لما اطمئن محمد بن جعفر إلى جانب العباسيين والسلاجقة ، انتهز فرصة انشغال الخلفاء الفاطميين بمشاكلهم الاقتصادية والاجتماعية ، وزحف بجيش من الأتراك على المدينة فتغلب على بنى مهنى أحفاد الحسين بن على وأخرجهم مما كانوا فيه ،وجمع بيده إمارة الحرمين الشريفين [2].

يتجلى من تردد محمد بن جعفر فى إقامة الخطبة تارة للخلفاء الفاطميين وتارة أخرى للعباسيين ، أن ولاءه كان بالدرجة الأولى لمن يرسل له الأموال فلما توفى القائم بأمر الله سنة ٤٦٧هـ/ ١٠٧٤م أبطل الخطبة للعباسيين وأقامها للمستنصر بالله الفاطمى[3]، غير أنه أعادها للعباسيين لما أرسل إليه المقتدى بالله بالأموال ، وظل الحال على ذلك إلى وفاة المقتدى ٤٨٧هـ/١٠٨٥م[4]، قال عنه أبو المحاسن : « كان متلوناً تارة مع الخلفاء العباسيين وتارة مع المصريين » يعنى الفاطميين .

لما توفى محمد بن جعفر خلفه ابنه قاسم بن محمد فى إمارة الحرمين، فسار على نهج أبيه فى إقامة الخطبة للعباسيين بعد أن أرسل إليه المستظهر وابنه المسترشد الخلع والأموال ، وعلى الرغم من طول عهد الأمير قاسم التى بلغت نحو ثلاثين عاما فلم يستطع توطيد سلطته وإشاعة الآمان ،

---

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ جـ١٠ ص٢١
، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٥ ص٨٤ .
(٢) القلقشندى : صبح الأعشى جـ٤ ص٢٧٠ .
(٣) أبو المحاسن : المصدر نفسه جـ٥ ص٩٧ .
(٤) ابن خلدون : العبر جـ٤ ص١٠٣
، القلقشندى المصدر نفسه جـ٤ ص٢٧٠ .

وظلت الأحوال مضطربة فى بلاد الحجاز حتى وفاته ، فلما خلفه ابنه فليته سنة ٥١٨هـ/١١٢٤م ، أقام الخطبة للمسترشد بالله وعمل على إقامة العدل والقضاء على أسباب الاضطراب ، وظل الحال على ذلك حتى وفاته سنة ٥٢٧هـ/١١٣٢م، فلما ولى الإمارة ابنه هاشم ، قطع الخطبة للعباسيين وأقامها للخليفة الفاطمى الحافظ لدين الله ، إلاّ أن الخلاف الذى وقع بمصر حول إمامة الخلافة الفاطمية ، كان له أثر سئ فى قطع الخطبة للفاطميين وإقامتها للعباسيين ، ذلك أن الخليفة الآمر بأحكام الله كان قد أنجب ذكراً سماه أبا القاسم الطيب وجعله وليا للعهد ، فلما قتل الخليفة الآمر بعد ذلك ببضعة أشهر ٥٢٤هـ/١١٢٩م أخفى الأمير عبد المجيد بن المستنصر الوصية ، ولقب نفسه الحافظ لدين الله واستولى على الخلافة ، لكن الوزير أبا على أحمد بن الأفضل ألقى القبض عليه فظل فى سجنه حتى تآمر الإسماعيلية على اغتيال هذا الوزير فى المحرم ٥٢٦هـ/١١٣١م، وأخرجوا الحافظ من سجنه وصار هو الخليفة [١].

عمل قاسم بن هاشم أمير الحرمين الشريفين على التقرب من الفاطميين فأوفد الشاعر عمارة اليمنى برسالة سنة ٥٥٠هـ/١١٥٥م إلى الخليفة الفائز ووزيره طلائع بن رزيك ، فأدى الرسالة إليهما ومدحهما فى قصيدة نظمها من أجل التقرب من الفاطميين ثم عاد إلى مكة ، ومنها إلى زبيد باليمن فى صفر ٥٥١هـ/١١٥٦م ولما عاد إلى بلاد الحجاز ، أوفده أميرها إلى مصر مرة أخرى لمقابلة الوزير ابن رزيك ، وفى هذه المدة استقر

---

(١) ابن ميسر : أخبار مصر ص ٧١ ، ٧٤
، أبو المحاسن : النجوم الزهرة جـ٥ ص٢٣٩
، جمال الدين الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية، القاهرة ١٩٥٨ ص٨٨ - ٨٩.

بمصر واتخذها موطنا له [١]، وأصبح الشاعر الرسمى للبلاط الفاطمى خلال عهدى الفائز والعاضد .

لم تؤد سفارتى عمارة اليمنى إلى إحلال النفوذ الفاطمى فى الحرمين، فقد ظلت الخطبة تقام للخليفة المستنجد بالله العباسى حتى توفى الأمير قاسم بن هاشم سنة ٥٥٦هـ/١١٦٠م ، وخلفه فى إمارة الحرمين الأمير عيسى بن فليته وظل يقيم الخطبة للعباسيين ، وذلك بسبب ضعف وانهيار الخلافة الفاطمية وقتذاك[٢]، ورغم هذا ظل للفاطميين بعض النفوذ فى مكة والمدينة بسبب نشاط الدعوة الفاطمية هناك ، فضلا عن انتماء أمراء مكة والمدينة إلى البيت العلوى ، فاهتموا بالتقرب من الفاطميين الذين كان جل اهتمامهم الحرص على نشر سلطتهم الدينية بالأراضى المقدسة ، التى تتجلى فى إقامة الخطبة لهم على منابرها ، الأمر الذى جعلهم يتمتعون باحترام العالم الإسلامى وتقديره لمواقفهم البناءة فى حماية الأراضى المقدسة وتأمين الوافدين إليها من حجاج ومعتمرين ، ومن ناحية أخرى حرص أمراء الحرمين على اكتساب ود الفاطميين لقلة إمكاناتهم وندرة موارد بلادهم، وقد اضطلع الفاطميون بهذا الدور الرائد ، أما من الناحية العلمية والفكرية فلم يكن لأمراء الحرمين دور يذكر فيها ، فتأخرت كثيراً عن حواضر العالم الإسلامى ، يقول المقدسى : « وبلاد الحجاز تتسم بالفقر وقلة العلم»[٣] ، ولا شك أن كثرة المجاعات بها أدت بكثير من أهلها إلى الرحيل عنها .

---

(١) عماره اليمنى : النكت العصرية فى أخبار الوزارة المصرية ، تحقيق درنبرج ، شادون ١٨٩٧، ص٣١، ٤١ ، ٤٢ .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى جـ٤ ص٢٧١ .

(٣) المقدسى : أحسن التقاسيم ص١٠٣

، أحمد أمين : ظهر الإسلام ص٣١٢ .

يعتبر القرامطة من الشيعة الإسماعيلية الذين اتخذوا من دعوتهم إلى إسماعيل بن جعفر الصادق وسيلة لتحقيق أغراض سياسية ومكاسب مادية ، وهم ينتسبون إلى حمدان بن الأشعث الملقب بقرمط[1]، الذى كان قد تلقى مبادئ الدعوة الشيعية على يدى الحسين الأهوازى داعى دعاة الفاطمية بالأهواز ، وكان قد التقى بقرمط فى الكوفة ، وعهد إليه بأمور الدعوة فى العراق ، فاتخذ من كلواذ مركزا لنشر الدعوة ، فلما زاد الأتباع بدأ فى وضع تنظيم دقيق يعتمد على الترقى فى سلك الدعوة للوصول إلى شرف الاضطلاع بها ، وقام بتطوير النظام المالى الذى كان الحسين الأهوازى[2] قد وضعه والذى كان يقوم على تحصيل دينار من كل شخص يرغب فى الانتساب إلى الإسماعيلية ، ويزعم أنه من أجل التقرب من آل البيت الذين يمثلهم الإمام ، ففرض قرمط ضرائب على الرجال والنساء والولدان أشبه ما تكون بالجزية على الرءوس ، وجعلها تصاعدية ، وقد اعتمد فى فرضها على تأويل آيات القرآن الكريم تبعًا لتحقيق أغراضه المادية

---

(١) سمى بقرمط لقصر قامته ، النويرى : نهاية الأرب جـ٢٣ ص٥٦ .
، ويقول Ivanow فى كتابه . The Rise of the Fatimids P. 69 و أن قرمط أصلها فلاح ـ (قروى لم حرفت إلى قرمط ومنهم حمدان بن الأشعث) .

(٢) الحسين الأهوازى من كبار دعاة الإسماعيلية فى الأهواز ، الذى اتخذ من التقشف والورع مظهرا لجذب فريق من الاتباع وقد نجح فى ذلك إلى حد كبير ، ثم سار إلى سواد الكوفة ودعا الناس هناك فلقيت دعوته قبولا من أهلها ، واتخذ منهم اثنى عشر نقيبا جعل على رأسهم حمدان بن الأشعث القرمطى .
De Goeje : Memoires sur les Carmattes du Bahrain , P. 18 .

والسيادية وتبدأ بدرهم الفطرة ، ثم دينار الهجرة على البالغين ، وادعى أنه يحصلها من أجل تطهير الأتباع من الشرور والآثام [١]، وسبعة دنانير سماها البلغة لمن يريد أن يكون له السبق فى الإيمان والتقرب من آل البيت[٢]، وكان يعطى للدعاة مائة بلغة مدعيا أنه طعام أهل الجنة الذى نزل على الإمام على بن أبى طالب ، ويحصل من كل منهم سبعمائة دينار، وأطلق لهم العنان ليحصلوا على ما شاءوا من أموال الأتباع ، وفى نهاية الأمر لما تضخمت ثرواتهم أخذ منهم خمس ما يملكون من أموال ومتاع[٣]، وبعد أن وجد طاعة كاملة من الأتباع زاد عليهم ما يعرف بالألفة[٤]، وقام بتعيين رجل من الثقاة المقربين لتنفيذ الألفة ، وأمرهم بجمع أموال ومتاع كل فى الناحية المكلف بالدعوة فيها ، ويحفظ ما يجمعه منها فينفق منه على الفقراء والمحتاجين حتى تتحقق المساواة بأقل ما يمكن ، وإرسال كل ما تم جمعه إلى دار الهجرة[٥]،

---

(١) زعم قرمط أنه يحصل هذه الإتاوات إعمالا لقوله تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم ﴾ التوبة ١٠٣ .

(٢) كان يفرضها عليهم حتى يكونوا من السابقين المذكورين فى قوله تعالى : ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠) أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ الواقعة ١٠ ، ١١ .

(٣) زعم قرمط أنه قد أوحى إليه أن يطبق ما جاء فى قوله تعالى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ الأنفال ٤١ .

(٤) تعتمد الألفة على تجريد الأتباع من كل ما يملكون وذلك لتحقيق المساواة بين الجميع بنزع الملكية ، فتحدث الألفة فيما بينهم وينبذون العداوة .

(٥) كان حمدان بن الأشعث القرمطى قد اجتمع ونقبائه فى سواد الكوفة واتفقوا على أن يجعلوا لهم وطنا أطلقوا عليه دار الهجرة يهاجرون إليه ويجتمعون فيه ، وذلك فى إحدى قرى سواد الكوفة ، وأحاطوها بسور كبير وخندق عظيم لحمايتها وانتقلوا إليها مع أتباعهم سنة ٢٩٧هـ/٩٠٩م .
النويرى : نهاية الأرب جـ٢٣ ص ٦٩ .

حيث يقيم القرمطى ، الذى بدوره يقوم ببيعها وشراء الأسلحة لتحقيق أغراضه السياسية .

اتفق القرامطة على تحقيق أهدافهم بالعنف وبقوة السلاح مخالفين فى ذلك التقية التى تعد من أهم مبادئ الشيعة ، وأقروا بالقضاء على مخالفيهم بكل وسائل البطش والتنكيل وسفك الدماء ، وكان يعاون حمدان صهره عبدان الذى اشتهر بفطنته وتشيعه وذكائه الذى يصل إلى حد الخبث ، وكان يدعو للإمام محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق [١]، وقد أثمرت دعوته انضمام أبى سعيد الجنابى وزكرويه بن مهرويه اللذين صارا من كبار قرامطة البحرين وبلاد العراق والشام .

وجه زكرويه اهتمامه نحو نشر الدعوة الشيعية فى بنى كلب على مقربة من الرقة ، ونجح هو وأبناؤه فى ضم طائفة من زعماء العرب فى هذه النواحي[٢]، وليس أدل على ذلك من مبايعة بنى العُليص بن ضمضم بن عدى بن جناب ليحيي بن زكرويه إماما ولقبوه بالشيخ ، بعد أن زعم لهم أنه أبو عبد الله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر بن محمد ابن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ، وأن أتباعه قد بلغوا نحو مائة ألف، وأنه يوحى إليه ، وأن ناقته مأمورة واحترف الكهانة وأعمال السحر ، وقال أن له اسما حركيا هو يحيي بن زكرويه لاتقاء شر أعدائه ، وحتى يظهر أمره وتعلو سلطته بعد القضاء على خصومه [٣].

---

(١) النويرى : نهاية الأرب جـ٢٣ ص٢٦ .

(2) Bernard Lewis : The Origins of Ismailism P. 81 .

(٣) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك جـ١ ص ٣٧٧ .

لما زاد أتباع يحيى بن زكرويه واستفحل أمره سار بهم إلى بلاد الشام ، واتجه إلى دمشق فحاصرها سنة ٢٨٩هـ/٩٠١م ، غير أنه لم يلبث أن قتل على أبوابها ، وانتقلت رئاسة الدعوة لأخيه الحسين بن زكرويه ، الذى ادعى أنه الابن الثانى لمحمد بن إسماعيل[١] وقد حمل الحسين لواء الدعوة وسار يتنقل بين مدن الشام حتى تصدى له العباسيون واشتبكوا معه بقيادة محمد ابن سليمان الكاتب فقتل الحسين سنة ٢٩١هـ/٩٠٣م، مما اضطر الأب زكرويه إلى الانتقام من العباسيين بالتعرض لقوافل الحج والفتك بها ، فلما زاد خطره أنفذ إليه الخليفة العباسى المكتفى جيشا اشتبك معه فى قتال شديد انتهى بمقتله سنة ٢٩٤هـ/٩٠٦م[٢].

كان من قواد القرامطة أبو سعيد بن بهرام الجنابى [٣]، الذى اضطلع بنشر دعوتهم فى بلاد البحرين منذ ٢٨٣هـ/٨٩٦م ، وكان أسلوبه فى الدعوة يعتمد على الصراع المسلح ، وبعد كفاح طويل تمكن أبو سعيد الجنابى من اقتحام مدينة هجر عاصمة البحرين ثم اتخذ الأحساء عاصمة لدولتهم[٤] سنة ٢٨٦هـ/٨٩٩ ، وجعل الحكم فيها وراثيا فى أسرته وأنشأ

---

(١) المسعودى : التنبيه والإشراف ، تحقيق دى غويه ، ليدن ١٨٩٤ ص ٣٢٢ .

(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ١ ص١٦٨ ، ١٦٩.

(٣) نسبة إلى جنابة بلدة على ساحل الخليج الفارسى .
ياقوت : معجم البلدان جـ٣ ص ١٤٢ .

(٤) الأحساء لأن فيها أحساء الماء ومراعى الأبل .
ابن خلدون ، العبر جـ٤ ص ٩١ .

مجلسا من إثنى عشر عضوا وجعل من نفسه حاكما أتوقراطيا بعد أن ركز كل السلطات بيده ، ووضع نظاما حربيا للدولة يقوم على إعداد أبنائها دوما للحرب ، وأن يكونوا فى حالة استنفار ، فأقبل على شراء الأسلحة وجمع الخيل واتخاذ الإبل ، وتجنيد الرجال ونسج الدروع والمغافر ونسج الجواشن ، واهتم بتعليم الصبية الفروسية فى معسكرات مسورة وفى سرية تامة ، حتى لا يعرف أحد بأمر بلاده وأبنائه وخططه الحربية ، وعين العرفاء والنقباء والقادة على عسكره فى تنظيم عسكرى دقيق ، فكان ذلك دأبه لا يغفل عنه ، ويوجه الخيل إلى البصرة فتأخذ من وجدت فتصير بهم إليه فيستعبدهم ، ويضع الأمتعه والأموال المستولى عليها فى خزائن ، فاستفحل أمره كما يقول النويرى : « فزادت بلاده وعظمت هيبته فى صدور الناس »[١] ، ويعقب على ذلك المقريزى بقوله : « فجمع الصبيان فى دور ، وأقام عليهم قوادا ، وأجرى عليهم ما يحتاجون إليه ووسمهم جميعهم على الخدود لئلا يختلطوا بغيرهم، وغرف عليهم غرفا ، وعلم من صلح لركوب الخيل والطعان ، فنشأوا لا يعرفون غيره ، وصارت دعوتهم إليه والحرب »[٢] .

من ناحية أخرى ادعى أبو سعيد الجنابى لنفسه القداسة مغاليا فى عقائده حتى جعل طاعته فى نفوس أتباعه دينا ، وهو ما لم يبلغه أئمة الإسماعيلية الذين كانوا يدعى لهم [٣] .

---

(١) النويرى نهاية الأرب جـ٢٣ ص ٧١ .

(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ١ ص١٦٤ .

(3) De Goeje : Memoires , P. 69 .

لما رأى الخليفة المعتضد من استفحال خطر القرامطة أرسل إليهم جيشًا بقيادة العباس بن عمرو الغنوى، ومنحه تفويضًا للولاية على اليمامة والبحرين فى حالة انتصاره على القرامطة ، لكن هذا الجيش منى بهزيمة ساحقة وأسر قائده سنة ٢٨٩هـ/٩٠٢م، ثم أخرج عنه أبو سعيد وأنفذ معه رسالة إلى المعتضد حذره فيها من محاولة التعرض للنواحى المسيطر عليها[١].

لم يثن خطاب أبى سعيد الجنابى الخليفة المعتضد عن عزمه القضاء على القرامطة بكل الوسائل ، وأقسم على ذلك قائلاً : « والله لئن طال بى العمر لأشخصن بنفسى إلى البصرة وجميع غلمانى ، ولأجهزن جيشا كثيفا ، أخرج على رأسه فى جميع قوادى حتى يحكم الله بينى وبينه »[٢].

لم يكتف أبو سعيد بالاستيلاء على هجر بل بسط سلطانه على الأحساء والقطيف والطائف [٣]، وما زال يوسع رقع بلاده حتى قتل سنة ٣٠٢هـ/ ٩١٤م، على يد أحد غلمانه فخلفه ابنه سعيد إلاّ أن حكمه لم يدم طويلا فقد دب النزاع والتخاصم بينه وبين أخيه الأصغر أبى طاهر سليمان الذى انتهت إليه الإمارة بعد أن أقدم على قتل أخيه الأكبر .

كان للعداء المشترك من جانب القرامطة والفاطميين للخلافة العباسية

---

(١) المقريزى : اتعاظ جـ١ ص١٦٢ .
(٢) النويرى : نهاية الأرب جـ٢٣ ص ٧٣ .
(٣) ابن الأثير : الكامل جـ٨ ص ١٧ .

أثره فى إقامة علاقات ودية بينهما ، وقد استغل عبيد الله المهدى تلك الفرصة لبسط سلطانه الروحى على تلك البقعة البعيدة عن حاضرة الخلافة الفاطمية فى المغرب ؛ فأرسل كتابا بتولية أبى طاهر سليمان ومن ناحية أخرى قام أبو القاسم بن المهدى بالتنسيق مع أبى طاهر لتحقيق أمل الفاطميين فى فتح مصر ، إلا أن هذه المحاولة لم تنجح بسبب تأخر وصول جيش أبى طاهر ، فى الوقت الذى اصطدم فيه الجيش الفاطمى بالجيش العباسى بقيادة مؤنس الخادم ومنى الفاطميون بالهزيمة سنة ٣٠٦هـ/ ٩١٨م[1].

وجه أبو طاهر جهوده نحو بلاد العراق لإضعاف شوكة العباسيين فزحف على البصرة والكوفة فى بداية حملاته ، ثم تقدم فى جرأة بالغة للإستيلاء على بغداد وكادت تقع بيده لولا مؤنس الخادم الذى استطاع أن يبعث بزوارق ملأى بفاكهة مسمومة نحو جيش القرامطة ، فلما أكل منها الجند مات منهم خلق كثير وارتد باقى جيش أبى طاهر[2] ، ولم يجد هذا القرمطى وسيلة للإنتقام إلا بالإغارة على مكة فى ذى الحجة سنة ٣١٧هـ/ يناير ٩٣٠م فى ستمائة فارس وتسعمائة راجل ، وقام وأصحابه بنهب الحجاج وقتلهم وتشريدهم ، وقاموا بخلع باب البيت الحرام وقلع قبة زمزم وسرقة الحجر الأسود ، وعاث هو وجنده فسادا فى أرجاء مكة ونهبوا دورها

---

(١) ابن خلدون : العبر جـ٤ ص ٨٩ .

(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ١ ص١٨٢ .

ومتاجرها وأقام الخطبة هناك لعبيد الله المهدى بعد أن قطعها عن المقتدر العباسي[١].

على الرغم من إقامة الخطبة للمهدى إلا أنه اظهر استياءه مما اقترفه القرامطة ، يتجلى ذلك من الرسالة التى أنفذها إلى أبى طاهر : « والعجب من كتب إلينا ممتنا علينا بما ارتكبته واجترمته باسمنا من حرم الله وجيرانه بالأماكن التى لم تزل الجاهلية تحرم إراقة الدماء فيها وإهانة أهلها ، ثم تعديت ذلك وقلعت الحجر الأسود وحملته إلى أرضك ورجوت أن نشكرك، فلعنك الله ثم لعنك والسلام على من سلم المسلمون من لسانه ويده ، وفعل فى يومه ما عمل فيه حساب غده»[٢]، ورد عليه أبو طاهر بكتاب يحمل وعدا بإعادة الحجر الأسود إلى مكانه [٣].

لم يكتف أبو طاهر بما اقترفه فى البيت الحرام بل فرض الإتاوات على الحجاج مقابل توفير الحماية لهم ، وبذلك أظهر مدى ضعف العباسيين وعجزهم عن حماية الحجيج وتأمين وصولهم إلى بلاد الحجاز [٤].

لما توفى أبو طاهر سنة ٣٣٢هـ/ ٩٤٣م خلفه أخوه الأكبر أحمد بن سعيد الحسنى ، لكن بعض رجال الدولة أرادوا مخالفة رغبة أخيه ومالوا إلى

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ٨١
، عبد القادر الأنصارى : درر الفوائد المنتظمة ، جـ١ ص ١٩٦ .
(٢) عبد القادر الأنصارى : المصدرنفسه جـ١ ص ١٩٦ .
(٣) ابن خلدون : المصدر نفسه جـ٤ ص ٨٩ .
(٤) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ١ ص ١٨٩ .

تولية سابور بن أبى طاهر وأرسلوا إلى الخليفة القائم الفاطمى بذلك إلا أنه أرسل مرسوما بتولية أحمد بن أبى سعيد بالإمارة ، وسابور بن أبى طاهر ولاية العهد، فولى الإمارة أحمد الذى تلقب بأبى المنصور وهو الذى أعاد الحجر الأسود إلى الكعبة سنة ٣٣٩هـ/٩٥٠م إجابة لطلب المنصور الفاطمى ، رغم إغراءات العباسيين له بدفع خمسين ألف دينار فى مقابل إعادة الحجر لكنه رفض وصمم على تنفيذ ذلك ولاءً للفاطميين ، ولا شك أن انشغال العباسيين بصد غارات القرامطة عن أراضيهم قد أدى إلى ازدياد قوة الفاطميين فى بلاد المغرب والتمهيد لفتح مصر ، فكانت إغارات القرامطة على أراضى الدولة العباسية بالمشرق تتفق مع الحملات التى وجهها الفاطميون إلى مصر [1].

هكذا لعبت القوى السياسية الناشئة فى العالم الإسلامى دورها فى إضعاف نفوذ العباسيين ، وصعود نجم العلويين منذ القرن الرابع الهجرى فتمكنوا من بسط سلطانهم على مصر والشام وأجزاء كبيرة من جزيرة العرب التى كانت من قبل تدين بالولاء والطاعة للعباسيين .

على الرغم من الانتصارات التى حققها القرامطة إلا أن النزاع والتخاصم ما لبث أن دب بين أبناء أسرتهم ، فقام سابور بالقبض على عمه أحمد أبى المنصور سنة ٣٥٨هـ/٩٦٨م وأودعه السجن ، لكنه لم يلبث أن خرج من اعتقاله وقتل سابور ونفى إخوته إلى جزيرة أوال بأقصى بلاد

(1) De Goeje : Memoires , P. 69 .

البحرين وانقسم أبناء البيت القرمطى إلى طائفتين ، إحداهما تؤيد بيت أبى طاهر والأخرى بزعامة الحسن الأعصم تؤيد بيت أحمد أبى المنصور ، وقد آلت زعامة القرامطة إلى الحسن الأعصم بعد وفاة أبيه سنة ٣٥٩هـ/ ٩٦٩م.

كان ولاء أتباع بيت سابور للفاطميين أثره فى تبدل سياسة الأعصم نحو الخلافة الفاطمية ، فقام بنفى ثلاثمائة من أقاربه إلى أوال ولم يعترض على إقامة الخطبة للمطيع العباسى ، بل تمادى فى عدائه للفاطميين وطلب منهم دفع الإتاوة التى كان يدفعها الإخشيديون للقرامطة منذ هزيمتهم ببلاد الشام فى مواجهة القرامطة ، فرفض ذلك جعفر بن فلاح الكتامى القائد الفاطمى فى بلاد الشام بعد فتح دمشق سنة ٣٥٩هـ/٩٦٩م ، مما أدى إلى العداء السافر بين الحسن بن أحمد القرمطى والفاطميين ، وقد لعب الخلفاء الفاطميون دورهم فى إثارة النزاع بين أبناء البيت القرمطى باتباع سياسة فرق تسد ، فأرسل المعز لدين الله إلى ابن طاهر وبنيه فى جزيرة أوال يخبرهم بأحقيتهم فى إمارة البحرين ، فلما علم بذلك الأعصم أمر بحذف اسم المعز من الخطبة وأقامها للمطيع العباسي[١]، وفى مقابل ذلك أنفذ الحسن الأعصم إلى الخليفة المعتضد يطلب منه المساعدة للقضاء على النفوذ الفاطمى ، إلاّ أن المعتضد لم يعر رسالة الأعصم اهتماما لأنه كان يعتقد أن القرامطة خارجون على الدين لا مبادئ لهم ، قائلا : « كلهم قرامطة وعلى دين واحد فأما المصريون فأماتوا السنن وقتلوا العلماء ، أما هؤلاء فقتلوا

---

(١) ابن خلدون : العبر جـ٤ ص ٩٠ .

الحجاج وقلعوا الحجر الأسود »[١]، إلا أن عز الدولة بختيار الأمير البويهى تدخل لدى الخليفة وأقنعه بضرورة إمدادهم بالجيوش لمحاربة الفاطميين وقد انتصر الرأى الأخير فأمدهم بالجند والأموال ، وطلب إلى الحمدانيين إمدادهم ومعاونتهم عند وصولهم إلى الشام .

سار الحسن الأعصم على رأس القرامطة إلى الشام بمعاونة الجيش العباسى لطرد الفاطميين منها ، فاستولى على دمشق سنة ٣٦٠هـ/٩٧٠م واستمر فى فتوحاته حتى استولى على كثير من بلاد الشام ، وتوجه بعدها نحو مصر لضرب الفاطميين فى معقلهم لكنه فشل فى دخول الديار المصرية بعد محاولتين فاشلتين وارتد إلى الشام ثم إلى الأحساء [٢].

عاد الولاء القرمطى إلى الفاطميين بعد وفاة الحسن الأعصم سنة ٣٦٧هـ/٩٧٧م، وتولية اثنين من زعماء البيت القرمطى وهما جعفر وإسحق [٣]، بل ناصبوا العباسيين العداء وأغاروا على الكوفة سنة ٣٧٥هـ/٩٨٥م ، ولم يفت فى عضدهم إلا بعد أن أنفذ إليهم صمصام الدولة جيشًا ألحق بهم الهزيمة على نهر الفرات وتعقبهم إلى القادسية وأخرجهم من بلاد العراق [٤].

أدى النزاع بين جعفر وإسحق إلى ضعف دولة القرامطة بالبحرين وزوال

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٤ ص ٧٤ .

(٢) ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ٢١١ .

، المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ١ ص٢٠٧ .

(٣) ابن خلدون : العبر جـ٤ ص ٩١ .

(٤) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١٣٤ .

نفوذهم فى نهاية القرن الرابع الهجرى ، فافترق أمرهم وتلاشت دعوتهم[١] ، وأغارت القبائل العربية على أراضيهم فمنهم بنو ثعلب بقيادة زعيمهم الأصغر بن أبى الحسن الثعلبى الذى استولى على البحرين بعد انحلال أمر القرامطة وانقراض أسرة الجنابى ، وجعل زعيم بنى ثعلب الحكم وراثيا فى بيته بالبحرين ، وظلوا على ذلك حتى استولى بنو عقيل وهم قبيلة عربية أخرى على البحرين بعد ضعف بنى ثعلب منذ نهاية القرن الخامس الهجرى.

أما اليمامة[٢] فظلت تدين بالولاء للعباسيين حتى استولى عليها محمد الأخيضر بن يوسف ـ أحد أحفاد الحسن بن على بن أبى طالب ـ فى منتصف القرن الثالث الهجرى ، فأقام بها دولة علوية حسنية وراثية ، فلما توفى خلفه ابنه يوسف فى حكم هذه الإمارة ، وكان ولى عهده فى إدارة شئونها ابنه إسماعيل الذى انفرد بها بعد وفاة أبيه .

لم يدم حكم بنى الأخيضر طويلا فى اليمامة ، فقد استولى عليها القرامطة فى أوائل القرن الرابع الهجرى [٣]، وظلت اليمامة خاضعة لنفوذ قرامطة البحرين إلى أن ضعف نفوذهم ، فاستقل بإدارتها زعماء قيس بن عيلان [٤].

---

(١) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٤ ص ٩١ .

(٢) يحدها شرقا بلاد البحرين ، وغربا أطراف اليمن والحجاز ، وجنوبا نجران ، ومن الشمال نجد والحجاز .

ياقوت : معجم البلدان جـ٥ ص ٧٧ .

(٣) ابن خلدون : المصدر نفسه جـ٤ ص ٩٨ ـ ٩٩ .

(٤) القلقشندى : صبح الأعشى جـ٥ ص ٦٠ .

وأما عمان فقد حكمها بنو شامة بن لؤى بن غالب حتى فتحها محمد ابن القاسم الشامى وجعلها ولاية وراثية ، إلى أن استولى عليها القرامطة سنة ٣١٧هـ/٩٢٩م بعد أن تغلب عليها أبو طاهر القرمطى ، وأقام فيها الدعوة للخليفة الفاطمى عبيد الله المهدى ببلاد المغرب [١].

لم يستقر النفوذ الفاطمى بواسطة القرامطة فى عمان ، فقد استقل بها يوسف بن وجيه ، ثم انتقل حكمها إلى مولاه نافع الذى دخل فى طاعة معز الدولة بن بويه بالعراق ، وخطب له على المنابر [٢].

على الرغم من دخول القرامطة عمان للمرة الثانية سنة ٣٥٤هـ/٩٦٥م إلا أن نفوذهم لم يستقر بها ، وقد استقل بها عبد الوهاب بن أحمد بن مروان واتخذ له كاتبا هو على بن أحمد لتنظيم أحوال الإمارة ، وبعد أنه تم لهما ذلك ثار على بن أحمد فى وجه الأمير عبد الوهاب وعزله واستقل بالإمارة .

انتهز معز الدولة بويه فرصة اضطراب الأمور بعمان وأنفذ إليها حملة بحرية برية سنة ٣٥٠هـ/٩٦١م بقيادة أبى الفتوح محمد بن العباس الذى استولى عليها وأقام الخطبة فيها لبنى بويه ، ثم ولى أمرها عمر بن نهيان الطائى من قبل عضد الدولة البويهى ، واستمر النفوذ البويهى قائما بعمان رغم ثورة الجند الزنج سنة ٣٦٢هـ/٩٧٢م [٣].

لما ضعف النفوذ البويهى ببغداد استولى أحد زعمائها من بنى مكرم

---

(١) ابن خلدون : العبر جـ٤ ص ٩٣ .

(٢) ابن الأثير : الكامل جـ٨ ص ١٨٦ .

(٣) ابن خلدون : المصدر نفسه جـ٤ ص ٤٤٣ ـ ٤٤٤ .

على صحار الحاضرة وهو مؤيد الدولة أبو القاسم على بن الحسين بن مكرم سنة ٤١٨هـ/١٠٢٧م وأقام بها حكما وراثيا ، فلما توفى خلفه ابنه أبو الحسين سنة ٤٢٧هـ/١٠٣٥ فتولى السلطة بالإمارة قائد الجيش على بن هطال الذى استبد بالسلطة وصادر الثمار واستولى على كثير من أموال الناس(١) .

لم يدم حكم على بن هطال طويلا بعمان ، فقد سير أبو كاليجار البويهى حملة من البصرة استطاعت الاستيلاء على الإمارة بمعاونة أبى القاسم بن مكرم زعيم جبال عمان ، وولى حكمها أبو محمد بن مكرم سنة ٤٣١هـ/١٠٣٩م من قبل الأمير البويهى ، إلى أن استولى عليها أبو المظفر بن كاليجار لكنه لم يستطع إدارة شئون البلاد وأساء فيها السيرة هو وخادمه فانتهز زعيم الخوارج بجبال عمان اضطراب الأحوال فى البلاد وسار إليها وانتصر على أبى كاليجار سنة ٤٤٢هـ/١٠٥٠م، وقبض على زمام الأمور وتلقب الراشد بالله بن راشد ، ولكن الأمور لم تستقر بها بسبب تطلع زكريا بن عبد الملك الأزدى إلى الاستقلال بالنواحى الواقعة على الخليج الفارسى منذ سنة ٤٤٨هـ/١٠٥٦م(٢) .

انتهز المستنصر بالله الفاطمى اضطراب الأحوال بعمان وطلب من واليه

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ٨ ص ٢١٤
، ابن خلدون العبر جـ٤ ص ٩٣ .

(٢) ابن خلدون : المصدر نفسه جـ٤ ص ٩٣ .

(3) Bulletin School of Oriental Studies (Letters of al Mustansir Bi Allah) 1934 . Vol VII, Part 2, P, 322 .

على اليمن المكرم أحمد بن على بن محمد الصليحى القيام بإدارة ولاية عمان فى خطاب أرسله له سنة ٤٦٩هـ/ ١٠٧٦م[١]، حيث كانت بلاد اليمن تضطلع بإرسال الدعاة إلى عمان لنشر المذهب الإسماعيلى هناك ، فبعث المكرم أحمد الداعى إسماعيل بن إبراهيم بن جابر إلى عمان بعد موافقة المستنصر بالله سنة ٤٧٦هـ/١٠٨٣م ، واستمر الحال على ذلك فى عهد الحرة الصليحية ، فوافق المستنصر على تعيين حمزة سبط حميد الدين خلفا لإسماعيل بن إبراهيم داعيا على عمان سنة ٤٨١هـ/١٠٨٨م ، وقد استطاع دعاة الدولة الفاطمية إضعاف النفوذ العباسى وتوطيد سلطانها على أقطار الجزيرة العربية .

---

(١) عبد المنعم ماجد : السجلات المستنصرية ، القاهرة ١٩٥٤ ، رقم ٥٤ ص ١٧٦ - ١٧٩ .

رابعًا : المغرب والأندلس :

وجه الخليفة الأموى عبد الرحمن الناصر اهتمامه إلى التصدى للنفوذ الشيعى، الذى أصبح يشكل خطرا على حكم الأمويين بالأندلس منذ قيام الخلافة الفاطمية ببلاد المغرب ، فاستقطب زعماء قبيلة زناتة المغربيين المعادين للفاطميين ، فلما أيقن عبيد الله المهدى من أن الزناتيين أصبحوا بمثابة شوكة فى ظهره أمر مصالة بن حبوس بتاهرت بمحاربتهم ، لكنه هزم وقتل فى المعركة التى دارت بينه وبين محمد بن خرز زعيم قبيلة مغراوة سنة ٣١٢هـ/٩٢٤م[١].

من ناحية أخرى استولى عبد الرحمن الناصر على سبتة واتخذها قاعدة لدرء الخطر الفاطمى ، وكان واليها موسى بن أبى العافية قد اضطر إلى قطع الدعوة الفاطمية وإقامة الخطبة للأمويين تحت وطأة الضغط الأموى، فلما علم بذلك عبيد الله المهدى أنفذ جيشًا بقيادة حميد بن مصال إلى المغرب الأقصى ، انتصر على موسى سنة ٣٢١هـ/٩٣٣م وأعاد الدعوة فيها لعبيد الله المهدى ، لكن الخطبة ما لبث أن عادت إلى الخليفة الأموى .

لم تكتف الخلافة الأموية بمهاجمة النفوذ الفاطمى فى المغرب الأقصى بل هاجمت السفن الأندلسية السفن الفاطمية فى عرض البحر، ورد الفاطميون بمهاجمة المدن الأندلسية ومنها مدينة المرية سنة ٣٤٤هـ/٩٥٥م[٢].

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب جـ١ ص ٢٦٦ .

(٢) القاضى النعمان : كتاب المجالس والمسايرات ، تحقيق محمد اليعلاوى وآخرون ، تونس ١٩٧٨، جـ١ ص ٣٢٥ .

اتخذ العداء الأموى الفاطمى بعدا جديدا بعد أن تحالف عبد الرحمن الناصر مع قسطنطين الثامن الإمبراطور البيزنطى سنة ٣٤٤هـ/٨٥٨م وأمر بلعن الخليفة الفاطمى على منابر الأندلس[١]، وفى نفس الوقت أرسل عبدالرحمن الناصر رسله إلى المعز لدين الله يطلب الموادعة والصلح ، لكن المعز رفض إجابة طلبه [٢]، فلما رأى ذلك الناصر أرسل جيشا للاستيلاء على المدن الخاضعة للنفوذ الفاطمى بالمغرب الأقصي، وقد أوقعت هذه القوات الهزيمة بالجيش الفاطمى الذى تصدى لها سنة ٣٤٦هـ/ ٨٦٠م ، غير أن المعز لدين الله سير جيشا أخر بقيادة جوهر الصقلى تمكن من استرداد سجلماسة وفاس ولم يستطع دخول سبته وطنجة[٣].

لما ولى الحكم المستنصر الأندلس خلفا لأبيه عبد الرحمن الناصر ، أنفذ حملة إلى المغرب الأقصى سنة ٣٦٢هـ/٩٧٢م ، استطاعت أن تعيد النفوذ الأموى على تلك البلاد ودان زعماء زناته من قبائل مغراوة ومكناسة للحكم المستنصر وأقاموا الدعوة باسمه على منابرهم [٤].

لما توفى المعز لدين الله وخلفه ابنه العزيز بالله ، أنفذ رسالة إلى الحكم المستنصر يسبه فيها ويهجوه ، ولم يجد الحكم المستنصر ردا على ذلك سوى

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب جـ٢ ص ٢٣٦ .

(٢) النعمان : المجالس والمسايرات جـ١ ص ٢٣٨ .

(٣) السلاوى : الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى جـ١ ص ٨٦ .

(٤) ابن خلدون : العبر جـ٤ ص ١٤٦ .

الطرق على عقدة الفاطميين بالتشكيك فى نسبهم فرد عليه : « قد عرفتنا فهجوتنا ، ولو عرفناك لأجبناك »[١].

دخل الصراع الأموى الفاطمى مرحلة جديدة خلال عهد الحاكم بأمر الله فقد دعا أبو ركوة إلى عمه هشام المؤيد بالله الأموى فى مدينة برقة التى اتخذها مقرا للدعوة للأمويين بالأندلس ، وانضم لدعوته زعماء بنى قرة الساخطين على الخليفة الفاطمى ، وقد استطاع أن يهزم قوات الحاكم بأمر الله وأعلن نفسه أميرا على برقة سنة ٣٩٥هـ/١٠٠٤م وتلقب الثائر بالله وضرب النقود باسمه ، ونال تأييد العامة ، ولما أراد الحاكم بأمر الله استرداد برقة أنفذ إليها جيشا كبيرا بقيادة ينال الطويل التركى ، لكنه منى بهزيمة نكراء ، ووقع ينال فى الأسر ، واستولى أبو ركوة على مائة ألف دينار كانت فى حوزته ، وقد أدى انتصار أبو ركوة إلى تطلعه لدخول مصر فسار إليها ، لكن الحاكم بأمر الله أنفذ إليه جيشا كبيراً يتألف من الجنود الشامية والغلمان الحمدانيين بقيادة الفضل بن عبد الله فى ربيع الأول سنة ٣٩٦هـ/١٠٠٥م، فالتقى الطرفان بنواحى الاسكندرية حيث دارت بينهما معارك شديدة ، ارتد على أثرها الفضل نحو القاهرة بينما واصل أبو ركوه زحفه نحو الفيوم ، فالتف الفضل بقواته حول أبى ركوة وألحق به الهزيمة وظل يطارده حتى حدود النوبة ، حيث أمسك به أبو المكارم هبة الله زعيم ربيعة ، وانتهى أمره بالقتل[٢].

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ٢ ص ١٥٢ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٤ ص ٢١٧ .

ظل الزيريون بزعامة بلكين بن زيرى الصنهاجى على ولائهم للفاطميين منذ مسير المعز لدين الله إلى مصر، إلاّ أن هذه السياسة تبدلت فى عهد ابنه الفتح المنصور الذى كان يطمح إلى الاستقلال حيث كان يردد فى مناسبات عديدة ، أنا لست ممن يولى بكتاب ويعزل بكتاب [١].

لما أيقن العزيز بالله من طموحات هذا الوالى أثار عليه قبائل كتامة بواسطة الداعى أبو الفهم الخراسانى ، لكن المنصور استطاع هزيمة كتامة والقبض على أبى الفهم وقتله[٢]، فلما علم العزيز بالله بذلك آثر التودد إلى الأمير المنصور[٣]، وقد سار الحاكم بأمر الله على سياسة أبيه العزيز فى بداية حكمه لكنه لم يلبث أن عهد إلى يانس العزيز- أمير برقه بالإستيلاء على طرابلس لتقويض نفوذ الزيريين وزعيمهم تصير الدولة باديس ، لكن الأمير الزيرى تصدى للجيش الفاطمى وألحق به الهزيمة وقتل يانس العزيزى سنة ٣٩٠هـ/٩٩٩م .

عمد الخليفة الحاكم إلى تأليب القبائل على بعضها البعض ، فعهد إلى قبيلة زناته بمحاربة يانس والاستيلاء على طرابلس، لكنهم لم يتمكنوا من الوقوف فى وجه باديس فطلبوا منه العفو والأمان بعد انتصاره عليهم سنة ٤٠٠هـ/١٠٠٩م ، فلم ير الحاكم بدا من المهادنة وأنفذ الهدايا إلى باديس

: البيان المغرب جـ١ ص ٣٤٣

الكامل جـ٩ ص ١٢ .

لصدر نفسه جـ٩ ص١٨ .

المصدر نفسه جـ١ ص٣٥٣ .

وأضاف إليه حكم برقه سنة ٤٠٣هـ/١٠١٢م[١].

ظلت العلاقات الودية سائدة بين الفاطميين فى مصر والزيريين ببلاد المغرب حتى ولى إمارتهم المعز بن باديس الصنهاجى الذى كان يعتنق المذهب السنى ويدعو أهل المغرب للتمسك بمذهب الإمام مالك ابن أنس[٢]. وعلى الرغم من ذلك فلم يعترض الخليفة الحاكم بأمر الله على سياسة المعز بن باديس المذهبية بل أنفذ إليه الهدايا والرسل وزاده فى الألقاب شرف الدولة خلال عامى ٤٠٧ ، ٤١١هـ/١٠١٦ ، ١٠٢٠م [٣]، كما خاطبه الظاهر لإعزاز دين الله الذى خلف أباه الحاكم بشرف الدولة وعضدها توطيدا للعلاقات الودية سنة ٤١٤هـ/١٠٢٣م [٤].

لما ولى المستنصر بالله الخلافة الفاطمية ، أمر المعز بن باديس بحذف اسم الخليفة الفاطمى من الخطبة ، وأقامها للخليفة القائم بأمر الله العباسى، وأمر بلبس السواد وجعل أعلام الدولة سوداء شعار العباسيين[٥]، وذلك فى سنة ٤٤٠هـ/١٠٤٨م ، فرد المستنصر على ذلك بتأليب قبائل بنى هلال

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب جـ١ ص٣٧٤ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ٢ ص١٩٧٧ .

(٣) ابن عذارى : المصدر نفسه جـ١ ص٣٨٩ .

(٤) ابن عذارى : المصدر نفسه جـ١ ص٣٩٢ .

(٥) ابن الأثير : الكامل جـ٩ ص ١٨٠

، ابن خلدون : العبر جـ٦ ص١٥١

، ابن عذارى : المصدر نفسه جـ١ ص ٤١٥ .

الذين كانوا يعيشون فى صعيد مصر ضد بنى زيرى ليتخلص منهم جميعا ، ومن ثم أنفذ آخر الأمر مكين الدولة أبا على الحسن بن ملهم لتنفيذ خطته، فسار إلى بنى هلال ومعه تفويض من الخليفة الفاطمى بحكم بلاد المغرب فضلا عن الأموال والخلع وجاء فى مرسوم التولية : « قد أعطيتكم المغرب وملك المعز بن بلكين الصنهاجى ، العبد الآبق ، فلا تفتقرون »[1] ، فسار بنو هلال إلى برقة ومنها إلى إفريقية حيث التقوا بجيوش المعز بن باديس وانضموا لبنى أعمامهم بنى هلال ، مما جعل بعض العناصر الأخرى تحذو حذوهم فانصرف عنه بعض أنصاره من زناته وصنهاجة مما أدى إلى هزيمته فى موقعة حيدران سنة ٤٤٢هـ/١٠٥٠م[2] ، ولم يكتف بنو هلال بما حققوه من انتصار على ابن باديس بل قاموا بمطاردته إلى القيروان وعاثوا فيها فسادا ، وولى المعز بن باديس هاربا إلى المهدية مع أتباعه واتخذها مقرا له حتى توفى سنة ٤٥٤هـ/١٠٦٢م، وخلفه ابنه تميم الذى لم يعد يحكم سوى الشريط الساحلى المحيط بالمهدية[3] .

---

(١) ابن خلدون : العبر جـ٦ ص١٤ .

(٢) ابن الأثير : الكامل جـ٩ ص ١٩٦ .

(٣) ابن الأثير : المصدر نفسه جـ٩ ص١٩٧ .

خامساً : جزيرة صقلية :.

كانت صقلية محط أنظار الحكام المسلمين منذ القرن الأول الهجرى إلا أن مقدمات الفتح الحقيقى لهذه الجزيرة بدأت سنة ٢١٢هـ/٨٢٧م على يد قاضى القيروان أسد بن الفرات فى عهد زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب، لكن الفتح لم يستقر بها نظرا لما تعرض له المسلمون على يد الروم إلا أنهم تمكنوا من الاستيلاء على بلرم ، ومصريانه ، ومسينا ، وقطانيه ، وطرميس[١]، وأخيرا استولى المسلمون على سرقوسه التى تعد من أهم مدنها سنة ٢٦٤هـ/٨٧٧م على عهد إبراهيم الثانى بن الأغلب [٢].

ظلت جزيرة صقلية ولاية تابعة لنفوذ الأغالبة حتى قام أبو عبد الله الشيعى داعى دعاة الفاطمية بالاستيلاء على الكثير من المدن التابعة للأغالبة فى شمال أفريقيا ، حتى انتصر فى آخر معاركه معهم سنة ٢٩٦هـ/٩٠٨م على زيادة الله الثالث آخر أمراء الأغالبة، الذى اضطر إلى الهرب إلى مصر ودخل أبو عبد الله الشيعى رقادة ونزل قصورها ليقضى على دولة الأغالبة[٣].

لما بلغ أهل صقلية نبأ انتصار الفاطميين على الأغالبة ، عزلوا الحسن ابن رباح الوالى السنى وولوا على بن أبى الفوارس ، إلا أن عبيد الله المهدى عزل هذا الوالى وعين الحسن بن محمد بن أبى خنزيز الكتامى سنة

---

(١) ابن خلدون : العبر جـ٤ ص ٢٠١ .
(٢) ابن الأثير : الكامل جـ٧ ص ١٠٦ .
(٣) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ١ ص٦٣ .

٢٩٧هـ/ ٩٠٩م ، لكن زعماء أهل السنة ثاروا به وعزلوه ، فولى الخليفة الفاطمى على بن عمر البلوى بدلاً منه ، غير أن أهل الجزيرة ثاروا عليه لأنه أساء السيرة فى أتباع المذهب السنى ، وأخيراً قرر أهل الجزيرة تعيين على بن أحمد بن قرعب واليا عليهم سنة ٣٠٠هـ/٩١٢م ، لكن هذا الوالى خلع طاعة الفاطميين وأقام الخطبة للمقتدر بالله العباسى على منابر بلاده ، ولم يكتف بذلك بل سار إلى سواحل المغرب لمهاجمة الفاطميين فى عقر دارهم، لكنهم سرعان ما أوقعوا به الهزيمة وقبضوا عليه وأرسلوه إلى عبيد الله المهدى الذى أمر بقتله ، وعادت السيادة الفاطمية عليها ، وإمعانا فى السيطرة عليها قرر الخليفة عبيد الله المهدى إرسال جيش مقيم مع واليها[١] لحمايته وتوطيد سلطان الفاطميين عليها .

وظل الحال على ذلك حتى ولى أبو مخلد بن كيداد الذى قام بالثورة على الحكم الفاطمى فلما قضى عليها عين المنصور الفاطمى الحسن بن على الكلبى واليا عليها سنة ٣٣٦هـ/٩٤٧م ، لكن أهالى الجزيرة استنجدوا بالامبراطور قسطنطين السابع ، لكن الحسن بن على استطاع أن يوقع الهزيمة بهم ، وتم الاتفاق على الهدنة مع الإمبراطور البيزنطى [٢]، لكن هذا الامبراطور نقض العهد وأرسل إلى صقلية حملة تمكنت من فتح بعض مدنها سنة ٣٤٥هـ/٩٥٦م ثم انسحبوا إلى قلورية (Calabria) .

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ٨ ص ٢٤ .

(٢) ابن خلدون : العبر جـ٤ ص٢٠٩ .

ومهما يكن من أمر فقد استمرت الحروب بين الفاطميين والبيزنطيين من أجل السيطرة على صقلية ، ولعل أهم المعارك التى دارت بين الطرفين هى واقعة المجاز[١] سنة ٣٥٤هـ/٩٦٥م ، التى انتصر فيها أحمد بن الحسن الكلبى - والى صقلية على ما نويل القائد البيزنطى .

على الرغم من الانتصارات التى حققها أحمد بن الحسن الكلبى على البيزنطيين إلا أن المعز لدين الله عزله وولى مكانه « يعيش » مولى الحسن الكلبى ، لكنه لم يستطع ضبط الأمور بها ، فأعاد الكلبيين وأسند حكم الجزيرة لأبى القاسم بن الحسن الكلبى فى منتصف ٣٥٥هـ/٩٦٦م[٢].

اقتصر النفوذ الفاطمى بجزيرة صقلية منذ منتصف القرن الرابع الهجرى على تعيين الولاة ، وظل الحال على ذلك حتى غزاها الإمبراطور ميخائيل الرابع سنة ٤٢٩هـ/١٠٣٧م ، لكن هذه الحملة فشلت فى الاستيلاء عليها، فأتبعها بحملة أخرى سنة ٤٣٠هـ / ١٠٣٨م ، فاستولى قائدها على معظم المدن الواقعة على الساحل الشرقى من الجزيرة [٣]، لكن المسلمين تمكنوا من استعادة السيطرة على معظم تلك المدن ، وظلت الحروب سجالا بين المسلمين والبيزنطيين حتى تمكن النورمانديون من الاستيلاء عليها فى عهد روجر بن تنكرد النورمندى سنة ٤٨٤هـ/١٠٩١م[٤].

(١) ابن الأثير : الكامل جـ٨ ص ١٨٤ .

(٢) ابن الأثير : المصدر نفسه جـ٨ ص ٢٠١ .

(٣) أمارى : المكتبة الصقلية العربية ، ليبزج ١٨٨١ ، جـ١ ص٢٧٤ .

(4) Hitti : History of the Arabs , P. 606 .

سادسا : مع البيزنطيين : -

استولى البيزنطيون على أنطاكية سنة ٣٥٨هـ/٩٦٩م ، ولم يستطع الفاطميون التصدى لهم لانشغالهم بصد خطر القرامطة عن بلاد الشام[١] ، ولما كان البيزنطيون يدركون أن الفاطميين لن يستطيعوا مواجهتهم لذا عول الامبراطور البيزنطى حنا زيمسكيس على الاستيلاء على مدن بلاد الشام، فسار سنة ٣٦٥هـ/ ٩٧٥م إلى حمص ، ومنها إلى بعلبك ، ثم سار إلى دمشق وأرغم أهلها على التسليم ودفع الجزية له ، كما استولى على طبرية وقيسارية، وسار شمالا إلى بيروت وصيدا ، وعلى الرغم من الانتصارات التى حققها الإمبراطور البيزنطى إلاّ أنه منى بالهزيمة أمام طرابلس ، وعاد أدراجه إلى أنطاكية ثم إلى القسطنطينية حتى توفى سنة ٣٦٦هـ/ ٩٧٦م[٢].

دخلت العلاقات الفاطمية البيزنطية مرحلة جديدة فى عهد الإمبراطور باسيل الثانى حيث أرسل الهدايا إلى العزيز بالله الفاطمى ، وتم عقد الصلح بين الدولتين على أن يطلق البيزنطيون سراح الأسرى المسلمين وأن يدعى للخليفة على منبر جامع القسطنطينية فى أيام الجمع ، وأن تكون مدة الاتفاقية سبع سنوات [٣]، غير أن هذه الهدنة لم يدم أجلها طويلا بسبب النزاع بين الأمراء العرب أنفسهم ، فاستعان سعيد الدولة أبو الفضائل بن حمدان أمير حلب بالبيزنطيين ضد الفاطميين ، فلما أرسل باسيل الثانى

---

(1) Hitti : Hist. of Syria , London 1957, P. 460 .
(2) Hitti : op. cit., P. 410 .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٤ ص١٥٢ .

قواته اشتبكت مع قوات الفاطميين عند نهر العاصى وحلت الهزيمة بالبيزنطيين سنة ٣٨١هـ/٩٩١م ، ثم سار القائد الفاطمى منجوتكين إلى حلب فى العام التالى وحاصرها حصاراً شديدا ، فاستنجد أميرها مرة أخرى بالإمبراطور البيزنطى فسار بنفسه إلى شيزر ثم فتح حمص ، ووصل إلى طرابلس لكنه لم يستطع الاستيلاء عليها فعاد إلى القسطنطينية سنة ٣٨٥هـ/٩٩٥م [١]، ومن ناحية أخرى سار العزيز بالله على رأس الجيش الفاطمى لمحاربة البيزنطيين فى بلاد الشام يدعمه وزيره عيسى بن نسطورس بالأسطول البحرى ، لكن هذا الأسطول احترق بالمقس فأنشأ أسطولا غيره سار به إلى طرسوس (من أعمال طرابلس بلبنان) لكن هذا الأسطول تحطم أغلبه من جراء العواصف ، واستطاع البيزنطيون أسر بعض رجاله ، أما الخليفة العزيز بالله فلم يمهله القدر لتحقيق أمله ، فاشتد عليه المرض فى بلبيس وتوفى هناك سنة ٣٨٦هـ/٩٩٦م [٢].

لم ينته الصراع الفاطمى البيزنطى بوفاة العزيز بالله ، فقد تجدد فى عهد الحاكم بأمر الله ، حينما ثار الأمير علاقة بصور واستولى عليها ، فلما علم بقدوم الجيش الفاطمى استنجد بالإمبراطور باسيل الثانى الذى بعث له الإمدادات بطريق البحر ، واشتبك الفريقان فى عدة معارك انتهت بسقوط صور فى أيدى الفاطميين وأسر علاقة الذى تم قتله فى القاهرة ، بينما سار الجيش الفاطمى بقيادة جيش بن الصمصامة الكتامى فى أثر البيزنطيين

---

(١) الأنطاكى : تاريخ الأنطاكى ص ١٦٦ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٤ ص ١٢٢ .

وأخذ يطاردهم حتى بلغ مشارف أنطاكية سنة ٣٨٨هـ/٩٩٨م[١].

لما عاد الجيش الفاطمى ، أنفذ برجوان الوصى على العرش سفارة إلى الإمبراطور البيزنطى لعقد الصلح ، فرحب باسيل الثانى وأرسل نائبا عنه إلى القاهرة للاتفاق على شروط هذا الصلح ، وقد كانت فرصة سانحة للإمبراطور البيزنطى للتفرغ لمواجهة البلغار . فلما تم الإتفاق على بنود الهدنة سار أريسطيس بطريرك بيت المقدس مصاحبا السفير البيزنطى إلى القسطنطينية للتوقيع على المعاهدة ، التى تتضمن أن تضع الحرب أوزارها عشر سنوات ، وأن يتمتع النصارى بالحريات الدينية وتجدد الكنائس ، وأن يتعهد باسيل الثانى بإمداد مصر بالحبوب التى تحتاجها ، لكن هذه المعاهدة لم تدم طويلا بسبب سوء معاملة الحاكم للنصارى ، وعاد العداء بين الطرفين حتى نهاية عهد الحاكم بأمر الله ، وقد رد البيزنطيون على ذلك بشن الغارات المستمرة على شمال الشام حتى سنة ٤١٨هـ/١٠٢٧م .

لما ولى الظاهر لإعزاز دين الله الخلافة انفذ سفارة جديدة إلى الإمبراطور قسطنطين الثامن لعقد الصلح ، فتم له ذلك بشرط إعادة بناء كنيسة القيامة فى بيت المقدس ، وإعادة بناء الكنائس التى حولت جوامع فى عهد الحاكم، وأن يعين الإمبراطور بطريرك فى بيت المقدس ، وألا يهاجم الفاطميون حلب ، وألا يتحالف الفاطميون مع أهل صقلية ضد البيزنطيين، أما من ناحية البيزنطيين فاشترط عليهم الدعاء للخليفة الفاطمى فى الخطبة فى كافة جوامع الدولة البيزنطية وبخاصة جامع القسطنطينية ، وأن يعاد بناء

---

(١) ابن خلدون : العبر جـ٤ ص ٥٧ .

جامع القسطنطينية وأن يطلق سراح الأسرى المسلمين ، وألا يقدم الإمبراطور أية مساعدات للخارجين على سلطان الخلافة الفاطمية وبخاصة صاحب الرملة وألا يطالب بأفامية [١].

لم يمض غير قليل حتى نقض البيزنطيون المعاهدة بمساعدتهم حسان ابن مفرج بن الجراح الطائى صاحب الرملة ، وأغاروا على أفامية واستولوا على قلعتها سنة ٤٢٢هـ/١٠٣٠م [٢] ، لكن الخليفة المستنصر بالله الفاطمى أعاد الهدنة مع الإمبراطور ميخائيل الرابع سنة ٤٢٩هـ / ١٠٣٧م وسمح للبيزنطيين باستكمال ترميم كنيسة القيامة مقابل الإفراج عن أسرى المسلمين [٣] ، كما حافظ الإمبراطور قسطنطين التاسع على العلاقات الودية مع المستنصر وأنفذ إليه هدايا جليلة سنة ٤٣٧هـ/١٠٤٥م [٤].

لما حلت بمصر المجاعة سنة ٤٤٦هـ/١٠٥٤م أنفذ الخليفة المستنصر بالله إلى الإمبراطور البيزنطى يطلب إمداده بكميات كبيرة من القمح ، فأظهر قسطنطين التاسع استعداده لذلك ، لكنه لم يلبث أن توفى وخلفته تيودورا التى اشترطت إمدادها بالجند الفاطمى فى مواجهة أعدائها مقابل القمح، فساءت العلاقات على إثر رفض المستنصر إجابتها لطلبها ، وأرسل جيشا لمحاربتها بقيادة مكين الدولة الحسن بن ملهم لكنه منى بالهزيمة وأسر مع فريق من جنده سنة ٤٤٧هـ/١٠٥٥م ، فلما علم المستنصر بالله بذلك

---

(١) الأنطاكى : تاريخ الأنطاكى ص ٢٧٠ ـ ٢٧١ .

G. Wiet : Histoire de la Nation Egyptienne , P. 152 .

(٢) أبو الفدا : المختصر جـ٢ ص ١٥٨ .

(٣) أبو الفدا : المصدر نفسه جـ٢ ص ١٦٢ .

(٤) الأبشيهى : المستطرف فى كل فن مستظرف ، دار الجيل ، بيروت١٩٨٢ جـ٢ ص٥٤.

أرسل سفارة إلى الإمبراطورة برئاسة القاضى أبى عبد الله القضاعى لتهدئة الصراع بين الطرفين ، لكن الإمبراطورة لم تحفل به بينما اهتمت برسول السلاجقة الذى سمحت له بإقامة الخطبة على منبر جامع القسطنطينة للخليفة القائم بأمر الله العباسى ، وذلك لمعرفة مدى خطر السلاجقة على البيزنطيين ، بينما كان الفاطميون يعانون كثيرا من الصعاب الداخلية والخارجية [١]، وردا على ذلك استقدم المستنصر بالله كنوز كنيسة القيامة ونفائسها[٢]، مما زاد الأمر سوءاً .

من ناحية أخرى سير الإمبراطور البيزنطى مانويل أسطولا بحريا نحو مصر للتعاون مع أمورى ملك بيت المقدس ، وتوجهت هذه الحملة إلى دمياط فى صفر ٥٦٥هـ/١١٦٩م[٣]، إلا أن صلاح الدين وزير العاضد بالله الفاطمى استنجد بنور الدين محمود ببلاد الشام ، فأجابه إلى طلبه[٤]، لكن الحملة على دمياط لم يكتب لها النجاح حيث اضطر زعماؤها إلى الرحيل عن المدينة بعد حصار دام نحو خمسين يوما ، ولم يستطع البيزنطيون تحقيق أطماعهم فى الاستيلاء على مصر[٥].

---

(١) المقريزى : خطط جـ١ ص ٢٣٥ .

(٢) ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٧ .

(٣) المقريزى : المصدر نفسه جـ١ ص ٣١٥ .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، تحقيق جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٦٠ ، جـ١ ص ١٨١ .

، المقريزى : المصدر نفسه جـ١ ص ٢١٥ .

(٥) حسن حبشى : نور الدين والصليبيون ، دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٤٧ ، ص ١٣٩ .

الفصل الخامس
النظم والحضارة

الفصل الخامس

النظم والحضارة

أولا : نظام الخلافة :-

الخلافة هى نظام الحكم فى الإسلام ، وكان الإمام الأكبر والزعيم الأعلى فى الدولة الإسلامية يلقب بالخليفة لأنه يخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حكم المسلمين والمحافظة على دينهم ، وهو نائب عنه فى تنفيذ الشرائع وأصول الدين والعمل على نشر الإسلام ، وله الولاية العامة والطاعة على رعايا الدولة من المسلمين وغيرهم لاعتقادهم الراسخ بأنه الحاكم الروحى والمذهبى ، فهو المسئول عن الخطب فى الصلوات الجامعة وإمامة الناس فى الصلاة إلى جانب تصريف شئون الدولة الإدارية .

على الرغم من قيام الخلافة بعد وفاة الرسول ﷺ على أساس الشورى والبيعة وإجماع المسلمين ؛ إلا أنها عند الشيعة تعد ركنا أساسيا من أركان الدين ، ومع وجوب أن يلى الخلافة أو الإمامة أحد أفراد بيت النبى ﷺ من نسل على وفاطمة وهو واجب لايلزم معه الرجوع إلى الأمة ، بل وراثية إلى قيام الساعة فالخلافة عندهم هى إمامة الدنيا والدين .

فالإمامة عند الشيعة هى زمام الدين ، ونظام المسلمين وصلاح الدنيا وعز المؤمنين ، وهى أصل الإسلام النامى وفرعه السامى ، والإمام كالشمس الطالعة المجلل بنورها العالم ؛ وهى فى الأفق بحيث لاتنالها الأيدى والأبصار والإمام هو البر والخير والسراج الظاهر والنور الساطع والنجم الهادي[1] ، فكان الإمام هو الزعيم الروحى الدنيوى فيجمع بين الأمور الدينية والمسائل

---

(١) الكلينى : كتاب أصول الكافى فى الأصول والفروع ، فاس ، ١٢٨١هـ، ص٩٦.

السياسية والإدارية ، وهو خزانة الأسرار العليا والقائد الأعلى للجيش وزعيم الأمراء والوزراء والولاة فى كل الأقاليم التابعة للدولة، وله النفوذ الفعلى والتصريف النهائى لأمور الدولة وأوامره نافذة لارجعة فيها ، لايقف فى سبيل تنفيذها رأى ولا مشورة ويتفرد بسلطان العزل والتوليه ، فكانت له السلطة العليا على الوزراء والأمراء والولاة وأصحاب الدواوين وكافة موظفى الحكومة، وله حق الثواب والعقاب ، ولم يقتصر الأمر على العزل لمن تثبت ادانته بل كان يأمر فى كثير من الأحيان بالمصادرة إن امتدت أيديهم للاستيلاء على أراض أو أموال بطريقة غير شرعية ، ومن ناحية أخرى كان يصدر المراسيم بالمكافآت والترقيات إلى الوظائف العليا للدولة ، والناس يعتبرونه قدوة لهم وهاديا إلى الطريق المستقيم ، وكان الخليفة الفاطمى يلقب بسيف الإسلام وناصر الأئمة وكافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين وكاشف الغمة وغياث الأنام[١] .

وقد سار خلفاء الدولة الفاطمية على نهج زعماء الدول السابقة والمعاصرة لهم لتدعيم سلطاتهم السيادية ، ولعل من أهمها الدعاء لهم فى الخطبة ونقش أسمائهم وألقابهم على السكة ، التى تعد من أهم مظاهر السيادة الدعائية والفعلية على كافة رعايا الدولة فى أقاليمها المختلفة ، وفضلا عن ذلك كان الإمام يتولى القضاء وينظر فى المظالم ، أو يولى هذه المناصب الهامة لأهل الثقة والولاء .

بلغت الخلافة فى عهد الأئمة الفاطمية مكانة عالية تكتنفها هالات

---

(١) النعمان : كتاب الهمة فى آداب اتباع الأئمة ، نشر محمد كامل حسين ، دار الفكر العربى ، القاهرة (د. ت) . جـ ٢ ص ٤٣٢ .

من القدسية ، يتجلى ذلك فى انحناء الناس عامة فى حضرة الإمام وتقبيل الأرض بين يديه ، أما الخاصة فكان جل أملهم تقبيل يده أو ردائه ، وهو عندهم شرف عظيم ومنزلة سامية، وقد لعب واضعو النظم والآداب الشيعية دوراً هاما فى تأهيل الناس وحثهم على تقديس الأئمة ، فيقول ابن النعمان[1] : «تعظيم الأئمة صلوات الله عليهم من تعظيم الله عز وجل، وإنما يراد من تعظيمهم طاعته ، وابتغاء مرضاته لاشريك له ، فينبغى لمن واجه الإمام أن يبدأ بالسلام عليه ، ثم يقبل الأرض بين يديه ويعد ذلك تعظيما له وتقربا إلى الله ، ويقول فى السلام عليه قبل انحطاطه لتقبيل الأرض ؛ السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، ويكون ذلك بحيث يراه الإمام ، ولاينحط إلى الأرض لتقبيلها الأ بعد فراغ رد الإمام عليه بالسلام ، ثم إذا قبل الأرض قام ، ثم يستأذن فى الكلام ، فإن أذن له الإمام تكلم ، وإن لم يأذن له انصرف ، وفى جميع الأحوال يجب على الرجل إذا قام بين يدى الإمام يقم قائما معتدلا كقيامه فى الصلاة ، وليرم ببصره إلى الأرض إجلالا وهيبة له وأن يضع يمينه على شماله تحت صدره، ويلزم الصمت إلى أن يسأله الإمام عن حاجته ، وليكن كلامه إذا خاطب الإمام متخافتا ولايرفع صوته عنده ، فقد نهى الله عز وجل عن رفع الأصوات فوق صوت نبيه ... وينبغى أن يكون جميع ما يجرى فى مجلسه منه ومن جلسائه سرا لديهم وأمانة عندهم» .

وقد عمل الفقهاء والخطباء والمشايخ باجتهاد واقتدار على توكيد المكانة

---

(١) النعمان : كتاب الهمة فى آداب اتباع الأئمة ص ٦٠ – ٦١ .

العليا للأئمة حتى اعتقد الناس أن للخلفاء الفاطميين قدسية وقدرات خارقة للعادة لأن الله اصطفاهم من شجرة النبوة فعليهم بالسمع والطاعه ، وهم يتلقون علمهم من الله عن طريق الوحى ، فحكمهم هو العدل والحق ولهم خصوصية عند الله لأنه سبحانه هو الذى أعدهم لتولى شئون الرعية منذ المهد ويحفظهم برعايته ، ويعصمهم من الذنوب ويورثهم علم الانبياء والمرسلين [١] ، وعلى ذلك ليس لكائن من كان أن يعترض على شخص الإمام أو أفعاله ، لأن حكمه قائم على حكم دينى معصوم ، وكل أوامره ونواهيه إنما توحى إليه بأمر من الله عز وجل [٢] ، ويبرر فقهاء الشيعة السجود للأئمة ، بأن سجود الساجد لهم إنما هو إعظاما لله وذلك ليس بمنكر فقد ذكر الله عن أبوى يوسف وإخوته أنهم خروا سجدا له فلم يعب من فعلهم، انما عاب الذين يسجدون للشمس من دون الله فالنهى عن السجود لإله أخر يتخذه الرجل إلهاً معبوداً أما السجود للتعظيم فليس بمنهى عنه [٣] .

ومن ناحية أخرى صار الأئمة فى نظر الخاصة والعامة هم ولاة الله وخزينة علمه ونوره لقول جعفر الصادق : «نحن خزائن علم الله ، ونحن تراجمة وحى الله ، ونحن الحجة البالغة على من دون السماء ، ومن فوق الأرض ، ونحن موضع سر الله فإن لله عز وجل علم لايعلمه إلا هو وعلم علمه ملائكته ورسله ، فما علم ملائكته ورسله فنحن

---

(١) أحمد أمين : ضحى الاسلام جـ ٣ ص ٢٢٠ .

(٢) الكلينى : كتاب أصول الكافى ص ٨٢ .

(٣) النعمان : المجالس والمسايرات المجلد الثانى حـ ٢ ص ٣٧٥ .

نعلمه[١]، والأئمة لم يفعلوا شيئاً ولايفعلونه إلا بعهد من الله عز وجل وأمر منه لايتجاوزونه[٢]، والعصمة تتجلى فى أن من يولد إماما لايمكن أن يقترف إثما قط ، وعلى ذلك كان شرب الخمر غير محرم عليه ، وليس مجبرا أن يصوم أو أن يصلى أو أن يحج ، لأن هذه التكاليف خاصة بالرعية وحدهم، ولو رآه الرعية يشرب الخمر فعليهم أن يتبركوا به لأنه فوق أن يسأل عن علمه ، والتبرك يكون بتقبيل الأرض بين يديه ، وتمريغ الخدود عليها والإكثار من حمد الله وشكره إذ بلغهم إليه وأراهم وجهه[٣].

ويجب أن تكون الرعية على يقين من عصمة الأئمة كلهم أجمعين لأن كل إمام يؤدى إلى الإمام الذى بعده الكتب والعلم والسلاح[٤]وقد وصف الكلينى عصمة الإمام بقوله : «الإمام المطهر من الذنوب والبراء من العيوب المخصوص بالعلم ، معدن القدس والطهاره والنسك والزهاده والعلم والعبادة فهو معصوم مؤيد موفق مسدد ، قد آمن من الخطأ والزلل ، يخصه الله بذلك ليكون حجة على عباده وشاهد على خلقه »[٥].

هكذا استمدت الخلافة الفاطمية شرعيتها من الهالات القدسية ، وصار الإمام هو مستودع العلم الشرعى ، ولإضفاء مزيد من الهيبة فى نفوس الرعية اتخذ الخلفاء الفاطميون الحجاب ، وأقاموا الشرطة لحراستهم

---

(١) الكلينى : أصول الكافى ص ٩١ ص ١٢٣ .
(٢) الكلينى : المصدر نفسه ص ١٣٥ .
(٣) النعمان : المجالس مجلد ٢ ص ٤٧٥ .
(٤) الكلينى : المصدر نفسه ص ١٣٣ .
(٥) الكلينى : المصدر نفسه ص ٩٧ .

واتخذوا المقصورات فى المساجد ، فاذا سجد الإمام قام الحراس على رأسه رافعين السيوف ، ومما تجدر الإشارة اليه أن الحجابة والمقصورة واتخاذ الحرس كان معروفا منذ قيام الخلافة الاموية فى عهد معاوية بن أبى سفيان [١]، ولم تكن بدعة أدخلها الفاطميون .

ومن ناحية أخرى فإن مذهب التفويض الإلهى فى الحكم الذى اعتنقه الفاطميون وأشاعوه بين أتباعهم كان معروفا منذ القدم فنادى فلاسفة الصين بالحق الالهى للملك الذى كان يستمد سلطته من السماء وعلى ذلك لقب بابن السماء وأنه يحكم الإمبراطورية السماوية ، كما قدس الفرس آل ساسان ، أما الفاطميون فقد وجدوا فيها الوسيلة المثلى للتقديس والمهابة فكان المعز لدين الله الفاطمى يقول عن الخلافة الفاطمية : «دولة هى لى قد قلدنى الله أمرها » ، فأساس قيام الخلافة الفاطمية بنى على إختيار إمامها الشرعى جاء من السماء وأنه يحكم الأرض بتفويض من الله سبحانه وتعالى وليس بتفويض من البشر .

ظلت الخلافة مهيبة الجانب طالما وليها خلفاء أقوياء إلاّ أنها تعرضت للضعف والانهيار بعد أن دب النزاع بين أبناء الأسرة الفاطمية على اعتلاء عرشها من جراء تدخل الوزراء والأوصياء فى عزل الخلفاء وتوليهم ، فضلا عن جنوح بعض الخلفاء والانغماس فى الملذات ، فمن ذلك أن الظاهر لإعزاز دين الله كان مستهترا يشرب الخمر والفقاع ويرخص للناس باللهو وسماع الغناء والشراب ، وكذلك كان الآمر بأحكام الله منغمسا فى

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٢٧٧ .

الملذات مجاهرا بالمنكرات مقبلا على الطرب ، وكان الظافر شغوفا باللهو والطرب ، مما حط من هيبة الخلافة وأذهب وقارها [١].

أما ولاية العهد فقد وضعت ضوابطها منذ العهد الأموى ، وسار على ذلك العباسيون والفاطميون ، فأصبح الخليفة يعين ولى عهده ، ويأخذ له البيعة من أشراف الناس وكبار رجال الدولة ، وكان الخليفة القائم قد وضع أسس ولاية العهد التى سار عليها الخلفاء الفاطميون من بعده ، فألزم كل خليفة أن يعين من يخلفه قبل أن يدفن سلفه بيده ، وأن يشهد على هذا التعيين جماع من الثقاة المقربين إليه ، جاء فى زهر المعانى ، أن الخليفة القائم الفاطمى أشهد «جوذرا» أحد المخلصين من أنصار الفاطميين على ذلك ، وقال له «يا جوذر إنه لايحل أن يدفن الإمام الذى قبله ، حتى يقيم حجة لنفسه ، وليس يحل ذلك لى حتى أقيم حجتى ، وقد ارتضيتك لهذه الأمانة دون جميع الخلق ، وتلا عليه قوله سبحانه : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴾ [٢] ، ثم قال : ادن منى ! فلما دنا منه قال : هات يديك! فبسط يده وهو مرعوب بهيبته ، وقال : إنا أخذنا عليك عهد الله وغليظ ميثاقه ، أنك تكتم عنى ما أظهره واكشفه لك ، قال نعم يامولاى صلى الله عليه ! فقال له : ولدى اسماعيل المنصور هو حجتى

---

(١) ابن ميسر : أخبار مصر جـ ٢ ص ٩٣
، أبوالفدا : المختصر جـ ٣ ص ٢٨
(٢) سورة الأحزاب : آية ٧٢ .

وولى عهدى ، فاعرف حقه وقدره ، واكتم أمره وسره ، حتى أظهره فى الوقت الذى يريد الله فيه ظهوره[١] ، فلما دنت منية القائم أظهر جؤذر عهد المنصور للإسماعيلية فدانوا له بالطاعة والولاء . يعتبر تعيين الإمام بالنص أمر مسلم به عند الإسماعيليـة ، فقال المنصور للمعز حين عهد اليه «والله ما أنا آثرتك بما آثرك به ، بل الله آثرك واختصـك وأعطاك واجتباك .... فأما ما خولنى الله من الكرامة ، واصطفانى به من الإمامة ، فإنما هو متاع عندى ، ورعاية فى يدى إلى انقضـاء المدة وتمـام العدة ثم هو لك بحكم الله وأمره وعطائه ، لا عن أمرى وحكمى واختيارى واختصاصى إياك به»[٢] .

وتتجدد البيعة بعد وفاة الخليفة على الملأ فى الجامع ، لم يلزم بعض الخلفاء بتولية العهد لأبنائهم ، إنما كان الخليفة يختار من يشاء ، فمن ذلك أن الحاكم بأمر الله عهد إلى ابن عمه أبى القاسم عبدالرحيم بن الياس بن أحمد بن المهدى بولاية العهد سنة ٤٠٤هـ / ١٠١٣م ، ونقش اسمه على السكة وأمر أن يدعى له على المنابر وذلك على الرغم من وجود ابنه الظاهر لإعزاز دين الله ، وإن كان عبدالرحيم لم يل الخلافة بعد موت الحاكم حيث أجبرته ست الملك على أن يبايع الظاهر والسيف مصلت على رقبته[٣] .

---

(١) الداعى ادريس : زهر المعانى ص ٧٢ .
(٢) النعمان : المجالس والمسايرات جـ ٢ ص ١٥٢ ـ ١٥٣ .
(٣) النويرى : جـ ٦ ص ٥٧ ـ ٥٨ .
O'leary : A short hist., p. 186.

لما ضعفت سلطة الخلفاء ، صار التعيين والعزل بيد أهل الحل والعقد من الوزراء وكبار قادة العسكر كما حدث فى العصر الفاطمى الثانى المعروف بعظم سلطة الوزراء بعد أن صار الخلفاء ألعوبة فى أيدى وزرائهم [(١)] .

مما تجدر الإشارة إليه أن بعض أولياء العهود كانوا يخفون موت الخليفة فى الحالات التى كانت تتعرض لها الخلافة للتهديد والفتن ، فمن ذلك إخفاء الخليفة العزيز بالله موت أبيه المعز لدين الله من الحادى عشر من ربيع الآخر إلى العاشر من ذى الحجة سنة ٣٦٥هـ/٩٧٦م حتى تستقر أمور الدولة، وكان المعز لدين الله نفسه قد أخفى موت أبيه المنصور قبيل قدومه إلى مصر من بلاد المغرب [(٢)] ، واتبعوا فى ذلك مبدأ من المبادئ الهامة للشيعة وهو الستر أو التقية .

اتخذ الخلفاء الفاطميون شعاراً لدولتهم هو لبس البياض ، وذلك لمخالفة العباسيين الذين كان شعارهم السواد ، وإعمالا لقوله ﷺ : « إن من أحب ثيابكم إلى الله البياض فصلوا فيها وكفنوا فيها موتاكم» [(٣)] ، وذلك لتوكيد نسبهم إلى على وفاطمه وأن الرسول ﷺ هو جدهم الكبير والتزم

---

(١) أبوالمحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٧٠ .
(٢) أبوالفدا : المختصر جـ ٢ ص ٨٠ .
، المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ١ ص٩٣ .
(٣) ابن سعد : الطبقات الكبرى ، لجنة نشر الثقافة الإسلامية ، القاهرة ١٩٥٨ ، جـ٢ ص ٢١٢ .

الفاطميون بذلك منذ دخول الصقلى مصر والذى صلى الجمعة بالجامع العتيق وعليه الثياب البيض هو والخطيب [١]، وكذلك التزم الخلفاء الفاطميون بلبس البياض فضلا عن المنديل والطيلسان [٢]، أما فى الأعياد والمواسم فكان لباسهم الثياب البيض الموشحة، فضلا عن الثياب المنسوجة من الحرير المرخوم بالذهب [٣].

لم تقتصر ألبسة الخلفاء الفاطميين على الثياب البيضاء شعار الدولة، وإنما كانوا يرتدون الثياب الخضر المصنوعة من الحرير[٤] توكيدا لنسبهم لآل البيت حيث كان النبى ﷺ يلبس بردين أخضرين[٥]، كما كان الخليفة يرتدى ثيابا من الحرير الأحمر الموشح فى عيد الأضحى لأن الرسول ﷺ كان يرتدى برده الأحمر فى العيدين والجمعة [٦]، وكان الإمام يلبس الجبة والقفطان والقباء ويتشح بالعباءة وقلنسوة طويلة مرصعة بالجواهر[٧].

فى بعض الأحيان كان يُلبس السواد وبخاصة خلال فترات الحداد

---

(١) المقريزى : خطط جـ١ ص١١٤ .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٥١٠ .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٩٤ .

(٤) ابوالمحاسن : المصدر نفسه جـ ٤ ص ٧٤ .

(٥) ابن سعد : الطبقات جـ ٢ ص ٢١٥ .

(٦) ابن سعد : المصدر نفسه جـ ٢ ص ٢١٣ .

(٧) القلقشندى : المصدر نفسه جـ ٣ ص ٥٢٢ .

والحزن على مقتل الخلفاء أو وفاتهم ، فالسواد عند العباسيين[١] كان شعاراً للفرح والسرور ، وعلى النقيض كان عند الفاطميين للحزن والنكد[٢].

شيد الفاطميون مجموعة قصور للسكنى وإدارة شئون الخلافة والتى عرفت بالقصور الزاهرة [٣]، وكان جوهر الصقلى قد وضع أساس مدينة القاهرة شمال شرق مدينة القطائع ثم شرع فى بناء قصر الخلافة ، وألحق به قصرا آخر يطل على حديقة كافور وترك بينهما ميدانا فسيحا ، لاستعراض الجند الذى كان يسع نحو عشرة آلاف جندى ، وعرف هذا الميدان باسم مابين القصرين وكان الخليفة الفاطمى يخرج من قصر الخلافة إلى الميدان عن طريق نفق خاص به ، وكان القصر الخلافى يعرف بالقصر الشرقى الكبير وفيه سكن الخليفة وكرسى رئاسته ، وتحيط به مساكن الأسرة والحاشية وملحق به الدواوين والخزائن والقائمين عليها ، ويعرف القصر الآخر بالقصر الغربى الصغير الذى كان يستخدمه الخليفة فى التنزه على الحديقة ، وكانت أسوار القصور عاليه ويقوم على حراستها نحو خمسمائة حارس وفضلا عن الحراسة الثابتة ، كان هناك حراسة متحركة

---

(١) كان للخليفة يرتدى القباء الأسود ويلبس قلنسوة طويلة سوداء مزينه بالجوهر ، فضلا عن الخاتم والقضيب فى المواكب والأعياد والمواسم ، واتخذ العباسيون السواد شعاراً لان النبى ﷺ عقد لعمه العباس رايه سوداء يومى حنين والفتح.
المسعودى : مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٧٧ ؛

(٢) ابن ميسر : أخبار مصر جـ ٢ ص ٩٤ ؛
أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٢٩٣ .

(٣) المقريزى : خطط جـ ٢ ص ١٧٩ ؛
السيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ص ١٠ .

من اختصاص العسس الذين كانوا يحملون الطبول والبوقات .

اتسمت القصور الزاهرة بالفخامة والأبهة والإتساع من الداخل وقد كسيت جدرانها بالفسيفساء المذهبة والرسوم الملونة ، والديباج الموشى ، والأرضيات بالرخام متعدد الألوان ، أما السقوف فقد رصعت وزخرفت بالزخارف الذهبية وتم بناء نافورة في وسط كل قصر ذات أنابيب من الذهب والفضة، أما حدائق القصور فكانت أية من آيات الجمال والروعة . فالمسطحات مظلله بالأشجار والرياحين والحدائق الغناء ، وتم نثر المناضد الثمينة والزهريات الزخرفية البديعة على جوانب الحدائق [٢] .

كان يلحق بالقصر الخلافى دارا للضيافة ينزل بها السفراء والمبعثون إلى حاضرة الخلافة من قبل الملوك والأمراء المعاصرين من أجل عقد الاتفاقات السياسية والتجارية ، مثل سفارة غليوم رئيس أساقفة صور للبلاد الفاطمية وكان يلى أمر هذه الدار متولى دار الضيافه الذى كان يلقب بالنائب وعرفت وظيفته بالنيابة الشريفة ، وكان يختار من أعيان الأمراء الأكابر وأرباب العلم لأن من مهامه إرشاد الضيف عن تقاليد مقابلة الخليفة والمثول بحضرته فإذا ترك الرسول من باب الفتوح قبل الأرض ثم يسير إلى أن يصل إلى القصر [٣] .

كان قصر الخلافة يضم ديوانا خاصا بالخليفة يماثل الدواوين الملكية أو

---

(٢) زكى حسن : كنوز الفاطميين ، دار الآثار العربية ، القاهرة ١٩٣٧ ، ص ١٦٢ - ١٦٣ .

(٣) المقريزى : خطط جـ ٢ ص ١٠٧ .

O'Leary : A short hist, p107.

الأميرية أو الجمهورية الخاصة بالرئاسة فى الوقت الحاضر ، ويتألف هذا الديوان من طائفة من موظفى القصر لخدمة الخليفة وراحته ومعاونته فى إدارة شئون الخلافة ، فمنهم صاحب المجلس الذى يتولى ترتيب مجلس الخليفة وتحديد أماكن جلوس ووقوف الأمراء والوزراء وكبار رجال الدولة، ومتولى شد التاج وهو الذى يقوم بشد تاج الخليفة بشدة الوقار قبيل خروجه فى المواكب الرسمية ، وخلال الاحتفالات والمهرجانات الشعبية ، ومنهم متولى زمام الأقارب الأشراف الذى يتولى الإشراف على شئون أقارب الخليفة ، ومتولى زمام القصر وهو المشرف العام على شئون القصر وإدارة العاملين بوظائفة المختلفة ، أما صاحب الرسالة فهو المسئول عن حمل أوامر الخليفة وتعليماته المكتوبة فى الرسائل إلى الوزراء والأمراء وأصحاب الدواوين وغيرهم وكان يلقب بالأمير الثقة .

وكانت وظيفة صاحب الباب من الوظائف الهامة فى القصر الخلافى لا يتولاها إلا موظف كبير ، فهو الذى يحجب الناس عن الدخول على الخليفة ويأخذ الإذن من الخليفة لمن يريد مقابلته ، وفى الوقت نفسه كان صاحب الباب بمثابة مستشار الخليفة والأمين على أسراره ، لذلك كان يختار صاحبها من أجل الأمراء ، وكان ينعت بالمعظم وكان له عدد كبير من النواب من الأعيان العدول [١] ، وفضلا عن ذلك كان هناك بعض الرجال الملتصقين بالخليفة بصفة دائمة ، لذلك كانوا يختارون من الثقاة ، وهم حامل المظلة وهى من الوظائف الهامة ويتقلدها أمير كبير لأنه يحمل

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٨٨ .

المظلة فوق رأس الخليفة وذلك فى المجالس والمواكب ؛ وحامل سيف الخليفة الذى كان يحمل سيف الخليفة ويسير على يمين حامل المظلة ، وحامل رمح الخليفة وهو رمح صغير يسير حامله على يسار حامل المظله ، وحملة السلاح أو الركابية الذين يشكلون جناحين على يمين ويسار موكب الخليفة بقيادة اثنى عشر مقدما ، والأساتذة المحنكون لأنهم يتلثمون بعمائهم وتشد على أحناكم ، وهم من أقرب الناس إلى الخليفة ويتمتعون بمكانة جليلة عنده لأنهم الحرس الخاص المحافظون على سلامته أينما حل أو ارتحل وكانت عدتهم نحو الألف ، وكان هناك أيضا حامل الدواة وهى دواة الخليفة التى يسير بها فى المواكب ، وصاحب الدفتر الخاص بجلسات القصر [١] ، ومتولى زم الرجال الذى يقوم بإعداد طعام الخليفة [٢] .

وكان هناك أيضا أرباب القضب الفضية الذين يحملونها فى المواكب والأعياد فتشع منظرا أخاذا مع انعكاس أشعة الشمس عليها ، وهؤلاء كان يحيط بهم مماليكهم اذا كان لكل واحد منهم أربعين مملوكا ، وكان أرباب القضب يرقون إلى أرباب الأطواق أو الأمراء المطوقين حيث كانت تلف أعناقهم بأطواق الذهب ، ويكون فى خدمة كل منهم مائة مملوك[٣] .

وفضلا عن ذلك كان القصر الخلافى يضم صبيان الخاص وهم أبناء

---

(١) ابن ميسر : تاريخ مصر جـ ٢ ص ٩٠ ؛
، القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٨٣ ـ ٤٨٥ ؛
، أبوالمحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٩٥ .
(٢) القلقشندى : المصدر نفسه جـ ٣ ص ٤٨٦ .
(٣) القلقشندى : المصدر نفسه جـ ٣ ص ٥٢٥ .

الأجناد والأمراء ، يسكنون أماكن خاصة ويقومون على خدمة الخليفة ، ومهمتهم الأساسية التدريب على الفروسية ، وكانت عدتهم نحو الخمسمائة[١] ، وصبيان الحجر الذين كان يقيمون فى حجرات منفردة ، لكل حجرة اسم يخصها وجلهم من الشباب الأقوياء ، وبلغت عدتهم نحو الخمسة الآف، وطبيب القصر الخلافى الذى يجلس فى كل يوم عند باب الإيوان لعلاج الخليفة وأسرته ، وكان يعاونه ثلاثة أطباء لمعالجة موظفى القصر وخدامه ، وفى أغلب الأحيان كان الطبيب يُختار من أهل الذمة لبراعتهم فى هذا المجال ، فمنهم موسى بن العازار طبيب المعز لدين الله ؛ وأبوالفتح سهل بن مقشر طبيب العزيز بالله وابنه الحاكم بأمر الله ، وإسحق ابن إبراهيم بن نسطاس طبيب الحاكم الذى جلس مكان ابن مقشر بعد وفاته [٣].

كذلك كان القصر يضم قراء الحضرة وكان عددهم يبلغ نحو عشرة قراء يقرأون القرآن الكريم فى مجلس الخليفة ، وخلال خروجه فى المواكب والمناسبات والأعياد ، وكانوا يختارون من الآيات مايبعث فى نفوس الخلفاء والوزراء السرور والافتخار ، فلما ولى بدر الجمالى الوزارة قرأوا : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [٤]، ولما

---

(١) ابن ميسر : أخبار مصر جـ ٢ ص ٩٠ .
(٢) المقريزى : خطط جـ ٢ ص ٢٤٤ .
(٣) ابن ابى اصيبعة : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٨٧ ، جـ ٢ ص ٨٩ .
أحمد أمين : ظهر الإسلام ص ٢٠٣ .
(٤) سورة آل عمران آية ١٢٣ .

ولى رضوان بن ولخشى الوزارة قرأوا له : ﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴾ (١).

وكان هناك أيضا الشعراء اللذين كانوا يمدحون الخلفاء والوزراء والأمراء ويغالون فى ذلك إلى أبعد الحدود ، ومن أهم الشعراء الشاعر الأندلسى ابن هانئ الذى نظم فى شعره عقائد المذهب الإسماعيلى وبالغ فى مدح المعز لدين الله والخلافة الفاطمية فقال :

ماشئت لا ماشاءت الأقدار .·. فاحكم فأنت الواحد القهار(٢)

ولقد ملك الفاطميون قلوب الشعراء وأغدقوا عليهم حتى صاروا شيعة مخلصين فمنهم عمارة بن أبى الحسن على بن زيدان اليمنى ت٥٦٩هـ/١١٧٤م الذى نظم قصيدة فى رثاء الدولة الفاطمية بعد زوالها كانت سببًا فى شنقة وصلبه مطلعها :

رميت يادهر كف المجد بالشلل .·. وجيده بعد حسن الحلى بالعطل(٣)

وكانت القصور تعج بالجوارى والخدم حتى بلغوا حد الآلاف وهم الذين جلبهم التجار من النوبه والحبشة والسودان والتركستان ، ويذكر ابن إياس أن قصر الحاكم بأمر الله كان يضم أربعة آلاف جارية ما بين بيضاء وسوداء ومولده (٤).

---

(١) سورة التوبة : آية ٢١؛ القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٩٧ .

(٢) شوقى ضيف : البحث الأدبى ، ص ٥٨ .

(٣) القلقشندى : المصدر نفسه جـ ٣ ص ٥٣٠ .

(٤) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ٥٨ .

ولما استولى صلاح الدين على قصر الخليفة العاضد وجد به اثنا عشر ألف جارية [(١)]، وقد اهتم الخلفاء بتعليم الجوارى ، ومنهن من أحرزت مكانة طيبة عند المستنصر بالله ، فعندما خطب البساسيرى فى بغداد للخليفة، قالت منشدة :ـ

يابنى العباس صُدُّوا ∴ ملــك الأمر معدٌ

مُلككم ملك مُعــار ∴ والعــوارى تُسترد

فسر الخليفة المستنصر بالله بقولها ووهب لها قطعة أرض من متنزهات القاهرة عرفت بأرض الطبالة[(٢)] .

كان الخليفة يجلس على عرش الخلافة أو سرير الملك المصنوع من الذهب وعليه مرتبة مذهبة بصدر الإيوان الكبير بالقصر الشرقى ، ويضع على رأسه التاج الشريف وهو تاج الخلافة المرصع بالدرر والياقوت ويمسك بيده القضيب المذهب الذى يبلغ طوله شبر ونصف ، وقد زين بالدرر والجواهر[(٣)]، وظل الحال على ذلك حتى تم نقل سرير الملك من الإيوان الكبير إلى قاعة الذهب بالقصر فى عهد الخليفة الآمر بأحكام الله الذى ولى الخلافة سنة ٤٩٥هـ / ١١٠١م ، وصار الإيوان الكبير خزانة للسلاح وقد تم تجهيز قاعة الذهب بالمنبر والتخت والكرسى ليجلس الخليفة مرتفعا عن رعيته [(٤)].

---

(١) أبوالفدا : المختصر فى أخبار البشر ، جـ ١ ص ١٥١ .
(٢) حسن إبراهيم : الدولة الفاطمية ص٦٢٧ .
(٣) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٧٢ .
(٤) المقريزى : خطط جـ ١ ص٣٨٥ ، ٣٨٦ .
ابن ميسر : أخبار مصر جـ ٢ ص ٥٣ .

اتخذ الخلفاء الفاطميون المظلة وهى عبارة عن قبة على هيئة خيمة على رأس عمود يحملها موظف كبير ، وذلك لمكانها الجليل حيث أنها بعلو رأس الخليفة ، وكانت توضع على الديباج أو الخز الموشى بالذهب والمرصع بالجوهر ، وكان لونها يتغير تبعا للون ثياب الخليفة فمنها الأبيض والأحمر والأخضر ارتباطاً بالمناسبات والأعياد المختلفة (١) .

ولما كانت رايات الخلافة وألويتها بيضاء شعار الفاطميين ، لذلك كانت تسمى بالمبيضة ، وكانت المبيضة تزين بالعبارات الدينية والآيات القرآنية الخاصة بالانتصار ، ومنها «نصر من الله وفتح قريب» ، ومن مظاهر السيادة ضرب الأبواق عند ظهور الخليفة ، وكان البوق عبارة عن قرن معوج الرأس يتخذ من الذهب ويسمى بالغربية (٢) ، ومنها أيضا اتخاذ الدواة من الذهب والتى يحملها حامل الدواة بعد لفها فى منديل من الحرير الأبيض، فضلا عن الرمح المرصع بالذهب واللؤلؤ وكان يحمله حامل الرمح ، أما فرس الخليفة فكان يتميز بياقوته حمراء كبير فى شكل هلال تخاط على خرقة من الحرير تثبت على رأس الفرس وتسمى بالحافر (٣) .

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٩٤ .
القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٥١٢ - ٥١٣ .
(٢) القلقشندى : المصدر نفسه جـ ٣ ص ٤٧٣ .
ابن خلدون : المقدمة ص ٢٢٥ .
آدم متز : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة ، القاهرة ١٩٤١ ، جـ ٢ ص ٢٨٨
(٣) القلقشندى : المصدر نفسه جـ ٣ ص ٤٧٣ - ٤٧٤ .

لما كانت النقود تعد من أهم مظاهر السيادة والدعاء والدعاية للخلفاء لاتساع مجال تداولها والتعامل بها بين الناس[١]، لذلك أمر جوهر الصقلى فاتح مصر باصدار الدينار الفاطمى الذى يحمل اسم ولقب الخليفة المعز لدين الله والذى يعد طرازا جديدا مبتكرا ، أحدث تغييرا جذريا فى طرز النقود المتداولة فى مصر والعالم الإسلامى ، المعروفة منذ قيام الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان بتعريب السكة وإصدار النقود الإسلامية سنة ٧٧هـ/ ٦٩٦م.

لا شك أن إصدار الطرز الفاطمية الجديدة إنما هو بمثابة الإعلان عن مولد تلك الدولة الفتية فى مواجهة الخلافتين العباسية فى العراق، والأموية فى الأندلس ، والتوكيد على الهوية الفاطمية الشيعية ، بعد أن استقرت دعائم الدولة .

يتألف الدينار[٢] من دائرة صغيرة تتوسط مركز الدينار يحيط بها ثلاثة هوامش فى كل من الوجه والظهر ، تظهر عليها العبارات الدينية والكتابية المذهبية فضلا عن مظاهر السيادة والسلطة على النحو التالى :

الوجه

المركز : دائرة صغيرة تحدد المركز وتتوسطه

الهامش الداخلى : لا اله الا الله محمد رسول الله

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ١ ص١١٦ .

(٢) متحف الفن الإسلامى بالقاهرة ، الرقم بالسجل ١٨٣٧٢ .
ويتميز هذا الدينار بجودة عياره ٢٣٫٥ قيراط ، ولقل وزنه ٤٫٠٩ جرام.

الهامش الأوسط : على أفضل الوصيين ووزير خير المرسلين
الهامش الخارجى : محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون .

الظهر

المركز : دائرة صغيرة تحدد المركز وتتوسطه

الهامش الداخلى : المعز لدين الله أمير المؤمنين

الهامش الأوسط : دعا الإمام معد لتوحيد الاله الصمد

الهامش الخارجى : بسم الله ضرب هذا الدنير بمصر سنة تسع وخمسين وثلثمائة

يتجلى من الكتابات المنقوشة على الوجه شهادة التوحيد والرسالة المحمدية فى الهامش الداخلى ، والتوكيد على أحقية الشيعة فى خلافة العالم الإسلامى فى كتابات الهامش الأوسط ، طبقًا لاعتقاد أئمة الشيعة، من أن الرسول ﷺ قد أوصى بها للإمام على بن أبى طالب فى غدير خُم يوم ١٨ من ذى الحجة فى السنة العاشرة بعد العودة من حجة الوداع، أما الهامش الخارجى فيتضمن اقتباسا من سورة الفتح أو الصف.

أما كتابات الظهر ففيها الهامش الداخلى الذى يتضمن لقب الخليفة «المعز لدين الله» ، مصحوبًا بلقب أمير المؤمنين ، أى زعيمهم الروحى الأعلى ، وإضافة هذا اللقب إنما يعلن عن خطط الفاطميين المستقبلية التى تهدف إلى السيطرة على العالم الإسلامى والقضاء على سلطة العباسيين والأمويين ، والإنفراد بإمرة المؤمنين ، كما يعبر عن خططهم التوسعية بالحرب والقتال لأن أمير المؤمنين يعنى الإمامة فى الصلاة ، والقيادة العليا فى الحرب .

أما الهامش الأوسط فيتضمن كتابات تؤكد على إمامة[١] الخليفة الفاطمى امتداداً لإمامة الجد الأعلى للشيعة الإمام على بن أبى طالب ، فضلاً عن جهودهم فى سبيل الدعوة لتوحيد الاله الصمد ودوره فى إرساء دعائم الدولة الفاطمية وتوكيد دعائم دعوتهم .

أما الهامش الخارجى فيبدأ بالبسملة ، ويعين نوع العملة ومكان وتاريخ الضرب .

ولا شك أن استخدام العبارات الدينية والمذهبية على النقود الفاطمية كان له أبلغ الأثر فى الدعاية للمذهب الشيعى ، لأن النقود هى الوسيلة الإعلامية الأكثرانتشاراً لتداولها بأيدى الناس ، فضلاً عن توكيد سيادة واستقلال وقوة الدولة الفاطمية .

---

(١) الإمام : لم يكن الفاطميين أول من استخدم لقب الإمام على نقودهم ، بل سبقهم فى ذلك بعض ولاة الخليفة المأمون العباسى ، الذى لم ينه عن ذلك لميله إلى العلويين ، فقام بتعيين على الرضا (الإمام الثامن عند طائفة الإمامية الاثنا عشرية) وليّا لعهده وذلك لأن أم المأمون وأخواله كانوا من الفرس ، الذين يتمسكون بإعادة المجد الساسانى ، وقد وجدوا ضالتهم فى زواج الحسين بن على بن أبى طالب من شهربانو ـ ابنة يزدجرد آخر أكاسرة الفرس ـ وهو ما يفسر تعاطف الفرس مع العلويين.

دينار فاطمى ضرب مصر سنة ٣٥٩هـ(١)



الوجـــه



الظهـــر

(١) متحف الفن الإسلامى بالقاهرة رقم السجل ١٨٣٧٢

ثانيًا :نظام الوزارة :

لم يعرف نظام الوزارة[١] فى مصر قبل عهد الإخشيديين ، الذين قاموا بتولية جعفر بن الفرات وتلقب بالوزير وخوطب بهذا اللقب ، وصارت له مكانة عالية بين أصحاب الدواوين، وعين له حرس خاص يقفون بين يديه ويتحركون بتحركاته أينما حل أو ارتحل ، وكان كافور الإخشيدى قد جعله مقدما على جميع القواد[٢]، وكان حكام مصر قبل العهد الإخشيدى يتخذون كتابا يضطلعون بمهام الوزراء دون تلقيبهم بذلك[٣]، مثال ذلك أحمد بن محمد الواسطى ، الذى اتخذه أحمد بن طولون كاتبا يدير له شئون الدولة ويتولى عمل الوزير [٤].

لما فتح جوهر الصقلى مصر سنة ٣٥٨هـ/٩٦٨م، لم يخاطب جعفر

---

(١) الوزارة : لفظ مشتق من الوَزَر أى المعونة والمؤازرة ، فطلب موسى عليه السلام من رب العزة معونة أخيه كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴾ سورة طه ٢٩ ـ ٣٢ ، تعد الوزارة من المهام الخطيرة لشئون الحكم ؛ ولو كان السلطان يستغنى عن الوزير ، لكان أحق الناس بذلك كليم الله موسى بن عمران عليه السلام ، فالوزير بالنسبة للمملكة كموضع العينين من الرأس . الأبشيهى : (المستطرف ص١١٢ ، وقيل أنها كلمة مشتقة من الأوزار أى الأمتعة كما جاء فى قوله تعالى : ﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ﴾ سورة طه ٨٧ ، ومن الوِزر أى الثقل لأن الوزير يحمل أعباء الحكومة قال تعالى : ﴿ حتى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ سورة محمد ٤.

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة جـ٢ ص١١٦ .

(٣) ابن خلدون : المقدمة ص٢٠٦ .

(٤) القلقشندى : صبح الأعشى جـ٣ ص٢٧٧ .

ابن الفرات بلقب وزير[(١)] لأنه لم يلقب أحد من رجال الدولة الفاطمية بهذا اللقب فى المغرب ، إنما كان يتولى مهام الوزارة الخلفاء أنفسهم أو أولياء العهود ، ورغم ذلك أقر جوهر الصقلى أبا جعفر بن الفرات فى منصبه حتى يضمن استقرار الدولة ، لخبرة أبى جعفر بإدارة شئون البلاد ، وليأتلف قلوب رعايا الدولة ، إلا أنه عين له خادما يلازمه لخدمته ومراقبته فصار بذلك عينا عليه[(٢)].

لما أيقن الفاطميون بضرورة تعيين أحد كبار رجال الدولة ليكون عونا لهم على ضبط أمور الدولة وتسيير أمورها ، لذلك اتخذ المعز لدين الله أبا الفرج يعقوب بن يوسف بن كلس وزيراً ، وعهد إليه بكافة أمور الدولة ، وجعل عسلوج بن الحسن معاونا له ، وعهد إليهما بالخراج والحسبة والأحباس والمواريث والشرطة وكتب لهما سجلا بذلك ، بينما اتخذ جعفر ابن الفرات مستشاراً له[(٣)].

كان يعقوب بن كلس[(٤)] أول وزير للدولة الفاطمية فى مصر يقضى

---

(١) ابن خلكان : وفيات جـ١ ص١١٩ .

(٢) المقريزى : اتعاظ جـ١ ص١١٩ .

(٣) ابن منجب : الإشارة ص٢٥ ـ ٢٦
، المقريزى : خطط جـ١ ص٣٢٩ .

(٤) كان يعقوب بن كلس يهوديا ثم أظهر إسلامه سنة ٣٥٠هـ/٩٦١م ، فخلع عليه كافور وعلت مرتبته عنده ، ولما رأى المعز لدين الله من شدة إخلاصه وتفانيه فى خدمة الفاطميين اتخذه وزيرا ، وكان يعقوب قد وثق أواصر الصداقة مع الوزير المخلوع جعفر بن الفرات بزواج ابنته من جعفر بن الفرات ، انظر ابن منجب : الإشارة ص٢٥ ـ ٢٦ ، المقريزى : خطط جـ١ ص٣٦٣ .

باسمه فى شئون الدولة وكانت المكاتبات توقع بالعبارة : « يعقوب بن كلس وزير أمير المؤمنين »[1] . وهذا التوقيع ينفـى ما جاء عند السيوطى من أن العـزيز بالله هو أول من اتخـذ الوزراء بتـعـيين ابن كلس وزيرا سنة ٣٦٨هـ/٩٧٨م[2] ، فالواقع أن ابن كلس استمر وزيرا للعزيز بالله بعد وفاة المعز لدين الله ، فيبدو أن الأمر قد التبس على السيوطى لأن العزيز بالله أمر أن تكون جميع المكاتبات الرسمية للدولة باسم ابن كلس[3] .

تنوعت الوزارة فى العصر الفاطمى إلى وزارة تفويض يليها وزراء أقوياء أهل ثقة وولاء للخلفاء ، ووزارة تنفيذ يليها وزراء ضعفاء لا حول لهم ولا قوة ففى وزارة التفويض يعهد الخلفاء إلى وزرائهم بتصريف شئون الدولة دون الرجوع إليهم ، وفى هذه الحالة يعتبر الوزير بمثابة نائب الخليفة يتولى تعيين القضاة ، ونواب البلاد ، وتجهيز الجيوش وتوزيع العطاء والأرزاق فله : « البسط والقبض ، والرفع والخفض ، والإبراء والنقض ، والقطع والوصل ، والولاية والعزل ، والتصرف والصرف ، والإمضاء والوقف »[4] ، ومهما يكن من أمر فقد اشترط فى الوزير أن يتحلى بجملة صفات لعل من أهمها ، أن يكون وسيطا بين الملك ورعيته ، وعلى ذلك يجب أن يكون فى طبعه شطر يناسب طباع الملوك ، وشطر يناسب طباع العوام يعامل كلا من الفريقين بما

---

(١) النويرى : نهاية الأرب جـ٢٦ ص٤٨
، ابن ظافر : أخبار الدولة المنقطعة ص٤٩ .
(٢) السيوطى : حسن المحاضرة جـ٢ ص١٢٩ .
(٣) ابن خلدون : العبر جـ٤ ص٥٥ .
(٤) السيوطى : المصدر نفسه جـ٢ ص١٢٣ .

يوجب له القبول والمحبة ، والأمانة والصدق رأس ماله ، والفطنة والتيقظ والدهاء والحزم ولا يستغنى أن يكون مفضالا مطعاما ليستميل بذلك الأعناق وليكون مشكورا بكل لسان ، فضلا عن الرفق والأناة والتثبت فى الأمور والحلم والوقار [١].

ولقد درس الماوردى [٢] أنواع الوزارة فى أرجاء العالم الإسلامى ، وانتهى إلى وضع ضوابط محكمة وفروق محددة بين وزارتى التفويض والتنفيذ، وقد أوضح ذلك بقوله : « يجوز لوزير التفويض مباشرة الحكم والنظر فى المظالم وليس ذلك لوزير التنفيذ ، وأنه يجوز لوزير التفويض أن ينفرد بتسيير الجيوش وتدبير الحروب وليس ذلك لوزير التنفيذ ، وأنه يجوز لوزير التفويض أن يتصرف فى أمور بيت المال بقبض ما يستحق له ويدفع ما يجب فيه ، وليس ذلك لوزير التنفيذ » ، ومن ذلك يتجلى الفرق الواضح والبون الشاسع بين السلطات الواسعة التى يتمتع بها وزراء التفويض ، والسلطات المحدودة لوزراء التنفيذ الذين ليس لهم الحق فى الاستقلال بالأمور ، ومن ناحية أخرى فرق القلقشندى [٣] بين وزراء السيف ووزراء القلم ، فكان صاحب السيف من جملة الأمراء القائمين فى مجلس السلطان لأنه من الوزراء الحربيين ، بينما يجلس وزير القلم مع أرباب الأقلام لأنه منهم [٤] ، وتطبيقا على ذلك

---

(١) ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية ص١٣٦ - ١٣٧ .

(٢) الماوردى : الأحكام السلطانية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، د. ت . ص٢٦ .

(٣) من أشهر وزراء القلم اليازورى والتسترى وعلى بن القلاع ، ومن أرباب السيوف برجوان والحسين بن جوهر وغيرهم ، القلقشندى : صبح الأعشى جـ٣ ص٤٨٩ - ٤٩٠ .

(٤) القلقشندى : المصدر نفسه جـ١١ ص١٤٩ .

يعتبر يعقوب بن كلس أول الوزراء من أرباب الأقلام (المدنيين) ، ويعد المغربى وزير المستنصر بالله آخرهم ، بينما كان بدر الجمالى أول الوزراء من أرباب السيوف (العسكريين) الذى وزر للمستنصر بالله سنة ٤٦٧هـ/١٠٧٤م ، ويعد صلاح الدين الأيوبى وزير العاضد آخرهم [١].

فمنذ أواخر عهد المستنصر وتحديدا سنة ٤٦٧هـ/١٠٧٤م ، صارت الوزارة تقتصر على العسكريين (رجال السيف) ، وكان أولهم القائد الكبير بدر الجمالى والذى نعت بالسيد الأجل أمير الجيوش [٢]، وصارت الوزارة منذئذ وزارة تفويض يستأثر صاحبها بكل السلطات ، وصار لقب أمير الجيوش يتضمن معنى غير معلن هو الذى يسلب الخلافة كل سلطاتها ، ولم يبق للخلفاء سوى المظاهر الرسمية فقط .

لما توفى بدر الجمالى خلفه ابنه فى هذا المنصب وهو الأفضل شاهنشاه وتلقب بنفس ألقابه ، لكن جاء من بعده وزراء طغاة استغلوا ضعف الخلفاء وتلقبوا بألقاب الملوك[٣] ، فتلقب طلائع بن رُزِّيك وزير الحافظ لدين الله بالملك الصالح ، وابن السَّلار بالملك العادل ، وشيركوه بالملك المنصور، وصلاح الدين يوسف بن أيوب وزير العاضد بالملك الناصر.

كان وزير السيف هو مرجع كل السلطات العسكرية والإدارية

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ٣ ص٤٨٩ .

(٢) المقريزى : الخطط ، جـ١ ص ٤٠١ .

(٣) يرى د. حمدى المناوى أن نعت الوزراء بالملك كان من الألقاب التى عرف بها الوزراء منذ بدر الجمالى حتى ولو لم ينص عليها فى ألقابهم الرسمية .
انظر الوزارة والوزراء فى العصر الفاطمى ، دار المعارف بمصر ، ص٧٠ .

والقضائية وإليه أمر الحرب والسلم ، ومن سلطانه تولية قاضى القضاة وداعى الدعاة بعد أن كانت مقتصرة على الخليفة ، وفضلا عن ذلك كان يتصرف فى كل شئون الدولة العسكرية والمدنية[1]، هكذا خضعت الدولة لسلطان أولئك الوزراء زهاء قرن من الزمان منذ بدر الجمالى وحتى صلاح الدين بالوزارة [٤٦٦ - ٥٦٧هـ] .

وكان الوزير العسكرى يلقب بأمير الجيوش حيث يرجع إليه فى كافة الأمور فى وقتى السلم والحرب وجميع شئون الدولة المدنية والعسكرية وقد تلقب به بدر الجمالى ، كما كان يلقب بقائد القواد مثل الوزير الحسين ابن جوهر [2]. ولا شك أن تدخل العسكريين فى شئون الدولة المدنية فضلا عن مهامهم العسكرية قد أضر بالبلاد وأضاع هيبة الخلفاء فتحول تدبير الأمر إلى أيديهم وأصبح بأيديهم خصوصية من أهم مظاهر السلطة وهى تعيين الخلفاء وعزلهم بعد أن كان بقاء الوزير فى منصبه رهنا لرضى الخليفة .

مما تجدر الإشارة إليه أن الخلفاء الفاطميين قاموا بتعيين وزراء من أهل الذمة مع بقائهم على ملتهم ، إلا أن المسلمين أظهروا استياءهم من تولية أمور رعايا دولة إسلامية لرجل من غير المسلمين ، وذلك لأن من رسوم هذا المنصب صعود الوزير مع الإمام المنبر ليزرر عليه المزرة (الستارة) الحاجبة له عن الرعية ، ولتعرض المسلمين للطغيان والاضطهاد من قبل هؤلاء

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ٣ ص ٢٨٢ - ٢٨٣ .

(٢) أبو الفدا : المختصر جـ٢ ص٢٣١ .

الوزراء الذين دأبوا على محاباة بنى جلدتهم وإيثارهم بالمناصب العليا فى الدولة[١]، إلاّ أن الخلفاء الفاطميين قاموا بتعيين وزراء من أهل الذمة طوال العصر الفاطمى بمصر ، فمنهم يعقوب بن كلس الذى كان يهوديا وأسلم وقد وزر للمعز لدين الله والعزيز بالله وظل وزيرا حتى وفاته سنة ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م ، وكان لمكانته أن سار الخليفة العزيز بالله فى جنازته وصلى عليه وألحده بيديه فى قبره فضلا عن دفنه فى قبة بدار الخليفة كان قد بناها لنفسه[٢] ، ثم عهد العزيز بالله بالوزارة لعيسى بن نسطورس النصراني[٣] ، وكان فهد بن إبراهيم النصرانى وزيرا للحاكم بأمر الله ولقب بالرئيس ، وقيل أنه كان آفة على المسلمين وعدة للنصارى ، كما تقلد الوزارة أبو نصر بن عبدون النصرانى فى عهد الحاكم بأمر الله سنة ٤٠٠هـ/ ١٠٠٩م، وتولاها زرعة بن نسطورس النصرانى (أخو عيسى بن نسطورس) ، خلال حكم الخليفة نفسه ، وفى عهد الخليفة المستنصر بالله تولى الوزارة أبو سعد منصور بن أبى اليمن سورس بن مكروان بن زنبور الذى كان نصرانيا وأسلم ، كما وليها أبو سعيد التسترى وكان يهوديا وأسلم أيضًا فى عهد المستنصر بالله ، ومنهم أيضًا أبو نجاح بن قنا النصرانى الراهب فى عهد الخليفة الآمر بأحكام الله[٤]، ووليها بهرام

---

(١) ابن ميسر : أخبار مصر جـ٢ ص٧٩ .

(٢) ابن منجب : الإشارة ص٢١ .

(٣) ابن خلدون : العبر جـ٤ ص٥٥ .

(٤) ابن ميسر : المصدر نفسه جـ٢ ص٧١ .

الأرمنى النصرانى سنة ٥٢٩هـ/١١٣٤م للحافظ لدين الله ، ولما توفى حزن عليه الخليفة حزنا شديدا وأخرجه فى تابوت عليه الديباج وحوله المبخرون يبخرون باللبان والعود ، وخرج وراءه الأعيان وكبار رجال الدولة لم يتأخر منهم أحد والقساوسة يقرأون الإنجيل[1].

لا شك أن تعيين وزراء من أهل الذمة إنما يعبر بوضوح عن سماحة الإسلام الذى لم يفرق بين رعايا الدولة أيا كانت ملتهم ومعتقداتهم ، إلا أن المبالغة فى استخدامهم بمعرفة خلفاء العصر الفاطمى ، قد أضر ضرراً بالغا بالعلاقات بين الناس وجر إلى الدولة المشاكل الكثيرة ، وأيقظ الفتن النائمة والأحقاد البغيضة ، وذلك لأن بعض الوزراء أظهروا المحاباة لبنى ملتهم، فولوهم المناصب الكبيرة فى الدولة على حساب الأغلبية العظمى من المسلمين . مما أدى إلى بث شعور الكراهية والبغض بين أصحاب الديانات المختلفة ، ومما زاد الأمر سوءا أن بعض الوزراء أغدقوا الأموال على الكنائس وأوقفوا قسما كبيرا من الأراضى الخصبة على الأديرة .

فلما ضاقت الأحوال بالناس جهروا بشكاياتهم ، فمن ذلك تلك المرأة التى اعترضت طريق الخليفة العزيز بالله بشكاية فيها : « يا مولاى بالذى أعز النصارى بعيسى بن نسطورس ، واليهود بمنشا بن إبراهيم القزاز وأذل المسلمين بك ألا نظرت فى أمرى » ، وهذه الصورة إنما تعبر عن الضجر الذى كان يعانى منه الناس فى ظل وزير طاغية هو عيسى بن نسطورس ،

---

(١) ابن ميسر : أخبار مصر جـ٢ ص٨٤
، أبو المحاسن : النجوم جـ٤ ص١٥٨ .

ووالى متجبر فى بلاد الشام هو منشا اليهودى ، وذلك لأن كلاهما مال إلى أهل ملته ، وقلدهم الأعمال والدواوين والوظائف القيادية والإشرافية ومنع المسلمين منها ، وجعلهم تحت سطوة اليهود والنصارى بعد أن عزل الكتبة وجباة الضرائب المسلمين[1] ، وليس أدل على الضغائن الدفينة فى قلوب أولئك المسئولين من أهل الذمة من قول عيسى بن نسطورس لما عوتب على ذلك « إن شريعتنا متقدمة ، والدولة كانت لنا ثم صارت إليكم ، فجرتم علينا بالجزية والذلة ... فماذا تتوقعون أن نصنع بكم ؟ »[2] .

وقد عبر الشاعر الحسن بن بشر الدمشقى عن الحال فى عهد العزيز بالله واستوزاره أهل الذمة بقوله :

تنصر فالتنصر دين حق ∴ عليه زماننا هذا يدل[3]

كما عبر الشاعر الرضى بن البواب عن عسف أبى سعد التسترى اليهودى بالمسلمين ونعى أهل ملته فى الأبيات الآتية :-

يهود هذا الزمان قد بلغوا ∴ غاية آمالهم وقد ملكوا

العز فيهم والمال عندهم ∴ ومنهم المستشار والملك

يا أهل مصر إنى نصحت لكم ∴ تهودوا قد تهود الفلك[4]

---

(١) ابن منجب : الإشارة ص٢١ .
(٢) النويرى : نهاية الأرب جـ٢٦ ص٥٠ .
(٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ جـ٩ ص ٤٣ .
(٤) أبو المحاسن : النجوم جـ٥ ص١٩ .

ومن ناحية أخرى لم يبق أبو نجاح بن قنا النصرانى الراهب أحد من المسلمين أيام الآمر بأحكام الله إلا ناله من مكروه من ضرب أو عزل أو نهب أموال [١] ، ولم يكتف الأحزم بن زكريا النصرانى بما فعله أسلافه من أهل الذمة بل قام هو ورجاله بركوب البغلات المسرجة والخيول المطهمة والحلاة بالسروج واللجم الثقيلة ومطاردة الناس فى الأسواق والمتاجر ، والاستيلاء على أموالهم بغير حق فضلا عن الاستيلاء على الأحباس الدينية والأوقاف الشرعية ،واتخاذ العبيد والمماليك والجوارى من المسلمين والمسلمات [٢]، واكتفى أوليرى بالتعبير عن ذلك الوضع المأساوى بقوله « إن الفاطميين بالغوا فى استخدام أهل الذمة فى المناصب المدنية أكثر مما جرت به العادة من قبل !! »[٣].

لما اشتد عسف الوزراء من أهل الذمة بالمسلمين ، تصدى لهم الخلفاء فأمر الحاكم بأمر الله بضرب عنق زرعة بن نسطوروس لما استجار الناس به من سوء فعله[٤] ، وكذلك كان مصير أبى نجاح بن قنا النصرانى الذى استباح الحرمات والأموال وظلم الناس واستولى على مقدراتهم [٥]، ومما تقدم يتبين أن ما اتهم به بعض الخلفاء الفاطميين من التعصب الدينى هو باطل ودسائس أقحمها بعض المؤرخين المتعصبين ، فلم يفرق الخليفة الفاطمى فى دولته بين المسلم والنصرانى واليهودى ، بل كانت الوظائف

---

(١) النويرى : نهاية الأرب جـ٢٦ ص٨٧ .

(٢) المقريزى : خطط جـ٢ ص ٢٥٠ .

(3) O'Leary , A Short Hist. F. P. 114 .

(٤) ابن إياس : بدائع الزهور ، جـ١ ص٤٨ ـ ٤٩ .

(٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٤ ص١١٥ ـ ١١٦ .

العليا حقا للجميع طالما التزم كل منهم بأداء واجباته ، وتوخى الحكم بالعدل وابتعد عن الجور والظلم ، ولم يصدر أى مرسوم بشأن أهل الذمة إلا من أجل الإصلاح وسيادة القانون، وذلك حتى يعيش رعايا الدولة فى أمان وطمأنينة .

كان من أهم الوزراء على بن أحمد الجَرْجَرائى فخر الأمة ، صفى أمير المؤمنين ولى الوزارة فى عهد الظاهر واستمر بعده ، كان مقطوع اليدين من المرفقين ، عراقى الأصل ، فاطمى المذهب موطنه قرية جرجرايا بسواد العراق وهو الذى أخذ البيعة للمستنصر سنة ٤١٨هـ/ ١٠٢٧م بولاية العهد وقد توفى سنة ٤٢٦هـ/١٠٣٤م .

أما صدقة بن يوسف الفلاحى فخر الملك فكان يهوديا ثم أسلم ، ولى النظارة فى الشام لكنه فرمن أمير الجيوش (أنوشتكين الدرزى) وقدم إلى القاهرة واستجار بالجَرْجَرَائى ، فأشار على الخليفة بتوزيره ودخل الوزارة سنة ٤٣٦هـ/١٠٤٤م، فى وقت سيطرة « التُسْتَرى » على أمور البلاد فأغرى الجند الأتراك بقتل التسترى ، لكن مؤامرته كشفت وقتل سنة ٤٤٠هـ/١٠٤٨م[١]، وكان التسترى يلى أمر (ديوان أم الخليفة)[٢] .

كان الحسين بن محمد الجرجرائى عماد الدولة ابن أخى على الجرجرائى خلف الفلاحى فى الوزارة وكان سيء السيرة ، ازدادت فى عهده المصادرات والنفى والتشريد ، وكثر ذم الناس له ، حاول إقصاء اليَازُورى الذى حل محل التسترى فى ديوان أم الخليفة بأن عرض عليه منصب

(١) ابن منجب : الإشارة ص ٩١ .

(٢) ابن منجب : المصدر نفسه ص ٧١ .

قاضي القضاة لكنه فشل ، أقصاه الخليفة ونفاه إلى الشام ٤٤١هـ/ ١٠٤٩م، ثم أفرج عنه فذهب إلى دمشق[١] .

مما تجدر الإشارة إليه أن الوزارة قد وليها وزراء من أهل السنة على الرغم من أن المذهب الرسمي للدولة هو الشيعي فمنهم ؛ صاعد بن مسعود عميد الملك زين الكفاة (كان مسلما سنيًا) ، الذى ولى الوزارة سنة ٤٤١هـ/١٠٤٩م[٢]، وأبو على الحسن بن سديد الدولة ذو الكفايتين الماشلى والذى توفى سنة ٤٨٧هـ/١٠٩٤م بمصر وكان مسلما سنيًا ، وأبو محمد الحسن بن أسد بن أبى كُدَيْنَة جلال الإسلام ، ظهير الإمام الذى كان سئ الطبع قاسى القلب[٣] ، ويقال أنه من ولد (عبد الرحمن ابن مُلْجم قاتل الإمام على بن أبى طالب) ، قبض عليه بدر الجمالى وسيره إلى دمياط حيث قتل هناك ، وكان مسلما سنيًا .

أما أقصر الوزراء عهداً بالوزارة فمن بينهم على بن الأنبارى كافى الكفاة ، كان صديق المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى ، داعى الدعاة ، يقال أنه ابن العزيز بن الحسن بن الأنبارى أقام أيامًا وصرف[٤] فى ذى الحجة ٤٥٧هـ/١٠٦٤م، ومنهم محمد بن حامد التنيسى شمس الأمم وسيد رؤساء السيف والقلم من أهل تنيس ، أقام يومًا واحداً وقتل وكان مصريا مسلما سنيا ، ومنصور بن أبى اليُمْن سورس بن زُنْبور عميد الخلافة شرف الكفاة، كان نصرانيا فلما أفضت الوزارة إليه أسلم ، أقام أيامًا ثم هرب

---

(١) ابن منجب : الإشارة ص ٧٢ - ٧٣ .

(٢) ابن منجب المصدر نفسه ص ٧٣ .

(٣) ابن منجب المصدر نفسه ص٩٠ .

(٤) ابن منجب : المصدر نفسه ص ٩١ .

خوفاً على حياته من بطش النصارى والجند المطالبين بأرزاقهم[١] .

وكان أطول الوزراء عهدا بالوزارة بدر الجمالى أمير الجيوش سيف الإسلام ولى الوزارة فى ٤٦٦هـ/١٠٧٣م وحتى ٤٨٧هـ/١٠٩٤م، أى إحدى وعشرين سنة[٢] ، أرمنى الجنسية كان مملوكا لجمال الدولة بن عمارة ، ولى بلاد الشام وإمارة دمشق مرتين ، لما ثار عليه أهلها رحل إلى عكا ثم رحل إلى مصر بناء على استدعاء الخليفة المستنصر بالله وولى الوزارة ، كانت وفاته قبيل وفاة المستنصر بعدة أشهر .

ولى الأفضل بن بدر الجمالى سيف الإمام شاهنشاه بعد وفاة أبيه بعد أن تمرس فى أعمال الوزارة خلال عهد أبيه [٣]، ولد فى عكا سنة ٤٥٨هـ/١٠٥٦م ، وكان له تسعة وعشرون عاما عندما ولى الوزارة ، وقد قتل على أيدى النزارية الإسماعيلية سنة ٥١٥هـ/١١٢١م[٤]، وكان له من العمر سبعة وخمسين عاماً .

كان من أهم سمات عصر الوزراء هو اعتلاء الأسرة الأرمنية (آل الجمالى) والتى تحكمت فى مقدرات الدولة وسيطرت على كل شيء فيها حتى على مقام الخلافة ، وخاصة بعد أن تزوج الخليفة المستنصر بالله ابنة الوزير الجمالى ، مما حدا بابنه الأفضل أن يفرض ابن شقيقته من المستنصر أحمد المستعلى خليفة ، فخرق بذلك الشرعية ، وقضى على نظام الإمامة الفاطمية المتعارف عليه منذ عشرات السنين . كذلك فعلها الصالح

---

(١) ابن منجب : الإشارة ص ٩٣ .

(٢) ابن منجب المصدر نفسه ص ٩٥ ـ ٩٧ .

(٣) ابن منجب المصدر نفسه ص٩٨ .

(٤) ابن منجب : المصدر نفسه ص١٠١ .

ابن رزّيك الذى زوج ابنته من العاضد آخر الخلفاء الفاطميين ، فقد كانت تراودها الآمال بنقل الخلافة إلى الأسباط .

لعل من أهم الأحداث التى ارتبطت بدور الوزراء السياسى ما تم فى عهد الخليفة المستنصر بالله الذى فقد الثقة فى كبار رجالات الدولة ، وأصبح يشك بكل الناس وحتى المقربين إليه ، بعد أن تفشت الوشايات منذ سنة ٤٤٦هـ/١٠٥٤م، وعمت السرقات وانتشر الفساد واختل الأمن والنظام ، وأصبح الحكم للرعاع وأبناء الشوارع ، ووقع الاختلاف فى صفوف القواد والجنود ، وضعف شأن الوزراء لقلة مدة حكمهم ، وساد البلاد موجة طاغية من الاستخفاف بالأمور ، قال ابن منجب : « وكانت الأحوال يومئذ بالحضرة قد فسدت ، والأمور قد تغيرت ، وطوائف العسكر قد تبعثرت وتحزبت ، والفتن قد اتصلت وتأكدت ، والرخاء قد أيس منه ، والصلاح لا يطمع فيه، والصعيد بأيدى العبيد ، والطرقات قد انقطعت براً وبحراً إلا بالخفارة الثقيلة والكلفة الكبيرة ، مع ركوب الضرر وشدة الخطر، والمارقون ينوى بعضهم لبعض الاحتيال والغدر »[1] ، وزاد الأمر سوءاً بالفتن بين الأتراك والعبيد وتدخلت أم المستنصر بمصلحة العبيد ، وساءت الأمور باعتقال الوزير اليازورى، وعادت البلاد لحالة من الفوضى والاضطراب ، وخرج الحكم من أيدى الخليفة إلى وزراء ضعاف تحكمت فيهم الأهواء ، وتصارعوا على المنصب، فلا يلبثون فى الوزارة إلا أياماً أو شهوراً ويأتى غيرهم.

فلما ولى بدر الجمالى الوزارة أعاد تنظيم الدولة ، وأنقذ الاقتصاد وقضى على الفساد وأطلق الخراج للفلاحين ثلاث سنين ، وفى الرابعة اكتفى بنصف الخراج وأصلح الترع والجسور ... حتى شعر الناس وعلى رأسهم

---

(١) ابن منجب : الإشارة ص ٩٥ .

الفلاحين بالأمن والرخاء ، بعد أن قام بتقسيم البلاد إداريًا إلى إحدى وعشرين عملا ، والأعمال إلى نواح ، والنواحى إلى كفور وقرى ، وشجع أصحاب رءوس الأموال بالحضور إلى مصر ، كما قام بتجديد جامع العطارين بالإسكندرية ، وأنشأ جامع المقياس ، والجامع العتيق بإسنا ، وجامع أمير الجيوش بأعلى جبل المقطم ، ومشهد الإمام الحسين بعسقلان ، وجمع ثروة قدرت بالملايين ، ولما مدحه الشاعر (علقمة بن عبد الرازق العليمى) خلع عليه وعلى أصحابه بما قدر بسبعين حملا ،وأجازه بدر بعشرة آلاف زيادة على ذلك ، وكان شغوفًا باقتناء الجواهر الثمينة ، وخلف من المال ستة آلاف ألف دينار وأربعمائة ألف درهم ، ومن الجواهر الياقوت أربعة صناديق ، ومن القصب والفضة والذهب والمراكب (السروج المحلاة) ما يعجز عن الوصف وخلف ألف قصبة زمردة ... عدا ما ذكر عن ثروة ابنه الأفضل التى خلفها .

لا شك أن الوزير بدر الجمالى قد قدم للدولة خدمات جليلة فى مجال الأمن والاستقرار الداخلى، وكسر شوكة المؤامرات الخارجية وأطماع الغرباء، ولم يترك فرصة إلا وأظهر فيها الكفاءة والاضطلاع بالمسئولية وتوطيد هيبة الدولة[١] ، لكن هذا لا يعادل ما اقترفه ولده الأفضل حين أقدم على الاستئثار بالسلطة دون الخليفة[٢] لكى يبقى على سرير الحكم آمنا مطمئنًا.

ومهما يكن من أمر فقد تمتع وزراء العصر الفاطمى بمكانة عالية فى

---

(١) ابن منجب : الإشارة ص٩٥ .

(٢) يقول د. أيمن فؤاد : أنه قد حجر على الخليفة المستعلى وحبسه فى قصره حتى وفاته سنة ٤٩٥هـ /١١٠٥م انظر الإشارة إلى من نال الوزارة (هامش) ص١٠٣ .

الدولة يتضح ذلك من مرسوم التولية الذى كان الخليفة يصدره لدى تقليد الوزير : « والله سبحانه يؤيد الدولة العلوية بعزماتك الثقاتية ، ويعيد عليها حقوقها بسيوفك القاضية وأرائك الصائبة ، ويجعل أمد عمرك طويلا »[١]، وقد ازدادت مكانة الوزراء لدى الخلفاء فى عصر الوزراء العظام ، وبلغت مدى بعيدا باشراكهم فى واحدة من أجل مظاهر السيادة وهى الدعاء فى الخطبة ، فأمر الخليفة الآمر بأحكام الله أن يدعى للوزير الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالى على المنابر بدعاء جليل مهيب : « اللهم انصر من اصطفاه أمير المؤمنين لدولته وارتضاه وانتخبه لتدبير أحوال مملكته ، واجتباه وولج إليه الأمور فساسها أحسن سياسة ، يقظة وجدا وحزما واستكفاه فى المهمات فكفى فيها ، وجرد فيه للمصالح مرهفا تساوى فى المضاء حداه ، واطلع منه كوكب سعد علاه وأشرف سناؤه وسناه ... أعانه الله على مصالح المسلمين ووفقه فى خدمة أمير المؤمنين ، وأدام له العلو والبسطة والمكن ، اللهم اجعل كوكب سعده أبدا عاليا مشرقا ، وافتح للدولة على يديه مغربا ومشرقا ، واقرن بالتوفيق آراءه وعزائمه وامض فى نحور أعداء الدين أسنته وصوارمه »[٢].

كما كان ينقش اسم الوزير على السكة فى بعض الأحيان ، ويشارك الخليفة فى الطراز فمن ذلك كتابة اسم ونعت الأفضل وزير الآمر بأحكام الله على طراز كان مخصصا للخلفاء دون غيرهم ، بل تعمد بعض الخلفاء

---

(١) ابن منجب : الإشارة ص ٦٣ .

(٢) زكى حسن : كنوز الفاطميين ص ١١٨

، المقريزى : خطط جـ١ ص ١١٠ .

رفع شأن وزرائهم إلى مكانة غير مسبوقة ، مثال ذلك ما أقدم عليه الحاكم بأمر الله بأن خلع على وزيره الحسن بن عمار بسيف من سيوف والده العزيز بالله ، وحمله على فرس مسرج من الذهب ، وحمل معه خمسين ثوبا من البز الرفيع[(١)] ، وقام بربط عنق الوزير بطوق مذهب بيديه ، وهى مكانة عالية شريفة لا يحظى بها إلا من كان من الثقاة المقربين .

لما كانت الوزارة تلى الخلافة فى المكانة ، فقد تحتم على الوزير أن يرتدى زيا خاصا به يميزه عن سواه ويزيد من مهابته فى أعين الخاصة من موظفى الدولة والعامة من رعايا الدولة ، ففضلا عن الزى الرسمى لكبار رجال الدولة ، كان الوزراء يضعون المناديل الطبقات بالأحناك تحت حلوقهم، ويتفردون بلبس الدراريع المشقوقة من النحر إلى أسفل الصدر بأزرار وعرى ، وهى علامة الوزارة ، وكان الوزراء يتخذون أزرارا من الذهب أو اللؤلؤ[(٢)] ، وفضلا عن ذلك كانت تحمل إلى الوزير الدواة من الذهب الخالص ويقف على يمين الحجاب، وقد جرت العادة أن يمسك الوزير الدواة بيده اليسرى ويكتب باليمنى ، فتم ترتيب أحد الخدم لحمل الدواة ويقف على يمين الوزير ليسهل عليه الكتابة وأصبح رسما للوزراء[(٣)] ، ويلزم الناس بالترجل له، وكان يجلس على يمين الخليفة وهو أول من يحضر مجلس الخليفة وآخر من ينصرف من حضرته بعد تقبيل يديه ورجليه للعودة إلى داره[(٤)] .

---

(١) ابن ميسر : أخبار مصر جـ٢ ص ٥٣ .
(٢) القلقشندى : صبح الأعشى جـ٣ ص٤٩٠ .
(٣) آدم متز : الحضارة الإسلامية جـ٢ ص١٤٨ .
(٤) المقريزى : خطط جـ١ ص٤٧٦ .

أما فى المواسم والأعياد الدينية والاجتماعية فكان الوزير أول من يحضر إلى قصر الخلافة فى موكب مهيب ، إذ يرسل إليه ولرجاله عشرة من الخيل مسرجة بالذهب والفضة مرصع بعضها بالجواهر ، فى أعناقها أطواق الذهب وقلائد العنبر ، وأرجلها محلاة بخلاخل الذهب والفضة ، ويسير فى ركابه وبين يديه الأمراء وحاشيته وأولاده وأقاربه ، وبمجرد وصوله القصر يتقدم لأداء التحية ثم يقبل يدى الخليفة ورجليه ، ثم يسير خلف الخليفة تحف بهما الألوية والأعلام والأمراء والقادة بين يديه مشاة وركبانا ، وهو فى ثيابه الوزارية الفاخرة ، والمنديل والحنك متقلدا سيفا من الذهب وفى ركابه نحو خمسمائة رجل من الأجناد[1].

أما فى الصلوات الجامعة فكان الوزير يسبق الخليفة إلى المسجد المقرر أن يلقى فيه الخطبة ويقف الوزير على باب المنبر ، فإذا حضر الخليفة وصعد المنبر ثم أشار إلى الوزير بالصعود فيصعد إلى أن يصل إليه فيقبل يديه ورجليه على مرأى من الناس ، ثم يزرر عليه وينزل مستقبلا الخليفة ، فإذا وقف الخليفة للخطبة صعد الوزير مرة أخرى ليفك التزرير عنه وينزل ويقف خلفه وسط أرباب الرتب والأمراء والقادة ، مما تجدر الإشارة إليه أن الخلفاء قد وضعوا تقليدا جديدا بأن يعهد إلى قاضى القضاة ليزرر على الخليفة بالمزرة لحجبه عن الرعية ، وفك التزرير فى حالة تعيين أحد الوزراء من أهل الذمة[2].

كان الخلفاء يغدقون على وزرائهم بعد العودة من الإحتفالات

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ٣ ص٥٠٤ ـ ٥٠٥ .

(٢) ابن ميسر : أخبار مصر جـ٢ ص٧٩ .

والمهرجانات فيخلع الخليفة على الوزير ثيابه الحمر بخاصة فى عيد النحر ، ويمنحه المنديلا والعقد المنظوم بالجواهر ، فيسير الوزير متباهيا مفتخرا يطوف شوارع القاهرة إلى دار الوزارة[١] ، ومن ناحية أخرى اهتم الخلفاء والوزراء بتوطيد أواصر العلاقات السياسية والاجتماعية فيما بينهم وتوكيدها بالرباط المقدس ، فزوج المستنصر بالله ابنه المستعلى من ست الملك ابنة بدر الجمالى ، وتزوج الخليفة العاضد من ابنة طلائع بن رزيك[٢] ، وفضلا عن ذلك كان الوزير يتقاضى راتبا ضخما ، ويصل إلى خمسة الآف دينار فى كل شهر إلى جانب مائتى دينار لكل ولد من أولاده وثلاثمائة لكل أخ من أخوته ، فضلا عن الجرايات واللحوم والإقطاعات والهدايا والخلع فى المواسم والأعياد[٣] .

لما كانت الألقاب تعد من أجل ما يميز المكانة السياسية والاجتماعية لكبار رجال الدولة ، فقد أسرف الخلفاء فى الإغداق على وزرائهم بالألقاب التى صارت ظاهرة غير مألوفة ، وفريدة بالنسبة للخلافات السابقة والمعاصرة ، فكلما ولى وزير قوى دست الوزارة طمع فى زيادة ألقابه عن سابقيه ، مما أفقدها أهميتها وقلل من مكانتها فى أعين الناس ، وقد عرض ابن منجب لهذه الظاهرة بتفصيل دقيق للتعبير عن الحالة التى وصل إليها التلقيب ، وفى البداية لقب يعقوب بن كلس بالوزيرالأجل[٤] ، ثم زادت

---

(١) القلقشندى : صبح جـ٣ ص٥١٦ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم جـ٥ ص٣١٨ .

(٣) ابن منجب : الإشارة ص٢٩ .

(٤) ابن منجب : المصدر نفسه ص٢١ .

الألقاب بصورة مبالغ فيها فتلقب أبو القاسم بن أحمد الجرجرائى « بالوزير الأجل الأوحد صنع أمير المؤمنين وخالصه » سنة ٤٠٧هـ/١٠١٦م ، ولقب أبو منصور صدقه بن يوسف الفلاحى سنة ٤٣٦هـ/١٠٤٤م «بالوزير الأجل تاج الرياسة فخر الملك مصطفى أمير المؤمنين»[1] ، ولقب أبو محمد الحسن بن على بن عبدالرحمن اليازورى سنة ٤٤٢هـ/١٠٥٠م ، « الناصر للدين غياث المسلمين الوزير الأجل الأوحد المكين ، سيد الوزراء ، تاج الأصفياء قاضى القضاة وداعى الدعاة علم المجد خالص أمير المؤمنين»[2] ، ولقب « الوزير عبد الله بن يحيى المدبر سنة ٤٥٣هـ/ ١٠٦١م « الوزير الأجل العادل الأمير شرف الوزراء سيد الرؤساء تاج الاصفياء عز الدين مغيث المسلمين خليل أمير المؤمنين وخالصه وصفوته»[3] ، ولقب الوزير عبد الكريم بن عبد الحاكم بن سعيد الفارقى سنة ٤٥٣هـ/١٠٦١م ، « الوزير الأجل فخر الوزراء عين الرؤساء قاضى القضاة وداعى الدعاة مجد المعالى كفيل الدين يمين أمير المؤمنين وصفوته»[4] ، ولقب الوزير أبو عبد الله الحسن سنة ٤٥٤هـ/١٠٦٢م « سديد الدولة ذى الكفايتين الوزير الأجل الكامل الأوحد» [5] ، ولقب الوزير أبو غالى عبد الظاهر بن فضل المعروف بابن العجمى سنة ٤٥٥هـ/١٠٦٣م « الوزير الأجل الأوحد الأسعد تاج الوزراء ، الأمين

---

(١) ابن منجب : الإشارة ص ٣٨ .
(٢) ابن منجب : المصدر نفسه ص٤١ .
(٣) ابن منجب : المصدر نفسه ص ٤٨ .
(٤) ابن منجب : المصدر نفسه ص٤٩ .
(٥) ابن منجب : المصدر نفسه ص٤٩ .

المكين ، شرف الكفاة ، ذى المفاخر خليل أمير المؤمنين وخالصه»[١]، ولقب الوزير أبو عبد الله محمد بن أبى حامد سنة ٤٥٨هـ - ١٠٦٦م، «القادر العادل شمس الأمم سيد رؤساء السيف والقلم ، تاج العلا عميد الهدى شرف الدين غياث الإسلام والمسلمين حميم أمير المؤمنين وظهره»[٢]، ولقب الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالى المستنصرى سنة ٤٨٧هـ/١٠٩٤م «السيد الأجل المأمون تاج الخلافة عز الإسلام فخر الآنام نظام الدين صفى أمير المؤمنين»[٣].

---

(١) ابن منجب : الإشارة ص٥٠ .
(٢) ابن منجب : المصدر نفسه ص ٥٤ .
(٣) ابن منجب : المصدر نفسه ص ٦٢ .

ثالثاً : النظام الإدارى : -

كانت مصر تتمتع بحضارة أصيلة ومدنية عريقة من قديم الزمان ، وذلك لتعاقب الفاتحين عليها ونقلهم الأنظمة السائدة فى بلادهم وتطوير ما كان سائداً بها ، فلما فتحها الفاطميون وجدوا بها نظاما إداريا مستقرا فأبقوا عليه ولم يقدموا على إحداث تغييرات جذرية فى النظام القائم وقتذاك ، وكانت مصر مقسمة إلى أعمال أو أقاليم ، وكل منها مقسم إلى كور أو مراكز ، وكل كورة تشتمل على عدة قرى ، ولكل قرية زمام من الأراضى الشاسعة الخاصة بها ، وكان يلى الإقليم رئيس أو والى ، ويلى الكورة نائب رئيس، وعلى كل قرية زعيم (العمدة فى الوقت الحاضر) ، وكان رئيس الإقليم يعين من قبل الخليفة ويتولى الإشراف على إقليمه ويكون مسئولا عن الأمن ، والمحافظة على أموال الناس وأرواحهم وتنفيذ الأوامر التى تصدر له من قصر الخلافة ، وعليه أن يقيم فى الإقليم ليسهل عليه السيطرة عليه، وكان مقر والى الجيزة مدينة الجيزة والبهنساوية مدينة البهنسا ، والفيومية مدينة الفيوم ، والأسيوطية مدينة أسيوط ، والشرقية مدينة بلبيس ، والبحيرة مدينة دمنهور والغربية مدينة المحلة[1]، وفى بعض الأحيان كان يعين أحد الولاة للإشراف على إقليمين فى وقت واحد، فولى مزاحم بن محمد بن رائق الحوف والفرما [2]، وطلائع بن رزيك أسيوط وأخميم ، كما عين وال واحد لكل من البحيرة والإسكندرية ، ودمياط وتنيس والدقهلية

---

(١) ابن ميسر : أخبار مصر جـ٢ ص٩٤ .

(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ١ ص١١٨ .

والمرتاحية [١]، وقوص وأخميم ، وفى جميع الأحوال كان الوالى مسئولا أمام الخليفة مسئولية تامة عن الأقليم الذى يلى أمره ، وكان عليه تقديم الأموال أو الجند عندما يحتاج الأمر ذلك ، وكان يخلع على الوالى من خزانة الكسوة بمجرد إصدار المرسوم الخلافى بذلك ، وتعرف هذه الخلعة (بالبدنة)[٢].

وضع جوهر الصقلى الذى كان يعد بمثابة النائب عن الخليفة أسس الإدارة الرئاسية فى حاضرة الدولة من خلال الدواوين التى أنشأها ، وقام بتنظيم موظفيها قبل قدوم المعز لدين الله إلى مصر ،وكان صاحب الديوان يرتدى زيا خاصا لأنه أحد الموظفين الرسميين بالدولة وهى الدراعة[٣]، وكان العمل مستمرا بالدواوين طوال الأسبوع عدا الجمعة من أجل الصلاة ، فضلا عن الأوقات العصيبة والأحداث الجسام [٤]، فقد عطلت الدواوين أيام الشدة العظمى فى عهد المستنصر بالله الفاطمى[٥].

كان من أهم الدواوين[٦] فى العصر الفاطمى ديوان الدلتا أو الوجه البحرى ، ويختص بالنظر فى شئون أقاليم الوجه البحرى التى كان من أهمها الشرقية والمرتاحية والدقهلية والغربية والسمنودية والمنوفية والبحيرة ، فضلا

---

(١) أبو المحاسن : النجوم جـ٥ ص٢٩٧ .
(٢) ابن ميسر : أخبار مصر جـ٢ ص٨٧ .
(٣) القلقشندى : صبح جـ٣ ص٤٨٨
، المقريزى : إغاثة الأمة ص٢٥ .
(٤) آدم متز : الحضارة جـ١ ص١٣٦ .
(٥) ابن منجب : الإشارة ص٢١ .
(٦) الديوان : اسم مكان جلوس صاحبه ، وخزانة حفظ الوثائق والأوراق ، يقول =

عن الثغور وكان يرأسه موظف كبير هو صاحب ديوان أسفل الأرض ، ويتبعه عدد من الكتاب المهرة الذين كانوا يجيدون كتابة الأساليب البليغة والعبارات الفخمة عند تدوين الرسائل[١] ، ويقابل هذا الديوان ، ديوان الصعيد ، الذى كان يختص بشئون أقاليم الصعيد ، وهى الصعيد الأعلى والصعيد الأدنى ، وكوره الجيزة والأطفيحية والبوصيرية والفيومية والبهنساوية والأشمونية والأسيوطية ، وكان يتولاه موظف كبير هو صاحب ديوان أعلى الأرض ، يتبعه عدد من الموظفين أصحاب المواهب الخاصة فى التلخيص والتدوين والإيجاز ببلاغة محكمة وفصاحة نادرة .

ديوان الإنشاء والمكاتبات: وصاحبه ذو منصب خطير ، يتولاه أعظم كتاب العصر كتابة وبلاغة وكان يعرف بكاتب الدست الشريف وينعت بالأجل ، يتولى النظر فى المكاتبات الصادرة والواردة وعرضها على الخليفة ، ومن ناحية أخرى كان الخليفة يستشيره فى أمور كثيرة . وكان يعاون صاحب ديوان الإنشاء عُدة من أكابر الكتاب ، منهم صاحب التوقيع بالقلم الدقيق فى المظالم ، وهذا الشخص يلى صاحب ديوان الإنشاء وله من الخليفة مكانة لأنه جليسه وقارئه . وصاحب التوقيع بالقلم الجليل وكانت

= الماوردى : « والديوان موضوع لحفظ ما يتعلق بحقوق السلطنة من الأعمال والأموال ومن يقوم بها من الجيوش والعمال » الأحكام السلطانية ص١٩١ - ويرى بعض قدامى المؤرخين أنه فارسى معرب ، ويعنى الشياطين للتعبير عن مهارة أصحاب الديوان فى تناول الموضوعات ، وحذقهم فى التعرف على الظاهر والخفى من وراء الكلمات والجمل والعبارات ، ويرى فريق آخر أن الأصل عربى بدليل قول ابن عباس: « إذا سألتمونى عن شئ من غريب القرآن فالتمسوه فى الشعر ، فإن الشعر ديوان العرب » - ابن خلدون : المقدمة ص ٢١١

، القلقشندى : صبح الأعشى جـ١ ص٩٠ ، المقريزى : خطط جـ١ ص ١٤١ .

(١) القلقشندى : المصدر نفسه جـ٣ ص ٤٩٥ .

تنفيذية لأنه يشرف على تنفيذ ما يوقع به صاحب القلم الدقيق بعد أمر الخليفة أو الوزير ، أو بما يراه هو ثم تحمل إلى صاحب القلم الجليل فيفصل فيها ، وتحمل بعد ذلك إلى الخليفة فيوقع عليها ثم تسلم إلى أربابها وينفذ ما فيها [١].

حظى ديوان الإنشاء والمكاتبات باهتمام الخليفة المعز لدين الله وعين عليه واحدا من كبار رجال دولته عرف بصاحب ديوان الإنشاء ، وكان يخاطب بالشيخ الأجل ، يتمتع بسلطات واسعة تتجلى فى الإشراف على الولايات وما يرد منها من مكاتبات والتى كانت تسلم له مغلقة مختومة بخاتم الوالى ، فيفضها ويدرسها بإمعان ويقوم بتجهيز الرد عليها للعرض على الخليفة ، ونظرا لأهمية وخطورة موقعه ، فقد تم تجهيز مكان خاص به لا يشاركه فيه أحد ولا يرتاده أثناء العمل سوى المقربين من الخليفة وخواصه ، وكان من أهم الخصائص التى تمنح لصاحب هذا الديوان السماح له بالدخول على الخليفة ومقابلته فى أى وقت[٢] ، لذلك كان يختار صاحب ديوان الإنشاء من أهل الفصاحة طليقى اللسان الأصلاء فى أقوامهم من ذوى الحسب والنسب والوقار والحلم ، يقول ابن خلدون : «يختار من أرفع طبقات الناس ، وأهل المروءة والحشمة وزيادة العلم وعارضة البلاغة ، كتوما للأسرار ، وفيا عند الشدائد»[٣]. وفضلا عن ذلك كان يعد صاحب ديوان الإنشاء من أهم مستشارى الخليفة وخواصه فهو سره ، يطلع على أسرار الخلافة ، لذلك كانت له منزلة رفيعة عند الخليفة تعلو

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ٣ ص ٤٩١ .

(٢) القلقشندى : المصدر نفسه جـ١ ص١٠٣ .

(٣) ابن خلدون : المقدمة ص٢١٥ ـ ٢١٦ .

منزلة الوزراء وكبار القواد بل وأهله وأولاده، فكان مقربا لديه يستشيره فى جميع أموره دائم الاتصال به ، لا يثق بأحد من خاصته ثقته به ، ولا يركن إلى قريب أو نسيب ركونه إليه ، لا يحجب عن الخليفة متى أراد المثول بين يديه، وربما بات عنده الليل[١]، وليس أدل على علو مكانة صاحب ديوان الإنشاء من أنه كان يتولى هذا المنصب مترقيا بعد الوزارة ، فمن ذلك أن الوزير الروزبارى قد تولى ديوان الإنشاء بعد الوزارة فى عهدى الظاهر والمستنصر بالله[٢]، كما ولى ديوان الإنشاء بعد الوزارة أبو الفرج محمدابن جعفر المغربى[٣].

كان صاحب ديوان الإنشاء يستخدم ثمانية أقلام يستخدم كلا منها فيما يتناسب والرد على الوارد أو إصدار المراسيم الخلافية ، وكانت الأقلام هى الطومار يؤشر بها الخليفة علامات على المكاتبات ، ومختصر الطومار، والثلث، وخفيف الثلث ، والتوقيع ، والرقاع ، والتحقق ، والغبار[٤]، وكان الخليفة يختار صاحب هذا الديوان بنفسه من بلغاء القوم وفصحائهم ولم يفرق فى ذلك بين مسلم وذمى ، فاختار العزيز بالله ، أبو المنصور بن سوردين النصرانى كاتبا له واستمر هذا الكاتب خلال عهد ابنه الحاكم بأمر الله ، فلما توفى ابن سوردين ، اختار الحاكم القاضى أبو الطاهر البهزكى

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ١ ص١٠٥ .

(٢) ابن منجب : الإشارة ص٣٥ .

(٣) ابن منجب : المصدر نفسه : ص٤٨ .

(٤) القلقشندى : المصدر نفسه جـ٣ ص٥٢ .

كـاتبًـا له، وقـد اسـتـمـر خـلال عـهـد الظاهـر لإعـزاز دين الله ، واتخـذ الحافظ لدين الله ، ابن الدم اليهودى كاتبا له[١].

كان صاحب ديوان الإنشاء يختار معاونيه من الكتاب ممن يتميزون بصفات خاصة من الملمين باللغة العربية والنحو والصرف والبلاغة ، وصفات شخصية تتجلى فى أن يكون عاقلا صادقا أديبا فقيها ، حاد الذهن قوى النفس كثير الاحتمال ، عظيم النزاهة لا يقبل هدية ولا يقبل من أحد عطية ، كامل الفضيلة خطًا ولفظًا ومعنيً وإعرابا[٢]، وكان الكاتب الذى يظهر كفاءة متميزة يلقب بعدة ألقاب من بينها الفاضل والرشيد والعماد[٣]، وفضلا عن ذلك كان يكافأ بتعيينه فى وظيفة صاحب التوقيع بالقلم الدقيق ، وكانت مكانته تلى صاحب ديوان الإنشاء ، وفى هذه الحالة كان اتصاله بالخليفة مباشرة ، ويجلس معه الأوقات الطوال ، لذلك كان يشترط فيه أن يكون ملما بأخبار الأنبياء والخلفاء السابقين وسير العظماء لأنه كان يتجاذب أطراف هذه الأحاديث فضلا عن مناقشة مكارم الأخلاق مع الخليفة ، ولما كان يجلس أوقاتا طويلة فى حضرة الخليفة لذلك كان يحصل على المسند والدواة المحلاة بالذهب ، وكان له حاجب يحمل حاجياته أينما حل أو ارتحل وبخاصة عند حضوره مجلس المظالم[٤]، وكان يلى صاحب القلم الدقيق واحد من كبار الكتاب من ذوى الكفاءة العالية هو

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ١ ص ٩٦ .

(٢) القلقشندى : المصدر نفسه ص ١١٢ .

(٣) القلقشندى : المصدر نفسه جـ٥ ص ٤٤٣ .

(٤) المقريزى : خطط جـ١ ص٤٠٢ ، ٤٠٣ .

صاحب التوقيع بالقلم الجليل ، ومهمته الإشراف على تنفيذ ما يوقع به صاحب القلم الدقيق ، حيث يقوم بتفسير وتفصيل ما جاء فى مركزه صاحب القلم الدقيق ، ثم تسلم إلى الحجاب لتنفيذ ما جاء فيها ، وكان لصاحب هذه الوظيفة المسند والطراحة فى مجلسه بغير حاجب [١].

كان البريد[٢] يتبع صاحب ديوان الإنشاء إداريا وفى بعض الأحيان يجمع صاحب ديوان الإنشاء بينه وبين ديوان البريد فجمع أبو عبد الله الحسين بن جوهر بين ديوان الإنشاء والبريد[٣] فى عهد الحاكم بأمر الله نظرا لخطورته وأهميته فى جلب الأخبار من الولايات والأقاليم التى يمكن أن تتضمن خروجًا على سلطة الخلافة ، وكان أصحاب الأخبار يختارون ممن عرفوا بالإخلاص والصدق والأمانة والبراءة من الطمع ،وكان يعين عليهم موظف يعرف بأمير البريد الذى يتبع مباشرة صاحب ديوان الإنشاء[٤].

وكان من أجل المهام التى يضطلع بها أمير البريد حمل وثائق (رقاع) أصحاب الأخبار إلى حاضرة الخلافة ، وتوصيلها فى الوقت المناسب للقصر

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ٣ ص٤٩١ .

(٢) البريد : كان البريد ينظم على اثنى عشر ميلا ، لأن مسافته كانت أربعة فراسخ واختلف فى أصلها فقيل أنها فارسى معرب بمعنى مقصوص أو مقطوع لأن البغل الذى يحمل البريد كان يميز بالذنب القصير ، وقيل أن أصلها عربى مشتق من برد بمعنى أرسل .

ابن طباطبا : الفخرى ص٧٨

، عطية مشرفة : تاريخ البريد فى مصر ، القاهرة ، ص٣٤ .

(٣) ابن ميسر : أخبار مصر جـ٢ ص٥٤ .

(٤) القلقشندى : المصدر نفسه جـ١ ص١١٥ .

الخلافى ، وكان الخلفاء الفاطميون قد اهتموا منذ قيام دولتهم ببلاد المغرب بإنشاء وظيفة صاحب الخبر ، لارتباطها بالأمن العام والحفاظ على سيادة الدولة ، وكان صاحبها يقوم بإبلاغ الخليفة بأخبار ما يجرى بين الناس فى الحاضرة فضلاً عن مراقبة الولاة ورؤساء الوظائف العليا فى الولايات، لإعلام الخليفة فى الوقت المناسب بما يجرى من مؤامرات ضد الحكومة لأخذ الحيطة [١]، ولذلك كان يعين صاحب الخبر من المقربين الثقاة فوليها القاضى النعمان بن محمد فى بلاد المغرب [٢]، ولما عزم المعز لدين الله على المسير إلى مصر بعد فتحها على يد جوهر الصقلى ولى يوسف بن زيرى الصنهاجى بلاد المغرب نائبًا عنه ، فطلب الصنهاجى من الخليفة أن يولى القضاء والخراج من يراه ويختاره ، والخبر لمن يثق به »[٣].

وكذلك اهتم الخلفاء فى مصر بأصحاب الأخبار ، فكان عقيل صاحب الخبر يحمل رقاع الأخبار إلى القائد غبن ، ليوصلها إلى الحاكم وهى مختومة [٤]، وكان الخلفاء يثقون بأصحاب الأخبار لدرجة بعيدة وصلت إلى حد اتخاذ قرارات جائرة دون أدنى تحقيق ، فلما رفع أصحاب الأخبار عن أبى غالب كلمة تكلم بها فى حق الحاكم بأمر الله أمر به فقتل وأحرق بالنار [٥]، ولما أخبروا الحاكم بأن ندماء الأمير عبد الأعلى بن

(١) المقريزى : اتعاظ جـ٢ ص١٢١ .
(٢) القاضى النعمان : المجالس والمسايرات ص١٩ .
(٣) المقريزى : المصدر نفسه جـ١ ص ٩٩ .
(٤) المقريزى : المصدر نفسه جـ٢ ص١٠٢ .
(٥) المقريزى : المصدر نفسه جـ٢ ص٤٤ .

الأمير هاشم بن المنصور حرضوه على المطالبة بالخلافة لنفسه أمر بهم جميعاً فقتلوا وأحرقوا بالنار [١].

مما تجدر الإشارة إليه أن وظيفة صاحب الخبر لم تقتصر على الرجال بل عين بها بعض النسوة ، فمن بينهن (تقرب) صاحبة الخبر لست الملك[٢]، كما استعمل الحاكم بأمر الله طائفة من النساء العجائز للعمل كصاحبات أخبار[٣] ، واستعمل المأمون البطائحي طائفة منهن سنة ٥١٧هـ/١١٢٣م، كن يدخلن المساكن ويتعرفن على أحوال سكانها ، فكانت أحوال من يسكن بالقاهرة ومصر لا تخفى عليه منها شيئاً[٤].

لما استفحل أمر أصحاب الأخبار وصاروا مصدرا لإرهاب الناس من الخاصة والعامة مستغلين قربهم من الحاكم ، انتهى ذلك إلى مسامع الحاكم بأمر الله وأيقن من فسادهم وتجبرهم وابتزازهم للعامة من الناس والخاصة من كبار رجال الدولة ، أمر بهم فطوردوا جميعا حتى قتلوا عن آخرهم[٥] سنة ٣٩٨هـ/ ١٠٠٧م، غير أن الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله أعاد استخدام أصحاب الأخبار مع الحرص على الحد من نفوذهم وعدم استفحال خطرهم على الناس[٦].

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ٢ ص ٤٧ .
(٢) المسبحى : أخبار مصر ص٣٣٤ .
(٣) ابن كثير : البداية والنهاية جـ١١ ص٣٥٢ .
(٤) ابن ميسر : أخبار مصر ص٩٨ .
(٥) المقريزى : المصدر نفسه جـ٢ ص٨٠ .
(٦) المسبحى : المصدر نفسه ص١٥١ .

وكان البريد ينقسم إلى نوعين، أحدهما البريد البرى الذى ينظم فى محطات تزود بالخيل القوية الخاصة والتى تعرف بخيل البريد ، وتزود بالسواس والماء الكافى والطعام والعلف ، فضلا عن المبانى للوقاية من حر الصيف وبرد الشتاء ، وتفرع البريد البرى إلى البريد السريع لنقل الرسائل الحكومية وتميز بلوحة نحاسية أو فضية منقوش عليها عبارات دينية واسم الخليفة لتعامل معاملة محترمة وتكون محل الرعاية والتقدير ، وذلك لتمييز رسائل الخليفة عن سائر الرسائل الأخرى[1] ، أما البريد البطيء فكان مخصصا لنقل الأشياء الثقيلة مثل القمح أو البلح أو أقفاص الفواكه من ولايات الخلافة إلى حاضرتها لذلك كانت تستخدم السفن فى نقل الأشياء الثقيلة.

وفضلا عن البريد البرى كان هناك البريد الطائر الذى يستخدم فيه الحمام الزاجل الذى كانت تنظم له مواضع منتظمة تشبه المطارات ، ويميز الحمام الزاجل بعلامات مميزة فى رقبته وأقدامه ، وقد عين له خبراء للتدريب والمحافظة عليه، وكان الحمام ينزل بأبراج على مسافات ، فيؤخذ ما يحمله إلى طائر آخر ليوصله إلى موضع آخر وهكذا [2]، وكانت الرسائل الطائرة تتميز بالإيجاز البليغ والعبارات المقتضبة دون مقدمات طويلة أو عبارات مرسلة، فتكتب بعبارات مختصرة على ورق رقيق حتى لا يعوق سرعة الطائر أو يعجزه عن القيام بمأموريته ، وكان هذا الورق يعرف بورق الطير أو ورق بريد الحمام وتشق الرسالة تحت جناح الطائر أو تربط إلى ذيله [3]، ومما يجدر

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ٣ ص١١٤ .

(٢) القلقشندى : المصدر نفسه جـ٣ ص٣٩١ .

(٣) السيوطى : حسن المحاضرة ص١٦٦ .

ذكره أن الرسائل الطائرة كانت تكتب من نسختين ، ترسل إحداهما وبعدها بنحو ساعتين ترسل النسخة الأخرى لضمان وصول الرسالة ، فقد يتعرض الطائر للصيد أو الإفتراس من الجوارح أو يضل طريقه ، ويشترط فى جميع الأحوال ألا يطلق الطير فى الجو الممطر أو قبل الاطمئنان على صحته وتغذيته ، وكان الحمام يقطع مسافة أكبر فى أقل من ثلث الوقت الذى يقطعها فيه الجواد[1] .

ومهما يكن من أمر فكان البريد بأنواعه خاصا بمراسلات الدولة ولا يسمح باستخدامه لنقل رسائل رعاياها ، بينما كان الأغنياء يبعثون برسائلهم مع العبيد ، وينتهز الفقراء هذه المناسبة لكى يبعثوا مع العبيد إلى ذويهم [2] .

كان **ديوان الشرطة**[3] يتبع القضاء فى العصر الفاطمى فقد كان صاحبه يساعد القضاء فى تنفيذ الأحكام بعد إثبات التهم فضلا عن بث الأمن والطمأنينة فى أرجاء البلاد ، وإقامة الحدود والتعازير على الجناة والمدنيين [4] .

---

(١) Lane Poole : A Hist. of Egypt, P. 246 .

(٢) عطية مشرفة : تاريخ البريد فى مصر ، ص ٢٦ .

(٣) الشرطة : كانت الشرطة تختص بحفظ الأمن وإشاعة الطمأنينة بين الناس ، وهى وظيفة دينية منذ نشأتها فى الإسلام على عهد عمر بن الخطاب ، وكانت تعرف بالعسس أى الطواف ليلا للقبض على أهل الشك والريبة ، ثم تطورت فى عهد على بن أبى طالب وصار يلى أمرها المقربين الثقاة ، ويعرف صاحبها برئيس الشرطة أوصاحب الشرطة وكان متوليها يرشح للحجابة أو الوزارة ، انظر ابن خلدون : المقدمة ص٢١٩ ، وفى بعض الأحيان كانت تستقل وينظر صاحبها فى الجرائم ويقوم على تنفيذ أحكامها ، انظر حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسى جـ١ ص٥٨٢ .

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٤ ص١٨٨ .

كان موضع ديوان الشرطة فى مصر بعد الفتح العربى فى الفسطاط وكان يطلق عليها دار الشرطة السفلى ، وظلت فى هذه المدينة حتى فتح الفاطميون مصر فأبقوا على دار الشرطة السفلى فى الفسطاط ، وقاموا بإنشاء دار الشرطة العليا بمدينة القاهرة الحاضرة الجديدة لمصر ، وأسند المعز لدين الله الشرطتين السفلى والعليا إلى أبى الفرج يعقوب بن كلس ، وعسلوج ابن الحسن وكتب لهما سجلا بذلك قرئ على المنابر، وصار تقليدا أن يعلن عن صاحب الشرطة بالمساجد الجامعة[١]. وقام ابن كلس بتفويض القاضى على بن سعيد الجلجولى الشرطة السفلى فينظر فيها مع نظره فى القضاء [٢]، كما أسند العزيز بالله الشرطة العليا لجبر بن القاسم صاحب الشرطة السفلي، فجمع بين الشرطتين معا سنة ٣٧٤هـ/ ٩٨٥م .

ومن ناحية أخرى كان صاحب الشرطة يجمع بين خطة الشرطة والحسبة فأسند الحاكم بأمر الله الشرطتين السفلى والعليا لقائد القواد غبن وضم له الحسبة [٣]، ومما يجدر ذكره أن صاحب الشرطة كان يرشح للوظائف العليا ، فأسند الظاهر لإعزاز دين الله ولاية الصعيد لأبى الفتوح موسى بن الحسن سنة ٤١٢هـ/ ١٠٢١م بعد أن كان يلى الشرطة السفلى[٤]، وكان تنفيذ أحكام القضاة لا تتم إلا بشهادة شاهدين من العدول فلا يقام حد على مرتكب جريمة إلاّ أن يقر بذلك، وأنه مستوجب للحد كما حدث على عهد الخليفة الحاكم بأمر الله [٥]، وفى جميع

---

(١) ابن منجب : الإشارة ص٣٨ .

(٢) ابن حجر : رفع الإصر عن قضاة مصر ص١٩١ .

(٣) ابن منجب : المصدر نفسه ص ٢٥ .

(٤) ابن منجب : المصدر نفسه ص ٣٤ .

(٥) ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ص١٢٣ .

الأحوال كان يحظر إقامة الحدود في غير ديار الإسلام .

كان ديوان الجيش والرواتب ، يقتصر فى توليته على المسلمين ، وصاحبه يرعى شئون الجند والخيل والاقطاعات ، ويلحق به ديوان الرواتب الذى يختص بالنظر فى الأرزاق والجرايات وديوان الإقطاع الذى يختص بالنظر فى شئون الإقطاعات [١] .

أما ديوان الجهاد أو ديوان العمائر يختص بالنظر فى أمر الأساطيل الحربية والمدنية وإنشائها وتسييرها والإنفاق على رجال البحر لأهميتها فى الدفاع عن السواحل وحماية الثغور خاصة سواحل الشام التى كانت معرضة للغزوات البيزنطية وقد بلغ الأسطول الفاطمى وقتذاك نحو مائة قطعة وعدد رجاله نحو خمسة آلاف رجل مقاتل عرفوا بالنواب والرؤساء والنواتية ، وكانت إقطاعات الأسطول تعرف بإقطاعات الغزاة ، أما مراكز الأسطول فكانت فى الإسكندرية ودمياط وعسقلان وبعضها فى البحر الأحمر .

بينما كان ديوان المجلس مرجع كافة الدواوين، وكتابه ينفرد كل منهم بمجلس يتولى صاحبه التحدث فى شئون الإقطاعات والأرزاق لدى الخليفة مباشرة ، ويتبعه ديوان النظر ، وديوان المال يتولاه وزير ثقة لضبط الدخل والمصروفات والمحاسبات ، وديوان التحقيق الذى يختص بالمقابلة على الدواوين ومراجعة أعمالها والتحقق من انتظامها ، وديوان الأحباس أو الأوقاف يختص بالنظر فى شئون الأحباس العامة والخاصة ، والإشراف على

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ٣ ص ٤٩٢ .
، المقريزى : الخطط ، جـ١ ص٤٠١ .

إيراداتها وإنفاقها طبقا للشرع ، وديوان المواريث لضبطها ودواوين ثلاثة هى ديوان الصعيد وديوان أسفل الأرض أو الوجه البحرى وديوان الثغور .

وضعت الدولة الفاطمية نظاما دقيقًا محكمًا لضبط شئون الخلافة وتسيير أمور الدولة بواسطة مجموعة من الوظائف العليا ، فمنها وظيفة صاحب الباب أو حاجب الحجاب يلى الوزير فى المرتبة ، يتولى النظر فى المظالم وكان ذلك المنصب فقط فى ظل وزارة مدنية ، أما فى وزارة أصحاب السيف ، فكان الوزير يتولى النظر فى المظالم . وهناك وظيفة الاسفهـالار وهو القائد الأعلى للجيش ، ويعهد إليه النظر فى أمر الجند فضلا عن كافة الشئون العسكرية ، وفرقة خدمة الخليفة مثل حامل المظلة الذى يحملها فوق رأس الخليفة فى الموكب والمجالس ، وحامل سيف الخليفة وحامل رمحه فضلا عن حملة السلاح أو الركابية وصبيانهم .

يضم فريق خدمة الخليفة وشئون القصر ، حامل المظلة ، وحامل السيف ، وحامل الرمح ، والأساتذة المحنكين (لأنهم كانوا يدورون العمامة على أحناكهم) ، فضلا عن متولى (شد التاج) وهو يشد تاج الخليفة فى المواكب الرسمية ، وصاحب المجلس وهو الذى يتولى الإشراف عليه وترتيب الحاضرين ، وصاحب الرسالة الذى يتولى إبلاغ رسائل الخليفة إلى الوزير وغيره ، وكان يعرف أواخر الدولة الفاطمية بالأمير الثقة ، بالإضافة إلى متولى زمام القصور المشرف على كافة شئون القصر والخاصة ، وصاحب الدفتر وهو المدقق المتحدث على الدواوين الجامعة لشئون الخلافة ، وحامل الدواة أى دواة الخليفة ، ومتولى زمام الأقارب ، وهو المشرف على

شئون الأسرة الفاطمية وأعضائها ، وزم الرجال وهو الذى يتولى إعداد الطعام للخليفة والنظر فى شئون الخدم وصبيان الخاصة .

ومن الوظائف العليا وظيفة داعى الدعاة ، ذلك أن الدعوة الشيعية تهتم بغزو الأذهان ومحاولة تعديل الأفكار ، وكانت الدعوة السرية خير وسيلة لذلك، ولما تم لهم ما أرادوا ولو ظاهريا فى مصر ، بدأوا فى بث دعاتهم إلى أقطار العالم الإسلامى ، وكانت التعاليم الشيعية تتم فى القصر الفاطمى نفسه ، وتبدأ بقراءة علوم آل البيت والتفقه فيها ، ثم انتقلت التعاليم إلى الجامع الأزهر واشترك فى تدريسها بنو النعمان (أسرة مغربية تولت قضاء مصر زهاء نصف قرن)، والوزير يعقوب بن كلس وزير المعز والعزيز الذى أصدر رسالته المشهورة عن الفقه الشيعى والتى تعرف بالرسالة الوزيرية ، وكان ابن كلس عالما أديبا وهو أول من أدخل التدريس المنتظم بالجامع الأزهر فى عهد العزيز ٣٨٠هـ/٩٩٠م [١] ، فضلاً عن المسبحى مؤرخ الدولة الفاطمية .

كان داعى الدعاة يشرف على وضع إطار هذه التعاليم وتنظيمها بل وتلقينها للدعاة ، وكان يشغل منصبًا هامًا فى ديوان الخاص ، وهو يلى قاضى القضاة فى الرتبة ويتزيا بزيه ويتمتع بامتيازاته ، ويختار من بين كبار فقهاء الشيعة المتضلعين فى العلوم الدينية وأسرار الدعوة الفاطمية ، ويعاونه اثنا عشر نقيبًا وعدة نواب يمثلونه فى سائر الأنحاء ، وهذه التعاليم كانت تراجع من الخليفة قبيل إلقائها .

---

(١) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ص ٢٧٧ .

وكانت النساء تتلقى هذه التعاليم فى قسم خاص بالقصر الخلافى فى مبنى عظيم يعرف (بالمحول) ، وبعد الدروس يتقدم المؤمنون فيعلنون الدخول فى المذهب ، ويؤدى من يرغب من العامة النجوى وهى ٣ر٣ درهم تخصص للإنفاق على الدعوة والدعاة ، أما الخاصة من أصحاب المكانة العليا فتعقد لهم جلسات خاصة يتلقون فيها التعاليم الشيعية ويحظر شهودها على الكافة ، وهى تخص رجال الدولة والقصر ونساء الحرم والخاص، وأولياء المذهب المجتهدين ، وذلك لأن الكافة لا يتلقون إلا المبادئ والأصول العامة ، بينما الخاصة يرتفعون إلى معرفة المراتب وأسرار الدعوة العليا [(١)] ، وتوجد وثيقة هامة عن اختصاصات داعى الدعاة (سجل فاطمى) وأتباعه ومهامهم[(٢)].

والدعوة العليا تسمى بمجالس الحكمة الشهيرة ، وكانت دائمًا من خطط الخلافة الفاطمية ، بينما اتخذت فى عهد الحاكم أهمية خاصة ، إذ تم تنظيمها فى عهده فى معهد رسمى خاص أنشئ لبث الدعوة الفاطمية السرية وأصبح مركز الوحى والتوجيه ، وهو دار الحكمة المصرية (دار العلم)، التى أنشأها الحاكم فى العاشر من جمادى الآخرة سنة ٣٩٥هـ/ مارس ١٠٠٥م، وتدل تسميتها على اتجاهها الفلسفى الحر ، وهى إلى جانب ذلك كانت تضم كليات دينية وعلمية وأدبية ، كما أنشئت دارًا كبيرة ملاحقة للقصر الصغير وكانت تعرف بدار مختار الصقلبى وقسمت إلى

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ٣ ص ٤٨٧ .
، المقريزى : الخطط ، جـ١ ص٣٩٠ .
(٢) القلقشندى : المصدر نفسه ، جـ١٠ ص ٤٣٤ .

عدة أقسام أو مجالس : القرآن ، العلوم الدينية ، الطب ، النحو ، وعلوم اللغة وعين لها أقطاب الأساتذة فى كل علم وفن .

وعلى ذلك كان منصب داعى الدعاة من أخطر المناصب الدينية ، وكان يلى قاضى القضاة فى المرتبة ويتشبه بالقاضى فى زيه ، واختصاصه دينى مذهبى، وأجل مهامه قراءة مذاهب آل البيت وبثها بين الأولياء ، والإشراف على تنظيم الدعوة الفاطمية وأخذ العهود على الداخلين فيها ، وكان يشترط فى داعى الدعاة الإحاطة الكاملة بالفقه الشيعى ، وأسرار الدعوة ، وفضلا عن ذلك كان عليه عقد مجالس الحكمة الشهيرة ، وكان تعيينه من الخليفة فى حالة وجود وزير قلم ، وقد ضعفت سلطته منذ ولى الوزارة وزراء السيف ، مع ضعف سلطان الخليفة ، وداعى الدعاة هو وزير دعاية بكل معانيها .

ومن الوظائف العليا وظيفة قاضى القضاة وهو من أعظم الزعماء الدينيين فى الدولة ، وإليه مرجع الأحكام الشرعية فى العبادات والمعاملات والحدود ، أى الشئون الدينية والمدنية والجنائية ، فضلا عن شئون السكة (دار الضرب) وشئون المساجد وأئمتها ،واختصاصه يمتد إلى مصر والمغرب والشام والحرمين ومركزه العام بالقاهرة المعزية ، وله نواب يختارهم بنفسه إذا كان من رجال القلم ، وكان سجل تعيينه يصدر من الخليفة نفسه ، أما فى عهد وزارة السيف فكان سجل القاضى ، مثال ذلك [١]، تولية الحاكم بأمر الله إلى الحسين ابن نعمان قضاء مصر والشام والمغرب

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ١٠ ص ٣٨٤ .

والحرمين وقد حدد له اختصاصه تفصيلا وكان الحسين من وزراء القلم .

وكان منصب المحتسب من الوظائف الدينية الهامة واختصاصه منذ القدم هو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والإشراف على الآداب العامة وضبط شئون المكاييل والموازين ، ومراقبة أحوال المطاعم والمشارب العامة ومنع الفن والنظر على رعاية المساجد وإنارتها وترميمها ، وتنفيذ الأوامر الخاصة بالذميين ، وكان له نواب فى سائر الأقاليم ينفذون نفس المهام . وفى بعض الأوقات كانت تسند مهام الحسبة إلى متولى الشرطة بمصر والقاهرة [١] .

وكان بيت المال يتولاه الثقات من العدول يفوض إليهم الخليفة سائر الشئون المالية ، وشئون الرقيق ، وإنشاء ما يحتاج الخليفة إليه من السفن والأبنية ، أما الأساتذة فيعرفون بالخدم وعدتهم نحو الألف ، والصبيان لخدمة الخليفة نحو خمسمائة ، وصبيان الحجر وهم عدة آلاف [٢] .

وطبيب الخاص وهو طبيب الخليفة والأسرة يعاونه عدة أطباء ، قراء الحضرة الذين يقرأون القرآن بحضرة الخليفة فى مجالسه وركوبه ومختلف المناسبات ، وشعراء الخاص ويتبعون ديوان الإنشاء .

كذلك أنشأت الخلافة هيئة رسمية للنظر فى الشئون العلوية والمنتسبين لآل البيت ، وهى نقابة الطالبيين وتعرف فى الوقت الحاضر بنقابة الأشراف يتولى النظر فيها شيخ من أكابرهم ، لإثباتها والسهر عليهم وقضاء مصالحهم ورعاية مرضاهم ومعرفة أخبارهم وتوثيق المحبة بينهم .

---

(١) القلقشندى : المصدر نفسه ، جـ٣ ص ٤٨٧ ، جـ١٠ ص ٤٦١ .

(٢) القلقشندى : المصدر نفسه ، جـ٣ ص ٤٨١ ـ ٤٨٥ .

رابعاً : النظام المالى :-

كان النظام المالى فى الدولة الفاطمية يدور كله فى فلك بيت المال العام للمسلمين ، وبيت مال خاص هو خزانة الخليفة ، وكانت وظيفة صاحب بيت المال من الوظائف الجليلة التى لا يتولاها إلا الثقة العدول من الفقهاء لارتباطها بالشئون الدينية والدنيوية ، وكان الخليفة يفوض صاحب بيت المال فى النظر فى شئون الدولة المالية والتصرف فيها لصالح الجماعة الإسلامية ، فإلى جانب حرية التصرف بالبيع والشراء للمصلحة العامة ، كان يفوض أيضاً فى عتق العبيد ، وحالات الزواج والطلاق ، فضلا عن النظر فى شئون الخليفة الخاصة ، فمن ذلك تفويض المعز لدين الله لمحمد بن حسن بن مهذب صاحب بيت المال كل ما يخص الشئون المنزلية بقوله : «تقدم يا محمد بابتياع ، لنا ولمولاك عبد الله ابن الأمير فى كل يوم ما يلزم بسعر الناس ولا تعرف الرسول لئلا تقع محاباة ولا مسامحة »[1]، وتفويض صاحب بيت المال فى الشئون المنزلية للخليفة إنما يدل على الثقة التى كان يحظى بها عند الحاكم ، وإكراما لمتولى بيت المال كان الخليفة يولى أحد أفراد عائلته فى حالة تركه لهذا المنصب الهام ، فلما اختار الحاكم بأمر الله متولى بيت المال أبو عبد الله الحسين بن طاهر الوزان للوساطة والتوقيع عن الحضرة سنة ٤٠٣هـ/١٠١٢م ، عين أخاه أبا الفتح مسعود بن طاهر ليحل محل أخيه فى بيت المال[2].

كان منصب متولى بيت المال يؤدى بصاحبه إلى المناصب العليا فى

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ١ ص١٣٦ .

(٢) ابن منجب : الإشارة ص ٢٩ .

الدولة فرقى ابن دواس إلى منصب الوزير فى عهد الظاهر[١]، كما ولى أبو على الحسن بن إبراهيم بن التسترى الوزارة سنة ٤٥٦هـ/١٠٦٣م بعد أن كان واليا على بيت المال [٢]، وكان يعهد لصاحب بيت المال بأدق الأعمال فضلا عن مباشرته الموارد والمصروفات ، فمن ذلك القيام بالإشراف على فرش مصلى الجامع أيام ركوب الخليفة فى يومى عيدى الفطر والأضحى المباركين بالطرحات (السجاجيد) ، فى المحراب على رسمها وتعليق أستار المحراب بنفسه ويكون بعد ذلك فى استقبال الخليفة ، كما كان متولى بيت المال ضمن الشخصيات الهامة التى تسبق إلى الإيوان الكبير، فمكانته لا تقل عن الأساتذة المحنكين والثقات المقربين ، وهو على هذا النحو يتولى وظيفته الأساسية المالية فضلا عن الاشتراك فى المناسبات والأعياد الدينية والقومية .

وكان الخراج من أهم موارد الدولة وهى « ضريبة تؤخذ من الأراضى المزروعة حبوبا وعنبا وفاكهة ونخلا ، أو من الفلاحين هدية مثل الغنم والدجاج ، فضلا عن الأغنام والشهد والعسل والخل والخلايا . وعسل القصب والأبقار والسمن والجبن والصوف والشعير [٣]، يتضح من دراسة أصل ومحتوى هذه الضريبة أنها كانت تشتمل على نقود وحاصلات ، أى أنها كانت تدفع نقدا أو عينا من ذات المحصول ، وقد فرض جوهر الصقلى

---

(١) ابن منجب : الإشارة ص٣٢ .

(٢) ابن منجب : المصدر نفسه ص ٥٢ .

(٣) المقريزى : الخطط جـ١ ص٨٣ ـ ٨٤ .

سبعة دنانير عن الفدان بعد فتح مصر بعام واحد ، وانخفضت هذه الضريبة إلى أربعة دنانير فى عهد الخليفة الحافظ بسبب ضعف طاقة الأرض على تحمل الضريبة ، وكان الخراج يفرض على مساحة الأرض إجمالا ويدفع مرتين فى غرة رجب وغرة المحرم بحسب السنة القمرية [١] ، أو يفرض على الجزء المزروع بحسب السنة القبطية ويدفع على أربعة أقساط فى كيهك وبرمهات وبرمودة وأبيب ، ويخصص شهر مسرى لتحصيل المتأخرات وبانقضائه تكون الحكومة الفاطمية قد استخرجت خراج الأرض الزراعية، وفى حالة فرضه على المحصول فلا يستحق الخراج إلا بعد نضج المحصول وتهيئته للاستهلاك ، ويحصل مرة واحدة فى السنة الهلالية حتى ولو كانت الأرض تنتج أكثر من محصول فى السنة ، ويسقط الخراج إذا حل بالأرض نازلة هلك بسببها المحصول[٢] ، وكان المحصول يزداد وينقص تبعا لانخفاض النيل وزيادته ، وتبعا لحالة الأمن فى البلاد وانتشار الفوضى والاضطراب ، فمن ذلك أن جوهرا قد جبى الخراج عند قدومه سنة ٣٥٨هـ/٩٦٨م ، ١٫٢٠٠٫٠٠٠ دينار لتعذر الأقوات وقتذاك بسبب الفتن وكثرة الاضطرابات[٣] ، فلما استقرت الأمور ارتفع الخراج ٣٫٢٠٠٫٠٠٠ دينار فى العام التالى[٤] ، واستقر الخراج بنفس القيمة فى سنة ٣٦٠هـ/

---

(١) المقريزى : إغاثة الأمة بكشف الغمة ، تحقيق محمد مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٤٦ ، ص٢٢٣.

(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ٣ ص١٠٣ ـ ١٠٧ .

(٣) المقريزى : المصدر نفسه جـ٣ ص١٤٣ .

(٤) ابن حوقل : المسالك والممالك ، تحقيق دى غويه ، ليدن ١٨٨٩ ، ص ١٠٧ .

٩٧١م[1]، وظل الخراج فى ارتفاع خلال الأعوام ٣٦٢هـ/٩٧٣م حيث بلغ ٤٠٠٫٠٠٠ر٣ دينار ، و ٤٫٠٠٠٫٠٠٠ سنة ٣٦٣هـ/٩٧٣م[2]، إلا أنه نقص إلى ٣٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار فى عهد العزيز بالله ، وزاد فى عهد الحاكم بأمر الله إلى ٣٫٤٠٠٫٠٠٠ دينار ، بينما نقص أيام المستنصر إلى ٣٫١٠٠٫٠٠٠ وإلى ٢٫٨٠٠٫٠٠٠ دينار ، وبلغ أقصى ارتفاع له فى عهد المستعلى حيث بلغ ٥٫٥٠٠٫٠٠٠ دينار[3]، بينما عاد إلى أدنى قيمة له فى عهد الحافظ لدين الله فبلغ ١٫٢٠٠٫٠٠٠ دينار سنة ٥٤٠هـ/ ١١٤٥م ، مما سبق يتضح أن جوهر الصقلى لما رأى من ضعف قيمة ضريبة الخراج التى جباها عند الفتح ، رفع الضريبة العقارية فارتفع بذلك الخراج إلى أكثر من الضعف ، وذلك لأنه رفع الضريبة على الفدان الواحد من أربعة دنانير إلى سبعة دنانير ، بينما قلت الضريبة فى عهد المستنصر نظرا لما تعرضت له مصر من انخفاض النيل والقحط وانتشار الأوبئة والأمراض خلال الشدة المستنصرية .

كانت الحكومة فى حالات الشدة تتدخل ، فقام جوهر بتخفيف وطأة الضرائب على المزارعين وتنزيل الأسعار رأفة بأحوال الناس ، وأمر بمنع احتكار الحبوب لضمان وجود الأقوات، ومن ناحية أخرى أبقى جوهر عامل الخراج عند فتح مصر على بن يحيى بن العرمرم ، ثم أشرك معه

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ١ ص٤٦ .
(٢) أبو صالح الأرمنى : كنائس وأديرة مصر ص٣٩ .
(٣) ابن ميسر : أخبار مصر جـ٢ ص٥٩ .
، المقريزى : الخطط جـ١ ص ٩٩ - ١٠٠ .

المغربى رجاء بن صولاب ، فلما جاء المعز لدين الله صرفهما من جباية الخراج سنة ٣٦٣هـ/٩٧٣م ، وعين أربعة لجباية الخراج هم على بن طباطبا ، وعبد الله بن عطا الله ، والحسن بن عبد الله ، والحسين بن أحمد الروزبارى ، وجعلهم جميعا تحت إشراف يعقوب بن يوسف بن كلس وعسلوج بن الحسن[1].

كان نظام الإلتزام هو المعمول به خلال حكم الفاطميين فى مصر وهو المعروف بنظام تقبيل الأرض ، أى تحديد كفيل لها لتحصيل الضرائب فى القرى والنجوع ، وذلك بعقد مزايدة علنية فى المسجد الجامع كل أربع سنوات ، بطرح الأرض المراد تقبيلها أو تحديد ضامن لها ، فيتجمع الناس ويتزايدوا عليها ، وبعد ذلك تسجل بيانات من استقر عليه المزاد ، والمبلغ الذى انتهى إليه المزاد ، ووصف دقيق للأرض من حيث الحدود والمساحة وطاقتها ونوع المحصول ، ثم يقوم هو بتحصيل خراجها بمعاونة نوابه ومساعديه، ويتضمن ذلك مسئوليته عن ترميم جسورها وتطهير ترعها وكل ما يكفل تحصيل المبلغ المتفق عليه ، وذلك أن الحكومة لم تكن ترضى عن تحصيل أى مبالغ أقل مما اتفق عليه تحت أى ظرف من الظروف، بل كانت تشدد فى ذلك، فلما تأخر مبلغ من الخراج على المستقبلين ويعرف بالبواقى، شدد يعقوب بن كلس يعاونه عسلوج بن الحسن فى طلب الضامن[2].

كان هذا النظام يضمن للدولة الحصول على متحصلات الخراج مقدما أو فى مواعيد محددة ، ويفيد الملتزم فيما يتحصل عليه من الزيادة عما تعهد

---

(١) ابن ميسر : أخبار مصر جـ٢ ص٤٥ .

(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ١ ص١٤٤ .

بدفعه ، لكن الخسارة الحقيقية كانت تقع على الفلاحين ، بسبب عمليات الإبتزاز التى كانوا يتعرضون لها من جانب الملتزمين والدولة فى وقت واحد ، فمن ذلك ما رواه المقريزى من أن الملتزم كان يصطحب معه « شاد » خلال تحصيل الجباية ، وكان هذا الأخير يقوم بسحب الممتنع على وجهه ويضربه بالمقراع حتى يدفع ما عليه ، أو يبيع للملتزم شيئا يفى بالمطلوب وحدث ذلك أيام الحافظ لدين الله[١]، وفى الوقت نفسه كان الخلفاء الفاطميون يوفرون الحماية اللازمة لرعاياهم من عسف الملتزمين بتحديد ما يجب جبايته من كل فلاح، وذلك من خلال ديوان الخراج حيث يقوم متولى الديوان بمساعدة عماله والجباة والكتبة بتسجيل وتحديد كل ربط مالى على أرض ، ثم يقوم بتسجيل قيمة الخراج وتحديد النفقات المرتبطة به ، وكان يعهد إليه بزيادة الخراج أو تخفيضه تبعا لحالة الأرض وكمية المحصول فضلا عن مراقبة الجباة .

أما الجزية : فهى ضريبة الرءوس على أهل الذمة من اليهود والنصارى المقررة عليهم فى كل سنة هجرية ، وتقدر حسب قدر الناس وحالتهم الاقتصادية ، ويعفى منها الفقراء الذين يتصدق عليهم ، ولا قدرة لهم على العمل ، وذوى العاهات ، كما يعفى منها المرأة والصبى والمجنون والعبد والراهب ، وعلى ذلك كانت تفرض على الذكور البالغين الأحرار وتسقط بالإسلام بنص الآية الكريمة :﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّه وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ

---

(١) المقريزى : الخطط جـ٢ ص ٢٤٩ .

الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ (١).

مما تجدر الإشارة إليه أن الجزية كانت تعرف بالجوالى حيث كان اليهود والنصارى ومن فى حكمهم من المجوس يشكلون جاليات فى داخل الدولة ، ويقال لمن يتولى تحصيل الجزية « استعمل فلان على الجالية » ، وتطلق أيضًا لفظة الجالية على الجزية نفسها ، من ناحية أخرى ذكر المقريزى أن تعداد أهل الذمة بلغ نحو سبعة آلاف يهودى وثلاثة آلاف قبطى بالوجهين البحرى والقبلى فى نفس الفترة (٢). مما تجدر الإشارة إليه أن الجزية كانت معروفة فى العالم القديم عند اليونان والفرس والرومان ، فقد فرض اليونان الجزية على سكان سواحل آسيا الصغرى لحمايتهم من الفينيقيين ، كما فرضها الفرس والرومان على الشعوب الخاضعة لهم ، وكانت عندهم مجحفة حتى قدرها المؤرخون بنحو سبعة أمثال ما كان يجبى فى الإسلام ، وذلك مما يؤكد على سماحة الإسلام حتى فى تطبيق مبادئ القانون الدولى المعروف بالمعاملة بالمثل ، وكانت هذه الضريبة تنفق على شحن المقاتلة وتسليحهم ، وعلى رجال الأمن الداخلى ، وذلك لأن الذميين والمسلمين جميعا رعايا دولة واحدة وجميعهم يتمتعون بالحماية والاستقرار الداخلى ، والأمن والسلام ودرء الأخطار الخارجية ، وللعدالة المطلقة كان المسلمون يشكلون فرق الأمن الداخلى ، وكتائب الجيش المنوط بهم حماية الدولة ،

---

(١) سورة التوبة آية ٢٩ .

(٢) المقريزى : الخطط جـ١ ص١٠٧ .

فـإذا مـا اشـتـرك ذمي في إحـدى هاتين الفـرقـتين كـان يعـفى من أداء الجزية[١]، وكان لأهمية هذه الضريبة فى الإنفاق على المصلحة العامة أن خصص لها ديوان الجوالي، وعين لها موظف كبير يعرف بمتولى ديوان الجوالى يعاونه مجموعة من الثقات العدول حتى لا يظلم أحد ، وكان الذمى الذى يتوفى قبل انقضاء الحول أو يدخل فى الإسلام لا يحاسب إلا على الفترة السابقة على الحالة الجديدة[٢].

كانت الزكاة قد فرضت على المسلمين فى العام الثانى بعد الهجرة ، قال تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾[٣]، ومعناها النماء ، من زكا الشئ أى نما وزاد ، وفى ظاهر الزكاة أنها نقص المال بإخراج جزء منه ، لكنها فى حقيقتها زيادة ونماء بالبركة والأجر الذى يثاب به المزكى ، وهى التطهير لأن الخارج من المال يطهره ، وقد توعد الله سبحانه وتعالى مانعى الزكاة بالويل فى قوله تعالى : ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝ الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾[٤] ويقضى الشرع الإسلامى بتحصيل الزكاة فى كل سنة بعد انقضاء الحول وعند بلوغها النصاب المقرر للإخراج، وهى تعد من أعظم أركان الإسلام ، فهى الركن الوحيد الذى اجتمع فيه حقان ؛ حق الله ، وحق الفقراء والمساكين ، وهى تؤخذ من الأغنياء وترد على الفقراء طبقا لنص الآية الكريمة " ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ

---

(١) المقريزي : الخطط جـ١ ص١٠٨ .

(٢) المقريزي : المصدر نفسه جـ١ ص١٧٤ .

(٣) سورة التوبة : آية ١٠٣ .

(٤) سورة فصلت : الآيتان ٦ ، ٧ .

السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[١] ، وقال رسول الله ﷺ : « أدوا زكاة أموالكم فإنها طهور لكم ، ومن أدى زكاة ماله فقد ذهب عنه شره »[٢]. ولا تختلف الزكاة عند الشيعة عنها عند السنة ، يقول الشيخ محمد الحسين آل كاشف العطاء : « ولا شئ منها إلا وهو موافق لمذهب من المذاهب المعروفة الحنفى والشافعى والمالكى والحنبلى »[٣]، وكان للزكاة فى العصر الفاطمى ديوان خاص على رأسه موظف كبير يعاونه طائفة من الموظفين والكتاب ، وعند الشيعة من لا زكاة له لا صلاة له ، والزكاة تجب على كل إنسان مسلم بالغ عاقل متى بلغ ماله النصاب وحل عليه الحول[٤].

أما عن أنصبة الزكاة والواجب فيها ، فأقل نصاب للذهب عشرون مثقالا (٨٥جرام من الذهب عيار ٢٤)، وفيها نصف مثقال وهو ربع العشر، وأقل نصاب الفضة مائتا درهم ، وأما النقود الورقية والمعدنية الأخرى فتقوّم ، ويخرج منها ربع العشر (٢٫٥ ٪).

ونصاب الحبوب والثمار خمسة أوسق ، والوسق ستون صاعًا فيكون النصاب بالصاع النبوى ثلاثمائة صاع ، وهى تساوى ٥٠ كيلة مصرى أو

---

(١) سورة التوبة : آية ٦٠ .

(٢) ابن النعمان : كتاب دعائم الإسلام ، تحقيق آصف بن على أصغر ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٥ ، ص١٥٣ .

(٣) محمد الحسين آل كاشف : أصل الشيعة وأصولها ، بيروت د. ت ، ص٩٩ .

(٤) آل كاشف : المرجع نفسه ص ص ٩٩ - ١٠٠ .

٦٥٣ كجم (الصاع عبارة عن أربعة أمداد) و (والمد ملء كفى الرجل المتوسط)، ويجب فيها العشر فيما سُقى بلا مؤنة، ونصف العشر فيها سقى بالمؤنة، ولا يشترط فيها الحول، وإنما تخرج الزكاة مع كل حصاد لقوله تعالى: ﴿ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾[1]، وأقل نصاب الأبل خمس وفيها شاة، ثم في كل خمس شاة، فإذا بلغت خمس وعشرين إلى خمس وثلاثين ففيها بنت مخاض (التي أكملت سنة من عمرها ودخلت في الثانية)، فإذا بلغت ستا وثلاثين إلى خمس وأربعين ففيها بنت لبون (التي أكملت سنتان ودخلت في الثالثة)، فإذا بلغت ستا وأربعون ففيها حُقة (التي أكملت ثلاث سنوات ودخلت في الرابعة)، فإذا بلغت إحدى وستين إلى خمس وسبعين ففيها جَذَعَة (التي بلغت أربع سنين ودخلت في الخامسة)، فإذا بلغت إحدى وتسعين إلى العشرين ومائة ففيها حُقتان)، فإذا زادت على عشرين ومائة ففي كل أربعين بنت لبون، وفي كل خمسين حقة، أما البقر فأقل نصابها ثلاثون، وفيها تبيع (كل ما بلغ السنة من عمره)، وفي كل أربعين مسنة (لها سنتان)، وفي كل ستين (تبيعان)، ثم في كل ثلاثين تبيع، وفي كل أربعين مسنة، وأقل نصاب الغنم أربعون وفيها شاة، وفي مائة وإحدى وعشرين شاتان، وفي مائتين وواحد ثلاث شياة، ثم في كل مائة شاة. ويشترط أن تكون الأنعام سائمة، وأن تتخذ للدَّر والنسل والتسمين، وأن ترعى المباح أكثر الحول.

أما المعادن المستخرجة من باطن الأرض كالذهب والفضة والرصاص

---

(١) سورة الأنعام: آية ١٤١.

والحديد ونحوه ففيه ربع العشر ، وأما الركاز وهو الكنز من دفن الجاهلية أو من تقدم من كفار ، كالحلى والسبائك وغيرها ، فيجب فيها الخمس حال اكتشافه ، فلا يشترط أن يحول عليه الحول ، وليس له نصاب ، ولا يجب فيه الزكاة إلاّ إذا وجده من تجب عليه الزكاة وهو المسلم البالغ العاقل، أما الصغير والمجنون فلا تجب عليهما الزكاة .

المستغلات : أنشأ الفاطميون ديوانا لتحصيل الضرائب المفروضة على المعادن ، والحوانيت ، والمخازن ، والأفران ، والحمامات ، عرف بديوان المستغلات ، الذى كان يضم فضلا عما سبق المواد الخام ؛ ومن أهمها الشب الذى يستغل فى الصبغ ، والنطرون الذى يبلغ محصوله السنوى نحو ثلاثين ألف قنطار يصدر أغلبه للخارج ، إلى جانب محصول القرظ وهو ثمر شجر السنط [١] ، من ناحية أخرى كان يتراوح إيجار الحوانيت من دينارين إلى عشرة دنانير فى كل شهر [٢] ، كما اتخذ الفاطميون ديوانا للمواريث عرف بديوان المواريث الحشرية ، وهى مال من يموت وليس له وارث بقرابة أو عصب أو ولاية ، فتستولى الدولة على ثروة المتوفى ، وكان هذا الديوان يضم اللقطة التى لم يعلم لها مستحق [٣] ، ويتولى صاحب ديوان المواريث الحشرية شئون المواريث وضبط أحكامها ، وخاصة أن بعض الأثرياء

---

(١) المقريزى : الخطط جـ١ ص١٠٩ .

(٢) ناصر خسرو : سفر نامة ، ترجمة يحيى الخشاب ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٩٣ ، ص ١٢٧ .

(٣) ابن ميسر : تاريخ مصر جـ٢ ص ٥٨ ـ ٥٩ .

كانوا يوصون بأموالهم للخليفة الفاطمي بعد رحيلهم ، فمن ذلك أن جيش ابن صمصامة أوصى أن تؤول تركته وقدرها مائتي ألف دينار إلى الخليفة الحاكم بأمر الله [١].

مما تجدر الإشارة إليه أن المواريث عند الشيعة تختلف عما اتفق عليه علماء السنة فليس عندهم تعصيب[٢]، أى أن القرابة عندهم أولى من التعصيب ، فالوارث عندهم هو الأقرب فالأقرب للمتوفى دون النظر للنوع ، فإذا توفى الرجل وترك ميراثا ولم يكن له سوى ابنة وابن ابن فالمال كله يؤول إلى البنت وحدها لأنها أقرب من ابن الابن ، فنصف المال لها بالفرض والنصف الثانى بالرد ، وقال علماء الشيعة بذلك توظيفا لأغراضهم السياسية ، فلما توفى الرسول ﷺ كان الوارث له عمه العباس بن عبد المطلب ، إلا أن الشيعة قالوا أن السيدة فاطمة الزهراء ترث التركة كلها حتى يمنعوا بنى العباس ، أما رأى القاضى السنى فيعطى نصف التركة للبنت بالفرض ولابن الابن النصف الآخر بالتعصيب ، وإذا كان القاضى السنى يجعل العم هو الأولى بالاشتراك فى تركة المتوفى ، فقاضى الشيعة يقول أن ابن العم الشقيق أولى من العم لأب، وذلك حتى يكون الإمام على بن أبى طالب أولى فى الأرث من تركة النبى ﷺ من العم العباس بن عبد المطلب ، ومن ذلك يرى الشيعة أنه إذا كان ابن العم الأولى فى التركة فهو الأولى

(١) ابن ميسر : المصدر نفسه جـ٢ ص٥٦ ، المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ٢ ص٣٣ .
(٢) آل كاشف : أصل الشيعة وأصولها ص ١٤٢ .

والأحق فى الزعامة السياسية أى فى خلافة الرسول ﷺ ، ومن ناحية أخرى يختلف الشيعة عن السنة فى مسألة إرث الأنبياء ، فالسنة يقولون أن الأنبياء لا يورثون طبقا للحديث النبوى الشريف : « نحن معشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه صدقة » ، بينما يقول قضاة الشيعة : « الأنبياء تورث »[١]، وذلك لتدعيم رأيهم من خلال إضفاء الصفة الشرعية عليه .

ومن موارد بيت المال ، الأموال المصادرة من الموظفين ورجال الدولة الذين يسخط عليهم الحاكم الفاطمى ، وأنشئ لهذا الغرض الديوان المفرد وعرف بأنه الديوان الذى يضم أموال من يسخط عليه الخليفة ، ومن يقبض ماله من المقتولين وغيرهم[٢]، فمن ذلك أن الحاكم بأمر الله لما سخط على بنى قرة بالبحيرة أمر بضم دورهم وسائر ممتلكاتهم للديوان المفرد[٣].

كما أنشأ الفاطميون ديوانا للأوقاف عرف بديوان الأحباس للأموال الموقوفة على جهات البر ، وجعلت له إدارة تشرف على جباية إيراداته وتنظيم إنفاقها ، وينقسم إلى قسمى شئون الأحباس العامة والخاصة ، وكان يعين عليه أحد أعيان كتاب المسلمين ويعاونه الشهود العدول ، الذى يتولى الإشراف على المساجد والمشاهد والسبل والزوايا ، وينفق عليها من إيرادات الأراضى والعقارات المحبوسة عليها ، فضلاً عن الإنفاق على الفقراء والمساكين ، ودفع رواتب الموظفين القائمين على هذا الديوان وما يهيمن

---

(١) المقريزي : الخطط جـ١ ص١٣٩ .

(٢) المقريزي : المصدر نفسه جـ٢ ص٢٨٦ .

(٣) القلقشندي :" صبح الأعشي جـ٤ ص٣٨ .

عليه من ممتلكات (١)، ومـن الأوقاف المحبوسـة على الشئون العامة ما أقر به الحاكم بأمر الله من إيقاف مساحـات كبيـرة مـن الأراضـى الزراعية على الأزهر وجـامع راشـدة والمقس ودار الحكمـة(٢)، بينمـا نجد مثالا للأوقاف الخاصة ما أمر به بدر الجمالى من إيقاف بعض الجهات للصرف على أبنائه وذريته من بعده حتى يضمن لهم مورد ثابت وعيشة كريمة(٣)، ومهـما يكن مـن أمر فكـان الفائض من إيرادات الأحباس يضم إلـى بيت المال .

وكان هناك موارد غير ثابتة تعرف بالمكوس وهى عبارة عن الرسوم التى تفرضها الدولة على التجار العابرين لأراضى الدولة ، وتتراوح قيمتها ما بين العُشر والخُمس من قيمـة البضـائع الواردة والصـادرة وذلك على تجار المسلمين، بينمـا قـد ترتفع إلى الثلث لغيـر المسلمين(٤)، وبالغ بعض المسئولين فى جباية المكوس مثل عيسى بن نسطورس الذى يقال أنه فرض المكوس على كل شئ ولم يسلم من ذلك إلا الهـواء (٥)، وكـانت المكوس تدفع نقدا وعينا(٦)، وشملت مكس البهار والبز والقوافل، ومقابل استخدام أماكن البيع فى الأسواق كأسواق الفحم والرقيق والدواب والسمك ، كما اشتملت على المكس المفروض على عمليات البيع والشراء ، والمتاجر

(1) Zaki Hassan : Les Tulunides, P. 260 .

(٢) المقريزى : الخطط جـ١ ص ٤٥٨ ـ ٤٥٩ .

(٣) المقريزى : المصدر نفسه جـ١ ص ٣٠٥ .

(٤) القلقشندى : صبح الأعشى جـ٣ ص٤٦٤ .

(٥) الأنطاكى : تاريخ الأنطاكى ص١٠٨ .

(٦) المقريزى : المصدر نفسه جـ١ ص١٠٥ .

والمصانع والمخازن ، كما اشتملت على مكس على البضائع ، ومكس على السفن ، وحراسة الغلال ، وآلات النسيج ، ومكس على المسالخ والمذابح ، وعلى المعديات، وعلى استعمال الميزان القبان ، ذكر المقدسى الذى زار مصر فى أوائل العهد الفاطمى ، أن ما جبى من المكوس من الفسطاط وحدها فى يوم واحد بلغ خمسين ألف دينار مغربى[١] ، وبلغ ما جبى من المكوس فى كل من تنيس ودمياط والأشمونين مائتى وعشرين ألف دينار فى يوم واحد [٢] ، وليس أدل على جور الفاطميين ومبالغتهم فى جباية المكوس من أن صلاح الدين الأيوبى لما حكم مصر أسقط من المكوس ما يزيد على ألفى ألف دينار وألفى ألف أردب[٣] ، ومن أهم مناطق جباية المكوس كانت المدن الساحلية كالإسكندرية ودمياط وتنيس ورشيد ، فضلا عن الفرما والقلزم (السويس)[٤]، وكانت عيذاب مركز تحصيل المكوس على السلع الواردة من الحبشة واليمن وزنجبار[٥]، ومن ناحية أخرى كان يعين بعض الموظفين فى الثغور لجباية المكوس ومنع التهرب فكانوا ضمن الحاميات المقيمة بالثغور، وكانت الأموال المتحصلة من المكوس تعرف بالمال الهلالى لأنه كان فى نظر فقهاء المسلمين مال غير شرعى على النقيض من المال الخراجى .

كانت موارد الدولة تصرف معظمها فى النفقات العامة كالمرافق من

---

(١) المقدسى : أحسن التقاسيم ص٢١٣ .
(2) Lane Poole : A History of Egypt P. 114 .
(٣) المقريزى : الخطط جـ١ ص١٠٤ .
(٤) القلقشندى : صبح الأعشى جـ٣ ص ٤٩٥ .
(٥) المقدسى : المصدر نفسه ص ٢١٣ .

حفر للأنهار وإصلاح مجاريها ، وحفر الترع ، والصرف على المساجين ، وتزويد الجيوش بالمعدات الحربية ، وتشييد المساجد والمقابر ، ونفقات القصور والإحتفالات والمناسبات القومية والدينية ، وجعل للنفقات ديوان يرأسه موظف من كبار رجال الدين المشهود لهم بالحنكة الاقتصادية فكانت تعرض عليه النفقات المطلوبة ، ليقرر ما يشاء بعد الإذن من الخليفة ويعاونه طائفة من الموظفين ،. فمن ذلك أن الحاكم بأمر الله ولى الجرجرائى ديوان النفقات سنة٤٠٦هـ/ ١٠١٥م[١].

كانت رواتب الموظفين وكبار رجال الدولة ورؤساء الدواوين تدفع من موارد الدولة ، وفضلا عن ذلك كان يخصص لهم رواتب عينية من الجرايات والحبوب واللحوم والكسوة فى المناسبات المختلفة، وكان ديوان الرواتب هو المختص بالنظر فى العطاء والأرزاق النقدية والعينية ، حيث يقوم كتاب الديوان بتسجيل أرباب الرواتب ويحذفون من مات ، فكانت مهمة الكُتاب تحتاج إلى دقة ومراجعة من أجل ضمان صحة الإضافة والحذف ، بل والنقص والزيادة والتعديل [٢]، وكانت تعرض على الخليفة سنويا لإقرارها وبلغت الرواتب فى عهد الحاكم بأمر الله سنة ٤٠٣هـ/١٠١٢م نحو مائتى ألف دينار نقدا ، ومن القمح والشعير عشرة آلاف ، وكان الخليفة يصدق على الميزانية بعبارات بليغة تدعو إلى الزهد فى الحياة الدنيا ، وتقوى الله عز وجل، والأمر للعمال بإعطاء كل ذى حق حقه من العطاء والأرزاق على الدوام ، فمن ذلك ما كتبه الحاكم بأمر الله بخط يده على

---

(١) ابن منجب : الإشارة ص٣٥ .
(٢) القلقشندى : صبح الأعشى جـ٣ ص ٥٢٥ ـ ٥٢٧ .

ميزانية ٤٠٣هـ/١٠١٢م :ـ بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله كما هو أهله ومستحقه :

أصبحت لا أرجو ولا أتقى إلا إلهى وله الفضل

جدى نبىٌ وإمامى أبى ودينى الإخلاص والعدل

ما عندكم ينفد ، وما عند الله باق ، والمال مال الله والخلق عيال الله، ونحن أمناؤه فى الأرض ، أطلق أرزاق الناس ولا تقطعها والسلام [١] ، والأية المقتبسة ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ ﴾[٢].

وكان الخليفة المستنصر بالله حريصا على أن تصل الحقوق إلى أصحابها ، فكتب إلى متولى ديوان الرواتب بخط يده على الميزانية : « الفقر مر المذاق ، والحاجة تذل الأعناق ، وحراسة النعم بإدرار الأرزاق ، فليجروا على رسومهم فى الإطلاق ، ما عندكم ينفد وما عند الله باق »[٣]، وصدق الخليفة الحافظ لدين الله على الميزانية بعبارة وجيزة جاء فيها[٤]: « أمير المؤمنين لا يستكثر فى ذات الله كثير العطاء ، وليجروا فى نسبياتهم على عادتهم ، كرما من أمير المؤمنين وفعلا مبرورا وعملا بما أخبر به عز وجل فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا ﴾[٥].

---

(١) ابن منجب : الإشارة ص٢٩ .

(٢) سورة النحل : آية ٩٦ .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٢ ص ٧٣٤ .

(٤) ابن خلدون : العبر جـ٤ ص٧١ .

(٥) سورة الإنسان آية ٩ .

كانت الرواتب متفاوتة بدرجة كبيرة فبينما كان الوزير يتقاضى خمسة آلاف دينار فى الشهر ، كان راتب صاحب الباب المعظم مائة وعشرون دينارا، وكان راتب كل من حاملى السيف والرمح سبعون دينارا . والطبيب الخاص خمسون دينارا ، وهم المرتبطون بالعمل فى القصر الخلافى ، بينما كان راتب قاضى القضاة مائة دينار ، وهو نفس راتب صاحب بيت المال[١] ، وكان راتب والى القاهرة خمسون دينار ووالى الفسطاط مثله[٢] ، وكاتب الدست الشريف (صاحب ديوان الإنشاء) مائة وخمسون دينارا[٣] ، وصاحب التوقيع بالقلم الدقيق على المظالم مائة دينارا[٤] ، أما الكتاب التابعين لكاتب الدست فكان يتقاضى كل واحد منهم ثلاثون ديناراً ، ومتولى ديوان الجيش أربعون ديناراً[٥] ، وكانت رواتب قراء الحضرة تتراوح بين عشرة وعشرين دينارا ، أما متولى ديوان التحقيق الذى يختص بالمقابلة على الدواوين ومراجعة أعمالها والتحقق من انتظامها ، فكان يتقاضى راتبا قدره خمسون ديناراً[٦] ، ومتولى ديوان المجلس يتقاضى أربعون ديناراً[٧] ، بينما كان صاحب دفتر المجلس يتقاضى خمسة وثلاثون دينارا شهريا[٨] .

---

(١) المقريزى : خطط جـ١ ص ٤٠٣ .
(٢) المقريزى : المصدر نفسه جـ٢ ص١٣٣ .
(٣) القلقشندى : صبح الأعشى جـ٣ ص٤٩٠ .
(٤) القلقشندى : المصدر نفسه جـ٣ ص٥٢٦.
(٥) المقريزى : المصدر نفسه جـ١ ص٤٠١ .
(٦) القلقشندى : المصدر نفسه جـ٣ ص ٥٢٦ .
(٧) ديوان المجلس : ديوان أصل الدواوين ومرجعها كلها وزمامها ، فهو المشرف على دواوين الدولة المالية ، المقريزى : المصدر نفسه جـ١ ص ١٦٠ ـ ١٦١ .
(٨) المقريزى : المصدر نفسه جـ١ ص٣٩٧ .

كان من خصائص الإدارة المالية للدولة الفاطمية وضع نظام محكم للرقابة على الموارد والمصروفات فضلا عن الرقابة الإدارية ، فمن ذلك ديوان التحقيق الذى كان يختص صاحبه بالمقابلة على أعمال الدواوين ومراجعة أعمالها والرقابة على أصحابها ، ولذلك كان يعين عليه أحد الخبراء المحنكين لمراجعة الشئون الإدارية والمالية ، فوليه أبو البركات يوحنا بن الليث النصرانى سنة ٥٠١هـ/١١٠٧م وظل يلى أمره حتى سنة٥١٨هـ/١١٢٣م[١]، كذلك كان هناك ديوان المجلس الذى يناط بصاحبه تلقى الحسابات الختامية لكل ديوان من دواوين الدولة فى نهاية كل عام هجرى، أى أن كل ديوان كان عليه إعداد لائحة بيانات بإيراداتها ومصروفاتها ، ويقوم متولى ديوان المجلس بتجميع البيانات وتلخيصها وإعدادها فى صورتها النهائية لتقدم إلى الخليفة أو الوزير ، وكان ديوان المجلس يعد أيضاً سجلات دقيقة بكل النفقات الخاصة بالمناسبات الدينية والقومية ، وكل ما يخرج من خزائن الغلال لعائلة الخليفة ، وكبار رجال الدولة وأربابها على اختلاف منازلهم وطبقاتهم ، وسجلات أخرى منفصلة يدون بها ما يرد لقصر الخلافة من الهدايا والتحف من ملوك وحكام الدول المختلفة ، ومن خلال مقارنة الميزانيات السنوية يمكن الوقوف على الفائض أو العجز ودراسة أسبابه ، فلما أراد اليازورى وزير المستنصر بالله معرفة قدر ارتفاع الدولة (مواردها) وما عليها من النفقات ليوازن بينها أمر أصحاب الدواوين بإعداد سجلاتهم ودفعها إلى متولى ديوان المجلس[٢]، وكان يعاون متولى

---

(١) ابن ميسر : تاريخ مصر جـ٢ ص٤٢ .
(٢) المقريزى : خطط جـ١ ص ٨٢ .

ديوان المجلس أحد الأساتذة المحنكين ويلقب بصاحب دفتر المجلس ، فضلا عن حاجب يقف بين يديه وله المرتبة والمسند والدواة التى تخرج له من خزانة الخليفة [١].

مما تجدر الإشارة إليه أن الرقابة الإدارية والمالية لم تقتصر على ديوان التحقيق والمجلس ، بل كان هناك ديوان النظر الذى كان يضطلع بالتدقيق ومراجعة الموازنات العامة للدولة فى حالة وجود أى خلل بين الموارد والمصروفات ، وكان الخليفة يعهد إليه مباشرة بالمراجعة النهائية لكل دواوين الدولة فى حالة الشك فى سجلات أى ديوان منها ، ولذلك كان صاحبه يختار بدقة من الخبراء المحنكين فى الشئون الإدارية والمالية ، وكان لصاحبه الحق فى عزل وتولية من يرى من موظفى دواوين الدولة المختصين بالأموال ، ولذلك كان متولى ديوان النظرمن أصحاب المناصب الرفيعة [٢].

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ٣ ص ٤٩٤ ، ٥٣٦ .
، المقريزى : خطط جـ١ ص٤٠٨ .

(٢) عطية مشرفة : نظم الحكم بمصر فى عصر الفاطميين ، دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٤٨، ص٢٣١ .

خامساً : القضاء :.

القضاء فى اللغة هو الإلزام والإخبار والفراغ والتقدير ، وفى الاصطلاح فصل الخصومات وقطع المنازعات على وجه خاص صادر عن ولاية عامة بالأحكام الشرعية المتلقاه من الكتاب والسنة [١]، وقد كان القضاء من الوظائف المقدسة لأنه فرض لقوله تعالى : ﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [٢]، وقال تعالى ﴿ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ﴾[٣] ، وقال تعالى مخاطباً الأمة الإسلامية : ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ [٤]، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم مبينا مدى أهمية وخطورة القضاء بين الناس : «القضاة ثلاثة واحد فى الجنة واثنان فى النار ، فأما الذى فى الجنة فرجل عرف الحق فقضى به ، ورجل عرف الحق وجار فى الحكم فهو فى النار ، ورجل قضى للناس على جهل فهو فى النار» [٥]، وطوبى لقاض لم يكن عبد هواه، ولم يبع آخرته بدنياه .

---

(١) عرنوس : تاريخ القضاء فى الاسلام ، القاهرة ١٩٣٤ ، ص ٨٣ .
(٢) سورة ص آية ٢٦ .
(٣) سورة المائدة : آية ٤٨ .
(٤) سورة النساء آية ٥٨ .
(٥) أبوداود : سنن أبى داود ، تحقيق عبيد الدعاس ، دمشق ١٩٦٩ ، ص ١٤٧ .

ولقد اهتم الفاطميون اهتماما بالغا بالقضاء ووضعوا له ضوابط محكمه وتقاليد راسخة جعلت منه مضرب الأمثال فقد منحت الدولة الفاطمية اختصاصات واسعة وحريات كبيره لقضاتها ، جعلتهم فى منزلة عالية يعيشون مطمئنين محافظين على كرامتهم وكرامة وظيفتهم وما تتطلبه من المظاهر السامية فى عيون وقلوب العامة والخاصة ، وتدعيما لذلك فقد صار للقضاة فى العصر الفاطمى من الزواجر مالا يتيسر لهم فى الوقت الحاضر ، فالزواجر طبقا للشريعة الإسلامية إما حدود أو تعازير ، وتركت معظم الجرائم لتقدير القاضى الشرعى يحكم فيها بالعقاب الذى يراه مناسباً لها ، لأن القاضى اليوم محدود بعقوبات معينه ، والقاضى الشرعى له حق التعزير ، وهو التأديب على ذنوب لم تشرع فيها الحدود ، فالحد مقرر شرعا، والتعزير مفوض أمره ونوعه وتقديره إلى الحاكم الذى كان يوليه للقاضى [١]، فكان قضاة الدولة الفاطمية يتبعون المثل العليا والفضائل ويحافظون على إقامة دعائم الدين ويضربون للرعية القدوة الحسنة فى جميع البلاد ، كانت تلك هى السمة الغالبة للقضاة الفاطميين ولم يظهر عكس ذلك الأ نادرا ، فكانت الدولة تتصدى لهم ويتم عزل من تثبت إدانته والتشهير به [٢].

لم تختلف الصفات الواجب توافرها فى القاضى منذ عرفت هذه الخطة طريقها إلى النظم الإسلامية ، فكان يشترط فيه أن يكون عالما ملما

(١) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٢٠٥ .

(٢) ابن حجر : رفع الإصر عن قضاة مصر ، تحقيق حامد عبد المجيد ، القاهرة ، ١٩٦١، ص٩٣.

النويرى : نهاية الارب جـ ٢٦ ص ٥٤ .

بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، عفيفا تقيا شجاعا لا تأخذه في الله لومة لائم لأن مهمته ترتبط بمصائر الناس ، ومن أخص صفاته سعة الصدر لايضجر ولايتأذى بالخصوم لرثاثتهم ، أو لارتفاع أصواتهم ، بل يعطى لكل خصم حريته الكاملة فى الدفاع عن نفسه ، وأن يكون عادلا يتساوى أمامه المسلم والذمى والرفيع والوضيع والعامة والحكام ؛ حريصا على مكانته وعظيم مسئوليته لأنه هو المكلف بتطبيق الشريعة الغراء، لايؤثر أحداً على أحد ، فلما حضر الأحزم وكان رجلا مقربا من الخليفة الحاكم بأمر الله إلى القاضى أحمد بن العوام ورفع اليه فتوى تبدأ بعبارة : «بسم الحاكم الرحمن الرحيم» ، غضب وأوقفه عند حده [(١)]، وكان على القاضى أن يحافظ على كرامته ، يبتعد عن مواطن الزلل وإلاّ فقد وظيفته ، فلما حدث خلاف بين قاضى القضاة ابن الأزرق وأبى الحسن على بن اسماعيل الفقية المعلم بدار العلم وتطور هذا الخلاف إلى المصافعة والشجار، خرج القاضى إلى قصر الخليفة ماشيا وقد تخرقت ثيابه وسقطت عمامته ، فلما علم الخليفة الحافظ بذلك صرفه عن وظيفته وألزمه داره بعد أن قرر عليه غرامة مائتى دينار سنة ٥٣٣هـ / ١١٣٨م .

كان القاضى الجليل الذى يعرف قدر مكانته مهابا مرفوع الرأس ، فلما دخل المعز لدين الله مصر سنة ٣٦٢هـ / ٩٧٢م ، استقبله الناس على طبقاتهم مشاة فلما رأوه قبلوا الأرض بين يديه سوى القاضى أبى الطاهر ، فإنه كان راكبا فترجل وسلم على الخليفة ولم يقبل الأرض ،

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ١٨٣ .

فالتفت المعز إلى خواصه وقال : «من هذا الذى خالف الناس كلهم ؟ فقيل «قاضى مصر ، وهو من أهل العلم والدين » فرد القاضى جهراً : وماهذا ؟ « أهو الشمس التى قال رسول صلى الله عليه وسلم «من علامات الساعة طلوع الشمس من مغربها» ، قال تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِه اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَهُنَّ إن كُنتُمْ إيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [١]، فاستحسن المعز قوله وظل فى منصبه وعلت منزلته» [٢].

ومن ناحية أخرى كان الخلفاء يحترمون قضاتهم ويجلونهم ، فيستشيرونهم ولا يقطعون أمرا دون ذلك ، فضلا عن تلك المكانة العليا التى اكتسبوها عند الخلفاء ، وليس أدل على ذلك من أن الخليفة المعز لدين الله خرج بنفسه إلى دار القاضى النعمان بن محمد لما توفى سنة ٣٦٣هـ / ٩٧٣م وصلى عليه وأضجعه فى التابوت ، كما ركب الحاكم بأمر الله إلى القاضى محمد بن النعمان لدى وفاته سنة ٣٨٩هـ/ ٩٩٩م وصلى عليه فى داره ، وكان الحسن اليازورى اذا خرج من عند الخليفة المستنصر مشى أهل الدولة وأربابها فى ركابه [٣] ، كما كان الخليفة العاضد لدين الله يعظم القاضى الأغر الحسن بن العوريس ويحترم آراءه .

كانت رسوم تولية القضاة تتم بالقصر الخلافى بيد الخليفة بحضرة

---

(١) سورة فصلت : آية ٣٧ .

(٢) حسن ابراهيم : الفاطميون فى مصر ص ١٨٩ ـ ١٩٠ .

(٣) ابن حجر : رفع الإصر ص ٨٤ .

الأمراء فيخلع عليه الثياب الخاصة والتى تبلغ عدتها سبعة عشر وتنسج بخيوط الذهب أو الفضة أو الخيوط متعددة الألوان تبعاً لدرجة القاضى ورضاء الخليفة عنه [١]، ويقلد سيفا وسجلا يبدأ بالدعاء له أن ينزل الله عليه الحكمه على يده ولسانه وقلبه ثم الصفات الحسنة التى يجب أن يتحلى بها والوصايا التى يجب عليه التزامها والعمل بها والتى من أهمها تطهير مجلسه ممن يأكل الرشا ، والتسوية فى الحكم فى أقواله وأفعاله والأخذ من صديقه لعدوه ويحدد له حدود منطقة القضاء والأعوان الذين يعتمد عليهم من الأمناء والكتاب ، وبعد أن يتناول السجل يسير فى موكبه إلى المسجد الجامع فيقرأ أحد أتباع القاضى السجل على الناس ثم ينصرف إلى داره حيث يجلس لاستقبال المهنئين من الشهود والأمناء التجار وعلية القوم [٢]، وكان زى القاضى يتميز باللون الأخضر أو الذهبى ، فلما دخل القاضى أبوالطاهر محمد على جوهر الصقلى فى ربيع الأول ٣٦٢هـ/ ٩٧٢م بطيلسان كحلى ، أنكر جوهر عليه ذلك ومد يده فشقه، فغضب أبوالطاهر ، فأمر جوهر بتمزيقه فمزق وجوهر يضحك ، وبقى حاسرا بغير رداء فقام جوهر وأخرج له عمامة ورداء أخضرين [٣]، وخلع العزيز على القاضى على بن النعمان ثيابا بيضاء ورداء وعمامة مذهبين ، كما قلد الحاكم بأمر الله مالك بن سعيد بن مالك الفارقى عمامة وطيلسانا مذهبين عند توليته القضاء [٤]، وكان مرسوم التولية

---

(١) زكى حسن : كنوز الفاطميين ص ١١٥ .
(٢) السيوطى : حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة جـ ٢ ص ٩٣ - ٩٤ .
(٣) المقريزى اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ١٣٢ .
(٤) ابن حجر : رفع الإصر ص ٢١٣ .

يتضمن تحديد راتب القاضى الذى بلغ ألف ومائتى دينار سنويا [١]، وإذا أضيف أعمال أخرى كالمظالم وبيت المال فكان يتقاضى عنها رواتب أخرى حسب مخصصات كل وظيفة ، وذكر ناصر خسرو أن رزق قاضى القضاة بمصر كان ألفى دينار مغربى فى الشهر ، حيث لايطمع فى مال الناس ولا يظلم أحدا [٢]، وفضلا عن ذلك كان القاضى يمنح راتبا عينيا من الطعام والأعلاف واللحوم بما يكفيه وعائلته ودابته ، أو إقطاعا ، فكتب الحاكم بأمر الله سجلا بإقطاع القاضى الحنبلى بن العوام ضيعة تلبانه سنة ٣٩٩هـ / ١٠٠٩م [٣]، وكان السجل يشتمل على الألقاب الخاصة بكل قاض فكان لقب القاضى محمد بن النعمان سنة ٣٨٥هـ / ٩٩٥م أستاذ الدعوة بالقصر [٤]، بينما لقب القاضى أبو محمد القاسم بن عبدالعزيز بن النعمان سنة ٤١٨هـ / ١٠٢٧م بقاضى القضاة وداعى الدعاة وثقة الدولة وأمير الأمراء وشرف الحكام [٥]، ولقب عبدالحاكم بن وهب سنة ٤٥٠هـ / ١٠٥٨م بقاضى القضاة ثقة الأنام علم الإسلام[٦]، ولقب ابن العوام الحنفى فى عهد المستنصر بالله بقاضى القضاة نصير الدولة أمين الأئمة ، أما القاضى أحمد بن عبدالحاكم ، وابن أبى سعيد الفارقى فلقب سنة ٤٥٤هـ / ١٠٦١م بقاضى القضاة الأعظم ، داعى

---

(١) المقريزى : خطط جـ ١ ص٤٠٣ ، ٤٠٤ .
(٢) ناصر خسرو : سفرنامه ص ٧١ .
(٣) ابن حجر : رفع الإصر ص ٤٦ .
(٤) حسن ابراهيم : الفاطميون فى مصر ص ٢٢٦.
(٥) المقريزى : المصدر نفسه جـ ١ ص٤٠٤ .
(٦) ابن حجر : المصدر نفسه ص ١٣٧.

الدعاة علم الدين ثقة المسلمين خليل أمير المؤمنين[١] .

كانت هناك تقاليد رفيعة لنظام العمل بجلسات القضاء ، فإذا جلس القاضى للحكم فلا يسلم على الخصوم ولاهم يسلمون عليه ، ولايقوم لأحد وهو جالس فى مجلس القضاء مهما علت منزلة القادم عليه[٢] ، ويشير القاضى فيتم دخول الخصوم على مراتبهم فى الحضور ، وإذا تساووا فى الحضور أقرع بينهم ، وكانت جلسات القضاء علنيه حتى ولو كان أحد الخصوم الخليفة نفسه ، ففى سنة ٤٠٢هـ / ١٠١١م ، رفع أحد التجار خصومة للقاضى ضد الخليفة الحاكم بأمر الله لأنه أمر بإبادة فاكهته ، فلما واجهه بالتهمة صرح الخليفة للقاضى أنه فعل ذلك خوفا من تحويلها إلى خمر، ووعد بدفع مبلغ التعويض الذى طالب به التاجر وهو ألف قطعة من الذهب إذا أقسم التاجر أن الفاكهة كانت للأكل فقط ، فحلف التاجر وحصل على مبلغ التعويض من الخليفة[٣] .

وكانت مجالس القضاء تعقد فى دار القاضى أو برحبة خاصة بالجوامع، فكانت تعقد يومى السبت والثلاثاء بزيادة جامع عمرو بمصر على طراحة ومسند حرير ، وكان إذا جلس القاضى جلس الشهود عن يمينه وعن شماله على مراتبهم ، وببابه خمسة حجاب ، وأما القاضى فتوضع له الدواة على كرسى ، وهى دواة محلاة بالفضة تحمل إليه من

---

(١) ابن حجر : رفع الإصر ص ٣٣ - ٣٤ .
(٢) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٨٧ .
(٣) مشرفه : نظم الحكم ص ٢٣٨ .
O'Leary : A short History of the Fatimid Khaliphate, p165.

خزائن قصور الخلافة [١]، وكان القضاة يفردون للرجال مكانا خاصا بهم، وللنساء مثل ذلك إذا اختصموا إليهم [٢].

جاء فى كتاب «نظم الحكم» [٣] عن عقد مجالس القضاء بالجوامع . قول مؤلف الكتاب : «نعجب كيف سمح للقضاة بأن يجلسوا فى مساجد الله ليقضوا بين الناس فتدخل عليهم المرأة الحائض والرجل الجنب ومن لايحترز من النجاسة ، وقد ترتفع الأصوات فيها وتكثر من غشيان الباعة والمتطفلين» [٤]. وتعقيبا على ذلك فإن الراجح أن مجالس القضاء كانت تعقد فى أماكن محددة بعيدة عن أماكن الصلاة ، فقد ذكر المقريزى أنها كانت تعقد بزيادة جامع عمرو [٥]، وتوكيدا على ذلك تضمن سجل توليه الحاكم بأمر الله لقاضى القضاة أمره أن يجلس للحكم فى المواضع «الضاحية» للمتحاكمين [٦]، من ناحية أخرى حرص القضاة على عقد مجالس القضاء فى كنف المساجد لارتباط أحكام القضاء بالشريعة الغراء طبقا لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وليطمئن كل انسان على الحصول على حقوقه كاملة .

كان الخليفة هو المنوط بتعيين قاضى القضاة ، وقضاة الأقاليم والبلاد غير أنه كان يخول هذه السلطات بعض المقربين الثقات كالوزراء أو النواب، بينما يفوض قاضى القضاة فى تعيين قضاة للأقاليم ، وفى هذه الحالة كان

---

(١) المقريزى : خطط جـ ١ ص ٤٠٣ .
(٢) عطية مشرفة : نظم الحكم ص ٢٦٠ .
(٣) الاستاذ الدكتور عطية مشرفه .
(٤) مشرفه : المصدر نفسه ص ٢٣٩ .
(٥) المقريزى : المصدر نفسه جـ١ ص٣٠٠ .
(٦) القلشندى : صبح الاعشى جـ ١٠ ص ٣٨٦ .

على من يحمل هذا التفويض الرجوع إلى الخليفة للتصديق على مقترحاته ، لأنه اذا لم يقم الخليفة بتعيين القضاة أو يقرهم انعدمت صفتهم كقضاة ، وكان لنائب الخليفة جوهر الصقلى أن يعين القاضى بمصر أيام المعز لدين الله ، كما كان لوزراء السيف والقلم أن يعينوا القضاة ، فكان بدر الجمالى مخولا بتعيين القضاة ، وإخراج السجلات الخاصة بتعيينهم باسمه هو أيام الخليفة المستنصر لأن بدر الجمالى كان وزيرا وقاضيا للقضاة، فولى بدر الجمالى القضاء لمحمد بن أبى الفرج ، وولى ابنه الأفضل بن بدر الجمالى القضاء لأبى محمد بن جوهر ابن ذكا النابلسى أيام الخليفة المستعلى ، كما ولى أحمد ابن الأفضل بن بدر الجمالى أربعة قضاة من مختلف المذاهب (شافعى ومالكى وإمامى وإسماعيلي) [١]، غير أن هذه الحالات كانت خاصة بأوضاع مؤقتة، لأن الأمر كان يعود إلى ما كان عليه بعد زوال الأسباب ، حيث احتفظ أغلب الخلفاء بتعيين كافة القضاة فى الحاضرة والنواحى .

ومهما يكن من أمر فقد كان القضاة مستقلين عن الوزراء حتى فى حالة التعيين من قبلهم لأن التصديق فى نهاية الأمر يأتى بيد الخلفاء ، ومن أمثلة تفويض قاضى القضاة فى تعيين قضاة الأقاليم والنواحى ، ما قام به على بن النعمان الذى استخلف أخاه محمدا على تنيس ودمياط ، واستخلف الحسين بن محمد بمصر والقاهرة مالك بن سعيد الفارقى ، كما استخلف أبو محمد القاسم بن عبد العزيز بن محمد القاضى يحى الشهاب[٢]، وكذلك استقل القضاة أيضا عن قاضى القضاة الذى عينهم

---

(١) ابن حجر : رفع الإصر ص ص١٠٦ ، ١١٠ ، ٢٢٦ .

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٩١ .

لأن أموال الناس وحقوقهم وأرواحهم بين يديه ولاتتحقق العدالة على أكمل وجه وأحسن صورة إلاّ بالاستقلال والحرية[١]، وتنعقد ولاية القضاء بألفاظ محددة هى ؛ قلدتك ووليتك واستخلفتك وأنبتك، وتتحدد السلطات ببعض الألفاظ أيضا فمنها فوضت إليك ، أوجعلت إليك أو أسندت إليك [٢]، وعلى ذلك صار للقاضى ولاية عامة مطلقة تشمل الفصل فى كافة المنازعات مدنية وجنائية ، كما تعطى صاحبها الحق فى اختيار النائبين عنه وعزلهم ، وقد تكون ولاية خاصة مقصورة على نصاب محدد أو على الفصل فى بعض المنازعات التى يعين للقاضى بالذات ما يفصل فيه ، وقد يكون عام النظر خاص العمل ، فيقلد النظر فى جميع الأحكام فى أحد جانبى المدينة ، وقد يقلد النظر بين ساكنى هذا الجانب من المقيمين من أهل المدنية دون الغرباء [٣]، وقد يحدد لأحد القضاة الفصل فى جانب دون الآخر ، فقد ولى ابن أبو ثوبان الحكم بين الجند والفصل فى نزاعاتهم خلال حرب المعز لدين الله للقرامطة [٤].

كان كاتب القاضى يجمع الرقاع الخاصة بالقضايا قبيل مجئ القاضى ويرتبها حسب أولوية المتقدمين ، ويتأكد من المعلومات الواجب توافرها فى الرقاع وهى اسم المدعى واسم الخصم كاملا وموضوع التخاصم ، ويقوم الكاتب بتحديد موعد نظر القضايا إما فى نفس اليوم أو يحدد للمتخاصمين

(١) مشرفه : نظم الحكم ص ٢٧٤ .
(٢) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٥٧ .
(٣) ابن ميسر : أخبار مصر جـ ٢ ص ٤٥ .
(٤) النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٦ ص ٤٥ .

مواعيد لاحقة (١)، وكانت أحكام القضاة نهائية لانقض فيها لأنه يحكم بموجب الشرع واختصاصاته المخولة إليه من الخليفة، ويتم قيد الأحكام بالسجلات ويمنح المحكوم له صورة من الحكم يستوفى بها حقوقه ، وكان القاضى يستعين بطائفة من الفقهاء يعرض عليهم ما أشكل عليه أو ما استغلق من المسائل كما يستعين بترجمان إذا كان أحد المتخاصمين من غير المتحدثين بالعربية ، وكان كاتب الجلسة يقوم بتدوين كل مايدور فيها تحت سمع وبصر القاضى ، وتأكيدا لصحة مادون كان يكلف بقراءة ماكتبه على شهود الجلسة ، ولذلك كان الكاتب يختار بدقة من العدول الأمناء حتى لايضعف أمام رشوة أو محسوبية لقرابة (٢)، ولضمان ضبط النظام طوال انعقاد الجلسة كان يعين حجاب جلاوزة (شداد عتاه) يقفون على باب مجلس القضاء لمنع التزاحم وترتيب الأدوار واستدعاء الخصوم تبعا لرغبة القاضى وكان يشترط فيهم القوة البدنية والصلاح والتقوى حتى يعاملوا الناس بالرفق فى غير ضعف ولاتقصير (٣).

أما الشهود فيتم اختيارهم بدقة بعد تفشى ظاهرة شهادات الزور فى المجتمع ، فكانت تكتب أسماؤهم فى كتب بعد السؤال عنهم من المقربين والجيران ، ويعين لهذا الغرض رجل من أهل الخبرة والدراية للقيام بهذه المهمة يسمى صاحب المسائل ، وكان القاضى يختارهم ويتفحصهم بنفسه بعد تقديم أسمائهم ولايزكى منهم أحدا ولا يعتمده إلا بشهادة عشرين

---

(١) آدم متز : الحضارة الإسلامية جـ ١ ص ٣٦٩ .
(٢) عطية مشرفة : القضاء فى الإسلام ، القاهرة ١٩٣٩ ، ص ١٤٩ .
(٣) عرنوس : تاريخ القضاء فى الإسلام ، القاهرة ١٩٣٤ ص ص ١٢٨ - ١٢٩ .

شاهدا وبعد موافقة الخليفة [١]، وكانت أسماء الشهود تتغير مع عزل القاضى أو وفاته ، فلما تولى القاضى عبدالعزيز بن محمد بن النعمان القضاء بمصر سنة ٣٩٤هـ / ١٠٠٣م ، أوقف الشهود الذين قلدهم ابن عمه الحسين بن على بن النعمان ماعدا شرف بن محمد المقرى ، فقد استبقاه فى الكتاب الجديد الذى يتضمن أسماء الشهود [٢]، وكان عدد الشهود فى المتوسط يبلغ نحو ثلاثين شاهدا ؛ إلا أنه كان يزيد وينقص تبعا لرؤية الخليفة والقاضى وحالة الناس فى المجتمع ، فإذا مانفشى الانحلال فى المجتمع فإن القاضى كان يستكثر منهم ، فبلغ عددهم مائة وعشرين شاهدا خلال ولاية القاضى محمد بن أبى الفرج الذى ولى القضاء بمصر فى ذى الحجة ٥١١هـ / ١١١٧م [٣]، وكان القاضى يتصفح أعمال الشهود ويتابع حسن سيرتهم ليطمئن إلى عدالتهم ، ويأخذ القاضى برأيهم فيما له علاقة بالمتقاضين ، وكان اختصاصهم أيضا الشهادة على ما يصدره القاضى من الأحكام [٤]، لذلك كانوا يجلسون حول القاضى يمينه وشماله ليشاهدوا ما يقع من الأحكام [٥]، ومن الجدير بالذكر أن الحكم فى القضايا لم يلزم أن يشهد جميع الشهود المدونين فى الكتاب ولكن القاضى يختار منهم من يشاء ، وتثبت الوقائع بشهادة رجلين أو رجل

---

(١) المقريزى : خطط جـ ٢ ص ٢٤٦.
القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٣ ص ٤٨٧ .
(٢) مشرفة : القضاء فى الاسلام ، القاهرة ١٩٣٩ ، ص ١٥١ .
(٣) آدم متز : الحضارة الإسلامية جـ ١ ص ٣٧٧ .
(٤) عرنوس : تاريخ القضاء فى الإسلام ، ص ١٣١ ـ ١٣٢ .
(٥) القلقشندى : المصدر نفسه جـ ٣ ص ٤٨٧ .

وامرأتين، وكل ذلك يتفق مع الشريعة الغراء ، حيث لايقبل فى جرائم الزنا إلاّ شهادة أربعة شهود بينما يكتفى بشاهدين فى جرائم قتل النفس ، أما اعتماد شهادة النساء فتضبطها الآية الكريمة : ﴿ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ ﴾ (١)، وفى جميع الأحوال كان يحكم القاضى بالظاهر بعد شهادة الشهود سيرا على نهج الرسول صلى الله عليه وسلم الذى قال: « أمرت أن أحكم بالظاهر والله يتولى السرائر »(٢).

على الرغم مما تميز به القضاء فى مصر الفاطمية من الدقة والضبط ، ومما عرف به قضاتها من النزاهة والفضائل ، الاّ أن هناك بعض حالات الفساد كما يحدث فى كل الدول على مر العصور ، فقد فسدت نفس القاضى الحسين بن على بن النعمان واستغل وظيفته فى تحقيق بعض المطامع المادية ، وذلك على الرغم من راتبه الضخم وبخاصة بعد إضافة أرزاق عمه القاضى محمد بن النعمان وإقطاعاته إلى راتبه واشتراط الخليفة الحاكم بأمر الله عليه (ألاّ يأخذ أموال الناس بالباطل) ، فاستولى على تركة أحد الايتام وقدرها عشرون ألف دينار ، فلما علم الحاكم بذلك واجه القاضى بفعلته فجزع وهاله ذلك ، وقال : « العفو وأتوب » ، لكن الحاكم أمر بحبس القاضى ثم طيف به نهارا والناس ينظرون اليه ثم ضربت عنقه وأحرقت جثته ، ووجد ضمن أمواله المصادرة ستة وثلاثين ألف دينار من

---

(١) سورة البقرة آية ٢٨٢ .

(٢) مسلم : صحيح مسلم ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى ، الرياض ١٩٨٠ ، جـ٥ ص١٢٩ .

أمـوال اليـتـامى وصـودرت ممتلكاته سنه ٣٨٩هـ/ ٩٩٩م [(١)]، وكـذلك فـسـدت ذمة القـاضى عبدالحـاكم بن سعـيد الفـارقى ، وحاول الاحتيـال على إحدى الفتـيات الأثريا ء فلما لم ترض بالزواج منه نعـتـهـا بالسـفه والجنون وأشـهـد عليـهـا ، فلمـا رفـعت شكواها إلى الوزير أبى القـاسم الجرجرائى وتبين له رشدها ، أحضر القاضى مهانا واستعاد لها أموالها وصرف هذا القاضى عن قضاء مصر سنة ٤٢٧هـ / ١٠٣٦م [(٢)].

مما تجـدر الإشـارة اليـه أن وظيـفـة القـضـا ء كـانت وراثيـة فى بعض الأسر ، فوليـها بنو النعمان نحو خمسين عـامـا بالوراثة ، وكان عـميدهم أبوحنيـفـة النعـمان بن أبى عبدالله محـمد بن منصور بن أحمد بن حيـون قد اصطحب أسرته إلى مصر مع حاشية المعز لدين الله ، فـولى القضـا ء منهم أبوالحـسين على بن النعـمـان فى صـفـر ٣٦٦هـ / ٩٧٦م ولقب بقاضى القضاة فلما توفى سنة ٣٧٤هـ / ٩٨٤م ، خلفه أخوه محمد بن النعـمان، ومن الأسـرة أيضا ولى القضـاء الحسين بن على بن النعـمـان أيام الحـاكم بأمر الله ، وعبدالعزيز بن محمد بن النعمـان بن حيـون فى خلافة الحاكم بـأمر الله أيضـا ، وأبومحمد القاسم بن عبدالعزيز بن النعمان فى خلافة الظاهر وظل بمنصبه حتى صرف عنه سنة ٤٤١هـ / ١٠٤٩م[(٣)]،

---

(١) ابن حجر : رفع الإصر ص ٩٣ .
النويرى : نهاية الارب جـ ٢٦ ص ٥٤ .
(٢) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١٠٦ .
(٣) السيوطى : المصدر نفسه جـ ١ ص ٣٦٨ .
ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ ٢ ص ٢٢١ - ٢٢٣ .

كما توارثت أسرة الفارقى ولاية القضاة فمنهم مالك بن سعيد الفارقى الذى وليها سنة ٣٩٨هـ/١٠٠٧م ، وعبدالحاكم بن سعيد الفارقى سنة ٤١٩هـ/١٠٢٨م، وأبوعلى أحمد بن عبدالحاكم بن سعيد الفارقى سنة ٤٤٥هـ/١٠٥٣م فى خلافة المستنصر بالله (١).

ومن ناحية أخرى ولى القضاء قاضيان معا فى أوائل حكم الفاطمين بمصر ، فلما قدم جوهر الصقلى لمصر ، أبقى القاضى السنى أبا الطاهر محمد بن أحمد بن عبدالله البغدادى الذهلى ، وفاء لعهده الذى أعلنه للمصريين من حرية اعتناق المذاهب ، فاستمر أبوالطاهر فى منصبه من ٣٤٨ - ٣٦٦هـ / ٩٥٩- ٩٧٦م ، ولما قدم المعز لدين الله أقر الطاهر فى منصبه لما رآه فيه من العدل والسماحة ، وللحفاظ على ميثاق جوهر وليتجنب غضب المصريين وسخطهم الا أنه أشرك مع أبى الطاهر أبا سعيد عبدالله بن محمد بن أبى ثوبان المغربى (٢)، وكان ابن أبى ثوبان يحكم للمغاربة وحدهم ثم اتسع مجال اختصاصه إلى الفصل بين المغاربة والمصريين فى القضايا المشتركة ، ثم صار قاضيًا للجميع وعرف بقاضى مصر والأسكندرية(٣) ، ولما توفى ابن أبى ثوبان ولى المعز لدين الله القضاء على بن النعمان مشاركا لأبى الطاهر ، فكان ابن النعمان يجلس للقضاء فى جامع عمرو ، وأبوالطاهر يجلس للقضاء فى الجامع الأزهر ، والشهود

---

(١) النويرى : نهاية الارب جـ ٢٦ ص ٦٠ .
السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٩١ .
(٢) السيوطى : المصدر نفسه جـ ٢ ص ٩١ .
(٣) ابن حجر : رفع الإصر ص ١٤٢ .

يشهدون جميعا عندهما [١]، وظل الحال على ذلك حتى استقل على بن النعمان بالقضاء سنة ٣٦٦هـ / ٩٧٦م بعد استقالة أبى الطاهر لضعفه وشيخوخته [٢]، وصار قاضى القضاة على بن النعمان مرجع الأحكام الشرعية فى العبادات والمعاملات والحدود ، وجمعت له كافه الشئون الدينية والمدنية والجنائية [٣].

على الرغم من أن عمل القاضى الأساسى كان الفصل فى الخصومات المدنية والجنائية وقضايا الأحوال الشخصية والمعاملات ، الا أنه كان يجمع بين هذه الاختصاصات والأعمال الأخرى التى لاتقل أهمية وخطورة عما سبق ، والتى شملت حق النظر فى أمور عدة جعلت سلطته كبيره ونفوذه عظيما ، فمن ذلك أن الخليفة كان يصطحب القاضى فى الأعياد والمواسم الدينية والرسمية ، فإذا جلس الخليفة كان أول ماثل للخدمة بالسلام هو قاضى القضاة وما يتبعه من الشهود ، فيسلم القاضى على الخليفة بمراسم الخلافة وهى رفع يده اليمنى مشيرا بالمسبحة قائلاً : «السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته» [٤]. وكان عليه أن يحضر موكب الخليفة فى أيام الجمع الثلاث الأخيرة من رمضان ، فيصعد المنبر وبيده مدخنة لطيفة خيرزان وفيها ند لامثيل لرائحته الزكية قبل وصول

---

(١) ابن حجر : رفع الأصر ص ١٩٥ .
(٢) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٩١ .
(٣) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١٠ ص ٣٨٤ - ٣٨٦ .
(٤) ابن ميسر : أخبار مصر جـ ٢ ص ٥٤ .
المقريزى : خطط جـ١ ص٤٩٢ .

الخليفة ويبخر المنبر والقبة التى يقف تحتها الخليفة وقت القاء الخطبة ، وكان القاضى يبلغ التكبير عن الخليفة [١] ، وفى الاحتفال بعيدى الفطر والأضحى كان القاضى يخرج من كمه درجا (الخطبة) الذى أعده ديوان الإنشاء ليعطيه للخليفة ليقرأه [٢] ، كما يعهد إليه بتوزيع الأضحية على مستحقيها بعد النحر ، وكان عليه أيضا حضور الاحتفالات الرسمية المحزنة فكان يركب فى يوم عاشوراء مرتديا ثياب الحداد إلى الجامع الأزهر والمشهد الحسينى ، فإذا أتم الرثاء انخرط فى البكاء هو والشهود ما شاء لهم، ومشاركة الناس الأكل من سماط الحزن الذى يتألف من العدس والخبز الجاف [٣]، وكان يصاحب الخليفة عندما يشرف على أسطوله فى المقس[٤]، وكان يعمل كسفير لبلاده فأرسل الخليفة المستنصر القاضى أبا عبدالله القضاعى برسالة إلى القسطنطينية [٥]، كما كان يعهد اليه بقراءة سجل ولاية العهد ، فقرأ محمد بن النعمان بالجامع سجلا يتضمن وراثة الحاكم بأمر الله للخلافة بعد أبيه كما قرأ نفس القاضى سجلا يتضمن ولاية الحسن بن عمار للوساطة [٦]، وكان يشرف على دار الضرب ولايتولاها إلا قاضى القضاة تعظيما بشأنها فولى كل من على بن النعمان ومحمد بن النعمان علاوة على القضاء النظر فى ديوان الضرب

---

(١) المقريزى : خطط جـ ١ ص٤٩٢ .
(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ١ ص١٣٧.
(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٥٣ ، ١٥٤ .
(٤) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ١ ص١٣٧ .
(٥) ابن ميسر : أخبار مصر جـ ٢ ص ٧ .
(٦) ابن ميسر : المصدر نفسه جـ ٢ ص ٥٤ .

للتأكد من ضبط عيار الدنانير والدراهم ، فضلا عن الرقابة على ضبط الموازين والمكاييل، وعهد للقاضى العباسى بن العوام نفس الاختصاصات.

كان القاضى يجمع بين القضاء والوزارة فى بعض الأحيان ، فجمعت لأبى محمد الحسن بن على بن عبدالرحمن اليازورى سنة ٤٤١هـ / ١٠٤٩م، وللقاضى أحمد بن عبدالحاكم بن أبى سعيد بن سعيد الفارقى سنة ٤٥٠هـ / ١٠٥٨م [١]، كما كان يعهد إليه بولاية المظالم فولى كل من ابن أبى ثوبان وعبد الحاكم بن وهب ومحمد بن أبى الفرج وابن ميسر ولاية المظالم علاوة على القضاء [٢]، وفضلا عن ذلك كانت تضاف إليه الإمامة فى الصلاة والخطابة ، فعهد الخليفة العزيز بالله إلى القاضى محمد بن النعمان بالخطابة والإمامة [٣]، وعهد الخليفة المستنصر إلى القاضى عبدالحاكم بن وهب بن عبدالرحمن الربعى بالصلاة والخطابة سنة ٤٥٠هـ / ١٠٥٨م[٤].

وفضلا عن ذلك كان يعهد إليه بالحسبة ، فكان يطوف القاضى على المساجد والمشاهد بمصر والقاهرة ويتفقد قناديلها ، ويحصرها ليعلم ماتحتاج إليه قبل رمضان بثلاثة أيام ، فيبدأ بجامع المقس ثم الجامع الأزهر ثم المشاهد

---

(١) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٩١ ، ٩٢ .
ابن اياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ٥٩ .
(٢) ابن ميسر : تاريخ مصر جـ ٢ ص ٧٠ .
ابن حجر رفع الإصر ص ١٣٢ ، ١٦٥ ، ٢٥٦ .
(٣) ابن حجر : المصدر نفسه ص ٢٥٥ .
(٤) ابن حجر : المصدر نفسه ص ١٣٧ .

ثم القرافة ثم جامع عمرو ، وبقى الأمر على ذلك إلى نهاية الدولة الفاطمية[١]، وكان يعهد إليه برقابة أموال اليتامى والأحباس وديوانها[٢]، فعهد إلى قاضى القضاة بتولى أحباس الجوامع والمساجد فى زمن الخليفة المعز لدين الله ، التى بلغت نحو ألف ألف درهم وخمسمائة الف درهم عن العام ٣٦٣هـ / ٩٧٣م .

لم يقتصر النظر فى التخاصم بين الناس على القضاء ، بل أنشئت وظيفة قضائية أخرى روعى فيها أن تكون سلطاتها أوسع من السلطة العادية لكل من القاضى والمحتسب وهى ولاية المظالم ، التى تختص بالنظر فيما ينشأ من خصومات بين الأمراء العظام والكبار وبين أفراد الشعب ، وكانت هذه الولاية تعقد برئاسة الخليفة أو بتفويض منه لمن يراه أهلا لها ، وتختلف عن القضاء العادى فى أنها احتاجت إلى علو يد وعظيم رهبة لتوقف المعتدى عند حده وتزجر الظالم من المتخاصمين ، ولذا كان لمتوليها سلطة أوسع ، وذلك لقود المتظالمين إلى التناصب بالرهبة ، وزجر المتنازعين عن التجاهد بالهيبة، فكان من شروط الناظر فيها أن يكون جليل القدر نافذ الأمر، عظيم الهيبة، ظاهر العفة ، قليل الطمع ، كثير الورع ، لأنه يحتاج فى نظره إلى سطوة الحماة وثبت القضاة ، فيحتاج إلى الجمع بين صفات الفريقين وأن يكون بجلالة القدر نافذ الأمر فى الجهتين [٣]، كان ينظر

---

(١) عطية مشرفة : نظم الحكم ص ٣٠٣ .

(٢) المقريزى : خطط جـ ١ ص٤٠٢ .

(٣) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٦٤ .

صاحب المظالم فى الظلامات مكتوبة ، فيجمعهـا ويضـع رأيه عليهـا ثم يعرضها علـى الخليفة فى كل أسبوع، وكانت الأحكام بعد ذلك تصدر مكتوبة ، وإلى جانب ذلك كان يخصص يوما فى الأسبوع لسماع المظالم ، فكان أبوالفرج يعقوب بن يوسف بن كلس يجلس فى جامع ابن طولون للنظر فى المظالم[١] يوم الثلاثاء من كل أسبوع ، وكان أبوسعيد عبدالله بن ثوبان الذى تقلد النظر فى المظالم من قبل المعز لدين الله فى شوال سنـة ٣٦٢هـ/ ٩٧٢م [٢]، يجلس لهـا كل يوم أحد ، ومن ناحيـة أخرى خصص الفاطميون موضعا فى دار الخلافة يعرف بالسقيفة يقف عنده المتظلمون ، وكان على المتظلم أن يقف عند السقيفة وينادى بأعلى صوته: لا إله إلا الله، محمد رسول الله « فعند سمـاعها يأمر الخليفة بإحضاره ويفـوض أمـره إلى أحـد عظمـاء الدولة للنظر فى شكواه وإعـادة الحق لصاحبه»[٣].

اضطلع قاضى المظالم بالنظر فى القضايا التى يرفعها أحد العامة ضد الولاة الذين ظلموهم أو لم يعدلوا معهم ، وعلى عمـال الخراج فى حالة الجور والجشع فى تحصيل الخراج وجبـاية الضـرائب ، والنظر فى تظلم المسترزقة اذا نقصت أرزاقهم أو تأخر ميعاد دفعها لهم ، كما ينظر فيما عجز عنه متولى الحسبة فى المصالح العامة ، كالمجاهرة بمنكر ضعف عن دفعه ،

---

(١) ابن ميسر : أخبار مصر جـ ٢ ص ٤٤ ـ ٤٥ .
(٢) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١١٦.
(٣) المقريزى : خطط جـ ١ ص ٣٦٢ .

والتحيف فى حق لم يقدر على رده ، فيأخذهم بحق الله فى جميعه ، ومراعاة إقامة العبادات الظاهرة كصلوات الجمع والأعياد ، والحج والجهاد ، وينظر فيما شجر بين المتشاجرين ، فيحكم بين المتنازعين فيحق الحق ويقيم العدل ، وكانت محكمة المظالم بصفة عامة تعقد فى المسجد، بحضور قاضى المظالم ومعاونيه من الحماة والأعوان لضبط النظام ، والحكام ليردوا الحقوق إلى أصحابها ، والفقهاء ليرجع إليهم عندما تشكل على صاحب المظالم مسألة من المسائل الشرعية ، والكتاب لتدوين مايحصل أثناء الجلسة من أقوال الخصوم ومالهم وما عليهم من الحقوق ، فضلا عن الشهود الذين يشهدون بأن ما أصدره القاضى من الأحكام لاينافى الحق والعدل ، وأنه ينطبق على ما قررته الشريعة الإسلامية ، وهذا النظام الدقيق قد سبق به المسلمون نظام المحلفين المعمول به فى أكثر الدول تقدما فى أوربا وأمريكا فى الوقت الحاضر ، فكان قاضى المظالم أحمد بن أبى طالب التونسى يستشير كبار رجال الدولة من الشهود الجالسين معه قبل إصدار الحكم فى المنازعات المعروضة عليه على عهد الخليفة العزيز بالله الفاطمى[1].

---

(١) ابن حجر : رفع الإصر ص ٤٢ .

سادساً : الجيش والشرطة :.

بلغ النظام الحربى فى مصر فى عهد الفاطميين من التقدم والازدهار ما جعله يتبوأ مكانة رفيعه بين الأنظمة الحربية فى الدول المعاصرة له ، وقد اهتم الخلفاء الفاطميون بالجيش والأسطول اهتماما كبيرا فصار عدتهم فى تحقيق آمالهم فى التوسع والتصدى لهجمات أعداء الدولة ، فضلا عن اشتراكه فى الاستقبالات الرسمية والاحتفالات الدينية .

وضع الفاطميون نظاما دقيقا لرصد بيانات القادة والجند ومتابعة أحوالهم، ابتداء من تدوين أسمائهم فى ديوان الجيش مرورا بتقدمهم فى التدريبات ، وترقياتهم إلى الرتب الأعلى وحتى وفاتهم ، وقد تجسد هذا النظام فيما عرف بديوان الجيش والرواتب ، حيث حُدد لكل قائد وجندى على اختلاف مكانتهم ، رواتب مادية وعينية تجلت فى العطاء والأرزاق ، يقول ناصر خسرو « ولكل جندى مرتب شهرى على قدر درجته ، وتصرف أرزاق الجند من الخزينة فى وقتها المحدد بحيث لا يرهق والى ولا واحد من الرعية بمطالب الجند »[1]. وكان يلى أمر هذا الديوان أحد كبار رجال الدولة المقربين لأن وظيفة صاحب ديوان الجيش من أجل الوظائف، وصاحبها كان يمنح الرتبة الجليلة والمكانة الرفيعة من قبل الخليفة ، وكان من أهم ما يضطلع به هو الإهتمام بشئون الجند المدونين بسجلات الديوان ومعرفة أحوالهم التدريبية والمعيشية والوقوف على مدى تقدمهم ، فضلا عن استعراض الجند وخيولهم قبيل الخروج فى المواكب الرسمية والدينية ،

---

(١) ناصر خسرو : سفر نامة ص٥٥ .

وكان يعين لصاحب ديوان الجيش مكان محدد لجلوسه بين يدى الخليفة وله طراحة ومسند[(١)].

مما تجدر الإشارة إليه أن صاحب ديوان الجيش كان يرقى إلى الوظائف العليا في الدولة ، مما يدل على مكانته في النظام السياسى للدولة فقد تم اختيار الروزبارى وزيراً بعد أن كان في الأصل متوليا لديوان الجيش ٣٨٠هـ/٩٩١م[(٢)]، ومن ناحية أخرى لم يقتصر ديوان الجيش على القادة والجند في حاضرة الدولة وإنما كان يدون به كافة أجناد الدولة في الولايات والثغور التابعة للخلافة الفاطمية .

كان الجند الذين يتم تدوينهم بديوان الجيش يتألفون من جنسيات وطوائف مختلفة ، فمنهم ؛ المغاربة بطوائفهم من الكتاميين والبرقيين والصنهاجيين والذين بلغت عدتهم عند فتح مصر سنة ٣٥٨هـ/٩٦٨م نحو عشرين ألفا من الفرسان غير المشاة والتابعين لهم من جند الخدمات العامة[(٣)]، ويذكر ابن إياس أن المعز لدين الله حينما قدم إلى مصر أحضر معه مائة ألف مقاتل كتامى ، وأربعين ألف من البربر ، وستين ألف من الزنوج [(٤)]، فضلا

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ٣ ص٤٩٢ .

(٢) ابن منجب : الإشارة ص٣٥ .

(٣) ابن النعمان : المجالس والمسايرات مجلد ٢ جـ١ ص ٣ ، ٤ .

(٤) يقول المقريزى : « وما زالت كتامة هى أهل الدولة مدة خلافة المهدى عبيد الله وخلافة ابنه القائم بأمر الله ، وخلافة المنصور بنصر الله إسماعيل بن القاسم ، وخلافة المعز لدين الله بن منصور ، وبهم أخذ ديار مصر ، لما سيرهم إليها مع القائد جوهر فى سنة ثمان وخمسين وثلثمائة ، وهم أيضاً أكابر من قدم معه من الغرب سنة اثنين وستين وثلثمائة ».
المقريزى : خطط جـ٢ ص ١٢ .

عن الصقالبة[1] والروم والعرب ، وثلاثين ألفا من الأرقاء المجلوبين من وسط أفريقيا ، ولما ولى العزيز بالله الخلافة دخل عنصر المماليك الديالمة والمصامدة والأتراك واستقدم المشارقة من الترك والإخشيديين سنة ٣٧٠هـ/ ٩٨٠م[2] ، وكان العزيز بالله أول من استعان بالعناصر التركية والسودانيين ، بعد أن كان الاعتماد على المغاربة بقبائلهم المختلفة ، وشكلت هذه العناصر مصدر قوة فى أول استخدامها لما امتاز به الترك والسودان من الشجاعة وقوة الأبدان والصبر على القتال ، غير أنها لم تلبث أن أصبحت من أسباب ضعف الدولة وانحلالها من جراء النزاع والحروب وأسباب التنافس فيما بينهم[3] ، وقدر ناصر خسرو الجيش الفاطمى فى عهد المستنصر بنحو مائتين وخمسة عشر ألفا من المشاة وخمسة وثمانين ألفا من الخيالة ونحو عشرة الآف من العبيد والرقيق المجلوبين من أفريقيا وآسيا وأوربا[4] .

كان ديوان الإقطاع يلحق بديوان الجيش ، يختص بالنظر فى إقطاعات الأجناد ، وكان الخليفة المعز لدين الله أول من أدخل هذا النظام حينما

---

(١) الصقالبة : هم السلاف من شعوب أوربا الشرقية والجنوبية ، والعبيد الإسبان من لفظ اسكلابو الإسبانية ، وكانوا يجلبون بواسطة النخاسة المتخصصين بجلب العسكر للجيش الفاطمى ، وكانوا يقطنون خان أبى طاقية بالقرب من باب زويلة ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٤ ص٨٧ .

(٢) النويرى : نهاية الأرب جـ٢٦ ص٤٩ .

(٣) جمال الشيال : تاريخ مصر الإسلامية جزءان ، القاهرة ١٩٦٧ ، جـ١ ص٢٣٦ .

(٤) ناصر خسرو : سفر نامة ص ٥٢ .

O'Leary : A short Hist., 198 - 200 .

استولى على أملاك الإخشيديين وأقطعها لقادة الجند والخواص من أرباب السيف والقلم ، وجعلها لهم تمليكا مخلدا وإنعاما مؤبدا وحقا مؤكدا يجرى على الأصل والفرع[١] ، وهذا المرسوم الذى كان يصدر من القصر الخلافى لم يمنع مصادرة الإقطاع من أيدى أصحابها إذا سخط عليهم الخليفة سواء أكانت إقطاعات عسكرية أو مدنية[٢] .

وكان لاختلاف الجنسيات التى تشكل منها الجيش أثره السلبى فى قيام النزاع بين طوائفه ، وبخاصة أن الخلفاء ومن لاذ بهم من أهل القصر كانوا يؤثرون البعض على البعض الآخر ، فمن ذلك ارتفاع شأن عبيد السودان بسبب تدخل أم الخليفة المستنصر لأنها كانت منهم ، ومنها قيام الحروب الأهلية بين الريحانية والجيوشية أيام الحافظ لدين الله وبين المغاربة والأتراك[٣] .

لا شك أن تكوين الجيش من عناصر مختلفة قد أدى إلى التنافس والتخاصم بينهم وما ترتب عليه من الفتن والحروب ، لأن الجميع يحمل السلاح الذى استخدموه فى معاركهم الشخصية فى أوقات السلم ، فمن ذلك أن الكتاميين المغاربة كانوا عدة المعز لدين الله فى مصر ، فلما ولى العزيز بالله وجلب الأتراك والديالمة وقربهم إليه ، شكا قادة كتامة من انحدار منزلتهم وبخاصة عندما أمر العزيز بالله وزيره يعقوب بن كلس بإسقاط

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ٣ ص ١٣٨ .
(٢) المقريزى : خطط جـ١ ص٨٣ .
(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٥ ص ١٩ .

المغاربة من الديوان ، فحدثت مناوشات بين الطرفين أدت إلى الخصومة التى استمرت إلى عهد الحاكم بأمر الله ، الذين اشترطوا عليه معادلتهم بطوائف الجند الآخرين فأجابهم إلى طلبهم ، وعين ابن عمار زعيمهم على الوساطة ولقب بأمين الدولة فارتفع شأنهم ، إلا أن سيطرة برجوان على شئون الحكم أدى إلى تدهور مكانتهم لكراهته للمغاربة[1].

كانت مساكن الجند هى المعسكرات التى تم تخطيطها بحيث تضم كل طائفة من الأجناد تبعا لجنسياتهم ، فبنيت حارة زويلة للقبيلة المعروفة بهذا الاسم[2]، وكذلك الحارة البرقية لأهل برقة ، وحارة الروم تم تخطيطها وتعيين مكانها بالقرب من الدرب الأحمر وهى البرانية[3]، وكانت لهم حارة أخرى هى حارة الروم الجوانية بالقرب من باب النصر ، واختطت حارات للترك والديلم والصقالبة[4] ومنها أيضاً حارة الباطلية التى أسسها المعز لدين الله لطائفة من جنده ، عرفوا بالباطلية ، وذلك أن المعز لما حضر إلى القاهرة وقسم العطاء فى الناس جاء هؤلاء يطالبون بعطائهم ، فقيل لهم فرغ ما كان حاضرا ، فقالوا رضا فى الباطل فسموا الباطلية، وسكنوا هذه الحارة فعرفت بهم[5]، وهى تقع إلى جوار حارة البرقية ، ويلى ذلك حارة كتامة عدة جند المعز لدين الله [6]، ومن بينها أيضاً حارة

(١) على مبارك : الخطط التوفيقية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٩٤ ، جـ١ ص٩ ، ١٠ .

(٢) حارة زويلة ، تقع فى الوقت الحاضر فى المنطقة التى يحدها شمالا شارع الخرنفش ومن الجنوب شارع الصقالبة وشرقا حارة اليهود وغربا شارع زويلة ، على مبارك : الخطط التوفيقية جـ٢ ص٢١ .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٤ ص٤٢ .

(٤) المقريزى : الخطط جـ١ ص٣٦٣ ، ٣٧٣ ، جـ٢ ص١٠ ، ٣٧ .

(٥) القلقشندى : صبح الأعشى جـ٣ ص ٣٥٣ .

(٦) على مبارك : المرجع نفسه جـ١ ص ٩ .

الحمزيين وهم طائفة من العسكر من قرية حمزة بأفريقية حضروا مع المعز لدين الله حين قدم إلى مصر [١]، والحارة الوزيرية التى سكنها طائفة من العسكر شكلها الوزير يعقوب بن كلس فنسبت إليه ، وكانت تقع فى منطقة شارع بيبرس ودرب سعادة [٢]، وكان الجند يقضون أوقاتهم فى التدريب على الأسلحة واستخدامها وعلى طرق القتال من تعبئة والتفاف وتطويق ، والألعاب الرياضية التى تبث فيهم روح الرجولة والصرامة والقوة ، كالوثب والقفز ورمى الرمح والقرص والجلة والمبارزة والشيش والمصارعة والتجديف والسباحة وركوب الخيل ، والتحطيب بالعصى والحُكشة (الهوكى) ، والتدريب على الإسعافات الأولية وطرق حمل المصابين فى ميادين القتال .

بلغ من اهتمام الخلفاء بالجيش الفاطمى أن الخليفة كان يحضر استعراض الجند بنفسه عند تمام انتهاء مرحلة التدريب ، فيجلس فى منظره القصر الكبير ويتفقد الجند وأسلحتهم وعتادهم وقد اجتمعوا فى ميدان العرض ، وبعد تمام الاستعراض يأذن لقائد الجيش بالمثول بين يديه فيخلع عليه خلعة مزركشة بالذهب ، أما فى حالة خروج الجيش للحرب فكان الخليفة يجلس فى منظرة باب الفتوح ، فجلس الآمر بأحكام الله فى هذه المنظرة وبعد أن مر من أمامه فرق الجيش بطبولها وبنودها وراياتها ، أمر القائد حسام الملك بالمثول بين يديه ، وخلع عليه خلعة جليلة مذهبة بطوق

---

(١) المقريزى : الخطط جـ١ ص٣٦٤ ، جـ٢ ص١٦ .
(٢) على مبارك : الخطط جـ١ ص١١ .

مذهب ، وكان يعاون قائد الجيش نقباء الأمراء الذين يتبعهم العرفاء المطلعين على شئون الجند وأحوالهم [١].

تطورت طريقة تعبئة الجيش فى العصر الفاطمى فصارت بالكتائب التى تضم فى داخلها أنواع القوات من خيالة ورجالة وحاملى السهام والأقواس وغيرها بعد أن كانت بالصفوف ، وكان الجيش ينقسم فى التعبئة إلى مقدمة ومؤخرة وميمنة وميسرة وقلب ، فضلا عن فرق الاستطلاع لجلب المعلومات المبكرة عن العدو وتبليغها للقائد الذى كان يقود الجيش من مركزه فى القلب ، يحيط به المستشارون والمعاونون والكاتب والترجمان والقاضى[٢] ، وكان يعهد لأقوى الرجال بحمل لواء الجيش إلى جانب الرايات الصغيرة التى تستعمل كإشارات للتخاطب [٣] ، وبلغ من اهتمام الفاطميين بالبنود والرايات أن خصصت لها خزانة عرفت بخزانة البنود ، كان يعمل فيها نحو ثلاثة آلاف صانع ، وبلغت نفقتها نحو ثمانية ألف دينار فى كل سنة ، ومنها ألوية كتب عليها الآيات القرآنية الخاصة بالنصر فمنها ، « سيهزم الجمع ويولون الدبر»[٤].

كان يلحق بالجيش الساقة التى تضم جماعات الإسعافات والتطبيب وعلاج الجرحى والمؤن وصنوف الطعام وحماية مؤخرة الجيش ، وكانت

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ٣ ص ٤٩٢ .
(٢) مشرفة : نظم الحكم ص١٧٧ .
(٣) ابن خلدون : المقدمة ص٣٢٥ .
(٤) المقريزى : الخطط جـ١ ص ٣٥٥ .

الموسيقى تصحب الجيش لتثير الحماسة فى نفوس الجند فيسهل عليها الصعب ، فكانت طبول الجيش تضرب وأعلامه تخفق عندما دخل جوهر الصقلى القاهرة ، كما ظهر أثرها بجلاء فى حروب العزيز بالله خلال قيامه بفتح بلاد الشام[1].

تنوعت أسلحة الجيش الفاطمى من أسلحة هجومية ودفاعية وآلات للحصار ، ومن أهم الأسلحة الهجومية السيوف ، ومن أشهر السيوف الهندوانى أو المهند نسبة إلى الهند ، والحارية نسبة إلى الحيرة ، والمشرفى نسبة إلى المشارف وهى قرى من أرض العرب ، وكان يعرف السيف القصير بالأبتر ، والعريض بالصفيحة[2] ، والدقيق بالقضيب ، وإلى جانب السيوف اتخذ الجيش الرماح والحراب وهى آلات حربية تستخدم للطعن ، وتصنع من قناة يجعل فى آخرها حديدة مدببة تعرف بالسنان ، وتنعل بحديدة فى آخرها تعرف بالزّج أما الحراب فهى الرماح القصيرة ، واستخدموا أيضًا الخناجر التى تشبه السكاكين، وإلى جانبها استخدموا البلطة ، أما أهم الأسلحة الدفاعية التى استخدمها الجيش فى الاستعراضات والحروب فهى الدروع التى يتقى بها الطعان فى الجزء العلوى من الجسد ، أما الرأس فكان يتم حمايتها بالبيضة والمغفر ، والطرق تلبس على الساعد ، والغفارة على الوجه والتى لا يظهر فيها سوى العينين ، ومنها التجافيف وهى عبارة عن قمصان من زرد المعدن لحماية الجسم، ومن أهم آلات الحصار المجانيق التى

---

(١) النويرى : نهاية الأرب جـ٢٦ ص ٤٠ .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى جـ٢ ص ١٣٤ .

كان يرمى بها الحجارة والحديد وقدور النفط الملتهبة والنفط السائل ، والدبابات التى كانت تتخذ من الخشب السميك المغطى بجلود البقر والإبل واللبود المنقوعة بالخل لتقيها النيران ، وتزود بالعجل فيدخل الجند فى جوفها ويسيرون بها إلى جدران الحصون فهى أشبه بالقلاع المتحركة ، وكان الكبش يستخدم فى نقب الجدران لإحداث ثغرات يدخل منها الجند ، وهى تشبه الدبابة إلا أنها مزودة برأس حادة فى مقدمتها تشبه رأس الكبش (١)، كما كان هناك الحاويات التى تستعمل فى نقل الذخائر إلى ميادين القتال ، ومنها القذائف التى يرمى قذائف النار بعد ملئها فى قدور وقوارير من الزجاج المملوء بالنفط ، والصبر والشوك وبذر القرطم المقشور فتشتعل لدى وصولها للهدف ، وترمى بها بواسطة سلسلة فإذا اصطدمت بشئ اشتعلت فيه النيران (٢)، ومهما يكن من أمر فلم يأل الخلفاء الفاطميون جهدا فى سبيل تجهيز الجيش بكل ما يحتاج إليه من اللباس والسلاح والعتاد .

وضعت الخلافة الفاطمية نظاما دقيقا لإمارة الجيش وترتيب عساكره فى فرق خاصة ، وكانت أعلى قيادة فى الجيش يليها الأمراء المطوقون الذين يخلع عليهم بأطواق الذهب فى أعناقهم ، ويليهم مباشرة أمراء القضب الذين يتميزون بحمل القضب الفضة ، فأدوان الأمراء ، وكانوا تابعين لأمراء القضب يعاونوهم حتى تظهر علامات النجابة عليهم فيمنحوا القضب

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ٣ ص٤٧٧ .
(٢) ابن إياس : بدائع الزهور جـ٢ ص١٩ .

من خزينة التجمل فيرتقون فى سلم القيادة [١]، أما طوائف الجند فمن بينهم طائفة صبيان الحجر التى قام الخليفة المعز لدين الله بتكوينها ، وكان جل تكوينها من الشباب أو الفتيان بعد إجراء كشف هيئة لهم لاختيار الأحسن خلقا والأكثر رجولة واعتدال وطول قامة ، وبلغ عددهم خمسة آلاف ويشرف على تدريبهم أحد الأساتذة ، ويختار منهم القيادة العليا[٢]، وفرقة صبيان الخاص التى تتألف من أولاد الأمراء العساكر وعبيد الدولة وكانوا يقيمون فى مساكن خاصة ، ويتم تدريبهم على الفروسية وبلغت عدتهم نحو الخمسمائة[٣]، وفرقة الأساتذة وهم المحنكون يمرون طرف العمامة من أسفل الحنك ثم تلف حول الرأس ، وكانوا يلقبون بألقاب الأمراء ومن بينهم غير محنكين وكانوا بمثابة المعاونين للمحنكين فهم أقل درجة[٤]، ويتميز المحنكون عن غيرهم بارتداء البدل المذهبة[٥]، ومن بين الفرق التى ورد ذكرها فى المصادر الفاطمية فرقة الركابية أو صبيان الركاب ، وهى فرقة تزيد على ألفى رجل تختص بالحراسة وتحيط بالخليفة فى المواكب وكان عليها إثنا عشر مقدما (قائدا) ، ومجموعة من النقباء وكان يختار من قادتهم أرباب الوظائف العليا فى حالة التأكد

---

(١) المقريزى : الخطط جـ١ ص٢٣٩ .

(٢) المقريزى : المصدر نفسه جـ٢ ص٣١١ .

(٣) عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم بمصر ، القاهرة ١٩٥٥م ، جـ٢ ص٢٩ .

(٤) عبد المنعم ماجد : المرجع نفسه جـ٢ ص١٢ .

(٥) المقريزى : المصدر نفسه جـ٢ ص٢١٦ .

من إخلاصهم وولائهم للأئمة الفاطمية[١]، ومهما يكن من أمر فكان القادة يلقبون طبقا لدرجاتهم ومكانتهم ، فيلقب الأمير من الأمراء أرباب السيوف بصاحب الباب (كبير الأمناء) وبالمعظم ، يليه الاسفهسلار ثم حامل سيف الخليفة ، فأرباب الأطواق ، يليهم أرباب القضب ، ثم باقى الطوائف[٢] .

وجه الفاطميون اهتمامهم إلى إنشاء إسطول قوى يدعم قواتهم البرية ويحمى سواحل البلاد ، ويتصدى لغارات المعتدين من جهة البحر وبخاصة من جانب الدولة البيزنطية ، ولذلك حظى ديوان الجهاد أو ديوان العمائر باهتمام المعز لدين الله فجعل لمتولى هذا الديوان اختصاصات واسعة فى النظر فى أمر الأساطيل الحربية والتجارية ، فيما يختص ببنائها وتوفير المواد الخام من جميع بقاع المعمورة لهذا الغرض ورخص له أمر تشييدها والإنفاق على صيانتها وتجديدها ، فضلا عن اختيار أكفأ رجال الدولة لتعيينهم رؤساء مراكب بعد تدريبهم وألحق بهم رجال متخصصين أشداء فى ركوب البحر والتعامل مع الأعداء والقراصنة على السواء ، وأوقف على هذا الديوان الأوقاف التى تكفى مصروفاته وتفيض حتى يظل الأسطول برجاله على أهبة الاستعداد دوما ، وتدعيما للأسطول الفاطمى أمر المعز لدين الله بإنشاء

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٤ ص٧٩ .
(٢) مشرفة : نظم الحكم ص١٧٣ .

دارا لصناعة السفن بقرية المقس[١] على النيل ، وقد اكتمل بناؤها فى عهد ابنه العزيز ، واستطاع الصناع بناء ستمائة مركب لم ير لها مثيلا فى الكبر والحسن وذلك بعد جلب الأخشاب اللازمة لها من بلاد الشام ، وجنوب أوروبا ، فضلا عما كان يزرع بأرض مصر من شجر السنط والسرو والأثل فى مدن البهنسا وسفط والاشمونيين وأسيوط وأخميم وقوص ، وكانت السفن الحربية بعد بنائها توزع على المرافئ والموانى الهامة مثل دمياط والإسكندرية بسواحل مصر .

كان من أهم قطع البحرية الفاطمية الشوانى ومفردها شينى أو شوانه ، وهى عبارة عن سفن حربية كبيرة ذات أبراج عالية وقلاع عظيمة مجهزة بالألات الحربية وقوارير النفط التى ترمى باللجام وهى حديدة طويلة محدودة الرأس تقذف بالنفط على سفن الأعداء ، وبها رماح طويلة والكلاليس الحديدية وهى خطاطيف كبيرة .. كانت تطرح على السفن المعادية الأقرب منها لتوقفها ، وكان الأسطول الفاطمى يضم أكثر من خمسة وسبعون شينيا [٢] ، وذكر المقريزى أن الأسطول المصرى كان يضم ثمانين شونة فى أواخر عهد الفاطميين [٣] ، وكانت الأغربة نوع من الشوانى إلاّ أن رأسها كان يشبه رأس الغراب ويلى الشوانى نوع آخر من السفن الحربية

---

(١) المقس : سميت هذه القرية بالمكس لجلوس جابى الضرائب التجارية فيها إلى جانب البائعين فى الأسواق ، ومع مرور الزمن قلبت الكاف إلى قاف فصارت تعرف بالمقس - المقريزى : الخطط جـ٢ ص١٩٥ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٤ ص١٥١ .

(٣) المقريزى : المصدر نفسه جـ٢ ص١٩٣ .

يقل عنها فى الحجم ويعرف بالحراريق ، مفرد ، حراقة ، وعرف بذلك لأنه كان يجهز بالآلات الحربية ذات الأسلحة والذخيرة النارية مثل المنجانيقات وأنابيب النفط والنار الإغريقية ، أما الطرادات فهى ذات طراز مختلف عن الشوان ، فهى سفن حربية صغيرة الحجم سريعة المناورة ، مخصصة للدخول السريع فى القتال، فضلا عن حمل الخيول ونقلها إلى مواضع المعارك ، وكانت القراقير مفردة قرقورة عبارة عن سفن التموين البحرى لتزويد الأساطيل بالزاد والمتاع والسلاح ، ويلحق بها الشلنديات ومفردها شلندى وهى مراكب مسطحة تحمل السلاح والمقاتلة وكان الأسطول الفاطمى يضم نحو غشر شلنديات [١]، وكذلك كان الأسطول يضم السذاوات والسميريات وهى سفن نقل جند وسلاح وحماية الأنهار ، وتتميز بكثرة المجاديف ، والكثير تتألف من ثلاثين مجدافا ، والزورق يحمل أربعة وعشرين مجدافا ، ولذلك كانت سريعة الحركة، سهلة الانقياد ، وفى السلم كانت تستخدم فى النقل التجارى .

كان للأسطول البحرى قائد متولى عن السلاح والعتاد ، يعمل على استعداد القطع البحرية وجعلها بحالة جيدة وجاهزة للتدخل فى الحروب بسرعة وكفاءة ، يعرف بأمير البحر أو أمير الماء[٢]، وكان الخليفة يهتم بزيارة المقس واستعراض الأسطول فى المناسبات السياسية والدينية فضلا عن زمن الحرب [٣]، وفى هذه الحالة كان يجلس فى منظرة المقس وبصحبته الوزير ،

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ٣ ص ٥٢٣ .

(٢) المقريزى : الخطط جـ٢ ص١٩٥ .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٤ ص١٩ .

فيأتى القواد بمراكبهم المشحونة بالسلاح والعتاد والزينة وتسير بالجاديف فى ترتيب بديع أمام الخليفة وتقوم الأجناد بعرض حركات المناورة والالتفاف[١]، فقام الخليفة الآمر بأحكام الله باستعراض الأسطول قبيل إرساله لقتال الصليبيين سنة ٥٠١هـ/١١٠٧م وقد تم له النصر . وكان تعداد رجال الأسطول الفاطمى نحو خمسة الآف مقاتل من قواد ونواب ورؤساء ونواتية على رأسهم أمير البحر ، وبلغت مرتباتهم نحو خمسين ألف دينار شهريا تُحصل من إقطاعات الأسطول التى كانت تعرف بإقطاعات الغزاة[٢].

---

(١) المقريزى : الخطط جـ٢ ص١٩٥ .
(٢) المقريزى : المصدر نفسه جـ٢ ص ٣٧٣ .

تعد الشرطة من أهم الخطط التى حرص ولاة الدولة الإسلامية على إنشائها وتنظيمها لأنها تختص فى المقام الأول بحفظ النظام الداخلى وتأمين الناس على أرواحهم وممتلكاتهم ، فكان أن اهتم عمرو بن العاص بإنشائها فى مصر أثر الفتح العربى وعين عليها خارجة بن حذافة بن غانم العدوي[١]، وجعل مقره بالفسطاط وفوض إليه تنظيم إدارة شئون الأمن فى الأقاليم [٢]، وسار الولاة على نهج عمرو بن العاص فيما يختص بالشرطة وتعيين صاحبها ، ومن بعدهم حكام الدولتين الطولونية والأخشيدية حتى كان آخر من ولى هذا المنصب فى عهد الإخشيديين هو نحرير الأرغلي[٣].

كان على بن الحسين بن لؤلو أول صاحب شرطة فى العصر الفاطمي، الذى اضطلع بمهمة تهدئة الأوضاع والحفاظ على الأمن من الداخل فى مصر بعد الفتح الفاطمى فسار فى خطط وحارات الفسطاط وأعلن الأمان للناس على أموالهم وأمتعتهم وأرواحهم ، وقام بتوزيع الجنود الفاطمية على الناس لنشرها على مداخل الحارات والشوارع[٤]، ظل على بن الحسين يلى منصب صاحب الشرطة حتى تم عزله فى شوال ٣٥٨هـ/ ٩٦٩م وتعيين شبل المعرضى مكانه[٥]، ولما استقر المعز لدين الله فى مصر وجه اهتمامه إلى

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ، القاهرة ١٩٦١ ص١٤٩ .

(٢) عبد المنعم سلطان : تاريخ الشرطة فى مصر الإسلامية فى عصر الولاة ، الاسكندرية ١٩٨٥ ص٢٠ .

(٣) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ١ ص١٠٩ .

(٤) المقريزى : المصدر نفسه جـ١ ص ١٠٩ - ١١٠ .

(٥) المقريزى : المصدر نفسه جـ١ ص ١١٧ .

تنظيم الشرطة ، فجعل على الشرطة العليا جبر بن القاسم وعلى الشرطة السفلى عروبة بن إبراهيم وشبل المعرضى[١] ، وفى تطور آخر تم إعادة تنظيم الشرطة سنة ٣٦٢هـ/٩٧٣م حيث أسندت ولاية الشرطتين إلى يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن[٢] ، فلما أسندت كثير من المهام الإدارية إلى ابن كلس وعسلوج تم تعيين جبر بن القاسم على الشرطة السفلى ، وجبر المسالمى الشرطة العليا وكان صاحب الشرطة السفلى فى الفسطاط مقدما على صاحب الشرطة العليا فى القاهرة [٣] ، وكان جبر بن القاسم من كبراء الدولة وأماثل الحضرة وله منزلة كبيرة عند الخليفة الفاطمى ، فلما خرج العزيز بالله إلى الشام لمحاربة الأتراك والقرامطة سنة ٣٦٧هـ/٩٧٧م جعل ابن القاسم خليفة له على مصر ، فكانت الكتب ترد إليه فتقرأ على المنابر باسمه ، وفى تطور آخر جمعت له الشرطتان [٤] .

كما كان يانس الصقلى متولى الشرطة وخليفة العزيز بالله على القاهرة ويعاونه مسعود الصقلبى ، ثم رُقى مسعود إلى منصب متولى الشرطة فى عهد الحاكم بأمر الله [٥] ، وكان مرسوم التولية يكتب فى ديوان الإنشاء ويعرض على الخليفة لإقراره وتحديد المنح والهبات التى كان يتضمنها أمر التولية وبخاصة الخلع والثياب ، ويتم قراءة عهد التولية على منبر الجامع

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ١ ص١٤٤ .
(٢) ابن ميسر : أخبار مصر ، القاهرة ١٩٨١ ، ص ١٦٣ .
(٣) المقريزى : المصدر نفسه جـ١ ص ١٤٧ ، ١٥٠ .
(٤) ابن الصيرفى : الإشارة ص٢٤ .
(٥) المقريزى : خطط جـ٢ ص١٩٥ .

العتيق[١]، ثم يخرج موكب يسير فى أرجاء البلاد محاطا بالجنود والطبول لإعلانه على الملأ[٢]، فمن ذلك عهد تولية خود الصقلبى للشرطة سنة ٣٨٨هـ/٩٩٨م الذى حل محل مسعود الصقلبى بعد تعيين الأخير فى وظيفة صاحب الستر الذى يتولى تنفيذ العقوبات على المذنبين [٣]، كما قرئ سجل تولية غبن خادم الخليفة الحاكم بأمر الله على منبر الجامع العتيق وما تقرر له من المنح والخلع والهدايا آواخر سنة ٤٠٢هـ/١٠٠٢م، واستمر يلى الشرطة حتى صرف عنها وتقلدها مظفر الصقلبى حامل المظلة[٤].

وكان من مهام صاحب الشرطة حراسة القصر الخلافى فكان يطوف حول أسوار القصر ومعه نحو ألف رجل بالطبول الخفاق والبوقات البحرية لحراسة القصر[٥]، فضلا عن ضبط الأسواق فلما ولى بقى الخادم الأسود الشرطة عول على ضبط الأسواق التى كانت تعانى من ندرة الخبز وانعدام الأمن، فقام بتحديد سعر جبرى للخبز بما لا يتناسب مع أوضاع السوق، فقام أصحاب الطواحين بإغلاقها وتعطلت الأفران واختفى الخبز، مما أدى إلى عزله[٦]، كما كان من مهامه الخروج ليلة الغطاس فى موكب كبير

---

(١) المقريزى : اتعاظ جـ٢ ص١٧ .
(٢) المقريزى : المصدر نفسه جـ٢ ص٢٧ .
(٣) المقريزى : المصدر نفسه جـ٢ ص٤٣ .
(٤) ابن سعيد الأندلسى : النجوم الزاهرة فى حلى حضرة القاهرة ، تحقيق حسين نصار ، مركز تحقيق التراث ، القاهرة ١٩٧٠ ص٦٥ .
، المقريزى : المصدر نفسه جـ٢ ص١٠١ .
(٥) ابن سعيد : المصدر نفسه جـ٤ ص١٨٨ .
(٦) المقريزى : المصدر نفسه جـ٢ ص١٥١ .

يحيط به حملة المشاعل ويطوف فى الطرقات لمنع اختلاط المسلمين مع النصارى عند نزولهم فى النيل فى تلك الليلة مع الإشراف على حفظ الأمن طوال الاحتفال [١]، وفى أوائل القرن السادس الهجرى طرأ تطور على لقب صاحب الشرطة فصار يعرف بوالى القاهرة ، فاستخدم ذخيرة الملك بن جعفر فى ولاية القاهرة والحسبة فكان يقبض على المجرمين ويعنفهم ، وقد أبدع فى تعذيب الجناة وأهل الفساد[٢]. ومن مهام صاحب الشرطة تنفيذ أحكام القضاء وإقامة حدود الله على من وجبت عليه[٣] بينما يقوم أعوان الحكم من الرجال التابعين لصاحب الشرطة بحفظ النظام فى مجلس القضاء طوال مدة انعقاده [٤].

كانت الأحكام القضائية التى تنفذها الشرطة تتراوح بين الزجر والتأديب وحتى الجلد والقتل ، فقام صاحب الشرطة بتأديب طائفة من الناس خرجوا على النظام وتعرض الأمن للخطر من جراء ذلك فى يوم عاشوراء سنة ٣٩٦هـ/١٠٠٥م [٥]، وكانت عقوبة الجلد يصحبها غالبا التشهير بواسطة الجرس ، وذلك على مرأى ومسمع من الناس ، حيث يقوم المجرس بضرب إنسان بالسياط وحمله على جمل والطواف به فى البلد ، وفى يده جرسان يجرس بهما على نفسه ، ويصيح بملء صوته : هذا جزاء من يسرق فى

---

(١) المقريزى : خطط جـ١ ص٢٦٦ .

(٢) ابن ميسر : اخبار مصر ص٦٥ .

، المقريزى : المصدر نفسه جـ٢ ص٤١١ .

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى جـ١٠ ص٣٤٢ .

(٤) القلقشندى : المصدر نفسه جـ١٠ ص٣٤٢ .

(٥) ابن ميسر : المصدر نفسه ص٦٥ .

اليوم دفعتين [١]، وذلك فى رمضان سنة ٤١٥هـ/١٠٢٤م ، وكان بعض أصحاب الشرطة يستخدمون التعذيب لإرغام المذنبين على الاعتراف بجرائمهم ، فقام سامى الدولة بن كافى متولى الشرطة بضرب أحد اللصوص بالسياط وقرره فأقر ، وشهره على جمل[٢] ، أما عقوبة القتل فلم يتم تنفيذها إلا بتصديق الخليفة ، فلما ارتد رجل عن الإسلام استأذن سامى الدولة بن كافى للحضرة المطهرة للحكم عليه ، فخرج الأمر بضرب رقبته وحرقه وذلك سنة ٤١٥هـ/١٠٢٤م[٣]، وغالبا ما كان يتم بعد القتل وذلك ليكون عبرة لغيره من المجرمين ، فتم القبض على رجل ذكر أنه نبش قبرا فى صحراء المقطم ، فضربت عنقه بالقرافة وصلب هناك أى على الملأ وفى مكان عام [٤].

وكان الطواف ليلا من المهام التى يضطلع بها صاحب الشرطة ، فيخصص جماعة من الجند للطواف فى المدينة فى كل يوم لكشف الأزقة وغلق الدروب ومراقبة الشوارع والحارات وحفظها فى كل الأوقات ، ويعين عليهم أحد رجاله الذى يعرف بمتولى الطواف الليلى[٥] ، وكانت تُحدد لهم المهام واجبة التنفيذ الفورى دون الرجوع إلى القضاء ، فلما أمر الحاكم بأمر الله بقتل السكارى ، رأى أحد رجال الطواف رجلا غلبه السكر وهو

---

(١) المسبحى : أخبار مصر فى سنتين ، تحقيق وليم ميلورد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨١ ، ص١٨١ .

(٢) المسبحى : المصدر نفسه ص٥٢ .

(٣) المسبحى : المصدر نفسه ص٢١١ ، ٢١٢ .

(٤) المسبحى : المصدر نفسه ص٢٢٠ .

(٥) المسبحى : المصدر نفسه ص٢١٩ .

فى الطريق فلما اقترب منه ، أخذ الرجل عمامته وأسبلها على نفسه ، فوكزه الشرطى وقال : أين أنت ؟ فقال : أنا شئ مغطى وأمير المؤمنين الحاكم قد أمر أن لا يكشف شئ مغطى ، فاستظرف الطائف كلامه وتركه[1] ، وكان عليهم أيضًا المحافظة على الآداب العامة ، فلا يخلو رجل بامرأة ليست له بمحرم ولذلك كانوا يقتحمون الأماكن التى يجتمع فيها الشباب وأولوا الدعارة ، ويزجرون أهل الغى والعبث[2]، ولدرء المفاسد أمر الحاكم بأمر الله بإزالة المواضع التى كان فيها أهل الفساد والفجور يأوون إليها ويجتمعون بها وفرق جموعهم[3].

كان رجال الأمن فى الولايات يعرفون بالرجال المستخدمون[4]، أو الرجال العسكرية المركزية [5]، وكانت مهمتهم الأساسية حفظ الأمن فى الولايات ، وحماية السبل والطرقات وصونها من غوائل المفسدين على مر الأوقات ، وكانوا يعرفون أيضًا بالرجال المركزية والمجردة[6]، وفضلا عن حواضر الولايات كان يوجد جند الأرياف لحماية مناطق الريف[7]، وفضلا عن ذلك كان كبار ملاك الأراضى يستخدمون الحراس لحماية أملاكهم

---

(١) ابن أيبك : الدرة المضية فى أخبار الدولة الفاطمية ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، القاهرة ١٩٦١ ، ص ٢٨١ .

(٢) القلشندى : صبح الأعشى جـ١٣ ص٩٣ .

(٣) المسبحى : أخبار مصر ص٣٢ ، ص١٨٧ .

(٤) القلقشندى : المصدر نفسه جـ٨ ص ٢٤١ .

(٥) القلشندى : المصدر نفسه جـ١٠ ص٣٧٠ .

(٦) القلشندى : المصدر نفسه جـ١٠ ص٣٧٣ .

(٧) ابن أيبك : المصدر نفسه ص٥١٤ .

من أرض وحيوان وطير ، ومنهم أيضاً الرجالة الجوالة المقيمين فى الأرياف[١] . وكان الولاة يعينون الخفراء على الطرقات يخفرون الرائح والغادى [٢] ، وكان رجال الأمن بأنواعهم على اتصال دائم بصاحب الشرطة فى حاضرة الدولة[٣] ، وليس أدل على ذلك من أن رجلا من تنيس سرق أحد التجار ولما تم القبض عليه أرسل إلى الفسطاط حيث مقر الشرطة السفلى فطولب فى الشرطة وقرر فأمر بما صنعه [٤] .

كان صاحب الشرطة فى العاصمة يقوم بتنظيم العناصر السيارة التى تختص بحفظ الأمن على الطرقات والتدخل السريع فقد أنعم الخليفة الظاهر على صاحب شرطته وقلده جميع السيارة أسفل الأرض وأنعم عليه بالخلع[٥] ، كما ولى جعفر بن فلاح الشرطتين العليا والسفلى والحسبة والسيارتين أسفل الأرض وأعلاها[٦] ، وفى صفر سنة ٤١٥هـ/ ابريل ١٠٢٤م قام صاحب السيارة رفعة الخادم الأسود بجولة تأديبية ضد أوغاد الأرياف وأسفرت الحملة عن مقتل نحو مائتى نفس فى خمسة وثلاثين يوماً [٧] .

---

(١) المسبحى : أخبار مصر ص٣٩ .
(٢) القلقشندى : صبح الأعشى جـ١٣ ص٩٥ .
(٣) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ٢ ص١٦٢ .
(٤) المسبحى : المصدر نفسه ص١٧٥ ـ ١٧٦ .
(٤) المسبحى : المصدر نفسه ص١٦٥ .
، المقريزى : المصدر نفسه جـ٢ ص١٥٣ .
(٦) المقريزى : المصدر نفسه جـ٢ ص١٣٩ .
(٧) المقريزى : المصدر نفسه جـ٢ ص١٣٩ .
، المسبحى : المصدر نفسه ص٤٢ .

على الرغم من السور العظيم الذى كان يحيط بالقصر الشرقى الكبير قصر الخليفة الفاطمى إلاّ أنه كانت توجد ممرات أو سراديب تحت الأرض تسمح للخليفة وحاشيته بالتنقل والتجوال فى أرجاء القصر أو بين القصر الشرقى الكبير والقصر الغربى الصغير دون أن يراه أحد[١] ، إلاّ أنه تم تنظيم حراسة سيارة مستديمة تطوف حول القصر على قرع الطبول حتى يتم إغلاق البوابات[٢] ، ويقوم بهذا العمل نحو خمسين فارسا فى كل ليلة[٣] ، وكانت هذه الحراسة تتم من داخل أسوار القصر ، بينما تضطلع الشرطة بحراسة الأسوار من الخارج[٤] ، أما الحراسة الخاصة بالخليفة فكان يكلف بها نحو خمسمائة نفر من الأمراء يحرسونه فى مجالسه وعند صلاته فى الجوامع المقامة خارج القصر ، وفى داخل الجامع نفسه كان يحيط بالمقصورة صبيان الخاص [٥] ، مما تجدر الإشارة إليه أن الوزير المأمون البطائحى قد اتخذ بعض الإجراءات الأمنية لحماية الخليفة وقطع الطريق على المجرمين، فأمر بإحصاء المقيمين فى مصر والقاهرة شارعا شارعاً وحارة حارة ومنزلا منزلا ، على أن يشمل الإحصاء أسماء المقيمين وكناهم وصناعاتهم وأوصافهم ، وإبلاغه بكل من يندس إليهم من الغرباء فكانت الأحوال

---

(١) المقريزى : خطط جـ١ ص٣٨٧ .
(٢) القلقشندى : صبح الأعشى جـ٣ ص٥١٨ .
(٣) القلقشندى : المصدر نفسه جـ٣ ص٥١٩ .
(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٤ ص٥٠٦ .
(٥) القلقشندى : المصدر نفسه جـ٣ ص٥٠٦ .
، أبو المحاسن : المصدر نفسه جـ٤ ص١٠٣ .

لا تخفى إليه على الدوام [١]، وقد وصف ابن ميسر هذه الإجراءات بقوله : «وكانت هذه الفعلة من المأمون من عجائب الحذق» [٢]، ورغم كل ما اتخذ من إجراءات الحيطة والحذر إلا أن الخليفة الآمر بأحكام الله قد تم اغتياله وهو بين رجاله وحرسه الخاص فى عملية فدائية فى ذى القعدة ٥٢٤هـ/ نوفمبر ١١٣٠م [٣].

كما كان يعين حرس خاص للوزراء وكبار رجال الدولة ، فمن ذلك الحراسة الخاصة بيعقوب بن كلس والتى بلغت خمسمائة رجل [٤]، وكانت الشريفات من نساء القصر تتخذ حراساً ، فاتخذت ست الملك أخت الحاكم حرسا خاص بها عرفت بالقصرية [٥]، كما اتخذ القضاة أحراسا مثال ذلك القاضى الحسين بن على الذى أمر له الحاكم بأمر الله بعشرين رجلا مسلحا لحراسته وملازمته فى تحركاته والمشى بين يديه بعد أن تعرض القاضى لمحاولة اغتيال سنة ٣٩١هـ/١٠٠١م [٦].

لم يكن هناك سجون فى أوائل العهد بالإسلام ولكن كان يتم إيقاف

---

(١) ابن ميسر : أخبار مصر ص٩٨ .
(٢) ابن ميسر : المصدر نفسه ص٩٨ .
(٣) ابن ميسر : المصدر نفسه ص١١٠ .
، المقريزى : اتعاظ جـ٣ ص١٣٠ ، ١٣١ .
، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٥ ص٧٢ .
(٤) ابن الصيرفى : الإشارة ص٢١ .
(٥) المقريزى : خطط جـ١ ص٤٥٧ .
، ابن سعيد : النجوم الزاهرة ص٥٤ .
(٦) المقريزى : المقفى الكبير ، تحقيق محمد اليعلاوى ، بيروت ١٩٩١م ص٦٢٨ .

المتهم ومنعه الاختلاط بغيره والتصرف بنفسه ، ويمكن حجزه في بيته (مثل تحديد الإقامة فى الوقت الحاضر) ، أو أن يطلب منه أن يلتزم المسجد، إذن هو عبارة عن تعويق الشخص وهو ما يعرف بالترسيم [١] ، وكانت أقدم السجون التى تم إنشائها فى مصر هو السجن المعروف بحبس المعونة بالفسطاط جنوبى شرق جامع عمرو وكان فى الأصل دار للشرطة ثم اتخذه يانس الصقلى سجنا سنة ٣٧١هـ/٩٩١م واستمر حتى تم هدمه على يد الوزير صلاح الدين الأيوبى ٥٦٦هـ/١١٧٠م قبل سقوط الدولة الفاطمية، وأمر بإقامة مدرسة للشافعية فى هذا الموضع ، وبعد إنشاء هذا السجن ظل يستخدم منذ ذلك الحين وحتى ضاق بالمتهمين وانتشرت به القاذورات والروائح الكريهة ، وصار يسمع صراخ المساجين وشكواهم من شدة الجوع والعرى والقمل وكثرة الوطاويط [٢] ، وعلى ذلك أنشأ الخليفة المستنصر سجنا منفصلا لأرباب الجرائم من الأعيان والأمراء والوزراء منذ ٤٣١هـ/١٠٣٨ ، وهو السجن الذى اعتقل فيه الوزير ابن الأنبارى على عهد الحاكم بأمر الله ثم قطعت رأسه ودفنت فيه كما شهد اعتقال الوزير أبى منصور الفلاحى ثم قطعت رأسه ودفنت فيه سنة ٤٤٠هـ/١٠٤٨م [٣] .

وكانت السجون مزودة بالمطابخ والمغاسل والبيمارستانات فكان الأطباء

---

(١) مصطفى زيادة : السجون فى مصر فى العصور الوسطى ، مجلة الثقافة ، العدد ٢٦٠، سنة ١٩٣٧ ص١٦ .

(٢) المقريزى : الخطط جـ٢ ص١٨٦ .

(٣) المقريزى : المصدر نفسه جـ١ ص٣٥٥ ، ٤٢٣ .

، ابن إياس : بدائع الزهور جـ١ ص٦٠ .

يدخلون على المساجين كل يوم حاملين الأدوية والأشربة ، وكانت البيمارستانات المقامة على أطراف السجون تتألف من قسمين أحدهما للرجال والآخر للنساء [١].

كان يعهد للقضاة بالإشراف على السجون أحيانا للاطمئنان على أحوال المساجين ، فاستوضح القاضى محمد بن أبى الفرج أحوال المساجين، ونقل أحوالهم إلى الخليفة الآمر بأحكام الله وسأله الإفراج عن بعضهم فأذن له لأنهم مكثوا مددا طويلة ضاع معها أملهم فى الخروج من السجن[٢] ، وهذا الأمر تم كذلك مع القاضى ابن ميسر فى عهد الخليفة الآمر فى ذى الحجة سنة ٥٢٢هـ/١١٢٨م[٣].

---

(١) أحمد عيسى : تاريخ البيمارستانات فى الإسلام ، دمشق ١٩٣٩ ، ص ص ٣ ، ٤، ١٨ ـ والبيمارستان كلمة تتألف من مقطعين هما بيمار بمعنى عليل والآخر ستان الدار أو الموضع ، وأصلها كلمة فارسية .

(٢) ابن حجر : رفع الإصر ص٢٥٦ .

(٣) ابن ميسر : تاريخ مصر جـ٢ ص٧٠ .

الفصل السادس

الحياة الاجتماعية

الفصل السادس
الحياة الاجتماعية

لم تعرف مصر فى تاريخها الإسلامى ثراء وبذخا كالذى شهدته البلاد فى العصر الفاطمى ، وقد انعكس ذلك على أسلوب حكام الدولة الفاطمية فى الإسراف الشديد الذى صبغ الاحتفالات بالمواسم والأعياد بمظاهر لم تشهد لها البلاد مثيلا من قبل ، وتجلى ذلك فى كثرة الأعياد اتباعا وابتداعا، وفى أسلوب الاحتفال بهذه المواسم والأعياد ، وفضلا عن ذلك شهد المجتمع المصرى تطورا ملحوظا فى العادات والتقاليد ووسائل التسلية وكافة مظاهر أنماط الحياة المعيشية .

المواسم والأعياد الدينية والمذهبية :

لم يكتف الفاطميون بالاحتفالات بالمناسبات الدينية التى عرفتها الدولة الإسلامية منذ نشأتها وانتشرت فى أرجاء العالم الإسلامى شرقا وغربا وصارت من التقاليد الدينية والاجتماعية ، بل ابتدع فقهاء المذهب الشيعى أعيادا ترتبط ارتباطا وثيقا بتعاليم وفقه هذا المذهب .

ولإضفاء الصفة الشرعية على هذه المواسم والأعياد شارك فيها الخلفاء بأنفسهم فضلا عن آل البيت والقادة والأمراء والقضاة وبالجملة كل رجال الدولة إذ كانوا يخرجون على رأس المواكب الاحتفالية فى أبهى صورة وأجمل مظهر ، ولقد تأثر الشعب بهذه الاحتفالات وشارك فيها مستمتعا بما تضمنته من مظاهر الفخامة والبذخ والجمال ، والتى عرفت فى التاريخ الفاطمى بالمواكب العظام [1].

---

(١) المقريزى : خطط جـ١ ص ٤٩٠ .
، أبو المحاسن : النجوم جـ٤ ص٧٩ .

اهتم المسلمون فى أرجاء العالم الإسلامى بالاحتفال برأس السنة الهجرية على اختلاف طوائفهم ومذاهبهم وفرقهم ، وفى مصر الفاطمية كانت تجرى الاستعدادات للاحتفال به فى العشر الأواخر من شهر ذى الحجة فيشرع صاحب الميدان بوضع خطة الإحتفال وترتيب المشتركين به وتعيين أماكن الأمراء والقادة وطوائف الجند وأرباب الوظائف العليا وأصحاب المناصب وكبار رجال الدولة وأرباب الرتب[١] .

ويلى ذلك فتح خزائن القصر الخلافى لإخراج الأسلحة بأنواعها وبخاصة المحلاة بالذهب والفضة والجواهر ، والألوية والبنود والرايات الموشاة والطبول اليدوية والمحمولة على ظهور البغال ، وبعد الفراغ من إعداد الأسلحة والذخائر يتم ترتيب الخيول المطهمة وعليها السروج المحلاة بالذهب والفضة وفى أعناقها أطواق مذهبة وقلائد العفير وهى الخيول المخصصة برسم ركوب الخليفة وحاشيته من المقربين وكانت تبلغ مائة فرس ، إلى جانب الخيول المخصصة لكبار رجال الدولة وأرباب الوظائف العليا [٢] ، ويتم حمل صناديق الإنفاق التى تحوى الدنانير والدراهم الجديدة المخصصة لتوزيعها على الطوائف المختلفة تيمنا ببداية السنة الهجرية الجديدة[٣] ، فإذا ما تمت الاستعدادات التى كانت تجرى بدقة بالغة ، يتم عمل تدريب للمشاركين فى ميدان العرض بحضور الوزير طوال العشر الأواخر ، وتتم التجربة النهائية

---

(١) المقريزى : الخطط جـ١ ص ٤٤٦ .
(٢) القلقشندى : صبح الأعشى جـ٣ ص٥٠٠ .
(٣) المقريزى : المصدر نفسه جـ١ ص٤٤٦ .

للعرض فى آخر يوم من ذى الحجة لوضع اللمسات الأخيرة قبل حضور الخليفة وكان الوزير يتأكد من مهارة تدريب الخيول التى كانت تتهادى وترقص على قرع الطبول والصنوج وأصوات البوق [١].

كانت مطابخ القصر الخلافى تعمل على قدم وساق مع الاستعدادات للإحتفالات ، فيقوم الطهاة بتجهيز العجول والخراف والدواجن وغيرها من أنواع الطيور لسماط الخليفة ولسماط العامة ، كما يقوم الحلوانية بتجهيز أنواع الحلوى التى كانت تضفى على الناس البهجة والسرور .

يحتشد المشاركون فى الإحتفال فى ميدان ما بين القصرين فى صبيحة يوم أول المحرم والجميع فى أبهى زينة من الثياب ، بينما يحضر الوزير مبكرا إلى قصر الخليفة ليكون على رأس مستقبليه لدى خروجه على رأس الموكب ، وبمجرد ظهور الخليفة يطلق بوق خاص تحية للخليفة ثم يتبعه بقية البوق ، إيذانا ببدء سير الموكب ، وكان الخليفة يرتدى الملابس البيضاء وقد شدت عمامة كبيرة على رأسه تعرف بشدة الوقار ، وتعلو جبهته جوهرة نادرة تعرف باليتيمة ، ويعلو رأسه المظلة التى كانت بنفس لون ملابس الخليفة يحملها حامل المظلة ، بينما يحف الخليفة عشرون من صبيان الخاص يحمل كل منهم راية من الحرير على رماح طويلة مكتوب عليها نصر من الله وفتح قريب[٢]، فضلا عن حاملى المباخر التى تنبعث

---

(١) المقريزى : خطط جـ١ ص ٤٤٤ .

(٢) المقريزى : المصدر نفسه جـ١ ص ٤٤٨ .

منها الروائح الطيبة العطرة ، ويحيط بهم صبيان الركاب التى تبلغ عدتهم نحو الألف ، ويسير الموكب فى رفقة الطبول والأعلام والجنود وطوائف الأشراف والقادة والجند كل فى موضعه المخصص له ، ويحتشد الناس على جانبى طريقه وهم مغمورين بكل مظاهر السرور والبهجة وعلى طول تحرك الموكب تظهر الزينات الملونة على المحال التجارية [١]، وفى نفس الوقت يقوم السقاءون برش الطريق بالماء والورود ، وكأنه احتفال بعرس جميل [٢]، وبعد أن يصل الموكب إلى نهايته يبدأ فى رحلة العودة بنفس الترتيب فإذا ما وصل إلى ميدان ما بين القصرين يصحب الوزير الخليفة إلى باب القصر وحوله كبار رجال الدولة فيلقى الجميع تحية الخلافة وينصرفون إلى دورهم[٣].

وفى مساء يوم الاحتفال توزع « الغرة » وهى النقود الجديدة التى تم سكها خصيصا لهذه المناسبة على جميع أرباب الدولة وعلى رأسهم الوزير الذى كان يحظى بعدد من الدنانير يوازى أيام السنة الهجرية[٤].

أما الاحتفال بالمولد النبوى الشريف فيتم الاستعداد له من دار الفطرة بإعداد كميات كبيرة من الحلوى بأشكال مختلفة من الخيول والسباع والضباع والقطاط والتى تصنع من السكر وتعبأ فى ثلثمائة صينية من النحاس وتوزع على كبار رجال الدولة ، بينما توزع النقود على الفقراء

---

(١) المقريزى : خطط جـ١ ص٤٤٦ .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى جـ٣ ص٤٩٦ .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٤ ص٧٩ .

(٤) القلقشندى : المصدر نفسه جـ٣ ص٥٠٥ .

والمحتاجين من مال النجاوى المتحصل من أتباع المذهب الشيعى مع الأطعمة والحلوى والخبز [١]، كما يخرج من دار الفطرة ما يخص الفقراء والخطباء والمعلمين الذين يضطلعون بالتدريس فى المساجد ، فضلا عن أربعون صينية من الحلوى برسم خدام المشاهد الشريفة لآل البيت ويستمر ذلك من أول النهار إلى الظهر ، ويؤدى الناس صلاة الظهر ثم يخرج قاضى القضاة على رأس موكب الاحتفال وبصحبته الشهود العدول وحاملوا الصوانى ويتجه الجميع إلى الجامع الأزهر حيث يدخل القاضى وحوله الناس ويجلسون لسماع القرآن الكريم ثم يخرج الموكب من الجامع متجها إلى قصر الخلافة، وقد تزاحم الناس على جانبى الطريق للمشاهدة ويتبعون الموكب إلى قصر الخلافة لمشاهدة الخليفة وعندما يصل الموكب إلى القصر ، يستدعى صاحب الباب قاضى القضاة ومن حوله ، فيترجلون جميعًا ويقفون تحت المنظرة ويظهر منها وجه الخليفة وقد وقف حوله المقربون من الأساتذة المحنكين ورجال الحاشية ، ويقول كبير الأساتذة المحنكين للناس : «أمير المؤمنين يرد عليكم السلام » ، ويكون ذلك إيذانا ببدء الاحتفال الذى يقتصر على قراءة القرآن الكريم ، والخطابة من المفوهين من خطباء الجوامع فى ذكر سيرة الرسول ﷺ ، وينتهى الاحتفال بالدعاء للخليفة ، ثم تغلق الطاقة وينصرف الجميع إلى دورهم [٢]، وكان الاحتفال بالمولد النبوى الشريف يتميز بإبداع الحلاويين وتفننهم فى صنع ألوان وأشكال ونماذج

---

(١) المقريزى : خطط جـ١ ص٤٣٢ .

(٢) المقريزى : المصدر نفسه جـ١ ص ٤٣٣ .

جميلة وغريبة من الحلوى لإدخال السرور والبهجة فى عيون وقلوب الكبار والصغار على السواء كما هو الحال فى الوقت الحاضر .

ومن المواسم الدينية التى اهتم الفاطميون بالاحتفال بها ليالى الوقود الأربع وكان يحتفل بها فى أول ومنتصف شهرى رجب وشعبان وعرفت بذلك لإضاءة الجوامع والمساجد من الداخل والخارج فضلا عن المآذن والدور ، فتتلألأ جميعها بشعلة من نور ، ويجتمع الناس ويحتشدون حولها للمتعة بهذا المنظر ، والتبرك بالبخور المعطرة التى تنبعث من المباخر المصنوعة من الذهب والفضة[١] ، ولإضفاء الصفة الرسمية على هذه الاحتفالات كان يحضرها القاضى بصحبة الشهود ووجوه البلد فيجلسون جميعا لسماع المنشدين والقراء ، ويقوم بتوزيع الهدايا والهبات على الناس فى كل ليلة من ليالى الوقود ، وكان الخليفة يفاجئ الناس بالهبات التى يرسلها لهم فى الجامع الأزهر بخاصة فى ليلة النصف من شعبان[٢] ، وكان كبار رجال الدولة ينتهزون هذه الفرصة فى التوسعة على الفقراء والمحتاجين ، فيقومون بتوزيع الحلوى والقطائف المحشوة باللوز والسكر والكافور فى جوامع مصر والقاهرة ومساجدها وعلى أهل الجبل والقرافة والمقيمين فى هذه الأماكن[٣] ، وكانت الأسواق تكتظ بالناس وقد امتلأت بألوان الأطعمة وصنوف الحلوى الجافة فيقبلون عليها للشراء والاستمتاع بأشكالها البديعة ،

---

(١) المقريزى : خطط جـ١ ص ٤٦٥ .
(٢) المقريزى : المصدر نفسه جـ١ ص ٤٤٦ .
(٣) المقريزى : المصدر نفسه جـ ١ ص ٤٤٥ .

وفى بعض الأحيان كان الخليفة يحضر بنفسه هذه الليالى ، فحضر الظاهر لإعزاز دين الله إلى منظرة الجامع الأزهر تحف به الحاشية من السيدات وكبار رجال الدولة وخدم الخاصة وسائر الرعايا والعوام وظلال الوقود تتلألأ وتبعث أشعتها الملونة فى كل مكان وفى هذه الحالة كانت الحلوى وصنوف الطعام توضع فى أروقة المساجد وتترك للعامة والفقراء يأخذون منها ما شاءوا ، فضلا عن توزيع الصدقات عليهم من أصحاب اليسار[١].

كانت ليالى الوقود تشهد احتفالا كبيرا لا يقل فى رونقه عن الاحتفالات الدينية الأخرى ، وكان يرأس هذا الاحتفال قاضى القضاة وذلك تكريما وتعظيما لمكانته فى الدولة ، فيخرج الموكب من أمام داره بعد صلاة المغرب ، حيث يحيط به الشهود العدول ومؤذنو الجوامع يبتهلون إلى الله ويدعون للخليفة والوزير ومن خلفهم القراء يجهرون بآيات القرآن الكريم ويحف الموكب من الجانبين حملة الشموع الموقدة الضخمة التى كانت تصنع خصيصا لهذه المناسبات ، وكان الناس يحرصون على الابتهاج بهذه المناسبات الرائعة حيث يحتشدون على جانبى الطريق الواصل من دار قاضى القضاة حتى باب الزمرد من أبواب القصر الشرقى الكبير ، فإذا ما اقترب الموكب خرج الخليفة إلى المنظرة المطلة على رحبة باب العيد وقد أضيئت حوله الشموع ، ويطل الخليفة بوجهه دون أن يتحدث بينما يطل من طاقة أخرى أحد الأساتذة المحنكين المقربين ثم يخرج رأسه ويشير بيده إلى المحتشدين قائلاً : « أمير المؤمنين يحييكم ويرد عليكم السلام »[٢]، ويبدأ

---

(١) المقريزى : خطط جـ١ ص ٤٤٧ .

(٢) المقريزى : المصدر نفسه جـ١ ص٤٤٧ .

الاحتفال داخل القصر بقراءة القرآن الكريم من القراء ثم يتقدم خطباء الجوامع الكبرى فيلقى كل منهم خطبة وبعد الانتهاء من الإحتفال يشير الأستاذ المحنك بيده إيذانًا بالانصراف للجميع [١]، ويتكرر الاحتفال فى كل ليلة من ليالى الوقود على هذا النحو .

كان موكب قاضى القضاة يتحرك من أمام قصر الخلافة إلى دار الوزير وهو بكامل هيئته ، وكانت مراسم الاحتفال تتكرر وبعد استقبال الوزير لأشراف الموكب حيث تتم قراءة القرآن الكريم والخطابة والدعاء للوزير ، وبعد الانتهاء من أداء المراسم ، يتحرك الموكب مخترقا شوارع القاهرة حيث يقوم قاضى القضاة بزيارة الجوامع الكبرى ويصلى فى كل منها ركعتين ويكون فى استقباله والى القاهرة عند كل مسجد، فإذا ما فرغ من القاهرة اتجه إلى الفسطاط حيث يكون فى استقباله واليها ويتجه معه إلى الجامع العتيق الذى يضاء بالتنور الذى كان قد صنع من الفضة الخالصة وينقسم إلى عشرة مناطق وبه أسطوانات بارزة ضخمة بها ما يقرب مثلا من ثلاثمائة ثريا مضاءة ، ويتدلى من أسفله مائة قنديل نجومية الشكل وزعت على محيط القاعدة [٢]، ومن هناك تبدأ رحلة العودة إلى دار قاضى القضاة[٣].

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ٣ ص٤٩٩ .

(٢) المقريزى : خطط جـ١ ص٤٦٧ .

(٣) المقريزى : المصدر نفسه جـ١ ص ٤٦٧
، القلقشندى : المصدر نفسه جـ٣ ص ٤٩٩ .

كان الاحتفال بقدوم شهر رمضان يختلف عن الاحتفالات الدينية الأخرى حيث تم الاستعداد له قبل ثلاثة أيام من بدء شهر الصوم حيث يقوم قاضى القضاة بالمرور على الجوامع الكبرى والمساجد لتزويدها بكل ما تحتاج إليه من فرش وإضاءة وتجديد وإصلاح وترميم قبل حلول الشهر الكريم [(١)] ، ويتم الإعلان عن بدء الصوم بموكب رسمى يطوف أرجاء البلاد فضلا عن إرسال الكتب والبشارات إلى ولاة الأقاليم الخاضعة للنفوذ الفاطمى [(٢)].

مما تجدر الإشارة إليه أن بدايات الشهور الهجرية تنظم عند الشيعة وفقا لجداول محددة لا يستخدم فيها رؤية الهلال ، فالسنة عندهم تنقسم إلى ستة أشهر تسعا وعشرون ، وستة أشهر ثلاثين يوما وعلى ذلك كان شهر رمضان يمتد إلى ثلاثين يوما [(٣)].

جرت عادة الفاطميين على أن يرسل إلى جميع الأمراء وأرباب الرتب والخدم وأسرهم أطباق من الحلواء فى وسط كل منها صرة من الذهب فى أول يوم من شهر رمضان والذى يقال له غرة رمضان[(٤)].

كان الاحتفال بشهر رمضان يمتد طوال الشهر ويتمثل ذلك فى موائد طعام الأفطار التى تنتشر فى طول البلاد وعرضها ، ومنها الموائد الخاصة

---

(١) المقريزى : اتعاظ جـ٣ ص٨٠ .
(٢) المقريزى : خطط جـ١ ص٤٩١ .
(٣) محمد عبد القادر : المجالس المؤيدية ، القاهرة ١٩٧٥ ص١٦٤ .
(٤) المقريزى : المصدر نفسه جـ١ ص ٤٩١ .

بكبار رجال الدولة والأمراء التى تقام بقاعة الذهب بقصر الخلافة حيث يجهز السماط الخاص بها بأفخر أنواع الطعام ، ومن عاداتهم السماح للحضور بحمل ما يشاء من الطعام إلى أهله وذويه ، وخلال تناول الإفطار يقوم الفراشون بخدمتهم ، وكان يتصدر سماط الخاصة الوزير أو من ينوب عنه مثل ولده أو أخيه[١] ، أما سماط العامة فكان يقام فى مقر الشرطة بمدينة الفسطاط لرواد الجامع العتيق ، وسماط آخر فى أروقة الجامع الأزهر فضلا عن الموائد التى كان كبار التجار والأغنياء والأمراء يحرصون على إقامتها طوال الشهر الفضيل ، وفى كل سماط كان القراء يتلون آيات القرآن الكريم بعد الانتهاء من تناول الطعام ، والتكبير والتهليل والدعاء للخليفة والوزير[٢] ، وبعد ذلك يأتى دور الوعاظ فيلقون الدروس الدينية الخاصة بالصيام ، وبعد الفراغ من دروس الوعظ والإرشاد ، يبدأ دور الصوفية الذين يمدحون آل البيت فى مناقب الرسول ﷺ ، والأدعية الخاصة بهم فى إطار من الدفوف والطبول والمحببة إلى النفس البشرية ، وخلال ذلك يطوف الفراشون بأطباق الحلواء والقطائف وأكواب الماء المعطر بماء الزهر أو الورود ويستمر ذلك حتى وقت السحور حيث تبدأ موائد السحور التى تنتهى هى الأخرى بتوزيع الحلوى والقطائف على الحاضرين [٣] .

ومن مظاهر الاحتفال بشهر رمضان انتشار الفوانيس المضاءة بالشموع

---

(١) المقريزى : خطط جـ١ ص ٣٨٧ .

(٢) المقريزى : المصدر نفسه جـ١ ص٣٩١ .

(٣) المقريزى : المصدر نفسه جـ١ ص٤٩١ .

والمعلقة فى الشوارع والحارات ، فضلا عما يحمله الصبية ويسيرون بها فى الطرقات ، ولم تكن الفوانيس للإنارة والزينة فقط ، بل كانت توضع فوانيس كبيرة مضاءة على مآذن المساجد والجوامع من المغرب وحتى موعد الإمساك عن الطعام حيث يقوم المؤذنون بإطفاء الفوانيس إيذانا ببدء صوم يوم جديد ، وبعد ذلك يقوم الناس بتأدية صلاة الفجر ثم يعودون إلى منازلهم للراحة واستقبال أعمالهم [١].

مما تجدر الإشارة إليه أن الخليفة الفاطمى لم يكن يخرج للصلاة فى الجمعة الأولى من شهر رمضان ولذلك عرف بيوم جمعة الراحة [٢]، غير أنه كان يخرج للصلاة فى الجمع الثلاث الأخيرة ، ففى الجمعة الثانية من شهر رمضان يركب إلى الجامع الأنور أو جامع الحاكم الذى تم تأسيسه على يد الوزير يعقوب بن كلس فى عهد الخليفة العزيز بالله سنة ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م خارج باب الفتوح وتم بناؤه فى عهد الحاكم بأمر الله ، وكان الخليفة يرتدى ثوبا أبيضا بسيطا دون تبهرج وذلك توقيرا للصلاة ، ويسير حوله كوكبة من القراء يرتلون القرآن الكريم ، وعلى جانبى الموكب يسير مقدموا الركاب وقد حملوا الأكياس التى تحمل أموال الصدقات فتوزع أثناء سير الموكب فإذا ما وصل الخليفة إلى الجامع ترجل ودخل الجامع فى وقار ويتوجه إلى المنبر وحوله الأساتذة المحنكون والوزير ومن ورائه حراسته الخاصة فإذا استوى على المنبر أشار بيده إلى الوزير إيذانا بالصعود ،

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ٣ ص٨٣ .

(٢) المقريزى : المصدر نفسه ، والجزء والصفحة نفسها .

فيصعد ويقبل يدى الخليفة ثم تغلق الستائر ، ويبدأ الخليفة فى القاء الخطبة من كتاب معد لذلك من ديوان الإنشاء ، ثم يتوجه الخليفة إلى المحراب لإمامة الناس فى الصلاة ويقرأ الفاتحة والآيات القرآنية من المكتوب على الستور الحريرية المعلقة على المحراب [١] ، وبعد انتهاء الصلاة يجلس لتوزيع الصدقات والهبات ثم يتحرك الموكب عائدا إلى القصر وسط تهليل الناس وأصوات الطبول والدفوف[٢] ، وتتكرر هذه المراسم فى الجمعة الثالثة والرابعة فى الجامعين الأزهر والعتيق على التوالى . وكان الموكب فى الجمعة الأخيرة يتوجه أولا إلى جامع أحمد بن طولون ثم إلى الجامع العتيق حيث تجرى طقوس أداء الصلاة ، مما يجدر ذكره أن الخليفة الحاكم بأمر الله كان قد أخل بما جرت عليه عادة الخلفاء فى ذلك حيث كان يحرص على أداء صلاة الجمع الأربع من شهر رمضان فى المساجد الجامعة [٣] .

كان الاحتفال بعيد الفطر يعرف بالموسم الكبير نظرا لما كان يصحبه من مظاهر البذخ والأبهة والإسراف ، كما كان يعرف بعيد الحلل لقيام القصربتوزيع الحلل الجديدة على الأمراء والولاة وكبار رجال الدولة وحتى الوزير وموظفى القصر ومن يلوذ بهم من صغار الموظفين والأتباع فتعم الفرحة الجميع [٤] ، وكان الاحتفال يبدأ بخروج الخليفة من قصره إلى المصلى المعد خصيصا لهذه المناسبة لتأدية صلاة العيد ، وكان مصلى العيد

---

(١) المقريزى : خطط جـ٢ ص٢٨١ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٤ ص١٠٤ .

(٣) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ٢ ص١٠٣ .

(٤) المقريزى : خطط جـ ١ ص ٤٥٢ .

تقع شرقى القصر الكبير بجوار باب النصر ، وكان جوهر الصقلى قد بناها لهذا الغرض بعد الفراغ من بناء القصر الخلافى ، وعلى الرغم من التشابه الكبير فى طريقة ورسوم الاحتفال بعيد الفطر مع ما كان يتم فى الاحتفال ببداية العام الهجرى الجديد ، والمواسم الدينية الأخرى ، إلا أنه كان يتميز باشتراك عسكر القصر الخلافى وقد ارتدوا أبهى الملابس المزركشة وهم يحملون الرماح الطويلة ذات الأسنة الذهبية التى تعلوها الأهلة كما يتميز باشتراك الفيلة والزرافات والأسود المزينة ، وكانت الفيلة تحمل الأسرة التى يجلس عليها العسكر بكامل زيهم وسلاحهم ، وتعلوها البنود والأعلام ذات الصوارى المفضضة والمذهبة ، وتعزف الأبواق والطبول بالأنغام الجميلة لإسماع الناس حيث يستقبلون كل هذه المظاهر بالفرحة والبهجة والسعادة وكان الخليفة لدى وصوله إلى المصلى يتقدم الناس لأداء صلاة العيد [١]، وبعد الفراغ من أداء الصلاة يعود الموكب الخلافى وقد احتشد الناس على جانبى الطريق فإذا ما وصل الموكب إلى القصر الشرقى احتشد الناس لاستكمال بهجة العيد حيث صبيان الخف - وهم من أهل برقة - يقومون بتأدية الألعاب البهلوانية والأكروبات فمنها النزول على الأحبال الممتدة من أعلى باب القصر إلى الأرض وقد ركبوا الخيول الخشبية ، وجماعة أخرى تركب خيولا حقيقية فيتقلبون على ظهرها وهى مسرعة ومنهم من ينتقل بين ظهر الفرس وبطنه بسرعة خلال قيادته بسرعة وجرأة[٢]، أما الخلفاء

---

(١) المقريزى : الخطط جـ١ ص٤٥١ .

(٢) المقريزى : المصدر نفسه جـ١ ص٤٥٧ .

فكانوا يتركون الناس يستمتعون بعيدهم ويتوجهون إلى تربة الزعفرانية التى تضم رفات أجدادهم للترحم عليهم وتوزيع الصدقات[١].

كان عيد الفطر من أهم المناسبات الدينية التى تتميز بإقامة الأسمطة الكبيرة التى تتميز بتقديم أصناف مختلفة وعديدة من الحلوى لإدخال مزيد من البهجة والسعادة على قلوب الناس ، وكان الخليفة العزيز بالله قد بنى مطبخًا ضخمًا لصنع الحلوى الخاصة بهذا الغرض عرفت بدار الفطرة وكان يخزن بها كميات كبيرة من السكر والعسل وقلوب اللوز والجوز والفستق والدقيق والتمر والزبيب والمواد العطرية حيث يتم تصنيع الخشكنانج وهو صنف من الرقاق المحشى باللوز والفستق ، والبستدود المصنوع من الدقيق والبلح ، ولقمة القاضى وكعب الغزال[٢]، ويتم تخزينها أولاً بأول فى مخازن دار الفطرة اعتبارا من منتصف رجب وحتى منتصف رمضان ثم يبدأ التوزيع على أرباب الدولة من الكبار والصغار فى صوانى يختلف حجمها ونعتها حسب مكانة المرسله إليه ويقوم بهذا العمل رجال متخصصون وهم يرتدون أفخر الثياب[٣].

كان من عادة الفاطميين فى عيد الفطر إقامة الأسمطة مثلما كان يجرى فى المناسبات الدينية الأخرى إلا أنه كان يتميز بسماطين ، الأول يقام فى قاعة الذهب بالقصر بعد عودة الخليفة من الصلاة ، فتقام مائدة

(١) المقريزى : خطط جـ١ ص ٤٥٤ .
(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٤ ص٩٦ .
(٣) المقريزى : خطط جـ١ ص٤٢٦ .

كبيرة أمام كرسى الخلافة وتسمى بالمدورة عليها ألوان الطعام وصنوفه التى تتفق مع مزاجه الخاص حيث تقدم الأطعمة فى أوانى من الذهب والفضة ويمد أمام مائدة الخليفة سماط آخر كبير عليه الأطعمة الشهية من الخراف المشوية والدجاج المحشى والفراريج والحمام وأصناف الحلوى وكان يزين السماط بالزهور البديعة ، وتسع المائدة نحو خمسمائة صحن وفى المائدة وضع قصران من الحلوى خصيصا لهذه المناسبة فى دار الفطرة بداخلها تماثيل صنعت من السكر وهى غاية فى الرقة والجمال ، وكان الطعام يبدأ مع حضور الخليفة وجلوسه على كرسى الخلافة ، وقد جلس الوزير على يمينه ، بينما يقف أربعة من كبار الأساتذة المحنكين وأربعة من خواص الفراشين للخدمة ويعملون تحت إمرة متولى المائدة وقد ارتدى أفخر الثياب وهو مشدود الوسط ، وإلى جانبه يقف مقدم الشراب يحمل فى يده إناء مصنوع من الذهب له غطاء مرصع وبه الشراب المفضل للخليفة ، وفى الجانب الآخر يظهر متولى خزائن الأنفاق يحمل حقيبة مملوءة بالدنانير منتظرا أوامر الخليفة للتوزيع على سبيل الصدقات ، ثم يأمر الخليفة بإدخال كبار رجال الدولة وحاشية القصر ، فيتخذون أماكنهم على المائدة الكبيرة فيأكلون ويحملون ما يستطيعون ،وتستمر المائدة إلى قرب الظهر ويأكل الملأ فى جو من السعادة والسرور لقيام القراء والمنشدين والشعراء باستعراض مواهبهم أمام الخليفة ، ثم يسمح الخليفة للجميع بالتقدم للسلام عليه على سبيل البركة فيقوم الشيوخ والقضاة والشهود والأمراء والفقهاء ورجال العلم وأعيان القاهرة والفسطاط بالتقدم للسلام على الخليفة وتقبيل يديه والأرض بين قدميه فيمنحهم من خزائن الأنفاق الهبات المقررة لكل حسب

درجته ومكانته [١]، وكان الوزير والأمراء يقيمون أسمطة مصغرة على غرار هذا السماط كل فى عقر داره للأهل والأقارب [٢].

أما سماط العامة فكان يباح فيه للناس تناول ما يشتهون من الأطعمة المخصصة لهم ، وكان يمد هذا السماط بالإيوان الكبير المطل على المنظرة التى يظهر منها الخليفة ليطلع عليهم خلال تناولهم الطعام والإطمئنان على تقديم كافة ما يلزمهم من الطعام وألوان الحلوى بعدالفراغ من تناول الطعام[٣]، وكان الخليفة يقوم بنفسه بإعطاء الطعام بيده للناس لمن أفطر من الشيعة بينما يسمح لغيرهم من السنة أن يحملوا طعامهم حتى يفطروا لاختلاف المذهبين فى تحديد بدايات ونهايات الأشهر العربية (القمرية) ، ومن ناحية أخرى كان الخليفة يتبادل رسائل التهانى بعيد الفطر مع ولاة الدولة وأمرائها الخاضعين لنفوذها[٤].

أما عيد الأضحى فكان يشهد استعدادات خاصة للاحتفال به فمنذ أول يوم من ذى الحجة تعقد المجالس الأدبية فى قصر الخلافة ويتبارى الشعراء فى مدح الخليفة والوزير ، ويتم البدء فى توزيع الهبات والصدقات على مستحقيها من أهل القاهرة والفسطاط[٥]، وتظل تجرى هذه الأعمال

---

(١) المقريزى : خطط جـ١ ص ٤٥٥ .

(٢) المقريزى : المصدر نفسه جـ١ ص ٤٥٥
، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٤ ص ٩٧ .

(٣) أبو المحاسن : المصدر نفسه جـ٤ ص ٩٧ .

(٤) القلقشندى : صبح الأعشى جـ٨ ص ٣١٣
، المقريزى : المصدر نفسه جـ١ ص ٤٥٧ .

(٥) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ١ ص ١٤٢ .

طوال ثمانية أيام حتى إذا ما جاء اليوم التاسع جلس الوزير فى داره منذ الصباح الباكر ويستقبل وفود المهنئين من كبار رجال الدولة من أرباب السيوف والأقلام والأساتذة المحنكين ورؤساء الدواوين فضلا عن بطريرك النصارى ورئيس اليهود والشعراء الذين يتغنون بأشعار هذه المناسبة [١]، وكان الخليفة يرتدى فى يوم النحر حلة جديدة حمراء وتظله مظلة حمراء اللون تعبيرا عن دم الأضاحى وكان الخليفة يسير إلى المنحر بعد أداء صلاة العيد يتقدمه الوزير ليفسح له الطريق ، فإذا ماوصل إلى رحبة باب العيد صعد إلى المصطبة المعدة للنحر يحف به الوزير وقاضى القضاة وبعض الأساتذة المحنكين ويبدأ فى النحر بنفسه للأضاحى التى تم صفها لهذا الغرض فيمسك الخليفة بالحربة وقاضى القضاة بنصلها ليضعها فى نحر الذبيحة ويقوم الخليفة بطعنها وكلما نحر الخليفة ذبيحة كبر المؤذنون ، ويتكرر هذا العمل على مدار ثلاثة أيام وتحمل لحوم الذبائح فى أطباق لتسلم إلى أرباب الدولة ورعاياها[٢] ، فضلا عن رجال التعليم وطلابه ، وكان اليوم الثالث يخصص للتوزيع على الفقراء بالقرافة والمحتاجين بالأحياء الشعبية ، إلى جانب إرسال بعض الذبائح المقددة إلى اليمن لتوزيعها على الشيعة الإسماعيلية [٣]، وبعدالانتهاء من طقوس النحر تبدأ المرحلة التالية وهى منح الوزير ورجال الدولة الملابس الجديدة الحمراء والتى كانوا يفتخرون بها ويستعرضونها فى

---

(١) المقريزى : خطط جـ١ ص ٤٤٢ .

(٢) المقريزى : المصدر نفسه جـ١ ص ٤٣٧ .

(٣) المقريزى : المصدر نفسه جـ١ ص ٤٣٧ .

شوارع القاهرة والفسطاط بينما يجلس الوزير فى داره لتلقى التهانى من كبار رجال الدولة متباهيا بما أنعم به الخليفة عليه من الحلة والعمامة . ومن ناحية أخرى كان يمد سماط الأضحى ثلاثة أيام حيث تقدم عليه أطيب الأطعمة وقصور الحلوى المصنوعة فى دار الفطرة[1]،

ومنذ اليوم الأول يتم تبادل الكتب والمراسلات الخاصة بالتهانى بعيد الأضحى مع ولاة الأقاليم التابعين للنفوذ الفاطمى فى أرجاء العالم الإسلامى [2].

كان الاحتفال بيوم الغدير من الأعياد الدينية التى حرص على إحيائها الخلفاء الفاطميون منذ قدوم المعز لدين الله مصر سنة ٣٦٢هـ/٩٧٢م ، ويعد هذا العيد من الأعياد الدينية السياسية التى تدعم سلطة الفاطميين الروحية ، إذ يدعى الفاطميون أن الرسول ﷺ أوصى فى اليوم الثامن عشر من شهر ذى الحجة فى السنة العاشرة بعد العودة من حجة الوداع لعلى بن أبى طالب بالخلافة من بعده ، فيروى مؤرخو الشيعة أن رسول الله ﷺ نزل فى موضع بين مكة والمدينة يعرف بغدير خم حيث تكثر به الأشجار التى تحيط بعين ماء ، وبعد أن صلى الظهر مع جماعة من الصحابة أخذ بيد على بن أبى طالب، وتوجه إلى مرافقيه قائلا : « ألا تعلمون أنى أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، قالوا: بلى ، فقال : من كنت مولاه فعلى مولاه ، الله والى من والاه وعاد من عاداه ، وانصر من نصره ، وأخذل من خذله ، وادر الحق معه»[3]. ويعتبر أئمة

---

(١) المقريزى : خطط جـ١ ص ٤٣٦ .

(٢) ماجد : السجلات المستنصرية ص ٩٩ - ١٠٠ .

(٣) محمد عبد القادر : المجالس المؤيدية ص٦٥ .

المذهب الشيعي أن هذه الوصية هي النص على الخلافة . وكان الاحتفال بهذا اليوم يبدأ من الجامع الأزهر حيث يجتمع الشيعة هناك ومعهم الفقهاء والقراء والمنشدين ويقوموا بالإنشاد الديني ويظل الحال على ذلك حتى الانتهاء من أداء صلاة الظهر فيتوجه الجميع إلى قصر الخلافة لاستلام الهبات والصدقات ، ومن أهم ما يميز هذه المناسبة هي التوسع في عتق الرقاب وأعمال البر وذبح الذبائح وتوزيع لحومها لكسب ود جموع الشعب وأسر قلوبهم فضلا عن تزويج الأيامى دون مقابل وتوزيع الملابس والحلل الجديدة على الفئات المختلفة . وقد تطور الاحتفال بحيث صار يطلق عليه ركوب عين الغدير[١] ، فينطلق موكب الخليفة ومن حوله الأساتذة المحنكون ومن خلفه الأمراء وطوائف الجند تظلهم ألوية ورايات وشارات الخلافة ، ويتوجه الجميع إلى المشهد الحسيني حيث يكون في استقبالهم قاضي القضاة ، ومعه الشهود العدول ، فيندفع مقبلا يدى الخليفة ويخر على الأرض مقبلا رجله ، ثم يعود الموكب إلى القصر ، فيدخل الخليفة إلى مقر الخلافة ويطل على الإيوان الكبير الذى تم فرشه بالبسط الفاخرة وبه كرسي الدعوة المعد للخطابة حيث يصعد إليه قاضي القضاة ويلقى خطبة من كتاب أعد لهذه المناسبة من ديوان الإنشاء الذى يؤكد فيه على حادثة غديرخم ثم ينزل ويصلى الجميع ركعتين ، ويتبادل الجميع التهاني ، وينصرفون إلى الأسمطة المخصصة لطوائف المجتمع كل حسب منزلته ومكانته ، وتنقسم إلى ثلاثة أسمطة أحدها مخصص لكبار رجال

---

(١) المقريزى : خطط جـ١ ص ٣٨٩ .

الدولة وأتباعهم ، والثانى لأقارب الخليفة وحاشيتهم والثالث لعامة الشعب[١] .

ومن المواسم الدينية الشيعية ذكرى مقتل الحسين بن على فى واقعة كربلاء فى العاشر من المحرم سنة٦١هـ/ ٦٨٠م ، يعد من المناسبات الحزينة التى تتسم بالعنف وكان المعز لدين الله أول من أدخل هذه الذكرى فى مصر منذ سنة ٣٦٣هـ/٩٧٣م ، وكان الاحتفال به يتم بخروج الشيعة فى الطرقات وهم يصيحون بالنياحة والبكاء والعويل على مقتل الحسين ، ويقومون بمهاجمة الأسواق وإتلاف الأقوات وأوانى السقائين وتمزيق قربهم، وتعلو صيحاتهم بالسباب على بنى أمية لاتهامهم بالسبب فى مقتل الحسين [٢] .

أما الخلفاء فكانوا يحتجبون عن الظهور تعبيرا عن حزنهم العميق وجزعهم ويأمرون بتعطيل الأسواق ،وعند الأذن ببدء الاحتفال المهيب يخرج قاضى القضاة على رأس الجموع ويتجه إلى الجامع الأزهر ويصحبته الشهود العدول والأعيان وقراء الحضرة والعلماء وينضم إليهم الوزير ، حيث يتم تلاوة آيات القرآن الكريم ، ويتبع ذلك الإنشاد الدينى الحزين وشعر المراثى فى ذكرى الحسين وآل البيت بعبارات جياشة تدفع الحاضرين إلى البكاء والعويل ، وبعد الانتهاء من ذلك يتوجه الجموع إلى القصر الخلافى

---

(١) المقريزى : خطط جـ١ ص٣٩٠ .

(٢) النعمان : المجالس والمسايرات ص ٣٩٧ - ٣٩٨ .

الذى يتم تجريده من مظاهر الزينة ، ويفرش دهاليزه بالحصر تعبيرا عن الحزن ويجلس كبار رجال الدولة على دكك من الخشب ، ثم يتوجهون بعد سماع بعض الأناشيد الحزينة إلى سماط الحزن والكآبة الذى لا يضم سوى العدس والمخللات والخبز والشعير ، ويوضع الطعام على الأرض بدون مرافع فيتناول من أراد من هذا الطعام ولا يرغم أحد على ذلك ، فإذا انتهى وقت الطعام عاد الجميع إلى دورهم(١)، وظل الحال على ذلك حتى تم بناء المشهد الحسينى فى عهد الوزير طلائع بن رزيك سنة ٥٤٩هـ/١١٥٤م فصارت تذبح الذبائح عند قبر الحسين وتوزع لحومها على الفقراء والمحتاجين (٢)، وإمعانًا فى إظهار أحزان الخليفة وكبار رجال الدولة ، كان الخليفة يجلس على كرسى من جريد بغير مخدة متلثما بينما يحف به الأمراء والوزير وقاضى القضاة وهم حفاة متلثمون بغير عمائم مثلما حدث فى عهد الخليفة الآمر سنة ٥١٦هـ/١١٢٢م(٣).

- الاحتفالات السياسية والقومية :-

كان الاحتفال بعيد النصر يعد من الاحتفالات السياسية ، وقد أدخله الحافظ لدين الله بعد أن تمكن حراسه من إطلاق سراحه من محبسه الذى أسره فيه وزيره أبو على أحمد بن الأفضل فى السادس عشر من المحرم سنة

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٥ ص ١٥٤ .

(٢) المقريزى : خطط جـ١ ص ٤٢٧.

(٣) المقريزى : المصدر نفسه جـ١ ص ٤٣١ .

٥٢٦هـ/١١٣١م ، وقد اعتبر عيدا قوميا لانتصار المذهب الإسماعيلى على الإمامية التى كان يعتنقها الوزير، حيث أن المذهب الإسماعيلى هو الأساس الذى قامت عليه الشيعة ، وكان الاحتفال بهذا اليوم يتم فى قاعة المحول الواقعة فى صدر الإيوان الكبير بالقصر الخلافى ، وكان الاحتفال به يتم وقوفا من أرباب الدولة عدا الخليفة الذى كان ينفرد بالجلوس على مخدة كبيرة بصدر المجلس ، ويصعد قاضى القضاة على مصطبة الدعوة حيث يلقى الخطبة المعدة سلفا فى ديوان الإنشاء ، وتتضمن مواعظ الفرج بعد الشدة ، وما يتعرض إليه الأنبياء والحكام من مؤامرات على أيدى أعدائهم ، وكان قاضى القضاة يرتدى حلة مميزة خاصة بالمناسبة ، وعند الفراغ من خطبته يمنح هبة مالية من الخليفة ويلى ذلك توزيع الهبات والصدقات على الفقراء والمحتاجين ، وفى مساء يوم الاحتفال بعيد النصر يجلس الخليفة للترفيه فيستمع إلى الغناء والطرب والموسيقى ، والجوارى بين يديه يغنين ويرقصن ويعزفن على العود (١).

كذلك اهتم الفاطميون بالاحتفال بوفاء النيل واعتبروه عيدا قوميا وذلك عندما يصل ارتفاع الماء فى المقياس ستة عشر ذراعا ، وذلك لأن النقص الشديد يؤدى إلى القحط والمجاعات وكذلك الحال إذا زاد ارتفاع مياه النيل عن معدل الوفاء ، فيحدث غمر للأرض وإتلاف المحاصيل وينتهى الأمر بالأوبئة وانتشار الأمراض ، وقد وصف ابن جبير المقياس بأنه عمود من الرخام الأبيض . مثمن الشكل فى موضع ينحصر فيه الماء عند انسيابه

---

(١) المقريزى : خطط جـ٢ ص ٤٤٨ .

إليه ، وهذا العمود مقسم إلى اثنين وعشرين ذراعا وكل ذراع مقسمة إلى أربعة وعشرين قسما تعرف بالأصابع ، ما عدا الاثنى عشر ذراعا الأولى ، فإن كل ذراع منها مقسمة إلى ثمان وعشرين إصبعا [١]، وقد بنى هذا المقياس لمراقبة زيادة مياه النيل ونقصانها واتخاذ التدابير اللازمة لمواجهة ذلك ، وكان يتولى أمر مقياس الروضة والإشراف عليه وتنظيفه أسرة بكار بن قتيبة أبو الرداد عبد الله بن عبد السلام منذ إنشائه سنة ٢٤٧هـ/٨٦١م وظلت هذه الوظيفة يتوارثها أفراد من الأسرة نفسها[٢]، وكان متولى المقياس يرسل رقعة إلى الخليفة الفاطمى بقرب وفاء النيل عندما لا يبقى على ذراع الوفاء سوى إصبع أو إصبعين ، وكان الفاطميون يبتهجون بهذه البشرى ويعتبرونها إيذانا ببدء الإحتفال[٣]، مما تجدر الإشارة إليه أن الفاطميين كانوا قد أمروا بكتمان أمر النيل وعدم اطلاع الناس على أحواله حتى لا يستغل بعض التجار فرصة الإعلان عن ذلك ويقومون باحتكار الغلال وإخفائها حتى ترتفع أثمانها ، ومن ناحية أخرى لحماية رعاياهم من حالة الذعر التى كانت تنتابهم كلما اقترب موعد قياس النيل والخشية من اضطراب الأسواق بسبب ندرة الغلال ، وكان الخليفة المعز لدين الله بعد أن قدم إلى مصر يأمر بالنداء لدى وصول البشرى إليه ، وفى الوقت نفسه يجتمع قراء الحضرة فى جامع المقياس ومن يجرى مجراهم لختم القرآن الكريم ، وتقام لهم

---

(١) ناصر خسرو : سفر نامة ص١٢٩ ـ ١٣٠ .
(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ١ ص٢٧٠ .
(٣) المقريزى : خطط جـ١ ص ٤٧٦ .

موائد الطعام وتوقد الشموع إيذانا ببدء الاحتفالات فى الصباح [١].

كان موكب الاحتفال بوفاء النيل يخرج من قصر الخلافة يتصدره الخليفة يحف به كبار الدولة فى أفخم الثياب وأتم تجهيز ، ويتجه فى بداية مسيرته إلى دار الصناعة أو دار صناعة الجزيرة التى تم إنشاؤها سنة ٥٤هـ/٦٧٣م فى عهد مسلمة بن مخلد الأنصارى ، وعرفت بذلك لوقوعها على شاطئ النيل قبالة مدينة مصر (الفسطاط) وكانت مخصصة لصناعة السفن ، وكان المعز لدين الله قد أنشأ دار صناعة المقس لصناعة السفن وذلك لزيادة المنتج من السفن وتنوعها [٢]، وكان الموكب يسير وسط الطرق التى زينت جوانبها فضلا عن الدور وأبواب الحارات والحوانيت بالأعلام الزاهية والستور الحريرية ، وفى هذه المناسبة يحتشد الناس على جانبى الطريق ابتهاجا وسروراً ، وتوزع الصدقات على الفقراء وذوى الحاجات وعمال المساجد والسقائين وغيرهم [٣]، ويخترق الموكب دهليز دار الصناعة المفروش بالحصر العبدانى المجلوب من عبادان بالبصرة ، ويستمر على ذلك حتى يصل إلى منظرة دار الملك فيكون فى انتظاره العشارى المخصص لركوب الخلفاء للتنزه وللاحتفال بوفاء النيل وفتح الخليج ، حيث أنه كان عبارة عن سفينة صغيرة فاخرة مجهزة خصيصا للخلفاء والأمراء وكبار رجال الدولة[٤]، وكان الوزير وثلاثة فقط من الأساتذة المحنكين

---

(١) المقريزى : خطط جـ١ ص ٤٧٦ .

(٢) درويش النخيلى : السفن الإسلامية على حروف المعجم ، القاهرة ١٩٧٤ ص٩٥ .
، المقريزى : خطط جـ١ ص ٤٨٣ ، جـ٢ ص١٩٥ .

(٣) المقريزى : المصدر نفسه جـ١ ص٤٧٦ .

(٤) المقريزى : المصدر نفسه جـ١ ص ٤٧٣ .

يرافقون الخليفة بالعشارى[1]، ويسير العشارى فى النيل حتى يصل إلى باب المقياس العالى على الدرج ، فينزل الخليفة ويدخل إلى فسحة المقياس وبصحبته خواصه ، فيصلى بهم إماما ابتهاجا وشكرا لله تعالى ، وبعد انتهاء الصلاة يمسك بيده طاسة من الفضة مملوءة بالزعفران والمسك ويناولها لصاحب بيت المال الذى يعطيها لمتولى المقياس من عائلة أبى الرداد ، فيلقى محتواها فى فسقية المقياس ، وخلال ذلك يقرأ المقرءون القرآن الكريم ، وبعد انتهاء التلاوة يعود الخليفة إلى القاهرة راكبا العشارى ، وقد أحاطت به السفن الحربية التى تؤدى أمامه المناورات والاستعراضات وقد زينت جميعها بالستور والأعلام ذات الأهلة الذهبية والفضية [2]، وفى اليوم التالى للاحتفال يتوجه متولى المقياس إلى الإيوان الكبير بقصر الخلافة حيث يخلع عليه الوزير خلعه ذهبية ويمنحه أربعة أكياس فى كل منها خمسمائة درهم[3]، ثم يخرج ابن أبى الرداد من باب العيد وقد أحاط به أقاربه وأصدقاؤه وأمامه النقارات والأبواق ومن خلفه الطبول ، ويسير على هذا النحو مخترقا ما بين القصرين حتى يعود إلى المقياس .

لم يقتصر الاحتفال على وفاء النيل بل يتعداه للاحتفال بفتح الخليج فى اليوم الثالث وبهذه المناسبة كان يقام للخليفة الخيمة العظيمة المعروفة

---

(١) درويش النخيلى : السفن الإسلامية ص٩٥
، المقريزى : خطط جـ٢ ص ١٥٥ .
(٢) المقريزى : المصدر نفسه جـ١ ص ٤٧٦ .
(٣) المقريزى : المصدر نفسه جـ١ ص ٤٧٣ .
(٤) المقريزى : المصدر نفسه جـ١ ص٤٧٧ .

بالقاتول وقد عرفت بذلك لأن أول خيمة أقيمت بهذه المناسبة تسببت فى مقتل اثنين من المختصين بإقامتها [١]، وكان موضع إقامتها البر الغربى للنيل عند منظرة السكرة التى كانت تزين فى يوم الخليج وتفرش بأفخر المفروشات والستور ، وبها تماثيل فى غاية الرقة والإتقان على أشكال الصور الآدمية والحيوانات المصنوعة من الذهب والفضة والعنبر[٢]، وإلى جانب القاتول كان هناك مجموعة من الخيام التى تقام للأمراء وكبار رجال الدولة وترتب بالقرب منها تبعا لقدر مراتب أرباب هذه الوظائف الهامة[٣]، وتعد الخيمات على هذا النحو البديع انتظارا لوصول موكب الخليفة الحافل ، والذى كان يخرج على رأسه وقد ارتدى ثوبا جديدا من الحرير المرقوش بخيوط الذهب يقال له البدنة وحوله المقربون من الأساتذة المحنكين ، ويسير وسط العزف الموسيقى البديع من نافخى الأبواق النحاسية وضاربى الصنوج والمتقربين بالطبول ، ويحيط به ويسير من خلفه نحو ألف فارس على خيولهم السروج المذهبة والأسلحة المرصعة ، فضلا عن الجمال التى تحمل على ظهورها الهوادج المرصعة حيث تحمل فى داخلها جملة نساء الخليفة وجواريه ، وكان يتقدم الموكب فرقة من الرجال عليهم الثياب المذهبة والمناطق المرصعة وقد حملوا فى أيديهم السهام والرماح ، ويحف الموكب أصحاب المجامر الذين يقومون بحرق العنبر والعود فتنبعث الروائح الزكية والناس يستقبلون

---

(١) المقريزى : الخطط جـ١ ص ٤٧٧ .
(٢) المقريزى : المصدر نفسه جـ١ ص ٤٧٢ .
(٣) المقريزى : المصدر نفسه جـ١ ص٤٧١ .

كل هذه المظاهر الخلابة بالسرور والابتهاج وقد احتشدوا على جانبى الطريق، وكان الموكب يتوقف عند ساحة جامع أحمد بن طولون حيث يقوم الفرسان المدربون ببعض الحركات الاستعراضية والألعاب البهلوانية[1]، ثم يستكمل الموكب مسيرته حتى إذا وصل إلى موضع الخيام ، ترجل الخليفة ودخل القاتول حيث يجلس على سرير الملك يحيط به خاصته من الحراس والأمراء المطوقون ، ويجلس الوزير على الكرسى المخصص له بينما يقف أصحاب الرتب فى صفين ، وقراء الحضرة يتلون آيات الله البينات نحو ساعة ، يلى ذلك الشعراء الذين ينشدون القصائد الخاصة بهذه المناسبة ، ومما قاله عمارة اليمنى فى هذه المناسبة :

شرفت أمير المؤمنين موسم   أصبحت تاجٌ باسمكم وسط

وأجلها يوم الخليج فإنه   من بينها يوم أغر مشهد

وافاك فيه النيل وهو من الحبا   خجل يقدم رحله ويؤخر[2]

ثم ينتقلون إلى منظرة السكرة فتفتح إحدى طاقات المنظرة ليطل منها الخليفة على الخليج وطاقة أخرى يطل منها أستاذ من الخواص الذى يشير بفتح السد فيتم ذلك بأيدى عمال البساتين بالمعاول [3]، حتى يتدفق الماء إلى مجاريه فى أنحاء البلاد ينشر على أراضيها الخير والرخاء، وخلال ذلك يصل الطعام المعد خصيصا لهذه المناسبة القومية من القصر الخلافى فيمد

---

(١) المقريزى : خطط جـ١ ص ٤٧٧ .

(٢) عمارة اليمنى : النكت العصرية جـ١ ص٢٢٣ .

(٣) المقريزى : المصدر نفسه جـ١ ص ٤٧٨ .

على السماط ، وتوزع الأطعمة على الحاضرين فى صوانى عملها الفراشون وتتضمن ألوان من الحلوى على هيئة التماثيل ويفرق الباقى من الطعام على المحتاجين فيأخذونه على سبيل البركة[١] ، وكانت دار الخلافة ترسل الرقاع إلى الأقاليم والولايات تخبرهم بهذه المناسبة الجليلة وتطلب منهم دفع الرسوم المقررة التى جرت بها العادة [٢] .

---

(١) المقريزى : خطط جـ١ ص ٤٧٢ .
(٢) المقريزى : المصدر نفسه جـ١ ص ٤٧٩ .
، القلقشندى : صبح الأعشى جـ٨ ص٣٢٩ .

الأعياد غير الإسلامية :

لا شك أن سماحة الخلفاء الفاطميين وعدم تعصبهم قد أتاح الفرصة لغير المسلمين من رعايا الدولة للاحتفال بالأعياد الخاصة بهم فى أمان تام وعلنية مطلقة دون تدخل من الحكومة ، بل أن كثيرا من المسلمين شاركوا إخوانهم فى الابتهاج بهذه الأعياد فى جو من السرور والبهجة وتبادل التهانى، والانطلاق جميعا إلى المنتزهات للترويح عن النفس وسماع الموسيقى والغناء وقصائد الشعر وكان الأمير تميم بن المعز لدين الله على رأس المشاركين فكان يخرج من القصر إلى النيل فيركب العشارى وقد زينت وصارت فى أبهى صورة ويسير بها وقد أحاطت به أربعة زوارق مملوءة بالفاكهة والأطعمة والأشربة ويقوم بتوزيعها على المحتفلين وذلك فى بركة الحبش بجنوب الفسطاط فيما بين جبل المقطم والنيل والتى كانت تعد المتنزه الرئيسى لأبناء الشعب لجمالها ورونقها وإحاطتها بالحدائق الغناء[١] ،

يعد عيد النيروز من أكبر الأعياد التى حرص غير المسلمين على الاحتفال به مع اختلاف توقيت هذا اليوم ، والذى يعرف بالنوروز بالفارسية أى اليوم الجديد والذى يعتقد أن أول من احتفل به سليمان بن داود [٢] ، ويحتفل به الفرس فى أول يوم من كل سنة جديدة ، والقبط فى أول توت، وأهل الشام فى أول كانون الثانى ويطلقون عليه القلندس [٣] ، وفى العصر الفاطمى كان الناس ينطلقون للاحتفال به كما حدث فى عهد

---

(١) المقريزى : خطط جـ١ ص ٤٩٠ ـ ٤٩٣ .

(٢) حسن إبراهيم : الفاطميون فى مصر ص ٦٦٠ .

(٣) المسعودى : مروج الذهب جـ٢ ص١٩٨

، القلقشندى : صبح الأعشى جـ٢ ص٤١٩ .

المعز لدين الله سنة ٣٦٤هـ/٩٧٤م فخرج الناس إلى الأسواق لشراء التماثيل الملونة المصنوعة من الحلوى والمعادن على هيئة الحيوانات المحببة إلى النفس ، وقاموا باشعال النيران ليلا واللعب بالماء ورشه على بعضهم البعض وذلك للاعتقاد بأن هذا الماء يطهر النفوس والأبدان مما علق بها من درن الآثام والخطايا ، كما كانوا يتراشقون بالبيض لاعتقادهم أن البيض هو منشأ كل الموجودات [١].

اتخذ الاحتفال بعيد النيروز شكلا قوميا فى عهد العزيز بالله وذلك أن وزيره أخ زوجته كان مسيحيا ، فصارت تمنح فيه الخلع والكساوى والهدايا للأمراء وكبار رجال الدولة والخواص والمقربين من الرجال والنساء على السواء ، فضلا عن النقود الذهبية والفضية[٢] ، وقد عبر تميم بن المعز عن ذلك بمدح العزيز بالله بقوله :

فإن طاب نوروز وعبير ∴ بنورك أضحى ذا وذا وهو طيب

كما اتخذ الاحتفال به بعدا جديدا فى عهد الآمر بأحكام الله الذى شارك بنفسه المحتفلين فخرج إلى منظرة اللؤلؤ المطلة على الخليج والبستان الكافورى ، فيجلس هناك لمشاهدة الناس وفرق الغناء والموسيقى والاستماع إلى قصائد الشعر [٣].

---

(١) طه ندا : الأعياد الفارسية فى العالم الإسلامى ،مجلة كلية الآداب ـ جامعة الأسكندرية ، مجلد ١٧ لسنة ١٩٦٣ ص١٧ .

(٢) المقريزى : خطط جـ١ ص ٢٦٩ .

(٣) المقريزى : المصدر نفسه جـ١ ص٢٦٩ .

يعد الاحتفال بعيد ميلاد السيد المسيح من أهم الأعياد القبطية التى شهدتها مصر فى عهد الفاطميين وذلك لمشاركة المسلمين من العامة والخاصة من الأمراء وأرباب الوظائف الكبرى ، وكان يحتفل به فى اليوم التاسع والعشرين من كيهك وتزين الكنائس فى ليلة الميلاد وتضاء بالفوانيس والشموع وكذلك يتم إضاءة الدور والأسواق وكان الصناع يستغلون فرصة هذا العيد لصناعة الفوانيس الملونة التى يباع منها كميات كبيرة مما يحدث رواجا للتجارة مثلما يحدث فى ليالى شهر رمضان عند المسلمين ، ويتبادل المحتفلون التهانى وتوزع الحلوى وشراب الجلاب وسلال السمك البورى والخبز[١] ، أما عيد الصليب فكان يحتفل به المسيحيون فى اليوم السابع والعشرين من شهر توت ،ويرجع إلى الاعتقاد بأن الملكة هيلانة أم الامبراطور قسطنطين قد عثرت على الصليب المقدس الذى تم صلب السيد المسيح عليه ، فأمرت ببناء كنيسة القيامة وأودعته فيها فى الرابع عشر من شهر يوليو سنة ٣٢٨م وكان يحتفل به باللهو واللعب وتبادل التهانى والخروج إلى الضواحى للترويح عن النفس والترفيه ، وعلى الرغم من مباركة العزيز بالله للاحتفال به سنة ٣٨٢هـ/٩٩٢م ، إلا أن الحاكم بأمر الله منع ذلك سنة ٤٠٢هـ/١٠١١م ، وقد اندثرت هذه الذكرى بمرور الوقت حتى بطل الاحتفال به بديار مصر نهائيا [٢].

كان عيد الغطاس يتم الاحتفال به فى الحادى عشر من شهر طوبة

---

(١) ماجد : نظم الفاطميين جـ١ ص١٣٤ .

(٢) المقريزى : خطط جـ١ ص٢٦٧ .

ويعرف بذلك للاعتقاد بأن النبى يحيي بن زكريا قد عمد السيد المسيح فى هذا اليوم أى غسله فى بحيرة طبرية ، فلما خرج السيد المسيح من الماء اتصل به الروح القدس ، فصار يوما مقدسا يتم فيه الغطس والاستحمام فى الماء ، فعرف بيوم الغطاس وليلة الحميم (١) ، ومن مظاهر الاحتفال به خروج متولى الشرطة فى أول الليل مرتديا أجمل الثياب وأطيبها تحيط به الشموع الموقدة ، وفى صبيحة اليوم التالى يخرج المسيحيون إلى نهر النيل فى أسر كاملة حيث يحتفلون بالغطس فى الماء ويستمر ذلك حتى آخر النهار ، ومن ناحية أخرى كان الكاثوليك يخرجون من كنيستهم فى قصر الشمع يحملون الصلبان ويرتلون الترانيم بنغمات عالية ثم يتجه الجميع إلى النيل حيث يقوم كبير الأساقفة بالتعريف بذكرى هذه المناسبة والصلاة والعودة ، وقد حضر الحاكم بأمر الله الاحتفال بهذا العيد أو كان يكتفى بإرسال مندوبا عنه كما حدث سنة ٣٨٨هـ/٩٩٨م حينما أرسل الكاتب فهد بن إبراهيم النصرانى ممثلا عنه ، حيث شارك المحتفلين واستمع للغناء والموسيقى ثم غطس وأسرته فى موعد الغطاس وانصرف (٢) ، وقد منع الحاكم الاحتفال به بعد انتشار المجون والعبث من جانب المحتفلين وذلك سنة ٤٠١هـ/١٠١٠م ، حتى أعيد فى عهد الظاهر ، الذى شارك رسميا فى الاحتفال به فأضيئت الشوارع والحوانيت والدور ، وسيرت المراكب

---

(١) المقريزى : خطط جـ١ ص ٢٦٥

، الأنطاكى : تاريخ الأنطاكى ص١٩٦ .

(٢) المقريزى : اتعاظ جـ٢ ص ١٧ .

، المقريزى : خطط جـ١ ص ٢٦٥ .

المزدانة بالفوانيس الملونة فى النيل وشاهده الظاهر من المنظرة المخصصة لذلك المطلة على النيل ، فحضر الرهبان والأساقفة يحملون الصلبان وحولهم الشموع وترنموا بصلواتهم وأدعيتهم حتى الغطاس[١] ، وكان الخليفة يأمر بالعطايا والهبات لكبار رجال الدولة مشاركة منه فى الاحتفال ، فضلا عن رؤساء القبط الذين حرصت الحكومة الفاطمية على إهدائهم البورى والقصب والحلوى والزهور [٢].

أما الاحتفال بخميس العهد فكان يتم قبيل عيد الفصح بثلاثة أيام وفيه يقوم رئيس البطاركة برش الماء على أرجل الحاضرين بعد غمس أرجلهم فى إناء مملوء بالماء المقدس الذى تمت القراءة عليه بالأدعية الخاصة بهذه المناسبة ، وذلك تشبها لاعتقادهم بأن السيد المسيح قام بذلك مع حواريه فى مثل هذا اليوم تواضعا منه وقد أخذ منهم العهد أن يتواضعوا وألا يفترقوا ، وسمى هذا اليوم بالخطأ بخميس العدس[٣] ، وذلك لعادتهم بطبخ العدس ، بينما يعرف عند أهل الشام بخميس البيض تبعا لنوع الطعام الذى يقدم حسب تقاليد كل أقليم ، ولم يقتصر فى مصر الفاطمية على العدس ولكن الناس كانوا يتبادلون الهدايا من البيض الملون ويقدمون لضيوفهم أنواع الأسماك ، أما الحكومة الفاطمية فكانت تصدر عملات معدنية مصنوعة من النحاس ليست لها قيمة تذكر وتعرف بالخراريب وتبلغ قيمتها نحو عشر

---

(١) المقريزى : خطط جـ١ ص ٢٦٦ .
(٢) المقريزى : المصدر نفسه جـ١ ص٤٩٥ .
(٣) ماجد : نظم الفاطميين جـ٢ ص ١٣٥ .

درهم غير أنها عملات تذكارية توزع على أرباب الوظائف ويقوم البعض بنثرها على رءوس المحتفلين(١).

كذلك احتفل النصارى بعيد الزيتون والذى يوافق اليوم الثانى والأربعين من بداية الصوم الكبير أى الأحد السابع وهو عيد الشعانين أو التسبيح ، حيث يعتقد أن السيد المسيح قد ركب فى هذا اليوم حماره ودخل به بيت المقدس وحوله النصارى يسبحون ويهللون بالترانيم (٢)، وفى هذا اليوم تتزين الكنائس بأغصان الزيتون وقلوب النخيل ، ويحمل الكبار والصغار فى أيديهم سعف النخيل ، وإلى جانب ذلك يخرج الأقباط من الكنائس فى جماعات كبيرة يحملون أغصان الزيتون وسعف النخيل والصلبان يرتلون الأدعية ويتغنون بالترانيم ، ويسيرون فى شوارع القاهرة والأسكندرية فى هدوء ووقار فى حراسة رجال الشرطة ودون أن يتعرض أحد لموكبهم وذلك تحت سمع وبصر ولاة المدن المصرية (٣).

العادات والتقاليد :-

تتجلى فى مراسم الزواج والطلاق ، والاحتفال بالمواليد وختانهم فضلا عن مظاهر الجنائز ودفن الموتى وزيارة القبور .

كانت مراسم الزواج تتم وفق خطوات محددة وتقاليد متوارثة ، فتبدأ

---

(١) المقريزى : خطط جـ١ ص ٢٦٥ .

(٢) المقريزى : المصدر نفسه جـ١ ص ٢٦٤ .

(٣) الأنطاكى : تاريخ الأنطاكى ص١٩٤

، المقريزى : اتعاظ جـ٣ ص٩٢ .

بعقد القران الذى يتولى كتابته أحد رجال الدين الثقاة المعينين من قبل الخليفة وقد يتولى قاضى القضاة عقد الزواج فى حالة زواج الشخصيات الهامة وأصحاب المناصب العليا والخلفاء ، فتولى قاضى القضاة عقد زواج الخليفة العزيز بالله على السيدة العزيزية سنة ٣٦٩هـ/٩٧٩م ، وذلك على صداق مائتى ألف دينار[١]، كما عقد قاضى القضاة زواج الآمر على السيدة علم الآمرية[٢] سنة ٥٢٢هـ/١١٣٧م على صداق ضخم عاجلة أربعة عشر ألف دينار[٣]، أما صداق العامة فكان يبلغ نحو ثمانية دنانير ، ويقل لحالة المتزوجين إلى أربعة دنانير يدفع منه دينارين عاجلا ودينارين مؤجلا كما ورد بعقد الزواج المؤرخ سنة ٣٧١هـ/ ٩٨١م على أوراق البردى بين يحنس بن سمعون ودروا بنت شنودة بمدينة أشمون[٤]، ومن الطريف أن الشهود الذين كانوا يوقعون على العقد قد يصل عددهم لأكثر من عشرة ، وكان الزوج يحصل على صك بقبض العاجل ، وهى تحصل على آخر ينص فيه على الآجل من صداقها [٥]، وكان عقد الزواج يشتمل على حقوق الزوجة ، ألا يمنعها الزوج من زيارة أهلها واستقبالها لهم وأن يحسن عشرتها ومعاملتها بالمعروف[٦]، وكانت بعض العقود

---

(١) المقريزى : اتعاظ جـ١ ص٢٥٢ .

(٢) كانت زوجات الخلفاء تنسب إلى أزواجهن ، فعرفت زوجة المعز بالله بالسيدة المعزية، خطط جـ٢ ص٣١٨ ، وزوجة الآمر بالسيدة الآمرية ، المقريزى : خطط جـ٢ ص٤٤٦ .

(٣) المقريزى : خطط جـ٢ ص٤٤٦ .

(٤) جروهمان : أوراق البردى العربية ، ترجمة حسن إبراهيم حسن ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٤٩ ، جـ١ ص٧٧ .

(٥) جروهمان : المرجع نفسه جـ١ ص٧٨ .

(٦) جروهمان : المرجع نفسه جـ١ ص٨٩ ، ٩٧ .

تشتمل على الدعاء للخليفة مثل الدعاء للظاهر فى عقد الزواج المؤرخ فى جمادى الأول ٤١٩هـ/١٠٢٨م[١].

وكانت الأسر من الطبقة العليا تتشرف بحضور الخليفة عقد زواج أولادها ، فمن ذلك حضور الخليفة الحاكم بأمر الله عقد نكاح ابنتى القائد الحسين بن جوهر ، وقد سجل بخطه عبارة بعقد هذا النكاح بمشيئة الله وعونه والحمد لله رب العالمين وحسبنا الله ونعم الوكيل [٢].

على الرغم من بساطة جهاز العروس من طبقة العامة ، إلاّ أن زوجات الخلفاء والوزراء كانت تتجهز بطريقة مبالغ فيها وذلك للتباهى والتفاخر، فمن ذلك أن أخت كاتب السيدة العزيزية التى زفت لبلتكين التركى سنة ٣٨٠هـ/ ٩٩١م قد تم تجهيزها بجهاز قيمته مائة ألف دينار وصناديق الملابس والتحف الثمينة التى حملت على ظهور ثلاثين بغلا [٣].

ومما هو جدير بالذكر أن بعض حفلات الزفاف كانت تقام فى قاعات تؤجر لهذا الغرض مثلما يحدث فى الوقت الحاضر ، وكان يؤخذ تعهد على أصحاب هذه القاعات بالحفاظ على التقاليد وحرمة العروس وأهلها بعدم السماح لأحد أن يتطلع إليهن خلسة أو التنصت [٤]، وذلك أن العروس وأهلها من النساء كن يجلسن فى المكان المؤجر للاحتفال ولا

---

(١) جروهمان : أوراق البردى العربية جـ١ ص٩٨ .
(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ١ ص ٢٩٨ .
(٣) المقريزى : المصدر نفسه جـ١ ص٢٧١ .
(٤) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ٣ ص ١٠١ .

يسمح للرجال بالمشاركة أو الاختلاط بهن ، حيث كان يخصص للعريس وأصدقائه مكانا منفردا بهم بعيدا عن مجلس العروس [١].

أما عن تقاليد الجنائز ودفن الموتى ، فقد سار الفاطميون على التقاليد الإسلامية فى غسل وتكفين المتوفى مع اختلاف فى شخصية المُغَسِّل تبعا لطبقة الموتى ، فكان قاضى القضاة يضطلع بهذه المهمة إذا كان المتوفى أحد الخلفاء ، بينما يقوم داعى الدعاة بغسل المتوفى من الوزراء أو أحد كبار رجال الدولة ، فقام قاضى القضاة بغسل الخليفة الظاهر واشترك معه شيخ القرافة ، وقام داعى الدعاة بغسل الأفضل بن بدر الجمالى [٢]، وكان يعين غاسلات لنساء القصر الخلافى وفى كل الأحوال كان الغاسل أو الغاسلة تأخذ ملابس المتوفين رجالا ونساء وما تحتهم من الفرش ، فاحتفظ قاضى القضاة بملابس الخليفة الظاهر وأخذت الغاسلة ثياب وفرش زوجة الخليفة العزيز بالله ،وقد بلغ قيمة ما حصلت عليه من الثياب والفرش نحو ستة الآف دينار[٣]، وفى حالة غسل المقتول كان الغاسل يمنح ما يقابل ذلك من خزائن الخاصة ، فحصل داعى الدعاة على بذلتين إحداهما مذهبة والأخرى منسوجة من الحرير بدلا من ثياب الوزير الأفضل المدرجة بالدماء[٤]، وبعد الغسل كان المتوفى يخط بالكافور

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ٣ ص١٠١ .

(٢) المقريزى : المصدر السابق جـ٣ ص٦٥

، ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ١ ص٩٨ .

(٣) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ١ ص٢٨٨ .

(٤) المقريزى : المصدر نفسه جـ٣ ص٦٥ .

والمسك وماء الورد ، ثم يكفن فى أكفان تتناسب وطبقته الاجتماعية ، فلما توفى تميم بن المعز كفنه فى ستين ثوبا [١]، وكفن الوزير يعقوب بن كلس فى خمسين ثوبا [٢]، وكان بعض الوزراء يوصون بتكفينهم فى ملابس الخلفاء المستعملة حتى ينال بركة الأئمة الخلفاء[٣].

كان المتوفى يوضع فى تابوت للصلاة عليه ، ويجتمع كبار رجال الدولة وعلى رأسهم الخليفة للصلاة عليه فى الإيوان الكبير بالقصر الخلافى حيث يؤمهم الخليفة[٤]، ثم يحمل التابوت ويسير به المشيعون ، حتى إذا ما وصلوا إلى المقابر دفن المتوفى بالتابوت [٥]، وكانت المقابر تختلف فى مستواها حسب طبقة المتوفى ، وقدبالغ كبار رجال الدولة والأثرياء فى تزيين مقابرهم وإعدادها وأغلب المدافن كانت بالقرافة بظاهر جبل المقطم[٦]، وكانت أبواب المقابر يعلوها شاهد قبر من الرخام يكتب عليه البسملة وآية قرآنية واسم المتوفى ونسبه وتاريخ وفاته[٧].

كان الخلفاء وأسرهم يدفنون فى الأماكن المخصصة لذلك فى ساحة

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ١ ص ٩٨ .
(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ١ ص٢٦٨ .
(٣) المقريزى : المصدر نفسه جـ٣ ص٦٥ .
(٤) المقريزى : المصدر نفسه جـ٣ ص٦٧ .
(٥) المقريزى : المصدر نفسه جـ٢ ص ٤١٣ .
(٦) دليل معرض الفن الإسلامى ١٩٦٩ ، جـ٣ ص٦٧ ، عبد المنعم سلطان : الحياة الاجتماعية فى العصر الفاطمى ، ص٢٠٨ .

القصر الخلافى ومنها التربة المعزية [١]، إلاّ أن بعض الوزراء كانوا يدفنون بدورهم الخاصة أو بأماكن عملهم فى دار الوزارة تبعا لوصاياهم، فدفن يعقوب بن كلس فى دار الوزارة[٢]، بينما دفن أبو القاسم أحمد بن على الجرجرائى فى داره ، ودفنت عائلة بدر الجمالى فى الدار المخصصة لذلك والتى أنشأها بدر الجمالي[٣].

كانت ملابس الحداد باللون الأخضر مخالفة للون الرسمى للخلافة العباسية وهو الأسود ،فخرج الخليفة الحافظ راكبا بغلته الشهباء وعليه عمامة خضراء وثوب أخضر بغير طيلسان لتشييع جنازة بهرام الأرمنى[٤]، وخرج العاضد عليه بذلة خضراء ساذجة فى تشييع جنازة الخليفة الفائز سنة ٥٤٩هـ/١١٥٤م[٥]، إلاّ أن الوزير طلائع بن رزيك قد خالف هذا التقليد وارتدى الثياب السوداء فى تشييع الفائز واقتدى به بعض الناس[٦] وقد قام بذلك تعبير عن حزنه العميق لوفاة الخليفة.

أما تقاليد العزاء فكانت تتجلى فى جلوس الخليفة فى ليلة التشييع لتلقى العزاء ، ويدخل الناس عليه من غير عمائم ، كما حدث فى مجلس

---

(١) المقريزى : خطط جـ١ ص٤٣٥ .
(٢) ابن القلانسى : ذيل ص ٣٢ .
(٣) المقريزى : خطط جـ١ ص٤٦١ .
(٤) المقريزى : المصدر نفسه جـ٣ ص٧٥ .
(٥) المقريزى : المصدر نفسه جـ٣ ص ٢٤٤ .
(٦) ابن ميسر : أخبار مصر ص ٨٤
، المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ٣ ص٢١٧ .

الخليفة المعز لدين الله بعد تشييع ابنه الأمير عبد الله سنة ٣٦٤هـ/٩٧٤م ودخل عليه الناس بغير عمائم ومنهم من شوه نفسه إظهارا للحزن الشديد(١)، ومن عادتهم أيضاً التلثم فى هذه المناسبات ، فجلس الآمر لتلقى العزاء على فقد وزيره الأفضل وقد تلثم ، وتلثم كبار رجال الدولة والأساتذة المحنكين بينما أظهر الناس الجزع الشديد بالبكاء والعويل وتمزيق الثياب (٢)، وفى اليوم التالى للدفن تقام المآتم حيث يجتمع الناس عند القبر لسماع القرآن الكريم والترحم على الميت وتقام لمدة ثلاثة أيام ، وقد تستمر شهرا كاملا حسب طبقة المتوفى ، فقامت ابنة العزيز عند قبر أمها شهرا تقيم العزاء وتوزيع الصدقات والأطعمة على الناس(٣)، وفى نهاية الشهر أقيم عزاء كبير عرف بتمام الشهر(٤). ومن ناحية أخرى كانت الدواوين تعطل عدة أيام وتغلق الأسواق أبوابها إذا كان المتوفى من الشخصيات الهامة مثلما حدث عند وفاة يعقوب بن كلس فأمر الخليفة العزيز بإغلاق الدواوين ثمانية عشر يوما حزنا على وفاة وزيره(٥)، وهذا الرقم يشكل بالنسبة للشيعة محور حياة وشرعية سلطان لدولتهم ، حيث تصادف حادثة غدير خم اليوم الثامن عشر من شهر ذى الحجة .

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ١ ص٢١٧ .
(٢) المقريزى : المصدر نفسه جـ٣ ص ٦٣ .
(٣) المقريزى : المصدر نفسه جـ١ ص ٢٨٩ .
(٤) المقريزى : المصدر نفسه جـ٣ ص٥٧ .
(٤) ابن ظافر : أخبار الدول المنقطعة ص٥٤ .

مما هو جدير بالذكر أن علاقة الناس بالمقابر لم تنقطع بدفن الموتى بل اعتادوا على زيارتها فى المواسم والأعياد الدينية ، وكانوا يخرجون إليها للترحم على أمواتهم ، وللتنزه واللهو ويحملون معهم أصناف الأطعمة وألوان الشراب[١] ، وبعد تلاوة القرآن تتحول الزيارة إلى اللعب والمزاح[٢] ، ولم تقتصر عادتهم على مجرد الزيارة ، بل ابتدعوا البدع بنصب الخيام والإقامة فيها الليالى الطوال ، وعقد حفلات السمر واللعب ، وذلك لتقليد عظماء الدولة الذين قاموا بإنشاء القصور فى القرافة ، فمن ذلك السيدة تغريد زوج المعز لدين الله التى أمرت ببناء قصر فى القرافة سنة ٣٦٦هـ/٩٧٦م حيث أضاف ابنها العزيز بالله مصطبة للصوفية ومنظرة له لمشاهدتهم وهم ينشدون ويذكرون بحركاتهم المشهورة[٣] ، ووصف أحد الشعراء هذه البدع بقوله :

إن القرافة قد حوت ضدين من ... دنيا وأخرى فهى نعم المنزل

يغشى الخليع بها السماع مواصلا ... ويطوف حول قبورها المتبتل[٤]

- وسائل التسلية :

كان الطرب والموسيقى أكثر وسائل اللهو انتشارا بين كافة الطبقات

---

(١) المقريزى : خطط جـ٢ ص ٤٤٤ .

(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ٢ ص٨٩ .

(٣) المقريزى : خطط جـ٢ ص ٤٥٣ .

(٤) المقريزى : المصدر نفسه جـ٢ ص ٤٤٤ .

والمستويات ، فكانت مجالس الخلفاء والوزراء وكبار رجال الدولة تعج بالمغنيين والراقصات ، وسار الناس على نهجهم فنظموا المجالس اليومية وحرصوا على مشاهدة ألوان الفنون المختلفة ، وليس أدل على انتشار هذا النوع من اللهو من قيام الفنانين بتصوير حركات الراقصات والراقصين والعازفين والعازفات على جدران الحمامات والتحف الفنية من الأخشاب والخزف والعاج وغيرها ، فقام الفنان الفاطمى بحفر هذه الحركات على مجموعة من القطع الخشبية الثمينة المستخرجة من بقايا القصر الغربى ، وتمثل مناظرها أحد الأمراء الجالسين على أريكة ويحمل فى يده اليمنى كأس للشراب وبيده اليسرى زهرة ويقف على يساره الساقى حيث يقوم بصب الشراب وقد ملأ الفراغ بمناظر المطربين والمطربات والعازفين على الآلات الموسيقية[1] وذكر أن المسبحى قام بتأليف كتاب بعنوان « مختار الأغانى ومعانيها » تمشيا مع روح العصر الذى عاش فيه حيث توفى ٤٢٠هـ/١٠٢٩م[2].

وذكر د. زكى حسن أن الرقص لم يقتصر على النساء بل تعداه إلى الرجال حيث يوجد على إحدى القطع الخشبية من التحف الفنية الباقية رسم يصور مجموعة من الراقصين الذين انتظموا فى حلقات حول العازفين[3]، ولم يقتصر تصوير هذه الحركات الفنية على التحف الفنية بل

---

(١) زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ص٤٧ .

(٢) فارمر : مصادر الموسيقى العربية ، نقله إلى العربية د. حسين نصار ، القاهرة ١٩٥٧ ص٧٤ .

(٣) زكى محمد حسن : المرجع نفسه ص ٢٠٤ - ٢٠٥ .

اهتم الصناع والفنانين بإثباتها فى أدق الأماكن ، فمن ذلك رسم راقصة تبدو شبه عارية على جزء من شباك قلة فخار ، وعلى قطعة أخرى راقصة عارية[١]، كما توجد قطعة من العاج عليه رسم دقيق لعازف على الناى ، وتمثال من البرونز لامرأة تضرب بالدف ترجع إلى العصر الفاطمى[٢] .

كان الناس يخرجون إلى المنتزهات فى ركاب هؤلاء الفنانين ويقيمون حولهم الحلقات للاستمتاع بسماع الغناء والموسيقى ، ويقضون على هذه الحال حتى يرفع الفنانون خيامهم وينقلون إلى موضع آخر والناس يتبعونهم أينما حلوا أو ارتحلوا[٣]، فلما وجد الحاكم بأمر الله اقتداء الناس بهؤلاء الفنانين وتقليدهم وتحول مجالسهم إلى المجون واللهو والفتن ، أصدر أوامره بمنع الغناء والرقص وتحطيم الآلات الموسيقية وإحراقها ، ومنع الإتجار فى المغنيات والراقصات ، وفى تطور آخر أمر بنفى سائر المغنيين والراقصات وإغلاق دور اللهو والطرب [٤]، إلا أن الحاكم نفسه ظل يعقد مجالس الطرب واللهو بعيدا عن أعين الناس ، وهو يتعاطى الخمر بإيعاز من طبيبه الخاص يعقوب بن نسطاس ، الذى أوهمه بأهمية تعاطى النبيذ للحفاظ على صحته ، وذلك حتى يضمن لنفسه الاستمرار فى تعاطى الخمر لأنه كان مدمنًا ،

---

(١) دليل متحف الفن الإسلامى ص١٧٣ ، ١٧٤ .

(2) Wiet : Album du Musée Arab du Caire, 1930, P. 38, 40 .

(٣) المقريزى : الخطط جـ٢ ص ١٥٤ - ١٥٥ .

(٤) الأنطاكى : تاريخ الأنطاكى ص ٢٠٠ - ٢٠١ .

وقد قضت الخمر على يعقوب بن نسطاس حيث سقط فى بركة وهو سكران ولقى حتفه[١].

لما ولى الظاهر الخلافة ألغى قرارات الحاكم فأقبل الناس على اللهو والغناء، واتخذوا المغنيات والراقصات وبلغوا من ذلك مبلغا عظيمًا[٢]، وتفاخر الناس بشرب الخمر والانغماس فى الملذات تعويضا لفترة حكم الحاكم وما عانوه من الحرمان[٣]، فلما رأى الظاهر ما جرى بدولته فى هذا الشأن أصدر أمر برفع المناكير ومنع الغناء والرقص الظاهر فى الأشهر الشريفة وذلك فى رجب ٤١٤هـ/ أكتوبر ١٠٢٣م[٤]، وإباحتها فى غير ذلك .

سار المستنصر على نهج الظاهر فى إعطاء الحرية للناس للاستمتاع بحياتهم على طريقتهم دون حظر ، وشجعهم على ذلك أن المستنصر نفسه كان مولعا بحياة اللهو والطرب ، وليس أدل على ذلك من اعتياد المطربة المشهورة نسب الطبالة الوقوف تحت القصر الشرقى الكبير وترديد الأغانى فى المناسبات والأعياد مع فرقتها الموسيقية[٥].

ومن أشهر مطربى عهد المستنصر ابن ميسرة الكتامي[٦]، ومن

(١) الأنطاكى : المصدر نفسه ص١٩٢
، المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ٢ ص ٧٠ - ٢٢٠ .
(٢) المقريزى : خطط جـ١ ص ٣٥٥ .
(٣) المقريزى : اتعاظ جـ٢ ص ١٢٩ .
(٤) المقريزى : المصدر نفسه جـ٢ ص ١٣٥ .
(٥) ابن ميسر : أخبار مصر ص ١٠ .
(٦) المقريزى : خطط جـ٢ ص ٤٤٨ .

الملحنين أبى الحسن بن الطحان الذى حظى بمكانة كبيرة لدى الوزير اليازورى الذى أسند إليه مهمة تدريب جواريه وضبط إيقاع أدائهم للأغانى ، وألف ابن الطحان كتابا فى هذا الفرع عنوانه : « جامع الفنون وسلوة المحزون فى ذكر الغناء والمغنيين والفنون »[1] ، وتدل على ذلك أشعار الشاعر السكندرى نصر الله بن عبد الله بن قلاقس الذى صور فيها مظاهر اللهو والطرب والاستمتاع بسماع الموسيقى[2] :

ومغن تناولت يده العود ... فعادت بنا الأفراح

جسى أوتاره فأصلح منا ... صالحا صار فى يده الإصلاح

تدل سيرة بعض الخلفاء المتأخرين أنهم قد أقبلوا على اللهو واللعب واقتناء الجوارى والراقصات والمغنيات والعازفات فمنهم ، الخليفة الظافر الذى شغف بسماع الغناء والموسيقى ومجالسة الفنانين والجوارى الحسان[3] ، وكذلك اشتهر الخليفة الآمر بحبه للهو والانغماس فى الملذات وموهبته فى العزف ، وكان يقتنى الجوارى المغنيات والعازفات وكان يمارس هوايته علانية فيخرج إلى بساتين بظاهر القاهرة ثلاث مرات فى كل أسبوع فى موكب حافل بالموسيقى والطرب والناس تتطلع إليه فيخرجون بطعامهم

(١) أبو المحاسن : النجوم جـ٥ ص٣١٥ .
(٢) سلطان : الحياة الاجتماعية ص٢٢٣ .
(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ١ ص٨٧ .

وشرابهم إلى الحدائق للاستمتاع بمباهج الحياة[١].

لم تقتصر وسائل التسلية والاستمتاع على الغناء والموسيقى ، بل كانت هناك الفرق المسرحية المحترفة التى تلعب الأدوار الكوميدية لإشاعة السرور والبهجة على الخلفاء وحاشيتهم فى عروض خاصة ، وتعرض أدوارها على العامة فى مناسبات متعددة وكانت تعرف هذه الفرق فى العصر الفاطمى بالضاحكية [٢]، وكان أفرادها يلبسون المناديل ويرخون العذب والثياب ذات الأكمام الواسعة ، وفى أرجلهم الصاجات ويشدون أوساطهم بالعراض الدبيقى[٣].

كما كان هناك الفرق المسرحية الجادة التى تعرف بالرمادية فتقوم بتقديم عروضها فى المناسبات المختلفة فى قصور الخلفاء والأمراء على مسارح مخصصة لذلك تعرف بمجلس اللعبة[٤]، فتعرض فنونها لتسلية الخليفة وأفراد أسرته والحاشية ، وتقوم أيضًا بعرض فنونها على الناس للتسلية والترويج للدعوة الشيعية فى إطار دينى اجتماعى من خلال نصوص تمثيلية جادة تجذب المشاهدين[٥] الذين يحتشدون للفرجة

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ٣ ص ١٢٩

، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٥ ص ٢١٨ .

(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ٣ ص ٥٧ .

(٣) المقريزى : المصدر نفسه جـ٣ ص ٥٧ .

(٤) المقريزى : خطط جـ١ ص ٤٦٣ .

(٥) إبراهيم حماده : خيال الظل وتمثيليات ابن دنيال ، القاهرة ١٩٦٣ ص ص ٤٠ ، ٤١ .

والاستمتاع [١]، وللتعرف على الأوضاع السياسية من خلال التمثيليات الجادة التى كان لها أثرها فى تنمية الطاعة والولاء للخلافة الفاطمية، وفضلا عن ذلك كان هناك الحواة الذين يتقنون اللعب بالحيات والثعابين والأفاعى الكبيرة الخطرة، ويعرضون فنونهم فى الأعياد والمناسبات المختلفة، وإلى جانب ذلك كانت هناك فرق محترفة تقوم بترويض الحيوانات المفترسة والضخمة وتقدم عروضها أمام أعين الناس للتسلية والترويح عنهم وبخاصة الأطفال ومن بين هذه الحيوانات الفيلة التى كان الفاطميون يجلبونها من الهند ، والدببة من بلاد الروم ، والقرود من بلاد السودان ، وقد برع الشيخ الأبرارى فى تدريب القردة لدرجة أن أحد القرود كان يستخدم فى إنزال العقوبات بالخارجين على القانون ، فيركب مع المشهر به على البغلة ، ويقوم بصفعه خلال الطواف به فى الشوارع والأسواق وذلك خلال عهد الحاكم بأمر الله[٢]، الذى كان يحتفل بمتولى الأسود ويخلع عليه، وفى الوقت نفسه رفع شأن البيازرة والفهادين وجعل لهم مكانة خاصة فى الدولة[٣].

كان اللعب بالكرة من الرياضات المستحبة ووسائل التسلية الأكثر

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ٢ ص ١٤٤ ـ ١٤٥ .
(٢) ابن ظافر : أخبار الدول المنقطعة ص٥٧ ، ٥٨
، المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ٢ ص ١٤٣ .
(٣) المقريزى : خطط جـ٢ ص ٤٨
، المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ٢ ص ٥٦ .

انتشارا بين الخاصة والعامة ، فذكر المقريزى أن الخليفة العزيز بالله أول من ضرب بالصوالجة وهى عصا مدفونة برأسها خشبة معقوفة تستخدم فى ضرب الكرة[١] .

وكان الوزير أبو على أحمد بن الأفضل من المغرمين بلعبة الكرة فخرج فى المحرم سنة ٥٢٦هـ/١١٣١م إلى الميدان بالبستان الكبير خارج باب الفتوح للعب بالكرة على عادته [٢]، وكان ضرغام وزير الخليفة العاضد يجيد اللعب بالكرة[٣]، كذلك كانت المبارزة بالعصى من وسائل التسلية ويتجلى ذلك من نقوش الطبق الخزفى الفاطمى الذى يبين رجلين يتبارزان بالعصى[٤]، وكذلك كانت المصارعة الحرة بين الرجال منتشرة فى هذا العصر[٥]، يتجلى ذلك من الرسوم والنقوش المحفورة على التحف الخشبية والتطبيقية الأخرى[٦] .

كان الصيد والقنص مـن أكثر الرياضات التى اعتاد الخاصة والعامة

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ٣ ص ١٤٣ .
(٢) المقريزى : المصدر نفسه جـ٣ ص ١٤٣ .
(٣) المقريزى : المصدر نفسه جـ٣ ص ٢٧٤
، سلطان : الحياة الاجتماعية ص ٢٣١ .
(٤) دليل متحف الفن الإسلامى بالقاهرة ص١٦١ .
(٥) ابن سعيد : النجوم الزاهرة ص٥٨ .
(٦) دليل متحف الفن الإسلامى بالقاهرة ص١٦٥ .

على السواء ممارستها للترويح عن النفس وتقوية الأبدان والقضاء على التكاسل والدعة وللتدريب على فنون القتال والتطعيم ضد الأخطار (١)، وكان الخليفة العزيز بالله يخرج للصيد بمنطقة دير القصير وقمة جبل المقطم ومعه الحاشية والمدربين المتخصصين وهم يصطحبون الطيور الجارحة والكلاب الضخمة المدربة(٢)، وكان الخلفاء يجلبون الطيور بالشراء من الأماكن المتخصصة ، أو من خلال الهدايا التى تصل إليهم من البلاد العربية والأجنبية وبخاصة كلاب الصيد التى ترد إليهم من بلاد المغرب والدولة البيزنطية (٣)، وتتجلى شدة ولع العزيز بالله بالصيد فى اهتمامه بتدريب طيورها وحيواناتها ، والتى بلغت نحو خمسين ألف دينار فى كل سنة ، تنفق على المدربين والمعلمين وإطعام الطيور والفهود والكلاب السلوقية التى تنسب إلى قرية سلوقة باليمن(٤)، ولقب هذا الخليفة بالخليفة الصياد بسبب شدة حبه للصيد ومهارته التى كانت مضرب الأمثال (٥)، حيث كان يصيد بالخيل والكلاب والطيور الجارحة أشد الحيوانات فتكا وهى

---

(١) عبد المنعم سلطان : الحياة الاجتماعية ص ٢٣٣ .
(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ص ٥٥ - ٥٦ .
(٣) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ١ ص١٧٩ .
(٤) القلقشندى : المصدر نفسه جـ٢ ص ٦٢ ، ٦٣
، الحسن بن الحسين : كتاب البيزرة، تحقيق محمد كرد على، دمشق ١٩٥٣ ص٧.
(٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ٢ ص ١٥٢
، المقريزى : خطط جـ٢ ص ٢٨٤ .

السباع وكان يخرج إلى صحراء الجيزة لإشباع رغباته [١]، وكان الأمير تميم بن المعز من أمهر الصائدين أيضًا وكذلك الوزير يعقوب بن كلس الذى كان يملك مجموعة كبيرة من طيور الصيد ، وكان الخليفة الحاكم كثير الخروج للصيد فى مناطق مختلفة من ضواحى القاهرة والجيزة، وكان الخليفة الظاهر ينفق الأموال الطائلة فى شراء طيور وحيوانات الصيد، ومن بين الطيور النادرة التى كان يملكها الظافر ببغاء تقرأ المعوذتين وتنادى الأساتذة المحنكين بأسمائهم ونعوتهم، وكان للحافظ جوارح كثيرة من البزاة[٢]، والصقور والشواهين[٣]، مما يدل على مدى اهتمامه بالصيد والقنص ، وكان الخليفة الآمر يتردد على دير نهيا لأنه كان يضم خليج مشهور تجتمع إليه سائر الطيور [٤]، ويضم دليل المتحف الإسلامى تصاوير عديدة تمثل مناظر الصيد والقنص باستخدام الأسلحة والطيور والحيوانات[٩].

كانت رحلات الصيد تختتم فى نهاية اليوم بإقامة مأدبة كبيرة احتفالا بما تم اصطياده ، وخلال تناول الطعام تعزف الموسيقى وتؤدى المطربات

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ١ ص ٢٧٧ ، ٢٩٢ .
(٢) طيور جارحة شديدة فى طلب الصيد ويعرف مدربها بالبازيار .
القلقشندى : صبح الأعشى جـ٢ ص ٥٥ .
(٣) صقور جارحة شديدة سواد العيون وتتميز بالسرعة والخفة والضراوة على الصيد .
القلقشندى : المصدر نفسه جـ٢ ص ٥٨ .
(٤) العمرى : مسالك الأبصار ، تحقيق أحمد زكى باشا ، القاهرة د. ت. ص٣٦٢ .
(٥) الدليل ص ص ٢٨ ، ٣٩ ، ٢٩٩ ، ٣٠٦ ، ٣٠٩ .

والراقصات الأغانى الجميلة والرقصات البديعة ، ويقدم السقاة الأشربة المفضلة[1] ، فكان يصحب رحلات الصيد جماعة من الجوارى الحسان والراقصات المبدعات يلازمن موكب الصيد ، ويقمن بتقديم فنون الغناء والطرب وتأدية الرقصات ويشترك معهن أفراد الحاشية وهم يتناولون لحوم الصيد ويحتسون الأشربة المختلفة[2].

كان من أكثر وسائل التسلية انتشارا فى هذا العصر اللعب بالنرد والشطرنج ، فكان مما وجد فى تركه السيدة عبدة بنت الخليفة المعز من الشطرنج والنرد المصنوعة من سائر أنواع الجوهر والذهب والفضة والعاج والأبنوس برقاع الحرير ما لا يوجد مثيلا له كثرة ونفاسة[3]، ويبدو أن انتشار هذه اللعبة أدى إلى انتشار المقامرة فأصدر الحاكم مرسوما بمصادرة ما يعثر عليه من رقاع الشطرنج ، فتم جمع أعداد كبيرة منها وتم حرقها ، فضلا عن توقيع عقاب الجلد والحبس على الممارسين لهذه اللعبة وذلك للقضاء على ظاهرة المقامرة بوسائل التسلية [4].

---

(١) كتاب البيزرة ص ٤٧ .

(٢) الشابشتى : الديارات ، بغداد ١٩٥١ ص١٩١ .

(٣) المقريزى : خطط جـ١ ص ٤١٥

، المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ٢ ص ٢٨٩ .

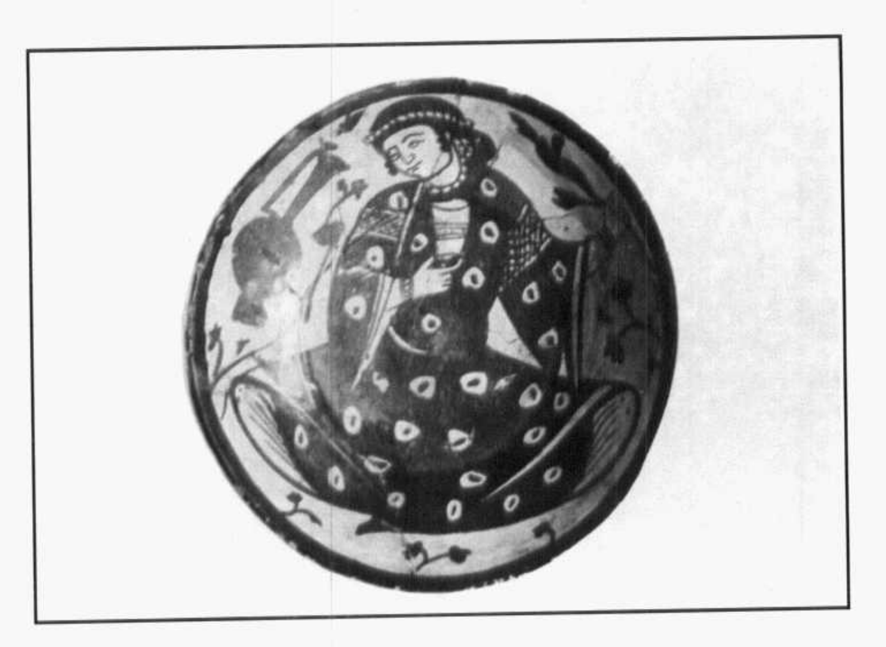
(٤) المقريزى : المصدر نفسه جـ٢ ص ٢٨٧ .



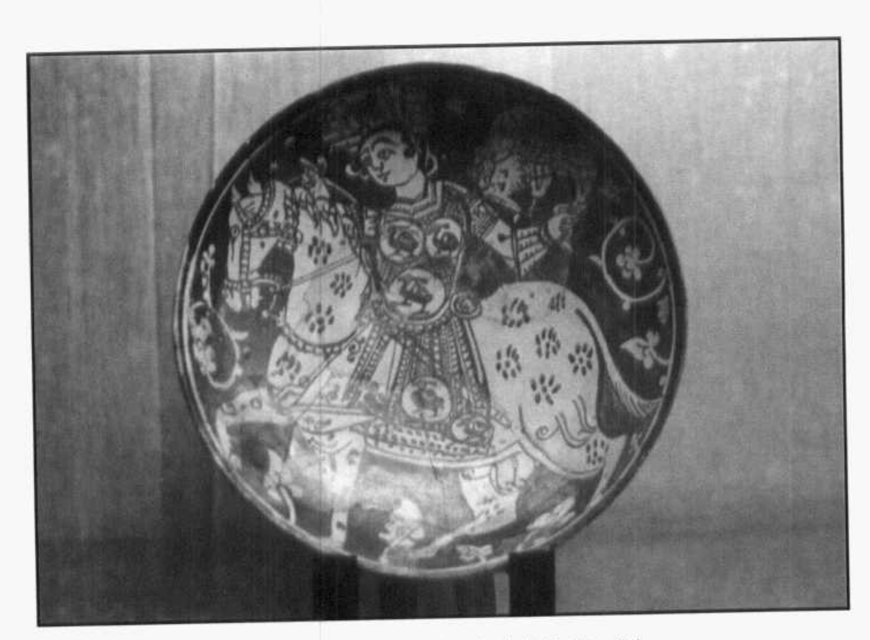
طبق من الخزف ذى البريق المعدنى ، مصر الفاطمية
رسم لشاب يعزف الموسيقى
محفوظ بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة



طبق من الخزف ذى البريق المعدنى ، مصر الفاطمية
رسم لرجل يقوم بترويض أحد النمور
محفوظ بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة



طبق من الخزف ذى البريق المعدنى ، مصر الفاطمية
رسم لشاب فى جلسة شراب
محفوظ بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة



طبق من الخزف ذى البريق المعدنى ، مصر الفاطمية
رسم لفارس يحمل على يده صقر فى رحلة صيد
محفوظ بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة

أنماط الحياة المعيشية :

١ - الأطعمة والأشربة : -

كان لتنوع المواد الأولية والحاصلات الزراعية فى مصر أن عرفت البلاد ألوانا متنوعة من الأطعمة والأشربة التى تحتاج إلى مجلدات لوصفها ، مما أدهش المؤرخين فى كل عصر وعبر عن ذلك عمر بن يوسف : فأهلها يستغنون بها عن كل بلد ، حتى لو ضرب بينها وبين بلاد الدنيا بسور ، لاستغنى أهلها بما فيها عن جميع الأرض [١] ، وفى العصر الفاطمى عبر الرحالة ناصر خسرو الذى زار مصر عن ذلك التنوع العجيب بقوله : « يوجد بمصر فى كل وقت المأكول والمأدوم من أصناف الأطعمة والخضروات والفاكهة والزهور التى يستحيل أن تجتمع بمثل تلك الصورة من التنوع والوفرة فى أى قطر آخر » [٢] ، وقال بنيامين التطيلى : « ليس فى العالم كله بقعة آهلة بالسكان ، كثيرة الزروع مثل مصر الواسعة المليئة بالخيرات » [٣] ، وكان لوفرة الحاصلات والمنتجات أن ضمنت الدولة الكفاية من المعايش لأربابها وسائر موظفيها بما كانت تعين لهم من الغلال وسائر الأطعمة جنبا إلى جنب رواتبهم الشهرية أو الربع سنوية ، وكان الشعب يتمتع بوفرة خيرات البلاد فيما يحصل عليه فى الأعياد والمناسبات الدينية والقومية والاحتفالات الموسمية [٤].

---

(١) عمر بن يوسف الكندى : فضائل مصر . تحقيق إبراهيم العدوى ، القاهرة ١٩٧١ ص٤٥ .

(٢) ناصر خسرو : سفرنامة ص ٦٠ .

(٣) بنيامين التطيلى : رحلة بنيامين التطيلى ، ترجمة عزرا حداد ، بغداد ١٩٤٥ ، ص١٧٥ .

(٤) المقريزى : خطط جـ١ ص ١٠١ ، ٤٢٢ .

كان لوفرة الغلال بمصر أن ساد الخبز موائد العامة والخاصة على مر العصور فهو بحق القاسم المشترك الأعظم فى أى طعام بل أن الفقراء من الناس اعتمدوا عليه بصورة كاملة فى طعامهم وانتشر بينهم المثل القائل « كلوا عيش واشربوا ميه » ، ولما كان الخبز هو الأكثر مبيعا بين أفراد الشعب فوجدها أصحاب المخابز فرصة سانحة لتحقيق مزيد من الأرباح عن طريق الغش فى صناعته فخلطوا القمح بالشعير أو الفول أو الحمص الأرخص سعرا بل تمادى بعض الجشعين وخلطوه بالتراب فتم محاسبة جماعة من الخبازين سنة ٤١٥هـ/١٠٢٤م وجلدوا بعد إدانتهم بإضافة التراب إلى دقيق القمح[١] ، وذلك على الرغم من قيام الحكومة الفاطمية بوضع ضوابط العمل فى هذه المهنة ، ومراقبة المطاحن ، وتتجلى فى مواصفات الغربلة قبل الطحن ، على أن تكون ضيقة ومغطاة بأقمشة رقيقة لا تسمح إلا بمرور حبات القمح وتمنع ما قد يعلق بالغلة من مواد ، وأن تكون أوانى العجن نظيفة وعلى العجان استخدام الأيدى والأدوات وحظر استخدام الأرجل أو حتى المرافق [٢]، أما العجان فكان عليه ارتداء ملابس خاصة تمنع وصول العرق إلى العجين وأن يكون ملثما حتى لا تنتقل أمراض الأنف أو الفم إلى العجين ، وأن يضع على جبينه عصابة من القماش المصنوع من القطن حتى تمتص العرق وبخاصة فى فصل الصيف وأن تتم عملية العجن فى غرف خاصة يمر بها الهواء بعيدا عن حرارة

---

(١) المقريزى : اتعاظ جـ٢ ص١٦٦ .

(٢) المقريزى : المصدر نفسه جـ٢ ص ٥٣ .

الأفران[١]، وبعد عملية العجين يترك حتى يتم تخمره ويحمل إلى الأفران ما تم صنعه بأنواعه المختلفة ، مثل الخبز الخشكار الأكثر شيوعا واستعمالا وهو المصنوع من الدقيق الكامل غير المنزوع الردة وهو الأرخص سعرا[٢]، ومنه الخبز الحوارى وهو المصنوع من الدقيق الأبيض المنخول[٣]، والخبز السميد الذى يتخذ أشكال هندسية وفلكية وهو مصنوع من الدقيق الفاخر[٤]، والخبز الموائد المفضل لدى الخلفاء[٥]، وكان يصنع أيضاً الخبز الجاف الذى يقبل عليه الناس لتخزينه لمواجهة أيام المجاعات والقحط ، وكان يمد به رجال الأسطول والجند بالثغور وكان من عادة الناس فى القرى استعمال هذا الخبز بديلا عن النقود ، فكان الرجل يعطيه للحلاق أو لمتولى الحمام عوضا عن الفلوس [٦].

لم يقتصر استخدام الحبوب على صنع الخبز بأنواعه ، بل كانت الحبوب تحمص جيدا ثم تطحن ويصنع من دقيقها السويق والعصيدة بإضافة الزبد ، وكان السويق الناعم من أحب الأطعمة لدى الخلفاء وبخاصة فى سحور ليالى رمضان[٧]، كما كانت الحنطة تهرس ويضاف إليها اللبن لصنع

---

(١) الشيزرى : نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ، تحقيق السيد الباز العرينى ، القاهرة ١٩٤٦ ، ص ٢١ .
(٢) المقريزى : اتعاظ جـ٢ ص١٥١ .
(٣) المقريزى : المصدر نفسه جـ٢ ص ١٥١ .
(٤) المقريزى : المصدر نفسه جـ٢ ص ١٥١ .
(٥) المقريزى : خطط جـ١ ص ٣٣٩ .
(٦) المقريزى : المصدر نفسه جـ١ ص ٤٣١ .
(٧) المقريزى : المصدر نفسه جـ١ ص ٤٩١ .

الكش، أو الكشكية [١]، وكان البصل والتوابل تضاف إلى دقيق القمح ويصنع منه الهريسة التى شاع طبخها وتبادلها فى عيد النيروز[٢]، وكان يصنع من الهريسة نوع فاخر يدخل فى صناعته الفستق ولحم الدجاج وتعرف بهريسة الفستق[٣]، كما يدخل طحين الحبوب فى صناعة السنبوسك وهى كلمة فارسية معناها الفطير باللحم مثلث الشكل ، فيقطع اللحم المأخوذ من فخذ الضأن قطعا صغيرة ويضاف إليه الدهن والتوابل والبقدونس والنعناع والخل والليمون ثم يلف قطع الرقاق بأشكال مثلثة [٤].

وفضلا عن ذلك كان القمح يستخدم فى صنع بعض أصناف الحلوى فمنها النيده وهى تصنع بحبوب القمح بعد غسلها بالماء فيوضع على النار حتى إذا تماسك نثر عليه الدقيق والنشا ثم يحلى وهذا النوع كان رخيص الثمن يعرف بالنيدة البوسن ، أما النيدة المعقودة فهى النيدة التى تصنع بدون نثر الدقيق عليها [٥]، ومنها الزلابية التى تصنع بدقيق القمح الفاخر بعد عجنه وتخميره وتؤكل بعد قليها بالعسل أو السكر[٦]، وكانت الخشكنانج تصنع من الدقيق المبسوط على هيئة الرقاق ويضاف إليه قلوب اللوز والكافور

---

(١) المقريزى : خطط جـ١ ص ٤٠٠ .

(٢) المقريزى : المصدر نفسه جـ١ ص ٤٩٣ .

(٣) المقريزى : المصدر نفسه جـ١ ص ٤٦٣ .

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٤ ص ٩٤ .

(٥) ابن سعيد : النجوم ص ٥٨ .

(٦) المقريزى : المصدر نفسه جـ١ ص٤٩٤ .

وماء الورد[١]، والبسندود وهو نوع من الحلوى يستخدم فى صناعته الدقيق والتمر على هيئة أقراص صغيرة[٢]، والفانيد الذى يصنع من الدقيق والعسل والذى كان يعرف بكعب الغزال[٣]، وكان هناك أيضاً الخبيص الذى يصنع من دقيق الحنطة مع دهن اللوز أو زيت السمسم ثم يضاف إليه السكر والعسل وهناك أيضاً الناطف الذى كان الناس يقبلون عليه خلال شهور رجب وشعبان ورمضان[٤]، وكانت القطائف من أكثر أصناف الحلوى التى يقبل على تناولها الناس فى شهر رمضان وهى من الأصناف المستحبة لدى الخلفاء وبخاصة على مائدة السحور، وكانت تهدى إلى القراء والوعاظ والصوفية طوال هذا الشهر الكريم[٥]، وارتبط بالإقبال على القطائف تناول الكنافة طوال العام وبخاصة خلال شهر رمضان، وقد تفنن صناعها فى تقديمها بالجلاب والمسك أو محشوة بقلوب اللوز أو الفستق[٦].

كان الأرز يلى الخبز فى الأهمية لدى الناس وذلك لوفرة انتاجه بمصر وكان يطبخ بمفرده ويؤكل، أو مع السمك وبخاصة عند سكان السواحل، وذلك لوفرة انتاج الأسماك فى مصر لموقعها الجغرافى المتميز على البحرين الأبيض والأحمر فضلا عن نهر النيل، فكانت الأسماك تدخل مع تدفق

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ٣ ص ٨٢ .
(٢) القلقشندى : صبح الأعشى جـ٣ ص ٥١٠ .
(٣) المقريزى : خطط جـ١ ص ٤٢٦ .
(٤) المقريزى : المصدر نفسه جـ١ ص٤٢٢ .
(٥) المقريزى : المصدر نفسه جـ١ ص٤٩٠ ، ٤٩١ .
(٦) المقريزى : المصدر نفسه جـ١ ص ٤٥٢ .

مياه الفيضان إلى الخلجان وتبقى بعد انحسار الماء[١] ، وكان من أشهر أنواع السمك البورى فكان يأكل طازجا ويملح ويصدر إلى الخارج [٢] ، وكان البورى يقدم على الموائد فى الاحتفالات القبطية خاصة الاحتفال بعيد ميلاد السيدالمسيح عليه السلام وعيد الغطاس والنيروز [٣] ، وكان هناك أيضاً السمك الراى الذى يتميز بلونه الأحمر ، والسمك الدلين الأملس الخالى من القشرة ، وكان رخيص الثمن لأنه سريع التلف[٤] ، فضلا عن استخدام الأرز فى صناعة بعض أنواع الحلوى بإضافة اللبن ودهن اللوز ، وكان يُقدم على موائد الخلفاء بعد إضافة اللوز والزبيب والصنوبر (وهو ما يعرف فى الوقت الحاضر بالأرز بالخلطة) ، وكان الأرز يطبخ باللحوم أو ببعض الخضر مثل البامية أو القلقاس [٥] ، أو مع البقول مثل اللوبيا والفاصوليا ، ولا يقدم الأرز المطبوخ على موائد الأغنياء إلا مع الفراريج والدجاج المعرق (قليل اللحم) أو المصدر (كبير الصدر) ، والذى يبلغ ثمن الفروج منه الستة بدينار ، والمسمن ومنه الثلاثة بدينار ، والفائق الإثنان منه بدينار ، فكانت مائدة الوزير اليازورى تعج بالدجاج الفائق بينما باقى الحاشية يتناولون الدجاج المسمن ، وهو نفس النوع الذى كان يقدم على سماط الخاص على مائدة

---

(١) المقريزى : خطط جـ١ ص ١٠٧ .

(٢) المقريزى : المصدر نفسه جـ١ ص ٩٧ .

(٣) المقريزى : المصدر نفسه جـ١ ص ٤٩٤ ، ٤٩٥ .

(٤) النويرى : نهاية الأرب جـ١٢ ص ٣٠٧ .

(٥) المقريزى : خطط جـ١ ص ٥٠ .

الخلفاء فى العيدين على الأرز الفاخر فضلا عن الفراريج وفراخ الحمام[١]، وكان الأرز يدخل فى صناعة بعض أنواع الحلوى مثل البهطة وهى تصنع من الأرز المطبوخ باللبن والسمن واللبنية (الذى يعرف فى الوقت الحاضر بالأرز باللبن) المحلى بالسكر [٢]، والمهلبية التى تصنع بإضافة اللبن والسكر للأرز المطحون .

كذلك كان الفول من الأطعمة الشعبية التى يقبل عليها العامة فيؤكل أخضراً أو مسلوقاً بإضافة التوابل والزيت ، وكان الباعة يطوفون بقدور الفول على عرباتهم فى الأسواق مع قدور الحمص المسلوق ، ويباع فى الحوانيت[٣]، ويصنع من الفول أنواع فاخرة فيضاف إليه السمن واللبن ويطلق عليه البيسار[٤] ومن الحبوب أيضاً التى انتشر تناولها بعد معالجتها الترمس حيث ينقع فى الماء ثلاثة أيام لتذهب مرارته ، ويعرض للناس بعد إضافة الملح[٥]، أما العدس فكان الغذاء الشعبى لكثير من العامة وذلك لوفرته ورخص ثمنه فكان يطبخ على حالته أسودا ، أو يقشر ويعصر ويسلق ويتم تناوله بعد إضافة التوابل أو قطع الجزر ، وكان العدس يقدم على مائدة الخلفاء أسودا فى سماط الحزن فى يوم عاشوراء [٦].

---

(١) المقريزى : خطط جـ١ ص ٣٨٧ .
(٢) المقريزى : المصدر نفسه جـ١ ص ٤٩٠ .
(٣) المقريزى : المصدر نفسه جـ١ ص ٣٣١ .
(٤) سلطان : الحياة الاجتماعية ص٢٤٦ .
(٥) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ٢ ص ٧٧ ، ٨١ .
(٦) المقريزى : خطط جـ١ ص ٤٣١ .

كانت الأسواق تضم العديد من حوانيت بيع اللحوم الحيوانية والطيور وهي من العناصر الرئيسية التى تدخل فى صناعة الأطعمة ،وهى تعرض للناس مطبوخة أو مشواة أو نيئة ، وكانت الخراف الصغيرة المشوية تقدم على موائد الخلفاء وأرباب الدولة بعد إعدادها فى مطبخ القصر الخلافى وبخاصة فى المواسم والأعياد[١] ، ولكن تختلف طريقة استخدام اللحوم عبر العصور ، إلا أن أمعاء الحيوانات المذبوحة كانت تحشى باللحم المفروم ويضاف إليها البصل والتوابل لصنع النقانق التى تباع فى الأسواق مقلية ، كما كانت كبد الحيوانات تعرض بالأسواق ويقبل الناس على شرائها مسلوقة مع البصل والثوم أو مشوية إلى جانب بيع الرءوس والأكارع المسلوقة أو النيئة وكانت الرءوس المشوية توزع على رجال القصر الفاطمى فى الاحتفال برأس السنة الهجرية[٢] ، وكانت حوانيت بيع الرءوس تعرف بدكاكين الرواسين وهى موضع إقبال كبير من الطبقات الشعبية[٣] ، واعتاد الناس على شراء الأطعمة المصنعة والأشربة من الأسواق فالأغلبية لا تقبل على شراء النوع منها فى منازلهم ، مما كان له أثر كبير فى انتشار حوانيت بيع الأطعمة المطبوخة[٤] والتى كان يستخدم فى صنعها زيت الزيتون وزيت السمسم (الشيرج) والتوابل والبصل والثوم والفلفل الحار[٥] ، فضلا عن الزبد واللبن الطازج واللبن الرائب[٦] .

---

(١) المقريزى : خطط جـ١ ص ٤٩٠ .
(٢) المقريزى : المصدر نفسه جـ١ ص ٤٩٠ .
(٣) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ٢ ص ١٣٣ .
(٤) المقريزى : المصدر نفسه جـ١ ص ٥٠ .
(٥) المقريزى : المصدر نفسه جـ١ ص ٤٣١ .
(٦) المقريزى : المصدر نفسه جـ١ ص ٢٧٠ .

أما الأشربة فأهمها الماء المثلج والماء المضاف إليه ماء الورد لتجويد المذاق[١]، والمزر وهو شراب يتخذ من القمح والشمس الذى يدخل فى صناعته الزبيب والعسل[٢]، وكان النبيذ مباحًا إلا فى شهور رجب وشعبان ورمضان فتغلق حوانيت الخمارين ويمنع بيع النبيذ[٣]، ومن أنواع الشراب الشائعة الفقاع[٤]، وشراب الكشكاب والأقسما وكانت تصنع من دقيق الشعير المضاف إليه السكر وماء الورد ، وفى بعض الأحيان يضاف إليه دقيق الحنطة ثم يصفى ويبرد ، وبعض أنواع الشراب السابقة قد يضاف إليها النعناع أو ماء الرمان وقد يستغنى عن السكر بالعسل[٥]، وكان الخلفاء الفاطميون يتناولون شرابهم فى أوانى البازهر التى تستورد من الهند ، وهى تصنع من معدن البازهر الذى يتغير لونه إذا احتوى الشراب شىء من السم ، وكانت تصنع لهم على هيئة كؤوس ولا يستخدمها غيرهم[٦].

٢ - الملابس : -

كانت الملابس فى العصر الفاطمى قد بلغت تطورا لم تشهده مصر طوال عصورها السابقة ، وذلك لاهتمام الخلفاء الفاطميين بصناعة المنسوجات ووضع الضوابط الدقيقة لنظام توزيعها فصارت تعبر عن المكانة

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ١ ص ٦٥ .
(٢) المقريزى : المصدر نفسه جـ١ ص ٤٤ ، ٣٩٣ .
(٣) المقريزى : المصدر نفسه جـ٢ ص ٤٩١ .
(٤) المقريزى : المصدر نفسه جـ٢ ص ٧٧ .
(٥) سلطان : الحياة الاجتماعية ص٢٧٤ .
(٦) المقريزى : خطط جـ١ ص ٤١٤ .

الاجتماعية والوظيفة السياسية ، فكانوا يخرجون من خزائن الكسوة إلى جميع الوزراء وكبار رجال الدولة وخدمهم وحواشيهم ومن يلوذ بهم من صغير وكبير ورفيع وحقير ، كسوات الصيف والشتاء من العمامة إلى السروال وما دونه من الملابس والمنديل من فاخر الثياب ونفيس الملبوس(١) ، وكانت الكسوة توضع فى شدة تحمل اسم صاحبها ومعها رقعة من ديوان الإنشاء موجهة إلى صاحب الكسوة تبين فضائل الدولة الفاطمية على رجالها وإنعامها عليهم وحقها فى إخلاصهم وطاعتهم(٢) ، وكانت الملابس بأنواعها تصنع فى أماكن عديدة فمنها الإسكندرية ودمياط وتنيس(٣) خارج القاهرة يشرف على كل منها أحد الأعيان المستخدمين يطلق عليه ناظر الطراز ويعمل تحت إشرافه مائة رجل لإدارة دار الطراز والمناسج الخاصة بالخليفة ، وبعد إتمام صناعة المنسوجات يحملها إلى القصر الخلافى فى موكب كبير حتى إذا ما وصل إليها استقبل هناك بحفاوة كبيرة وتحفظ المنسوجات فى خزائن الكسوة (٤) ، وكان بالقاهرة دار الديباج التى أنشأها يعقوب بن كلس وكانت مخصصة لصناعة الحرير الديباج ويشرف عليها أحد كبار موظفى الدولة(٥) ، وفضلا عن ذلك كانت بعض القرى المحيطة بالمدن المشهورة ويخصص لكل منها نوع محدد من المنسوجات فمنها شطا

---

(١) المقريزى : خطط جـ١ ص ٤٠٩ .
(٢) المقريزى : المصدر نفسه جـ١ ص ٤١٠ .
(٣) ناصر خسرو : سفر نامة ص٩٢ .
(٤) المقريزى : المصدر نفسه جـ١ ص ٤٦٩ .
(٥) المقريزى : المصدر نفسه جـ١ ص ٤٦٤ .

التى تنسب إليها الملابس الشطورية الراقية ، ودبيق التى كانت تنتج الثياب المذهبة والعمائم المذهبة[١] ، ودميره وتونة التى تصنع بها كسوة الكعبة المشرفة[٢].

على أن جميع المنسوجات مهما كانت جهة صنعها تصل إلى القصر الفاطمى فتحفظ فى خزائن الكسوة ، وكانت على أنواع فمنها الخزانة الظاهرة مقر الخياطين الذين يقومون بحياكة الثياب وإعدادها على ما جرت العادة ويرأسهم مقدم الخياطين[٣] ، والخزانة الباطنة أو الخزانة العالية الخاصة وتحاك فيها ملابس الخليفة[٤] ، وتشرف عليها امرأة تلقب زين الخزان يعمل تحت إدارتها ثلاثون جارية ، وكان الخليفة يرتدى ثيابه من هذه الخزانة التى تجلب إليها الزهور العطرة لتوضع فى صناديق الثياب لتكسبها الروائح الجميلة ، أما خزانة الكسوة العامة فتخزن بها الملابس حتى يحل موعد توزيعها على أربابها من رجالات الدولة وحواشيهم[٥].

كانت ملابس الخليفة تتألف من العمامة التى تتكون بدورها من ثلاث قطع هى شاشية (قماش سميك)[٦] ، والمنديل ذى العمود الذهب وبطانة

---

(١) المقريزى : خطط جـ١ ص ٢٦٦ .
(٢) المقريزى : المصدر نفسه جـ١ ص ١٨١ .
(٣) المقريزى : المصدر نفسه جـ١ ص ٤١٢ .
(٤) ماجد : نظم الفاطميين جـ٢ ص١٧ .
(٥) المقريزى : المصدر نفسه جـ١ ص ٤١٢ .
(٦) ماجد : المصدر نفسه جـ٢ ص ٥٢ .

المنديل (شرب)، والمنديل عبارة عن قماش فاخر يلف حول الرأس[١]، كما تستخدم مناديل أخرى فمنها منديل لمسح اليد والوجه وكان يصنع من نسيج الكتان الرقيق بزخارف على شكل أشرطة من حرير وقد طرز عليه اسم العزيز بالله[٢]، والمنديل الذى كان الخليفة يشير به لكبار رجال الدولة ردا على تحياتهم له[٣]، وتعرف عمامة الخليفة بمنديل الجوهر لكثرة ما تحتويه من الجواهر ، وتشد على رأس الخليفة بشدة الوقار حتى تصبح التاج الشريف، وكان أحد الأساتذة المحنكين يقوم بشد العمامة على رأس الخليفة ثم يتوسطها الجوهرة واليتيمة التى لا مثيل لها ولا تقدر بثمن [٤]، وكان لباس الخليفة يتألف من ثوب حريرى منسوج بخيوط الذهب يليه ثوب آخر من الحرير الدبيقى يعلوه قميص حرير وسروال حجرة له حزام مطرزة بالذهب[٥]، وكان الخليفة يرتدى الثياب الحريرية البيضاء غير المذهبة توقيرا للصلاة والعمامة والطيلسان المقور[٦]، وطبقا لكل مناسبة فكان الخليفة يرتدى الملابس الحمراء فى يوم النحر للتميز عند ذبح الأضحيات التى يقوم بنحرها[٧]، كما يرتدى ملابس الصيد الحمراء أيضًا تعبيرا عن عمليات

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ٣ ص ٢٤٨ .
(٢) دليل متحف الفن الرسلامى ص ٣٣٥ .
(٣) المقريزى : خطط جـ١ ص ٤٧٤ .
(٤) المقريزى : المصدر نفسه جـ١ ص ٤٧٢ .
(٥) المقريزى : المصدر نفسه جـ١ ص ٤١٠ .
(٦) المقريزى : المصدر نفسه جـ٢ ص ٢٨١ .
(٧) المقريزى : المصدر نفسه جـ١ ص ١٧٧ .

القنص والذبح لما يتم اصطياده من الحيوانات والطيور [١]، ويرتدى الخليفة داخل الملابس الدارية الخفيفة قصيرة الأكمام قليلة الاتساع مع الثوب والعمامة[٢]، فكان الخليفة العزيز يرتدى القفطان أو الخفتان له أزرار وأكمام قصيرة تمتد حتى الكوع، وينسدل حتى منتصف الساقين وحول وسطه الحزام[٣].

أما ملابس الوزراء والأمراء فكانت تتميز بالعمامة الكبيرة وينتهى طرفها ليدور حول الحنك، مع إرخاء ذؤابة العمامة على الظهر لتميز الوزراء عن أرباب الدولة، وكان إرخائها على الظهر يقتصر على الخلفاء والوزراء فى المواكب الرسمية [٤]، أما الرداء الرئيسى فكان الجبة ذات الأزرار المصنوعة من الأحجار الكريمة وهى التى تميز الوزراء أيضًا، وقد يضاف إليها الطيلسان حالة أن يكون الوزير قد عين فى الرسوم أمير للجيوش أو قاضيا للقضاة فصار كبير أرباب السيوف والأقلام [٥]، فخلع المستنصر بالله على بدر الجمالى بالطيلسان وصار أمر المستخدمين فى حكمه والدعاة والقضاة نوابه[٦]، يقول المقريزى : « ولما قام الأفضل بن أمير الجيوش خلع أيضًا عليه بالسيف والطيلسان المقور ... ولما قدم طلائع بن رزيك جعل فى

---

(١) المقريزى : اتعاظ جـ٢ ص ١٣٦ .

(٢) المقريزى : المصدر نفسه جـ٢ ص١٣٦ .

(٣) المقريزى : المصدر نفسه جـ١ ص ٢٩٣ .

(٤) المقريزى : المصدر نفسه جـ١ ص ٤٤٠ ، ٤٧٠ .

(٥) المقريزى : المصدر نفسه جـ١ ص٤٤ .

(٦) ابن منجب : الإشارة إلى من نال الوزارة ص٥٦ .

خلعته السيف والطيلسان المقور[١]، أما كبار رجال الدولة من غير الوزراء فكان زيهم يتميز بالعمائم المطرزة بالذهب والأطواق المذهبة التى تلف حول أعناقهم وهم الأمراء المطوقين[٢]، ولما أعجب الوزراء بالأطواق المذهبة اتخذوا لهم عقودا من الجوهر[٣]، أما الأساتذة المحنكون فكانوا يرتدون الملابس الحريرية المذهبة ويلفون عمائمهم حول أحناكهم [٤].

كما تميز القضاة والفقهاء من أفراد المجتمع بملابسهم ذات العمائم الطويلة العريضة التى كان حجمها يعبر عن مكانة القاضى ودرجته واحترامه بين أقرانه[٥]، وكانت العمامة تنتهى بالذؤابه المرخاة، كما أن لون العمامة كان يعد تشريفا لمرتديها وأعلاها العمامة المذهبة[٦]، كما يتميز القضاة بارتداء الطيلسان المقور تشريفا لهم وتعظيما لمكانتهم فى أعين أفراد الشعب[٧]، أما الفقهاء فكان غالب لبسهم الجبة والبردة التى يلتحف بها مثل العباءة، فإذا ما ارتقى إلى طائفة القضاء منح الطيلسان وصار من أرباب الطيالس [٨].

---

(١) المقريزى : المصدر نفسه جـ١ ص ٤٤٠ .

(٢) المقريزى : المصدر نفسه جـ١ ص ٤٤٠ .

(٣) عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر ، جزءان ، القاهرة ١٩٥٣ ، ١٩٥٥ جـ٢ ص٥٨ .

(٤) المقريزى : خطط جـ١ ص ٤١١ .

(٥) المقريزى : المصدر نفسه جـ١ ص ٤٦٩ .

(٦) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ٢ ص ١٥٠ .

(٧) ماجد : نظم الفاطميين جـ٢ ص ٦٢ .

(٨) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ١ ص ٤٤١ .

كانت ملابس التجار وأرباب الحرف تتألف من الثياب الواسعة والعمائم المدورة أو القلنسوة والتى تصنع من الحرير أو الكتان حسب درجة ثراء مرتديها وعلى أجسامهم السراويل والقمصان ذات الأكمام الواسعة ، وغالب ما تكون ملابسهم من الأقمشة المزينة بالرسوم الزخرفية ، وعلى الأكتاف الشرائط الحريرية ، ويرتدون النعال فى الأقدام من الجلود المحلية وللأغنياء كانت تصنع لهم من جلود الأبقار الحبشية[١]، ومن الطريف أن الفقراء من عامة الشعب كانوا يضطرون لتأجير الثياب الفاخرة من الصباغين لمسايرة الأغنياء ، وبخاصة فى مناسبات الإحتفال بالمواسم والأعياد[٢].

اختلفت أنواع ملابس النساء حسب مكانتهن الاجتماعية فكانت زوجات الخلفاء يرتدين الحلل المذهبة التى يصل عدد قطع الواحدة منها خمس عشرة قطعة ، ومنها غطاء الرأس الذى يتألف من أربع قطع وآخرها يتدلى على الظهر بطول الجسم حتى يصل إلى الأرض[٣] أو إلى الكعبين[٤]، واللباس الرئيسى على الجسم كان يتألف من ردائين من الحرير ، وقميص مذهب بأكمام واسعة وسروال ، وملاءة واسعة تغطى سائر الجسم[٥] أما زوجات الوزراء والأمراء فكن يرتدين الحلل الحريرية ،

---

(١) المقريزى : خطط جـ١ ص ٤٦٤ .

، المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ١ ص٢١٤ .

(٢) سلطان : الحياة الاجتماعية ص٣٠٥ .

(٣) المقريزى : المصدر نفسه جـ١ ص ٤١٠ .

(4) Dozy : Dictionnaire détaillé des noms des Vêtements chez les Arabes , Amsterdam, 1945, P. 298 .

(٥) المقريزى : المصدر نفسه جـ١ ص ٤١١ .

وأما باقى النساء فى المجتمع فكان جل لباسهن العصائب والسراويل والغلالات والقمصان أو الدراعات[١] ، وفوق اللباس تلف المرأة جسدها كله بالملاءة الفضفاضة[٢] ، ويرتدين فى أرجلهن الخفاف الصامتة ، وترتدى الجوارى الزرابيل ، وفى داخل المنازل كانت المرأة ترتدى القبقاب[٣] .

---

(1) Dozy : Dictionnaire., P. 177 .
(2) Dozy : Op. Cit., P. 408 .

(٣) أبو المحاسن : النجوم جـ٥ ص٣١١ .



الملاحـــق

(١)

أمان جوهر إلى الشعب المصرى

وهو نص الأمان الذى أصدره جوهر الصقلى فاتح مصر إلى أهل مصر عند افتتاحها فى شعبان سنة ٣٥٨هـ/ يوليو ٩٦٩م(١)

بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من جوهر الكاتب عبد أمير المؤمنين المعز لدين الله صلوات الله عليه ، لجماعة أهل مصر الساكنين بها (من أهلها) ومن غيرهم ؛ إنه قد ورد من سألتموه الترسل والاجتماع معى وهم أبو جعفر مسلم الشريف أطال الله بقاه وأبو إسماعيل أيده الله ، وأبو الطيب الهاشمى أيده الله ، وأبو جعفر أحمد بن نصر أعزه الله ، والقاضى أعزه الله ؛ وذكروا عنكم أنكم التمستم كتاباً يشتمل على أمانكم فى أنفسكم وأموالكم وبلادكم وجميع أحوالكم ، فعرفتم ما تقدم به أمر مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، وحسن نظره لكم ، فلتحمدوا الله على ما أولاكم ، وتشكروه على ما حماكم ، وتدأبوا فيما يلزمكم ، وتسارعوا إلى طاعته العاصمة لكم ، العايدة بالسعادة عليكم ، والسلامة لكم ، وهو إنه صلوات الله عليه لم يكن إخراجه للعساكر المنصورة ، والجيوش المظفرة ، إلا لما فيه إعزازكم وحمايتكم ، والجهاد عنكم ، إذ تخطفتكم الأيدي ، واستطال عليكم المستذل، وأطمعته نفسه بالاقتدار على بلدكم فى هذه السنة والتغلب عليه وأسر من فيه، والاحتواء على نعمكم وأموالكم ، حسب ما فعله فى غيركم من أهل بلدان

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، جـ١ ص١٠٣ _ ١٠٧ .

المشرق ، وتأكد عزمه واشتد كلبه ،فعاجله مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، بإخراج العساكر المنصورة وبادره بانفاذ الجيوش المظفرة دونكم ، ومجاهدته عنكم ، وعن كافة المسلمين ببلدان المشرق الذين عمهم الخزى ، وشملتهم الذلة ، واكتنفهم المصايب ، وتتابعت الرزايا ، واتصل عندهم الخوف ، وكثرت استغاثتهم ، وعظم ضجيجهم ، وعلا صراخهم ، فلم يغثهم إلا من أرمضه أمرهم ، ومضه حالهم ، وأبكا عينه ما نالهم وأسهرها ما حل بهم ، وهو مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، فرجا بفضل الله عليه ، وإحسانه لديه ، وما عوده وأجراه عليه ، استنقاذ من أصبح منهم فى ذل مقيم ، وعذاب أليم ، وأن يؤمن من استولى عليه المهل، ويفرخ روع من لم يزل فى خوف ووجل ، وآثر إقامة الحج الذى تعطل وأهمل العباد فروضه وحقوقه لخوف المستولى عليهم ، وإذ لا يأمنون على أنفسهم ولا على أموالهم ، وإذ قد أوقع بهم مرة بعد أخرى ، فسفكت دماؤهم وابتزت أموالهم ، مع اعتماد ما جرت به عادته من صلاح الطرقات، وقطع عبث العابثين فيها ، ليطرق الناس آمنين ويسيروا مطمئنين ، ويتحفوا بالأطعمة والأقوات إذ كان قد انتهى إليه صلوات الله عليه ، انقطاع طرقاتها لخوف مارتها ، إذ لا زاجر للمعتدين ولا دافع للظالمين ، ثم تجويد السكة وصرفها إلى العيار الذى عليه السكة الميمونة المنصورية المباركة وقطع الغش منها ، إذ كانت هذه الثلاث خصال هى التى لا يتسع لمن ينظر فى أمور المسلمين إلا إصلاحها ، واستفراغ الوسع فيما يلزمه منها ، وما أوعز به مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، إلى عبده من نشر العدل ،

وبسط الحق ، وحسم الظلم ، وقطع العدوان ، ونفى الأذى ، ورفع المؤن ، والقيام فى الحق ، وإعانة المظلوم ، مع الشفقة والإحسان ،وجميل النظر ، وكرم الصحبة ، ولطف العشرة ، وافتقاد الأموال ، وحياطة أهل البلد فى ليلهم ونهارهم ، وحين تصرفهم فى أوان ابتغاء معاشهم ، حتى لا تجرى أمورهم إلا على ما لم شعثهم ، وأقام أودهم وأصلح بالهم وجمع قلوبهم ، وألف كلمتهم على طاعة (وليه) مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، وما أمره به مولاه من إسقاط الرسوم الجابرة التى لا يرتضى صلوات الله عليه بإثباتها عليكم ، وأن أجريكم فى المواريث على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه ، واضع ما كان يؤخذ من تركات موتاكم لبيت المال من غير وصية من المتوفى بها فلا استحقاق لمصيرها لبيت المال ، وأن أتقدم فى رم مساجدكم وتزيينها بالفرش والإيقاد ، وأن أعطى مؤذنيها وقومتها ومن يؤم الناس فيها أرزاقهم ، وأدرها عليهم ، ولا أقطعها عنهم ، ولا أدفعها إلا من بيت المال لا بإحالة على من يقبض منهم ، وغير ما ذكره مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، ومما ضمنه كتابه هذا من ترسل عنكم أيديهم الله وصانكم أجمعين بطاعة مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، من أنكم ذكرتم وجوها التمستم ذكرها فى كتاب أمانكم ، فذكرتها إجابة لكم ، وتطمينا لأنفسكم ، فلم يكن لذكرها معنى ولا فى نشرها فائدة ، إذ كان الإسلام سنة واحدة ، وشريعة متبعة ، وهى إقامتكم على مذاهبكم ، وأن تتركوا على ما كنتم عليه من أداء الفروض فى العلم والاجتماع عليه فى جوامعكم ومساجدكم ، وثباتكم على ما كان عليه

سلف الأمة من الصحابة رضى الله عنهم والتابعين بعدهم ، وفقهاء الأمصار الذين جرت الأحكام بمذاهبهم وفتواهم ، وأن يجرى الأذان والصلاة وصيام شهر رمضان وفطره وقيام لياليه ، والزكاة والحج والجهاد على ما أمر الله فى كتابه ، ونص نبيه صلى الله عليه فى سنته ، وإجراء أهل الذمة على ما كانوا عليه ، ولكم على أمان الله التام العام الدايم المتصل الشامل الكامل المتجدد المتأكد فى الأيام وكرور الأعوام ، فى أنفسكم وأموالكم وأهليكم ونعمكم وضياعكم ورباعكم وقليلكم وكثيركم ، وعلى أنه لا يعترض (عليكم) معترض ، ولا يتجنى عليكم متجن ولا يتعقب عليكم متعقب ، وعلى أنكم تصانون وتحفظون وتحرسون ، ويذب عنكم ويمنع منكم ، فلا يتعرض إلى أذاكم ولا يسارع أحد فى الاعتداء عليكم ، ولا فى الاستطالة على قويكم فضلا عن ضعيفكم ، وعلى أن لا أزال مجتهدا فيما يعمكم صلاحه ويشملكم نفعه ، ويصل إليكم خيره ، وتتعرفون بركته ، وتغتبطون منه بطاعة مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، ولكم على الوفا بما التزمته ، وأعطيكم إياه عهد الله وغليظ ميثاقه وذمته وذمة أنبيائه ورسله وذمة الأئمة موالينا أمراء المؤمنين قدس الله أرواحهم ، وذمة مولانا وسيدنا أمير المؤمنين المعز لدين الله صلوات الله عليه فتصرحون بها وتعلنون بالإنصراف إليها ، وتخرجون إلى وتسلمون عليّ وتكونون بين يدى ، إلى أن أعبر الجسر وأنزل من المناخ المبارك ، وتحافظون من بعد على الطاعة وتثابرون عليها وتسارعون إلى فروضها ، ولا تخذلون وليا لمولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه، وتلزمون ما أمرتم به وفقكم الله وأرشدكم أجمعين .

وكتب جوهر القائد الأمان بخطه فى شعبان سنة ثمان وخمسين وثلثمائة ، وصلى الله على محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين الأخيار ؛ وكتب بخطه فى هذا الكتاب قال جوهر الكاتب عبد أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الاكرمين ، كتبت هذا الأمان على ما تقدم به أمر مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، وعليّ الوفاء بجميعه لمن أجاب من أهل البلد وغيرهم ؛ على ما شرطت فيه والحمد لله رب العالمين وحسبنا الله ونعم الوكيل ، وصلى الله على محمد وعلى آله الطيبين .

(٢)

سجل حاكمي بتولية قاضي القضاة(١)

وهو نص السجل الصادر فى سنة ٣٨٩هـ/٩٩٨م عن الحاكم بأمر الله بتولية الحسين بن على بن النعمان قضاء الديار المصرية وأجناد الشام وبلاد المغرب مع النظر فى دور الضرب والعيار وأمر الجوامع والمساجد

هذا ما عهد عبد الله ووليه المنصور أبو على الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين للقاضى حسين بن على بن النعمان حين ولاه الحكم بالمعزية القاهرة ومصر ، والإسكندرية وأعمالها ، والحرمين حرسهما الله تعالى ، وأجناد الشام ، وأعمال المغرب ، وإعلاء المنابر ، وأئمة المساجد الجامعة ، والقوامة عليها والمؤذنين بها ، وسائر المتصرفين فيها وفى غيرها من المساجد، والنظر فى مصالحها جميعًا ، ومشارفة دار الضرب وعيار الذهب والفضة ، مع ما اعتمده أمير المؤمنين وانتحاه ، وقصده وتوخاه ؛ من اقتفائه لآثاره وانتهائه إلى إيثاره ، فى كل علية للدولة ينشرها ويحييها ، ودنية من أهل القبلة يدثرها ويعفيها ؛ وما التوفيق إلا بالله ولى أمير المؤمنين عليه توكله فى الخيرة له ولسائر المسلمين فيما قلده إياه من أمور ولاه .

أمره أن يتقى الله عز وجل حق التقوى ، فى السر والجهر والنجوى ؛ ويعتصم بالثبات واليقين والنهى ، وينفصم عن الشبهات والشكوك والهوى ، فإن تقوى الله تبارك وتعالى موئل لمن وأل إليها حصين ، ومعقل لمن اقتفاها

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ١٠ ص ٣٨٥ ـ ٣٨٨ .

أمين ، ومعول لمن عول عليها مكين ؛ ووصية الله التى أشاد بفضلها ، وزاد فى سناها بما عهد أنه من أهلها فقال تبارك وتعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنو اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾.

وأمره ألا ينزل ما ولاه أمير المؤمنين (إياه) من الأحكام فى الدماء والأشعار والأبشار والفروج والأموال ، (عن) منزلته العظمى من حقوق الله المحرمة ، وحرماته المعظمة ، وبيناته المبينة فى آياته المحكمة ؛ وأن يجعل كتاب الله عز وجل وسنة جدنا محمد خاتم الأنبياء والمأثور عن أبينا على سيد الأوصياء ، وآبائنا الأئمة النجباء - صلى الله على رسوله وعليهم - قبلة لوجهه إليها يتوجه ، وعليها يكون المتجه . فيحكم بالحق، ويقضى بالقسط، ولا يحكم الهوى على العقل ، ولا القسط على العدل، إيثاراً لأمر الله عز وجل حيث يقول : ﴿ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾(١) . ﴿ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾(٢).

وأمره أن يقابل ما رسمه أمير المؤمنين وحده لفتاه برجوان ، من اعزازه والشد على يده وتنفيذ أحكامه وأقضيته ؛ والقصر من عنان كل متطاول على الحكم والقبض من شكائمه ، بالحق المفترض لله جل وعز ولأمير المؤمنين عليه ؛ من ترك المجاملة فيه ، والمحاباة لذى رحم وقربى ، وولى للدولة

---

(١) سورة ص آية ٢٦ .

(٢) سورة المائدة آية ٨ .

أو مولى ؛ فالحكم لله ولخليفته فى أرضه ، والمستكين له لحكم الله وحكم وليه يستكين ، والمتطاول عليه ، والمباين للإجابة إليه ، حقيق بالإذالة والنهوض ؛ فليتق الله أن يستحى من أحد فى حق له ، « والله لا يستحى من الحق » .

وأمره أن يجعل جلوسه للحكم فى المواضع الضاحية للمتحاكمين ، ويرفع عنهم حجابه ، ويفتح لهم أبوابه ، ويحسن لهم انتصابه ، ويقسم بينهم لحظه ولفظه ، قسمة لا يحابى فيها قويًا لقوته ، ولا يردى فيها ضعيفًا لضعفه ؛ بل يميل مع الحق ويجنح إلى جهته ، ولا يكون إلا مع الحق وفى كفته ؛ ويذكر بموقف الخصوم ومحاباتهم بين يديه موقفه ومحاباته بين يدى الحكم العدل الديان ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدًا بعيدًا ويحذركم الله نفسه ﴾ .

وأمره أن ينعم النظر فى الشهود الذين إليهم يرجع وبهم يقطع فى منافذ القضايا ومقاطع الأحكام ، ويستشف أحوالهم استشفافا شافيًا ، ويتعرف دخائلهم تعرفا كافيًا ؛ ويسأل عن مذاهبهم وتقلبهم فى سرهم وجهرهم ، والجلى والخفى من أمورهم ؛ فمن وجده منهم فى العدالة والأمانة ، والنزاهة والصيانة ، وتحرى الصدق ، والشهادة بالحق ، على الشيمة الحسنى ، والطريقة المثلى (أبقاه) ، وإلا كان بالإسقاط للشهادة أولى ؛ وأن يطالع حضرة أمير المؤمنين بما يبدو له فيمن يعدله أو يرد شهادته ولا يقبله ، ليكون

في الأمرين على ما يحد له ويمثله ، ويأمن فيما هذه سبيله كل خلل يدخله؛ إذ كانت الشهادة أس الأحكام ، وإليها يرجع الحكام والنظر فيمن يؤهل لها أحق شيء بالأحكام ؛ قال الله تقدست أسماؤه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ﴾ (١). وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ (٢).

وأمره أن يعمل بأمثلة أمير المؤمنين له فيمن يلي أموال الأيتام والوصايا وأولى الخلل في عقولهم ، والعجز عن القيام بأموالهم ؛ حتى يجوز أمرها على ما يرضى الله ووليه ، من حياطتها وصيانتها من الأمناء عليها ، وحفظهم لها ، ولفظهم لما يحرم ولا يحل أكله منها ، فيتبوأ عند الله بعداً ومقتًا ، آكل الحرام والموكل له سحتا ؛ قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾(٣) .

وأمره أن يشارف أئمة المساجد والقوامة عليها ، والخطباء بها والمؤذنين فيها ، وسائر المتصرفين في مصالحها ؛ مشارفة لا يدخل معها خلل في شيء يلزم مثله ، من تطهير ساحتها وأفنيتها ، والاستبدال بما تبذل من حصرها في أحيانها ، وعمارتها بالمصابيح في أوقاتها والإنذار بالصلوات في ساعاتها ، وإقامتها لأوقاتها ، وتوقيتها حق ركوعها وسجودها ، مع المحافظة

---

(١) سورة النساء آية ١٣٥ .
(٢) سورة الفرقان آية ٧٢ .
(٣) سورة النساء آية ١٠ .

على رسومها وحدودها ، من غير اختراع ولا اختلاع لشيء منها : ﴿ إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴾(١) .

وأمره أن يرعى دار الضرب وعيار الذهب والفضة بثقات يحتاطون عليهما من كل لبس ، ولا يمكنون المتصرفين فيها من سبب يدخل على المعاملين بهما شيئًا من الوكس ؛ إذ كان بالعين والورق تتناول الرباع والضياع والمتاع ؛ ويبتاع الرقيق ، وتنعقد المناكح وتتقاضى الحقوق ؛ فيدخل الغش والدخل فيما هذه سبيله جرحة للدين ، وضرر على المسلمين؛ يتبرأ إلى الله منهما أمير المؤمنين .

وأمره أن يستعين على أعمال الأمصار التى لا يمكنه أن يشاهدها بأفضل وأعلم وأرشد وأعمد من تمكنه الاستعانة به على ما طوقه أمير المؤمنين فى استعماله . قال الله عز وجل : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴾(٢) .

هذا ما عهد أمير المؤمنين فاوف بعهده ، تهتد بهديه ، وترشد برشده، وهذا أول أمره لك فأعمل بها ، وحاسب نفسك قبل حسابها ؛ ولا تدع من عاجل النظر لها أن تنظر لمآبها : ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُون ﴾(٣) .

وكتب فى يوم الأحد لسبع ليالى بقين من صفر سنة ٣٨٩ .

---

(١) سورة النساء آية ١٠٣ .

(٢) سورة الأحزاب آية ٧٢ .

(٣) سورة النحل آية ١١١ .

(٣)

وقفية الحاكم بأمر الله على الجامع الأزهر ودار الحكمة[1]

وهو نص حجة الوقف التى أوقف بمقتضاها الحاكم بأمر الله بعض أملاكه بمصر والقاهرة على الجامع الأزهر ودار الحكمة وبعض المساجد .

هذا كتاب أشهد قاضى القضاة مالك بن سعيد بن مالك الفارقى على جميع ما نسب إليه مما ذكر ووصف فيه من حضر من الشهود فى مجلس حكمه وقضائه بفسطاط مصر فى شهر رمضان سنة أربعمائة ، أشهدهم وهو يومئذ قاضى عبد الله ووليه المنصور أبى على الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين ابن الإمام العزيز بالله صلوات الله عليهما ، على القاهرة المعزية ومصر والإسكندرية والحرمين حرسهما الله وأجناد الشام والرقة والرحبة ونواحى المغرب وسائر أعمالهن وما فتحه الله ويفتحه لأمير المؤمنين ، من بلاد الشرق والغرب ، بمحضر رجل متكلم ، أنه صحت عنده معرفة المواضع الكاملة والحصص الشائعة ، التى يذكر جميع ذلك ويحدد هذا الكتاب ، وإنها كانت من أملاك الحاكم إلى أن حبسها على الجامع الأزهر بالقاهرة المحروسة، والجامع براشدة والجامع بالمقس ، اللذين أمر بإنشائهما وتأسيس بنائهما ، وعلى دار الحكمة بالقاهرة المحروسة التى وقفها والكتب التى فيها

---

(١) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ص٢٧٣ ، ٢٧٤ .

تاريخ هذا الكتـاب ؛ منهـا مـا يخص الجـامع الأزهر والجـامع براشـدة ودار الحكمة بالقاهرة المحروسة مشاعا جميع ذلك غير مقسوم ؛ ومنها ما يخص الجامع بالمقس على شرائط يجرى ذكرها ؛ فمن ذلك ما تصدق به على الجامع الأزهر بالقـاهرة المحروسـة والجامع براشـدة ودار الحكمـة بالقـاهرة المحروسة، جميع الدار المعروفة بدار الضرب وجميع القيسارية المعروفة بقيسارية الصـوف وجـميع الدار المعروفة بدار الخرق الجديدة ، الذى كله بفـسطاط مـصـر ومن ذلك مـا تصـدق به على جامع المقس جـمـيع أربعة الحـوانيت والمنازل التى علوها والمخـزنين الذى ذلك كله بفـسطاط مـصـر بالراية ، فى جانب الغرب من الدار المعروفة كانت بدار الخرق ، وهاتان الداران المعروفتان بدار الخرق فى الموضع المعروف بحمام الفار ، ومن ذلك جميع الحصص الشائعة من أربعة الحوانيت المتلاصـقة التى بفسطاط مصـر بالراية أيضًا بالموضع المعروف بحمام الفار ، وتعرف هذه الحوانيت بحصص القيسى ، بحدود ذلك كله وأرضه وبنائه وسفله وعلوه وغرفه ومرتفقـاته وحوانيته وساحاته وطرقه وممراته ومجارى مياهه وكل حق هو له داخل فيه وخارج عنه؛ وجعل ذلك كله صدقة موقوفة محرمة محبسة بتة بتلة لا يجوز بيعها ولا هبتها ولا تمليكها ، باقية على شروطها جارية على سبلها المعروفة فى هذا الكتاب ، لا يوهنها تقادم السنين ولا تغير بحدوث حدث ، ولا يستثنى فيها ولا يتأول ولا يستفتى بتجدد تحبيسها مدى الأوقات ، وتستمر شروطها على اختلاف الحالات ، حتى يرث الله الأرض والسموات ، على أن يؤجر ذلك فى كل عصر من ينتهى إليه ولايتها ويرجع إليه أمرها ، بعد مراقبة الله

واجتلاب ما يوفر منفعتها ، من إشهارها عند ذوى الرغبة فى إجارة أمثالها ، فيبتدأ من ذلك بعمارة ذلك على حسب المصلحة وبقاء العين ومرمته من غير إجحاف بما حبس ذلك عليه ، وما فضل كان مقسومًا على ستين سهما ، فمن ذلك للجامع الأزهر بالقاهرة المحروسة المذكورة فى هذا الإشهاد الخمس والثمن ونصف السدس ونصف التسع يصرف ذلك فيما فيه عمارة له ومصلحة وهو من العين المعزى الوازن ألف دينار واحدة وسبعة وستون ديناراً ونصف دينار وثمن دينار ، من ذلك للخطيب بهذا الجامع أربعة وثمانون ديناراً ، ومن ذلك لثمن ألف ذراع حصر عبدانية تكون عدة له بحيث لا ينقطع من حصره عند الحاجة إلى ذلك ، ومن ذلك لثمن ثلاثة عشر ألف ذراع حصر مظفورة لكسوة هذا الجامع فى كل سنة عند الحاجة إليها مائة دينار واحدة وثمانية دنانير ، ومن ذلك لثمن ثلاثة قناطير زجاج وفراخها اثنا عشر ديناراً ونصف وربع دينار ، ومن ذلك لثمن عود هندى للبخور فى شهر رمضان وأيام الجمع مع ثمن الكافور والمسك وأجرة الصانع خمسة عشر دينارا ، ومن ذلك لنصف قنطار شمع بالفلفلى سبعة دنانير ، ومن ذلك لكنس هذا الجامع ونقل التراب وخياطة الحصر وثمن الخيط وأجرة الخياطة ثلاثة دنانير ، ومن ذلك لثمن مشاقة لسرج القناديل عن خمسة وعشرين رطلا بالرطل الفلفلى دينار واحد ، ومن ذلك لثمن فحم للبخور عن قنطار واحد بالفلفلى نصف دينار ، ومن ذلك لثمن أردبين ملحاً للقناديل ربع دينار ، ومن ذلك ما قدر لمؤنة النحاس والسلاسل والتنانير والقباب التى فوق سطح الجامع أربعة وعشرون دينارا ، ومن ذلك ثمن سلب

ليف وأربعة أحبل وست دلاء أدم نصف دينار ، ومن ذلك لثمن قنطارين خرقا لمسح القناديل نصف دينار ، ومن ذلك لثمن عشر قفاف للخدمة وعشرة أرطال قنب لتعليق القناديل ولثمن مائتى مكنسة لكنس هذا الجامع دينار واحد وربع دينار ، ومن ذلك لثمن أزيار فخار تنصب على المصنع ويصب فيها الماء مع أجرة حملها ثلاثة دنانير ومن ذلك لثمن زيت وقود هذا الجامع راتب السنة ألف رطل ومائتا رطل مع أجرة الحمل سبعة وثلاثون دينارا ونصف ، ومن ذلك لأرزاق المصلين يعنى الأئمة وهم ثلاثة وأربعة قومة وخمسة عشر مؤذنا خمسمائة دينار وستة وخمسون دينارا ونصف ، منها للمصلين لكل رجل منهم دينارا وثلثا دينار فى كل شهر من شهور السنة ، والمؤذنين والقومة لكل رجل منهم ديناران فى كل شهر ، ومن ذلك للمشرف على هذا الجامع فى كل سنة أربعة وعشرون دينارا، ومن ذلك لكنس المصنع بهذا الجامع ونقل ما يخرج منه من الطين والوسخ دينار واحد، ومن ذلك لمرمة ما يحتاج إليه فى هذا الجامع فى سطحه وأترابه وحياطته وغير ذلك مما قدر لكل سنة ستون دينارا ، ومن ذلك لثمن مائة وثمانين حمل تبن ونصف حمل جارية لعلف رأسى بقر المصنع الذى لهذا الجامع ثمانية دنانير ونصف وثلث دينار ، ومن ذلك للتبن لمخزن يوضع فيه بالقاهرة أربعة دنانير ، ومن ذلك لثمن فدانين قرط لتربيع رأسى البقر المذكورين فى السنة سبعة دنانير ، ومن ذلك لأجرة متولى العلف وأجرة السقا والحبال والقواديس وما يجرى ذلك خمسة عشر دينارا ونصف ، ومن ذلك لأجرة قيم الميضأة إن عملت بهذا الجامع اثنا عشر دينارا . ثم ذكر أن

تنانير الفضة ثلاثة تنانير وتسعة وثلاثين قنديلا فضة ، فللجامع الأزهر تنوران وسبعة وعشرون قنديلا ، ومنها لجامع راشدة تنور واثنا عشر قنديلا ، وشرط أن تعلق فى شهر رمضان وتعاد إلى مكان جرت عادتها أن تحفظ به ، وشرط شروطاً كثيرة فى الأوقاف منها أنه إذا فضل شىء اجتمع يشترى به ملك ، فإن عاز شيئاً واستهدم ولم يف الريع بعمارته بيع وعمر به .

(٤)

روايات اختفاء الحاكم والتعقيب عليها

الرواية الأولى : فى مطلع ليلة الاثنين السابع والعشرين من شوال سنة ٤١١هـ ، الثالث عشر من فبراير سنة ١٠٢١م ، عزم الحاكم على الخروج كعادته إلى جبل المقطم لتأمل النجوم ورصد حركتها وحساب طالعها ، إلا أنه كان مغموما على غير عادته فهرع إلى أمه وأفضى إليها بما يجيش فى صدره ، وأنه يتوجس خيفة من ظهور نجم ينذر بسوء الطالع فجزعت الأم واستحلفته بأغلظ الأيمان ألا يخرج هذه الليلة ، فوعدها ، لكنه لم يطق ذلك بعد أن أصيب بحالة أرق شديدة وقرر فى نهاية الأمر الخروج وكان ذلك فى الثلث الأخير من هذه الليلة المشئومة ، وفعلاً أمر بتجهيز ركابه الذى كان يتألف من حماره الأشهب المسمى بالقمر وبطانته البسيطة وهم الركابية ، وخرج أبو عروس صاحب العسس (كبير الشرطة) لوداعه مع قواته فلما وصل إلى الجبل رد الحاكم أبا عروس ورجاله ونسيم صاحب الستر والسيف ، ثم سار متوغلا فى شعب المقطم ، وأخته ترقب كل التحركات عن كثب من قصرها الصغير (القصر الغربى) المقابل لقصر الخلافة (القصر الكبير) .

سارت الأحداث كما يرويها أبو عروس نفسه يقول : « لما وصل الحاكم الجبل صعد إلى رابية مرتفعة، وتأمل النجوم قليلا ثم ضرب يدا على يد وقال : « ظهرت يا مشئوم ! » ، ثم توغل قليلا فى شعب الجبل فاعترضه

عشرة من عرب بنى قُرة سير الحاكم وسألوه إحسانا ، فأنفذ معهم أحد الركابين إلى بيت المال ، يقول النويرى : إن العشرة الذين اعترضوا الحاكم من عبيد ابن دواس الذين أعدهم لتنفيذ الاغتيال . استكمل الحاكم سيره مع الركابى الآخر سيره حتى الموضع الخاص بخلوته فى شرق حلوان وقد لاح الفجر ، وهناك خرج عبدا ابن دواس من مكمنهما وانقضا عليه وطرحاه أرضا وهو يصيح بهما « ويلكما ماذا تريدان » فقتلاه وقطعا ذراعيه، وشقا جوفه ، وقتلا الصبى الركابى ، وقطعا قوائم الحمار ، وحملا الأشلاء إلى سيدهما فى كساء فسار بها ابن داوس إلى ست الملك ، فدفنت الجثة ، وأنعمت عليه وأتباعه بمال وفير ، ثم استدعت كبير الوزراء خطير الملك أبو الحسين عمار بن محمد وأخطرته بما حدث واستحلفته على الكتمان ، وأمرت باستدعاء ولى العهد عبد الرحيم بن إلياس من الشام ، وأعلنت أن أخاها سيغيب فترة من الوقت ، وفى نفس الوقت استغلت غياب الحاكم وأخذت البيعة لأبى الحسن على بن الحاكم ، وتم النداء به خليفة فى العاشر من ذى الحجة سنة ٤١١هـ/ ابريل ١٠٢١م .

بعد أن أستقرت الأمور كان على ست الملك التخلص ممن قاموا بارتكاب الجريمة حتى يدفن السر معهم ، فاستدعت ابن دواس ، فلما وصل إلى القصر ، صاح نسيم صاحب الستر والسيف بغلمان الخاصة أن هذا هو قاتل مولانا الحاكم فاقتلوه فانقضوا على ابن دواس وقطعوه أربا ، وتم ذلك مع العبدين اللذين قاما بتنفيذ الجريمة ، وبعدها بأشهر قلائل تم تنفيذ الإعدام فى كبير الوزراء خطير الملك ، أما عن كيفية اكتشاف الجريمة ، فيقول أبو

الهلال الصابى وقد كتبها بعد ٣٠ عاما من تنفيذها[١]. « لما لم يعد الحاكم فى اليوم التالى ، خرج القضاة والأشراف والقواد إلى الجبل فبحثوا عن الحاكم ولم يعثروا له على أثر ... وتوغلوا فى شعب المقطم حتى بلغوا دير القصير ، وعلى مقربة من حلوان عثروا على حماره الأشهب ، وقد قطعت ساقاه الأماميتان وحوله آثار أقدام فتتبعوها حتى وصلوا إلى البركة الواقعة شرقي حلوان فنزلها البعض وعثروا فيها بثياب الحاكم وفيها أثر الطعان والدماء ، فأيقن الناس بقتله [٢]. وتستطرد الرواية أن ست الملك أقامت العزاء بالقصر ثلاثة أيام ثم استدعت الأعراب الذين اعترضوا الحاكم وطلبت منهم الاعتراف بما حدث وإلا أعدمتهم ، فاقسموا أنه لا علم لهم بأى شىء ، فضربت أعناقهم جميعا .

يضيف الأنطاكى [٣]: « أن ست الملك وجدت فى صناديق دواس السكين التى كان يحملها الحاكم فى كمه ، فثبت لدى الجميع حينئذ أنه هو مدبر الجريمة » . يرى عنان[٤] أن هذا التفصيل يبرئ ست الملك ، إلا أن هذه العقلية الداهية التى قامت بتدبير كل شىء لا يفوتها بالطبع تثبيت الجريمة على ابن دواس ، وأنها شديدة الإهتمام بالتحقيق فيها حتى تبعد أى شبهة قد تحوم حولها ، وليس أدل على ذلك من سلسلة الاغتيالات

---

(١) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ جـ٨ ص ١٠٨ ـ ١٠٩ .
، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ٤ ص ١٨٥

(٢) أبو المحاسن : المصدر نفسه ، جـ٤ ص ١٩٠ ـ ١٩١ .

(٣) الأنطاكى : تاريخ الأنطاكى ، ص ٢٣٣ ـ ٢٣٤ ـ ٢٣٨ .

(٤) عنان : الحاكم بأمر الله ، ص٨٢ .

وحالات الإعدام التى نفذتها بدقة وسرعة فى كل من كان له صلة من قريب أو بعيد بهذه الجريمة .

- **الرواية الثانية** : ينقلها المقريزى[1] عن عز الملك المسبحى مؤرخ الدولة الفاطمية ووزير الحاكم وصديقه ، تقول الرواية : فى المحرم سنة ٤١٥هـ - ١٠٢٤م قبض على رجل من بنى حسين ثار بالصعيد الأعلى وأقر أنه قتل الحاكم فى أربعة نفر ، وأظهرت جلده من رأس الحاكم وقطعه من الفوطة التى كانت عليه فقيل لما قتلته ؟ فقال : غيرة لله وللإسلام ، فلما طلب منه وصف طريقة القتل ، أخرج سكينا وطعن به نفسه فى موضع القلب وهو يقول هكذا قتلته ، فقطع رأسه وحمل إلى الحضره . ويقول المقريزى وهذا هو جزاء قتل الحاكم لا ما تحكيه المشارقة فى كتبهم من أن أخته قتلته ، ولكن المسبحى الذى كان متصلا بالحاكم وأخته وأفراد عائلته والذى يعرف أن شهادته كمعاصر سوف تخلد على مر التاريخ يهمه بالدرجة الأولى نفى التهمة عن أحد أفراد العائلة صاحبة الأفضال عليه ، فضلا عن خشيته من بطش ست الملك بعد أن رأى من سلسلة القتل والإعدام التى نفذتها فى أقرب التابعين لها ، وخاصة أن المسبحى يعى بعقليته التاريخية ما حدث من اغتيال الحاكم ، وأن اتهام أخته ست الملك صاحبة السطوة والسلطة وقتذاك لن يعيده إلى الحياة ، فضلا عن أن هذا الرجل الذى اعترف بجريمته من المحتمل تماما أنه ارتدى عباءة البطولة والتفانى من أجل الدين لما أيقن من مصيره ، فكيف بالله يستطيع ذلك

(١) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ص٢٨٩ .

الرجل الساذج تنفيذ مثل هذه الجريمة فى واحد من أقوى حكام مصر وأكثرهم رهبة فى قلوب معاصريه من الخاصة والعامة على السواء ، وإن هذه الحادثة جاءت بعد مقتل الحاكم بأربع سنوات ، ولا نستبعد التدبير فيها من ست الملك بعد أن لاكت الألسنة سيرتها فى اضطلاعها بالاشتراك فى قتل أخيها فأرادت أن تخرس هذه الألسنة ، إلى جانب أن أقوى الروايات التى تؤيد اضطلاع ست الملك فى تدبير الجريمة بمعاونة أتباعها يرجحها أبو الهلال الصابى (ت٤٤٨هـ/١٠٥٦م) وهو مؤرخ محقق ثقة ، وكذلك يؤيد اتهامها الأنطاكى وروايته من أدق الروايات تفصيلا وإجمالا (ت٤٥٨هـ/١٠٦٥م) ، أما المسبحى والقضاعى الذى نقل عنه فينفيان التهمة عن ست الملك لأنهما كانا على اتصال وثيق بالقصر الخلافى والعائلة الحاكمة . فضلا عن ذلك كان المسبحى شيعيا يدين بالولاء والطاعة للفاطميين ودعوتهم ، وأما المقريزى الذى يتمسك برواية المسبحى فترجع أيضًا لولائه الشديد للمذهب الفاطمى والأخذ بلا شك بما يبرئهم إذ يجد حرجا شديدا فى المساس بتلك الشخصيات المقدسة .

وأما القضاعى فكتب بعد نحو ثلاثين سنة حيث الكتابة بحرية تامة وعدم خشية أحد كما أن القضاعى كان سنيا فقيها شافعيا ثقة وهو بعيد عن التأثر بالمذهب الفاطمى وبالعائلة الحاكمة .

لقد فتح غياب الأدلة الجنائية ، واختفاء القرائن والآثار الدالة على مصرع الحاكم بأمر الله باب الفروض والنظريات والاجتهادات وتطبيق

---

(١) أبو صالح الأرمنى : تاريخ الكنائس ، ص ٦٦ .

المذاهب الغيبية وقد ساعد على ذلك عودة الذاكرة إلى المجتهدين عن أسلوب حياة الحاكم وجنوحه إلى الخفاء والاتصال بعوالم الغيب الأمر الذى أدى إلى ظهور مذهب المهدى المنتظر الذى سوف يظهر بعد الاختفاء العمد ليملأ الأرض عدلا بعد أن تكون قد ملئت جورا وظلما ، كما فتح الباب أمام بعض المحتالين الذى يشبهون الحاكم للنصب على بسطاء الناس بعد أن أدعى كل منهم أنه الحاكم وأنه عاد بعد الغيبة !! ومن العجيب حقا أن تستمر تلك الروايات طيلة عهد ابنه الظاهر لإعزاز دين الله .

أما الرواية التى وردت فى المخطوط الكنسى المعروف بسير البيعة المقدسة ضمن سير البطاركة عن سيرة الأنبا زخاريا البطريرك القبطى المعاصر للحاكم وهذه الرواية تتناول القرائن التى تخلفت عن الجريمة بتحليل جديد وبإيجاز شديد ، تقول أن الحاكم خرج كعادته إلى جبل المقطم ومعه ركابى واحد وسار حتى بلغ حلوان ، وهناك أمر الركابى أن يعرقب حماره وأن ينصرف إلى القصر وأن يتركه بمفرده ففعل ، فلما كان صباح اليوم التالى سأل رجال القصر الركابى عن الحاكم فأجابهم بما فعل فمضوا للبحث عنه ، فوجدوا الحمار معرقب ولم يعثروا للحاكم على أثر ويضيف أبو صالح الأرمنى [١] : وذهب هو وحده (الحاكم بأمر الله) إلى داخل البرية ولم يعد ولا يعرف أين توجه إلى يومنا هذا وكان ذلك فى سنة إحدى عشر وأربعمائة .

ويؤيد هذا الرأى ابن العبرى[٢] وقد كتب تاريخه فى القرن السابع

---

(١) أبو صالح الأرمنى : تاريخ الكنائس ، ص ٦٦ .

(٢) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص ٣١٢ ـ ٣١٣ .

الهجرى وبإيجاز يقول : فقد الحاكم بن العزيز بن المعز صاحب مصر سنة ٤١١هـ/١٠٢٠م ولم يعرف له خبر ، وفى نفس الوقت يروى التفاصيل عن قصة القضاعى ، يتضح من ذلك أن ابن العبرى قد نقل الروايات فقط عن سابقين دون أن يقطع برأى سديد حول هذه الجريمة ، فالأمر لا يعنيه فى شىء سوى استكمال الأحداث المختلفة فى السنوات التى يشتمل عليها تاريخه .

تستكمل الرواية الكنسية الأحداث خلال عهد الظاهر لإعزاز دين الله عن قضية مصرع الحاكم ، فقد استغل البعض الشبه الشديد بينهم وبين الحاكم بأمر الله فى الاحتيال والنصب على الناس ، فمنهم (شروط) وهورجل نصرانى أسلم وتعلم السحر والشعوذة ، وكان يشبه الحاكم إلى حد كبير ارتدى زى الحاكم وأدعى أنه هو ولقب نفسه بأبى العرب ، وكان يقترض المال من الناس ويعدهم بإعادته إليهم بعد رجعته إلى القصر ولما سئل عن سبب اختفائه أجاب أنه مأمور بوحى لا يستطيع أن يجهر به فى الوقت الحاضر وظل الحال على ذلك طيلة عهد الظاهر لإعزاز دين الله ، فلما كان عهد المستنصر بالله ، سار إلى البحيرة ونزل هناك عند بعض البدو ، وتظاهر بمعرفة الغيب ، وتوج دعوته بادعاء النبوة ، ولما أحس بمطاردة السلطات له اختفى عن الأنظار طبقا لفكرة التقية وقد عاونه على ذلك البطريرك ساتونيوس وتعهده بالرعاية .

يتجلى من هذه الرواية التى تعهدها المخطوط الكنسى أنها أسطورية تحاول صرف الأنظار عن حقيقة مصرع الحاكم ، وإدخال بعض النظريات الغيبية

عن الإختفاء والرجعة فى أصل مبادئ الدولة الفاطمية الإسلامية ، ولو صحت الرواية فالمدعو « شروط » هذا يعتبر منافقا أظهر إسلامه من أجل ضرب العقيدة فى العمق ونشر الفتن بين البسطاء والسذج من الناس وبدهائه وفصاحته سار نحو تحقيق الهدف خطوة خطوة بدأت بادعائه أنه الحاكم ثم معرفة الغيب ثم النبوة ولو كانت الغيبة والرجعة من أصل المذهب ، لما أعلن المسئولون عن الحكم مصرع الحاكم وإقامة العزاء ثلاثة أيام بعد انتهاء مراسم الدفن .

ومن ناحية أخرى يزعم ابن العبرى أن الحاكم اختفى بالصحراء وأنه اعتنق النصرانية وترهب وقضى أيامه هناك ، ويرجع السبب فى ذلك فى زعم ابن العبرى أن يسوع المسيح قد ظهر للحاكم كما ظهر لبولس الرسول فآمن به ، واختفى بالصحراء حتى وفاته . وهى تتناقض أيضاً إذ تذكر حتى وفاته وفى موضع آخر أنه اختفى ولا يعلم عنه شيء [١] .

وقد حاول المستشرق دى ساسى جاهدا أن يأتى بالجديد والغريب والفريد عن قضية اختفاء الحاكم ، فهذه الرواية انفردت بها الرواية الكنسية وبخاصة

---

(١) يقول ابن العبرى « ولما كنت أنا الحقير مقيما فى دمشق سمعت بعض الكتاب المصريين يقولون أن ربنا يسوع المسيح تجلى للحاكم وقتما كان يضطهد النصارى كما تجلى لبولس فآمن وانتقل إلى البرية سراً ومات هناك » انظر تاريخ الزمان المعروف بالتاريخ السريانى المطول ، ترجمة الأب الدومنيكانى اسحق ارملة ، دار المشرق بيروت ، د. ت . قارن أيضاً تاريخ مختصر الدول ص١٨٠ ، حيث قام ابن العبرى ـ الذى اختصر تاريخه السريانى سالف الذكر وترجم هذا المختصر بالعربية ـ بحذف هذه الرواية من مختصره العربى لأسباب تتعلق يقيناً بحساسية المسلمين تجاه مثل هذه الروايات .

مسألة تنصر وترهب الحاكم ، فقد ادعت الروايات من قبل أن المعز لدين الله شهد من معجزات النصرانية الشيء العظيم حين رأى من تحرك جبل المقطم لدى صلوات الأحبار النصارى فتزعم أنه نزل عن الخلافة لولده العزيز وتنصر وترهب ودفن بإحدى الكنائس (١).

ولا شك أن هذه الروايات الأسطورية هي النتاج الفعلي لما أفرزته قرارات الحاكم الصارمة إزاء أهل الذمة ، وما تعرضوا له من التعسف والإرهاق بسببها ، ومن بين الروايات الأخرى أن رجلا مسلما يدعى ابن رجاء تأثر بمعجزات السيد المسيح فتنصر ، وسمى بولس وتلقب بالواضح ، ومن القصص الأسطورية أنهم زعموا أن رجلا يسمى أبو نجاح النصراني حاول الحاكم أن يرغمه على الإسلام فأبى فأمر بجلده حتى الموت لكن السيد المسيح ظهر له وكان يسقيه أثناء التعذيب ، وإن الحاكم أمر بحرق الرئيس فهد الوزير لأنه أبى الدخول في الإسلام لكن النار لم تمسه بسوء ! ! والبطريرك زخاريا الذى ألقى به الحاكم إلى السباع لكى تنهشه لكنها نفرت منه ولم تمسه بأذى . وكلها بلا شك خوارق مزعومة ، إنما هي محاولة من المؤرخين النصارى للدس على عهد الحاكم بأمر الله ، والرد على ما تعرض له أهل الذمة من العسف والجور في بعض فترات حكمه . ويتضح من ناحية أخرى أن الروايات دوما تتخذ من الحكام الأقوياء تلاميذ نادمين وجنود

---

(١) الأنبا ايزيدورس : الخريدة النفيسة فى تاريخ الكنيسة، نشر القمص عطا الله أرسانيوس، القاهرة ١٩٦٤ ، جـ٢ ص ٢٤٨ .
، عنان : الحاكم بأمر الله ، ص ٧٨ .

للمسيحية ، لعل من يقرأ كتاباتهم أن يقتدى بهم ويسير على نهجهم طبقا لمزاعم هذه الكتابات .

يقول أبو المحاسن(١) : « وأرسلت ستُّ الملك أخت الحاكم ابن دواس هذا مع بعض خدمها وخواصها ، وهى تقول له : لى إليك أمر لا بد لى فيه من الاجتماع بك ؛ فإما تنكرت وجئتنى ليلا ، أو فعلتُ أنا ذلك . فقال : أنا عبدك والأمر لك . فتوجهت إليه ليلا فى داره متنكرة ؛ ولم تصحب معها أحدا . فلما دخلت عليه قام وقبل الأرض بين يديها دفعاتٍ ووقف فى الخدمة ، فأمرته بالجلوس ، وأخلى المكان . فقالت : يا سيف الدولة ، قد جئت فى أمر أحرس به نفسى ونفسك والمسلمين ، ولك فيه الحظ الأوفر ، وأريد مساعدتك فيه ؛ فقال : أنا عبدك ، فاستحلفته واستوثقت منه ، وقالت له : أنت تعلم ما يقصده أخى فيك ، وأنه متى تمكن منك لم يبق عليك ، وكذا أنا ، ونحن على خطر عظيم . وقد انضاف [إلى] ذلك [تظاهره] بادعائه الإلهية وهتكه ناموس الشريعة وناموس آبائه ؛ وقد زاد جنونه . وأنا خائفة أن يثور المسلمون عليه فيقتلوه ويقتلونا معه ، وتنقضى هذه الدولة أقبح انقضاء . فقال سيف الدولة : صدقت يا مولاتنا ، فما الرأى ؟ قالت : قتله ونستريح منه ، فإذا تم لنا ذلك أقمنا ولده موضعه وبذلنا الأموال . وكنت أنت صاحب جيشه ومدبره ، وشيخ الدولة والقائم بأمره ؛ وأنا امرأة من وراء حجاب ، وليس غرضى إلا السلامة منه ، وأنى أعيش بينكم أمنة من

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ٤ ص١٨٦ ـ ١٩٢ .

الفضيحة ثم أقطعته إقطاعات كثيرةً ، ووعدته بالأموال والخلع والمراكب [السنية] . فقال لها عند ذلك : مرى بأمرك ؛ قالت : أريد عبدين من عبيدك تثق بهما فى سرك ، وتعتمد عليهما فى مهماتك . فأحضر عبدين ووصفهما بالشهامة ، فاستحلفتهما ووهبتهما ألف دينار ، ووقعت لهما بثياب وإقطاعات وخيل وغير ذلك ، وقالت لهما : أريد منكما أن تصعدا غداً إلى الجبل ، فإنها نوبة الحاكم فى الركوب ، وهو ينفرد ولا يبقى معه غير القرافىّ الركابى ، وربما رده ، ويدخل الشعب وينفرد بنفسه ؛ فاخرجا عليه فاقتلاه واقتلا القرافى والصبى إن كانا معه ؛ وأعطتهما سكينين من عمل المغاربة تسمى [الواحدة منهما] : « يافورت» ولهما رأس كرأس المبضع الذى يفصد به الحجام ، ورجعت إلى القصر وقد أحكمت الأمر وأتقنته . وكان الحاكم [ينظر فى النجوم فنظر مولده وكان] قد حكم عليه بالقطع فى هذا الوقت ، فإن تجاوزه عاش نيفا وثمانين سنة . وكان الحاكم لا يترك الركوب بالليل وطواف القاهرة . فلما كان تلك الليلة قال لوالدته : علىّ فى هذه الليلة وفى غدٍ قطع عظيم ، والدليل عليه علامة تظهر فى السماء طلوع نجم سماه ، وكأنى بك وقد انتهكت وهلكت مع أختى ، فإنى ما أخاف عليك أضر منها . فتسلمى هذا المفتاح فهو لهذه الخزانة ، وفيها صناديق تشمل على ثلثمائة ألف دينار ، خذيها وحوليها إلى قصرك تكون ذخيرة لك . فقبلت الأرض وقالت : إذا كنت تتصور هذا فارحمنى وأقض حقى ودع ركوبك الليلة ، وكان يحبها ، فقال : أفعل ، ولم يزل يتشاغل حتى مضى صدر من الليلة ، وكان له قوم ينتظرونه كل ليلة على

باب القصر ، فإذا ركب ركبوا معه ويتبعه أبو عروس صاحب العسس . ومن رسمه أن يطوف كل ليلة حول القصر فى ألف رجل بالطبول الخفاف والبوقات البحرية . فإذا خرج الحاكم من باب القاهرة قال له : ارجع وأغلق الأبواب ؛ فلا يفتحها حتى يعود ، وضجر الحاكم من تأخره عن الركوب فى تلك الليلة ، ونازعته نفسه إليه ؛ فسألته أمه وقالت : نم ساعة ، فنام ثم انتبه وقد بقى من الليل ثلثه ، وهو ينفخ ويقول : إن لم أركب الليلة وأتفرج وإلا خرجت روحى . ثم قام فركب حماره ، وأخته تراعى ما يكون من أمره، وكان قصرها مقابل قصره ، فإذا ركب علمت . ولما ركب سار فى درب يقال له درب السباع [1]، ورد صاحب العسس ونسيما الخادم صاحب الستر والسيف ، وخرج إلى القرافة ومعه القرافى الركابى والصبى . فحكى أبو عروس صاحب العسس أنه لما صعد الجبل وقف على تل كبير ونظر إلى النجوم وقال : إنا لله وإنا إليه راجعون ! وضرب بيدٍ على يد ، وقال : ظهرت يا مشئوم ! ثم سار فى الجبل ، فعارضه عشرة فوارس من بنى قرة ، وقالوا : قد طال مقامنا على الباب ، وبنا من الفاقة والحاجة ما نسأل معه حسن النظر والإحسان ، فأمر الحاكم القرافى أن يحملهم إلى صاحب بيت المال ويأمره أن يعطيهم عشرة آلاف درهم ؛ فقالوا له : لعل مولانا ينكر تعرضنا له فى

---

(١) قال ابن دقماق فى كتاب الانتصار (جـ٤ ص ١٢٥) ما نصه : « هذا الدرب عند المصلى القديم وإنما رسم بدرب السباع لأن بيت السباع كان هناك أيام الأمراء فى دار الإمارة » . ومحله اليوم شارع الأشرف الواقع بين شارعى الخليفة والسيدة نفيسة بقسم الخليفة بالقاهرة .

هذا المكان فيأمر بنا بمكروه ، ونحن نريد الأمان قبل الإحسان ، فما وقفنا إلا من الحاجة ؛ فأعطاهم الأمان وردّ القرافى معهم ؛ وبقى هو والصبى ، فسار إلى الشعب الذى جرت عادته بدخوله ، وقد كمن العبدان الأسودان له ، وقد قرب الصباح ، فوثبا عليه وطرحاه إلى الأرض فصاح : ويلكما ! ما تريدان ؟ فقطعا يديه من رأس كتفيه ، وشقا جوفه وأخرجا ما فيه ، ولفاه فى كساء ، وقتلا الصبى ، وحملا الحاكم إلى ابن دواس بعد أن عرقبا الحمار؛ فحمله ابن دواس مع العبدين إلى أخته ست الملك ، فدفنته فى مجلسها وكتمت أمره ، وأطلقت لابن دواس والعبدين مالاً كثيراً وثياباً . وأحضرت خطير الملك[1] الوزير وعرفته الحال ، وأستكتمته وأستحلفته على الطاعة والوفاء ، ورسمت له بمكاتبة ولى العهد ، وكان مقيما بدمشق نيابة عن الحاكم ، بأن يحضر إلى الباب ، فكتب إليه بذلك . وأنفذت على بن داود أحد القواد إلى الفرما (وهى مدينة على ساحل البحر) فقالت له : إذا دخل ولى العهد فاقبض عليه ، واحمله إلى تنيس ، وقيل غير ذلك ، كما سيأتى ذكره . ثم كتبت إلى عامل تنيس عن الحاكم بإنفاذ ما عنده من المال ، فأنفذه وهو ألف دينار وألف ألف درهم ، خراج ثلاث سنين . وجاء ولى العهد إلى الفرما ، فقبض عليه وحمل إلى تنيس . وفقد الناس الحاكم فى اليوم الثانى ، ومنع أبو عروس من فتح أبواب القاهرة انتظاراً للحاكم ،

---

(١) خطير الملك : هو رئيس الرؤساء خطير الملك أبو الحسين عمار بن محمد ، كان يتولى ديوان الإنشاء أيام الحاكم ، وتولى بيعة الإمام الظاهر لإعزاز دين الله الفاطمى . (راجع: ابن منجب : الإشارة إلى من نال الوزارة ، ص ٨٠) .

على حسب ما أمره به . ثم خرج الناس فى اليوم الثالث إلى الصحراء وقصدوا الجبل فلم يقفوا له على أثر . وأرسل القواد إلى أخته وسألوها عنه ؛ فقالت : ذكر لى أنه يغيب سبعة أيام ، وما هنا إلا الخير ، فانصرفوا على سكون وطمأنينة . ولم تزل أخته فى هذه الأيام ترتب الأمور وتفرق الأموال وتستحلف الجند ؛ ثم بعثت إلى ابن دواس المذكور وامرأته أن يستحلف الناس لابن الحاكم كتامة وغيرها ، ففعل ذلك . فلما كان فى اليوم السابع ألبست أبا الحسن على بن الحاكم أفخر الملابس واستدعت ابن دواس وقالت له : المعول فى قيام هذه الدولة عليك ، وتدبيرها موكل إليك ، وهذا الصبى ولدك ، فابذل فى خدمته وسعك ؛ فقبل الأرض ووعدها بالطاعة . ووضعت التاج على رأس الصبى ، وهو تاج عظيم فيه من الجواهر مالا يوجد فى خزانة خليفة وهو تاج المعز جد أبيه ، وأركبته مركبا من مراكب الخليفة ، وخرج بين يديه الوزير وأرباب الدولة . فلما صار إلى باب القصر صاح خطير الملك الوزير : يا عبيد الدولة ، مولاتنا السيدة تقول لكم هذا مولاكم فسلموا عليه ؛ فقبلوا الأرض بأجمعهم ، وارتفعت الأصوات بالتكبير والتهليل ، ولقبوه الظاهر لإعزاز دين الله ، وأقبل الناس أفواجا فبايعوه ، وأطلق المال وفرح الناس وأقيم العزاء على الحاكم ثلاثة أيام .

وقال القضاعى فى قتله وجها آخر ، قال : « خرج إلى الجبل المعروف بالمقطم ليلة الاثنين السابع والعشرين من شوال هذه السنة (يعنى سنة إحدى عشرة وأربعمائة) فطاف ليلته كلها ، وأصبح عند قبر الفقاعى ، ثم توجه

شرقى حلوان : موضع بالمقطم ، ومعه ركابيان ؛ فرد أحدهما مع تسعة نفر من العرب ، كانت لهم رسوم ، ويقال لهم السويديون ، إلى بيت المال وأمر لهم بجائزة ، ثم عاد الركابى الآخر ؛ وذكر أنه فارقه عند قبر الفقاعى والقصبة . وأصبح الناس على رسمهم ؛ فخرجوا ومعهم الموكب والقضاة والأشراف والقواد فأقاموا عند الجبل إلى آخر النهار ، ثم رجعوا إلى القاهرة ثم عادوا ؛ ففعلوا ذلك ثلاثة أيام . فلما كان يوم الخميس سلخ شوال خرج مظفر صاحب المظلة ونسيم صاحب الستر و[ابن] مسكين صاحب الرمح وجماعة من الأولياء الكتاميين والأتراك والقضاة والعدول وأرباب الدولة ، فبلغوا دير القصير [1] (المكان المعروف بحلوان)، وأمعنوا فى الجبل ؛ فبينما هم كذلك أبصروا بالحمار الذى كان راكبه على قرن الجبل قد ضربت يداه بسيف فقطعتا ، وعليه سرجه ولجامه ، فتتبعوا الأثر فإذا أثر راجل خلف أثر الحمار ، وأثر راجل قدامه فقصوا [الأثر] حتى أتوا إلى البركة التى شرقى حلوان ؛ فنزلها بعض الرجالة فوجد فيها ثيابه ، وهى سبع جباب مزررة لم تحل أزرارها ، وفيها أثر السكاكين فتيقنوا قتله . وكان عمره ستا وثلاثين سنة وسبعة أشهر ، وولايته على مصر خمسا وعشرين سنة وشهرا واحدا .

---

(١) قال المقريزى فى الكلام على الأديرة : وهذا الدير فى أعلى الجبل على سطح فى قلته وهو مطل على الصحراء والنيل وعلى القرية المعروفة بنهران (وهى التى تعرف اليوم باسم المعصرة بين طرا وحلوان) ثم قال : ويعرف هذا الدير باسم دير البغل . وقال فى موضع آخر: دير بخنس القصير ، وهو المعروف بدير القصير الذى هو ضد الطويل ، وسمى أيضًا دير هرقل ودير البغل ، وهذا الدير قد خرب من زمن بعيد . وكان موقعه فوق جبل المقطم فى الاتجاه الشرقى لمحطة المعصرة . المقريزى : الخطط جـ٢ ، ص ٥٠٢ .

قال ابن خلكان : « ما ذكر قتلته على نحو ما ذكرنا ، مع أن جماعة من المغالين فى حبهم للحاكم بأمر الله يظنونه حيًا ، وأنه لا بد أن يظهر ، ويحلفون بغيبة الحاكم ، وتلك خيالات هذيانية » .

قال القضاعى بعد ما ساق سبب قتله بنحو ما ذكرناه إلى أن قال : «ثم أمرت ست الملك بخلع عظيمة ومال كثير ومراكب ذهب وفضة للأعيان وأمرت ابن دواس أن يشاهدها فى الخزانة ، وقالت له : غدا نخلع عليك ، فقبل ابن دواس الأرض وفرح وأصبح من الغد ، فجلس عند الستر ينتظر الإذن حتى يأمر وينهى ؛ وكان للحاكم مائة عبد يختصون بركابه ، ويحملون السيوف بين يديه ويقتلون من يأمرهم بقتله ، فبعثت بهم ست الملك إلى ابن دواس ليكونوا فى خدمته ، فجاءوا فى هذا اليوم ووقفوا بين يديه ، فقالت ست الملك لنسيم صاحب الستر : اخرج قف بين يدى ابن دواس ، وقل للعبيد : يا عبيد ، مولاتنا تقول لكم هذا قاتل مولانا الحاكم فاقتلوه ، فخرج نسيم فقال لهم ذلك فمالوا على ابن دواس بالسيوف فقطعوه ، وقتلوا العبدين اللذين قتلا الحاكم ؛ وكل من اطلع على سرها قتلته ، فقامت لها الهيبة فى قلوب الناس » ، وقال ابن الصابى : لما قتلت ست الملك ابن دواس قتلت الوزير الخطير ومن كانت تخاف منه ممن عرف بأمرها .

هكذا تقول بعض الروايات باختفاء الحاكم وأنه سوف يعود من مكان ما وتركز على ذلك دون مقتله ويتجلى ذلك فيما ذكره ابن خلكان [1] :

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ١ ص ٤٦٢ .

«وكانت ولاية الظاهر لإعزاز دين الله بعد أبيه بمدة ، لأن أباه فقد فى السابع والعشرين من شوال سنة إحدى عشر وأربعمائة ، وكان الناس يرجون ظهوره ، ويتبعون آثاره إلى أن تحققوا عدمه ، فأقاموا ولده المذكور فى يوم النحر» .

ودعم هذا الاتجاه ما نشره الملاحدة بزعامة حمزة بن على من أن الحاكم لم يقتل ولم يمت وإنما رفع إلى السماء وسيعود عند قيام الساعة ليملأ الأرض عدلا وصار هذا الاتجاه أصل من أصول مذهبهم وأن الحاكم سيعود إليهم عندما تحل الساعة لأنه اختفى بإرادته غضبا عليهم بسبب تفشى الآثام والخطايا وهو فى السماء أو فى الأرض روح بلا جسد ، يشرف على عباده ، وهو يراهم من حيث لا يرونه ولا يزال الموحدون يؤمنون برجعته ويرقبونها حتى اليوم ، ويزعم المبطلون (الموحدون) أنه متى حلت الساعة يقوم جند الموحدين من ناحية الصين ويقصدون مكة فى كتائب جرارة فيبدو لهم الحاكم على الركن اليمانى من الكعبة وهو يشهر سيفا مذهبا فيدفعه إلى حمزة بن على فيقتل به الكلب والخنزير ثم يدفع حمزة السيف إلى محمد (الكلمة) ، ويقوم الموحدون بهدم الكعبة وسحق المسلمين والنصارى فى جميع أنحاء الأرض ، ويملكون العالم إلى الأبد ، ويفترق الناس إلى أربع فرق هى : الموحدون وهم العقال أو العقلاء ، وأهل الظاهر وهم المسلمون واليهود ، وأهل الباطن وهم النصارى والشيعة وأخيراً المرتدون وهم الجهال الجهلاء . والطوائف من الثانية إلى الرابعة يقوم حمزة بدفع جبهتها بما يميزها ويفرض عليهم الجزية والذل والخدمة لأصحاب الفرقة

الأولى أرباب السلطة والمال والجاه فى سائر الأرض (يتضح التناقض فكيف يسحق حمزة كل المسلمين والنصارى لم يضعهم فى مراتب) .

يقول حمزة : عن قريب يظهر مولانا جل ذكره سيفه بيدى ، ويهلك المارقين ويشهر المرتدين ويجعلهم فضيحة وشهرة لعيون العالمين ؛ والذى يبقى من فضله السيف تؤخذ منهم الجزية وهم صاغرون ، ويلبسوا الغيار وهم كارهون .

وقد رتب دعاة الخفاء دعوتهم على أساس الفكرة القديمة عند غلاة الشيعة الذين يعرفون بالرافضة [١]، والذين يزعمون أن عليا بن أبى طالب لم يمت ولكنه مستقر فى السحاب ، صوته الرعد ، والبرق سوطه ، ويقولون نفس الكلام عن محمد بن الحنفية ، يقولون أنه مستقر فى جبل رضوى من أعمال الحجاز بينما يرى الإثنا عشرية أن محمد بن الحسن العسكرى أنه الإمام المنتظر وهو لم يمت وأنه سيظهر يوما ليملأ الأرض عدلاً [٢]، إذن أسطورة الغيبة واختفاء الحاكم فكرة قديمة وجد فيها دعاة الحاكم فرصة سانحة للسيطرة على الأتباع ، وقد حاول الملاحدة تدعيم فكرتهم فأحضروا شخصًا يشبه الحاكم لأمر الله وساروا به إلى القصر الكبير فى رجب

---

(١) الرافضة أو الروافض هم من الشيعة أتباع ابن سبأ القائل بألوهية على بن أبى طالب ، ومنهم فرقة الرافضة الذين رفضوا رأى على بن الحسين بن على فى الامتناع عن لعن أبى بكر وعمر . الشهرستانى : الملل والنحل ، جـ٢ ص ٢٩ ـ ٣٠ .

(٢) ابن خلدون : المقدمة ، ص ١٦٥ .

٤٣٤هـ/ ١٠٤٣م ، وهو يدعى سكين وقالوا إن الحاكم عاد من غيبته فارتاع الجند ثم قبضوا عليه وحملوا على أصحابه وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، بينما صلب سكين وكبار أصحابه بعد مقتلهم بالنبال [١] ، وكانت هذه آخر محاولاتهم بمصر ، ولم يسمع عنهم إلا فى الشام للوقت الحاضر .

مما تجدر الإشارة إليه أنه لما انهارت دعوتهم فى مصر وجدوا فى بلاد الشام ملاذاً لهم ، فوجهوا إليها أنظارهم بشروحهم وأفكارهم المضللة الجديدة وما زالت ثمة بقية من شيعتهم إلى الوقت الحاضر وهم طائفة الدروز .

هى إذن دعوة سرية أرادت أن تعمل على إضرام ثورة جديدة فى العالم الإسلامى ، وأن تقوض صرح الإسلام بتقويض مبادئه ، ورأت فى ظروف مصر فى عصر الحاكم بأمر الله فرصة يجب انتهازها ، فبعثت إلى مصر برعاتها ورسلها يعملون فى ظل الدعوة الفاطمية ، لكن المجتمع المصرى لم يحسن استقبال أولئك الدعاة الخطرين ، بل قاومهم وفتك بشيعتهم ، ولم يستطع أحد منهم أن ينشئ لنفسه فرقة حقيقية بها ، لكنها وجدت ذلك فى وهاد الشام حيث أثمرت فرقة ثورية ملحدة جديدة هى طائفة الدروز التى ما زالت قائمة حتى الوقت الحاضر وتضم زهاء مائتى ألف يتبعون هذه التعاليم الإلحادية .

---

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ٩ ، ص ١٧٧
، أبو الفدا : المختصر ، جـ٢ ص ١٦٦ .

وتتلخص الأصول والقواعد لمذهب حمزة التى تطبقها طائفة الدروز أنهم ينكرون الإلوهية فى ذاتها يعتقدون فى ألوهية الحاكم وفى رجعته آخر الزمان، إنكار الرسل والأنبياء جميعا وأصول الإسلام والنصرانية واليهودية لكنهم ينتسبون ظاهراً للإسلام ويتظاهرون أمام المسلمين بأنهم مسلمين ، وأمام النصارى بأنهم نصارى ويبغضون فى الباطن جميع أبناء الأديان الأخرى ويستحلون دماءهم وأموالهم عند المقدرة ، كذلك فهم لا يأخذون بشىء من أصول الإسلام كالصوم والزكاة والحج ، كما أن الألوهية هى لب مذهبهم وهو عندهم الحاكم بأمر الله الذى كما قال معلمهم الأول حمزة بن على: « وهو سبحانه لا تغيره الدهور والأعوام والشهور وإنما يتغير عليكم بما فيه إصلاح شأنكم وأفعاله جل ذكره تظهر من القوة إلى الفعل كما يشاء كل يوم هو فى شأن » ، أى كل عصر فى صورة أخرى كذلك فهم يعتقدون فى تناسخ الأرواح وانتقالها إلى الأحياء فى صورة الإنسان والحيوان ويقولون فى القرآن الكريم أنه من صنع سلمان الفارسى الصحابى المشهور، على أن أهم ما يميزهم هو حرصهم على كتمان عقائدهم السرية.

وينقسم الدروز إلى طبقتين العقال أو العقلاء وطبقة الجهال ، والعاقلات والجاهلات بالنسبة للنساء ، والعقال ينقسمون إلى طبقتين أرفعها طبقة الخاصة وهى طبقة الثقات ، والجهال هم الكافة لا يعرفون من المذهب سوى مظاهره البسيطة ، بينما يجتمع العقال فى أبنية منعزلة فى أعلى الصوامع تسمى الخلوات ، وفى داخل القرى توجد منازل سرية شيدت داخل المنازل الأصلية يجتمعون ليلة الجمعة فى ظاهر المنزل ويقرأون ما تيسر

من المذهب للكافة ثم تنصرف الكافة ، ويختلى الخاصة فى البيت الداخل، وتغلق الأبواب ويتبادل العقال الأفضاء والأسرار ، كما توجد طبقة المنزهين وهى أشد إيمانا وورعا وزهدا ومنهم من يصوم الدهر أو ينقطع عن الزواج أو يضرب عن أكل اللحوم طيلة حياته والإسراف عندهم نقيصة فهم يقتصدون فى كل شىء ، وللعقلاء شيخ كبير يرجعون إليه فى أمور الدين ، والزواج عندهم بواحدة فقط ولا يتزوج بغيرها إلا بعد الطلاق ، ولا ترد المطلقة إلى الأول حتى لو تزوجت بغيره ، والمرأة منقبة لا يظهر منها سوى عين واحدة تبصر بها ، الزنا جريمة لا تغتفر وقد يباح الزواج سرا بين الأخوة على الرغم من تحريمه ظاهريا كذلك فلا يتبع الدروز المواريث الإسلامية فالرجل يوصى بكل ماله لأحد أولاده والمرأة لا ترث فيه شيئا .

كذلك يجوز لهم الرهبنة ويؤمنون بالقدر إيمانا شديدا وفى استسلام كامل له ، ينسبون أنفسهم للعرب (يبدو أنهم من سكان المنطقة قبل الإسلام) وهم يتصفون بالشجاعة والجود والتعلق بالأصول والأنساب .

ويقال أن مؤسس مذهب الدروز هو محمد بن إسماعيل الدرزى المعروف (بأنوشتكين) لكن الحقيقة أن واضع الأصول هو حمزة بن على حسبما وجدنا فى رسائله والدليل أن حمزة بشر بمذهبه فى مصر اعتبارا من سنة ٤٠٨هـ / ١٠١٧م واعتبرها تاريخا لأولى سنى قائم الزمان أى الحاكم بأمر الله ، وأول شىء ظهور ولى الزمان عبده ومملوكه هادى المستجيبين أى حمزة بن على ، فلما حدثت الفتنة بالقاهرة فر الدرزى إلى الشام سنة ٤١١هـ ونزل بأعمال بانياس وبث دعوته هناك وانضمت للمذهب طائفة الدروز ، ومن ناحية أخرى يقال أنه قتل فى مصر ولما كان الدروز اتخذوا سنة

٤٠٨هـ / ١٠١٧م تاريخهم المقدس ، فيتضح أنهم معتنقوا مذهب حمزة ابن على وليس الدرزى ، وإنما انتسبوا إليه لاعتقادهم أو لاختلاط الأمر عليهم أن محمد بن إسماعيل آخر أئمة الإسماعيلية .

وكان الدرزى يسمى نفسه سند الهادى أى حمزة بن على ، لكن لما استفحل أمره فى الشام خرج على طاعة سيده ، فهاجمه حمزة ونعته بالضد وأنه تغطرس على الكشف بلا علم ولا يقين ، ولذلك ظهر من تحت ثوب الإمام والثوب هو الداعى ، لكن الدرزى خرج على حمزة وأسس مذهبه الدرزى وإن لم يختلف عن مبادئ وأصول حمزة الملحد ، فحمزة هو إمام المذهب ومؤسسه الأول ، وإن كانت النسبة فقط للدرزى والدروز يسمون أنفسهم بالموحدين وهى التسمية التى اختارها حمزة للأتباع والخلاصة أن مذهب الدروز عبارة عن خليط من الوثنية واليهودية والنصرانية والإسلام .

النصيرية : تصدى الظاهر لإعزاز دين الله بعد وفاة أبيه الحاكم بأمر الله بثلاث سنوات أى سنة ٤١٤هـ/١٠٢٣م لهذه الطائفة فى وثيقة رسمية نقلها أبو هلال الصابى المعاصر .

وطائفة النصيرية هى طائفة من الباطنية ما تزال لها بقايا حتى الوقت الحاضر فى اللاذقية وطرابلس وحماة ودمشق ، وهم كالدروز يتظاهرون بالإسلام ، ويعتقدون فى ألوهية على بن أبى طالب وينقسمون إلى عقلاء وجهال ولهم خلوات سرية وهم الذين يبيحون عشرة المحارم كالبنات والأخوات ونساء بعضهم بعضا ، والمرأة الفاضلة هى التى تبيح نفسها لأخيها

المؤمن ولا تبيح نفسها للأجنبى ، والمرأة كالحيوان مجردة من النفس ، وهم أصحاب الدعوى الإباحية كلها . وقد ذهبت هذه الطائفة إلى الغلو فى على ابن أبى طالب رضوان الله عليه ، غلت وأودعت فيه ما أودعته النصارى فى المسيح ونجمت من هؤلاء الكفرة فرقة ضالة بجهلها عن سواء السبيل ، وقالوا فى أبائنا وأجدادنا منكراً من القول ، ... وأنا لنبرأ إلى الله تعالى من هؤلاء الجهلة الكفرة ونسأل الله أن يحسن معونتنا على إعزاز دينه (لقب الخليفة) وتوطيد قواعده وتمكينه ؛ والعمل بما أمرنا به جدنا المصطفى وأبونا على المرتضى ، وأسلافنا البررة أعلام الهدى ... واعترف بأنه وأسلافه الماضية وأخلافه الباحثين مخلوقون اقتدارا ، لا يملكون لأنفسهم موتا ولا حياة ، ولا يخرجون عن قبضة الله تعالى ، ومن خرج عن عبادة الله تعالى والعبودية له عز وجل ، فعليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين [١].

وهذا دليل على ما تعرضت له الخلافة الفاطمية من خطر هذه الدعوات على سمعتها وهيبتها إمامتها ، والحرص كل الحرص على شرائع الإسلام وعقائدهم [٢].

---

(١) انظر ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة : جـ٤ ص ٢٤٩ ـ ٢٥٠ .

(٢) الأنطاكى : تاريخ الأنطاكى ، ص ٢٣٦ .

(٥)

بعض الأحكام الشرعية الإسماعيلية فى عهد المعز لدين الله[1].

وأما ما جاء من قول الباقر محمد بن على بن الحسين ، صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين ، والصفوة من ذريته الأئمة الصادقين : « بنى الإسلام على سبع دعائم : الولاية هى أفضلها ، وبها بالولى ينتهى إلى معرفتها ، والطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد » . فهذه كما قال صلوات الله عليه ، دعائم الإسلام وقواعده ، وأصوله التى افترضها على عباده ،ولها فى التأويل الباطن أمثال . فالولاية مثلها مثل آدم عليه السلام ، لأنه أول من افترض الله تعالى ولايته . وأمر الملائكة بالسجود له : والسجود الطاعة ، وهى الولاية ، ولم يكلفهم غير ذلك ، فسجدوا إلا إبليس . كما أخبر الله سبحانه ، فكانت المحنة بآدم عليه السلام الولاية . وكان آدم مثلها ، ولا بد لجميع الخلق من اعتقاد ولايته . ومن لم يتوله ، لم تنفعه ولاية من تولاه من بعده . إذا لم يدن بولايته ، ويعترف بحقه ، وبأنه أصل من أوجب الله عز وجل ولايته ، من رسله وأنبيائه وأئمة دينه ، وأولهم أبوهم .

والطهارة مثلها مثل نوح عليه السلام ، وهو أول مبعوث ومرسل من قبل الله عز وجل ، لتطهير العباد عن المعاصى والذنوب التى اقترفوها ووقعوا فيها من بعد آدم صلى الله عليهما ، وهو أول ناطق من بعده ، وأول أولى العزم من الرسل أصحاب الشرائع ، وجعل الله عز وجل آيته التى جاء بها الماء الذى جعله للطهارة ، وسماه طهورا .

---

(١) المجالس المستنصرية : نشرها الدكتور محمد كامل حسين ص١٥٨ ـ ١٦٤ .

والصلاة مثلها مثل إبراهيم عليه السلام ، وهو الذى بنى البيت الحرام ، ونصب المقام ، فجعل الله عز وجل البيت قبلة ، والمقام مصلى ، وحكى قوله عز وجل : ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾[١] . فكان هذا القول هو افتتاح الصلاة للمصلين . والزكاة مثلها مثل موسى عليه السلام ، وهو أول من دعا إليها وأرسل بها . قال الله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ۝١٥ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٦ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ۝١٧ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى ﴾[٢] فكان أول ما أمره الله أن يدعو إليه أن يزكى .

والصوم مثله مثل عيسى عليه السلام ، وهو أول ما خاطب به أمه أن تقول لمن رأته من البشر ، وهو قوله الذى حكاه عز وجل عنه لها : ﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾[٣] ، وكان هو كذلك عليه السلام يصوم دهره ، ولم يكن يأتى النساء ، كما لا يجوز للصائم أن يأتيهن فى حال صومه .

والحج مثله مثل محمد صلى الله عليه وآله ، وهو أول من أقام مناسك الحج ، وسن سننه . وكانت العرب وغيرها من الأمم تحج البيت فى الجاهلية، ولا تقيم شيئا من مناسكه ، كما أخبر الله عز وجل عنهم بقوله : ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً ﴾[٤] . وكانوا يطوفون به عراة ،

---

(١) سورة الأنعام آية ٧٩ .

(٢) سورة النازعات آية ١٥ ــ ١٨ .

(٣) سورة مريم آية ٢٦ .

(٤) سورة الأنفال آية ٣٥ .

فكان أول شيء نهاهم عنه ذلك ، فقال فى العمرة التى اعتمرها قبل فتح مكة ، بعد أن وادع أهلها وهم مشركون : « لا يطوفن بعدُ هذا البيت عريان ولا عريانة » . وكانوا قد نصبوا حول البيت أصناما لهم يصيدونها ، فلما فتح مكة ، كسرها وأزالها ، وسن لهم سنن الحج ومناسكه ، وأقام لهم بأمر الله تعالى معالمه ، وافترض فرائضه . وكان الحج خاتمة الأعمال المفروضة ، وكان هو صلى الله عليه وآله خاتم النبيين . فلم يبق بعد الحج من دعائم الإسلام غير الجهاد ، وهو مثل سابع الأئمة ، الذى يكون سابع أسبوعهم الأخير ، الذى هو صاحب القيامة »[١] .

والطهارة فى الظاهر الوضوء والغسل بالماء ، والتيمم بالصعيد لمن يجوز له ذلك من أحداث الأبدان . والطهارة فى الباطن التطهير بالعلم وبما يوجبه العلم من أحداث النفوس ، قال الله جل من قائل : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴾[٢] . وقال عز وجل : ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ ﴾[٣] ؛ وقد تقدم القول بأن الماء مثله مثل العلم ، فكما يطهر الماء الظاهر من الردية الموبقة ، فأصل القول فى باطن الطهارة ، أنها الطهارة من أنجاس الأبدان فى الظاهر بالماء ، ومن أنجاس الأرواح فى الباطن بالعلم .

وأما قوله ﷺ : { بنيت الصلاة على أربعة أسهم : سهم لإسباغ الوضوء، وسهم للركوع ، وسهم للسجود ، وسهم للخشوع ؛ فإسباغ

---

(١) المجلس الأول من كتاب دعائم الإسلام للنعمان المغربى ص ٧ وما بعدها .
(٢) سورة الفرقان آية ٤٨ .
(٣) الأنفال آية ١١ .

الوضـوء فى البـاطن المبـالغـة فى التطهـر من الذنـوب ، بالنزوع عنهـا ، والتوبة منها .

ومن صفات الوضوء اعتقاد النية فيه ، وقيل فى ذلك أنه لا وضوء إلا بنية ، وكذلك جاء فى سائر الأعمال ، أنه لا عمل إلا بنية لقول رسول الله ﷺ : « إنما الأعـمـال بالنيـات » . ومـثـل النيـة فى البـاطن مـثـل الولاية ، فـمن لم يتـول أوليـاء الله عز وجل الذين افـترض ولايتـهم على العباد ، لم يقبل له عـمل ، كما لا يكون العـمل كذلك فى الظاهر عـملا يرجى قبـوله إلا بنيـة . وقد سمعـتم أن مثل الطهارة فى الظاهر بالماء ، مثل الطهـارة فى البـاطن بالعلم المأخوذ عن أوليـاء الله ، ولا يكون ذلك إلا بعد اعتقاد ولايتهم ، كما لا يجوز الطهارة فى الظاهر إلا بنية .

أما غسل الوجه ، فهو أول الفرائض ؛ والوجه فى التأويل الباطن ، مثله مثل النبى ﷺ فى عصره والإمام فى زمانه . فكل واحد منهـما ، به يتوجه أهل عصره إلى الله تعالى ، وهو وجه الله الذى يؤتى من قبله ، وفيه أمثال النطقاء السبعة ، وهى العينان والأذنان والمنخر والفم ؛ وفيه الحواس الخمس، وذلك السمع والبصر والشم والطعم واللمس ، لأن اللمس قد يكون باليد وبكل الجسد ، فيحس به كما يحس باليد . كذلك الناطق قد جمع الله تعالى فيه جميع الآيات منافع الدين للعباد ، فمثل غسله فى البـاطن مـثل الإقرار بإمام الزمـان ، وبالسـبعـة النطقـاء ، والسـبعـة الأئمة، الذين يتعاقبون الإمامة .

وغسل اليـدين إلى المرفقين ، فـباطن ذلك أن اليـدين مثلهـما مـثل الإمام والحجة ويجرى مثلهـما كذلك فيمن دونهما من الحدود المزدوجة ،

فغسلهما إلى المرفقين وهما منتهى حديهما ، إقرار ومعرفة بحدودهما ، من أولهما إلى آخرهما ، وغسل كل واحدة منهما بالأخرى ، مثله مثل إقامة باطن الحجة على ظاهر الإمام ، وإقامة ظاهر الإمام على باطن الحجة ، واعتقاد إيجاب أهل الظاهر والباطن والإيمان بهما ، وتصديق الظاهر للباطن، والباطن للظاهر ، وشهادة بعضهما لبعض .

وأما ما جاء من الأمر بالمسح على الرأس ، فالرأس فى التأويل هو الرئيس، وكذلك هو فى اللغة ، ورأس كل شىء أعلاه وأشرفه وأفضله . والرأس مسكن الدماغ الذى فيه العقل . وبه الحواس والحياة . وإذا بطل ، بطلت الحواس ، وفسد العقل ، وإذا ذهب هلك صاحبه ، فمثل المسح بالرأس فى الباطن ، مثل الإقرار بصاحب الشريعة محمد (ﷺ) ، والتمسك بشريعته وسنه .

وأما ما جاء من غسل الرجلين والمسح عليهما ، وأن المسح هو الواجب، فعلى الرجلين يقوم ، وهما يحملان الجسد ويثقلانه ، ومثلهما أيضًا مثل الإمام والحجة . هما ينهضان بعالم زمانهما ، ويحملان ثقله ، وينقلان أهله على مراتبهم ، ويصرفانهم فى أمور الدين إلى حيث يتوجهون ، وذلك يقع، كما ذكرنا على من دونهما من الحدود المزدوجة إلى الداعى والمأذون ، وكل يحمل من أمور الخلائق ما حمله الله عز وجل ، ويصرفهم فيما أذن له بصرفهم فيه ، فالمسح على الرجلين ، هو الإقرار بالإمام والحجة فمن دونهما من الحدود ، ومعرفة الواجب لهم ، والغسل تأويله الطاعة ، والمسح تأويله الإقرار ، فما أمر الله عز وجل بغسله من أعضاء الوضوء ، فتأويل ذلك الطاعة لمن جعل له مثلا فى الباطن ، وما أمر بمسحه ، فتأويله الإقرار لمن

جعله له مثلا فى الباطن ؛ فمن أجل ذلك كان الغسل أتم ، وأمر بإسباغه ، لأن الطاعة كذلك تلزم المأمور بها فى قليل الأمور وكثيرها . والغسل لا بد فيه من مسح اليد ، فهو يجمع الطاعة والإقرار ، والإقرار إنما يكون بجارحتين ، قول باللسان واعتقاد بالقلب ، كذلك المسح لا يعم جميع العضو الذى يمسح عليه ، ولا يصيبه الماء كله بالمسح ، كما يصيبه بالغسل » .

[٦]

الخلفاء الفاطميون فى المغرب ومصر

(٢٩٧_٥٦٧هـ = ٩٠٩_١١٧١م)

(١) المهدى : عبيد الله أبو محمد (٢٩٧_٣٢٢هـ = ٩٠٩_٩٣٤م) [المغرب]

(٢) القائم بأمر الله : محمد أبو القاسم (٣٢٢_٣٣٤هـ = ٩٣٤_٩٤٥م) [المغرب]

(٣) المنصور بنصر الله : إسماعيل أبو طاهر (٣٣٤_٣٤١هـ = ٩٤٥_٩٥٢م) [المغرب]

(٤) المعز لدين الله : معد أبو تميم (٣٤١_٣٦٥هـ - ٩٥٢_٩٧٥م) [المغرب ومصر]

(٥) العزيز بالله : نزار أبو منصور (٣٦٥_٣٨٦هـ = ٩٧٥_٩٩٦م) [مصر]

(٦) الحاكم بأمر الله : المنصور أبو على (٣٨٦_٤١١هـ = ٩٩٦_١٠٢٠م) [مصر]

(٧) الظاهر لإعزاز دين الله : على أبو الحسن (٤١١_٤٢٧هـ=١٠٢٠_١٠٣٥م) [مصر]

(٨) المستنصر بالله : معد أبو تميم (٤٢٧-٤٨٧هـ=١٠٣٥_١٠٩٤م) [مصر]

(٩) المستعلى بالله : أحمد أبو القاسم (٤٨٧_٤٩٥هـ=١٠٩٤_١١٠١م) [مصر]

(١٠) الآمر بأحكام الله : المنصور أبو على (٤٩٥-٥٢٤هـ=١١٠١-١١٣٠م)[مصر]

(١١) الحافظ لدين الله : عبد المجيد أبو الميمون (٥٢٤-٥٤٤هـ=١١٣٠-١١٤٩م) [مصر]

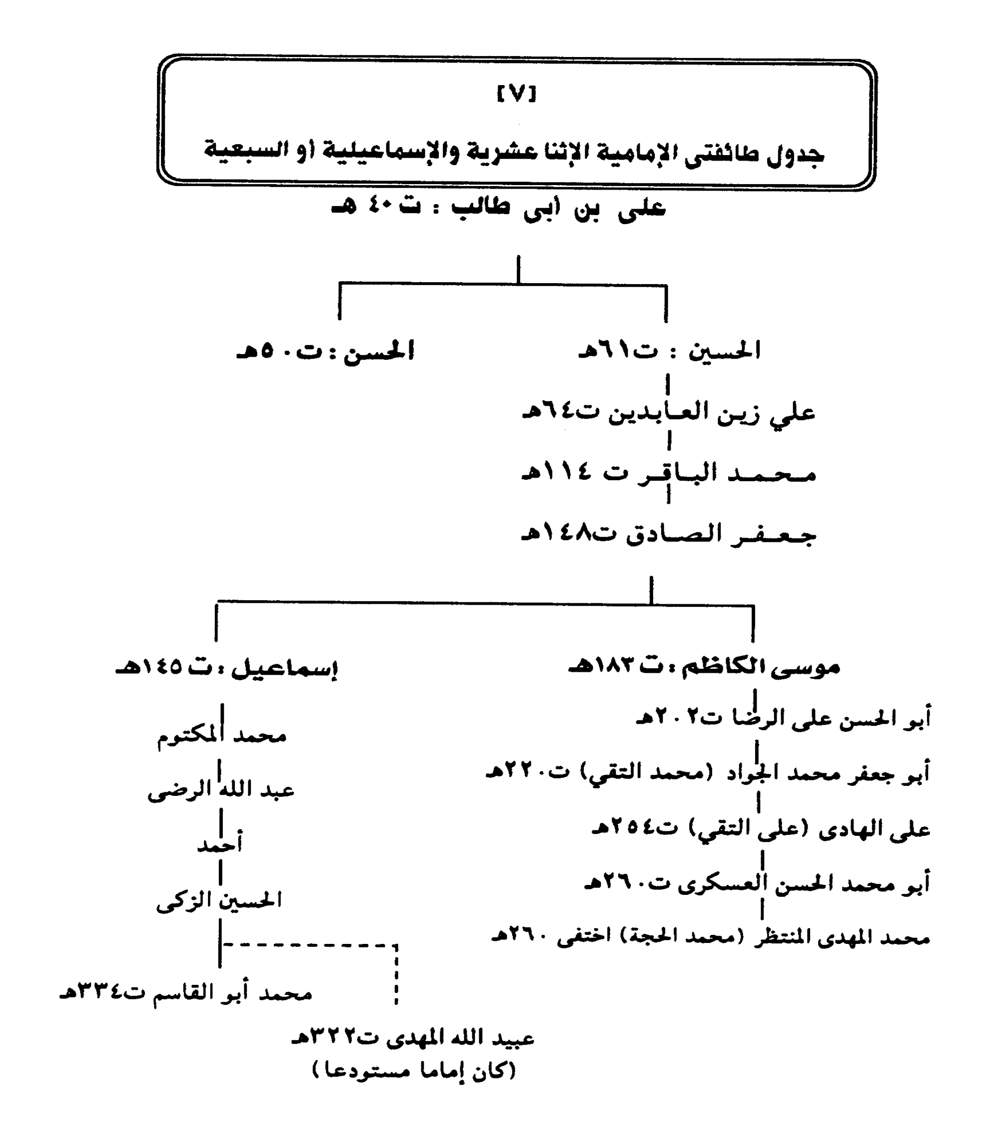
(١٢) الظافر بأمر الله : إسماعيل أبو منصور (٥٤٤-٥٤٩هـ=١١٤٩-١١٥٤م) [مصر]

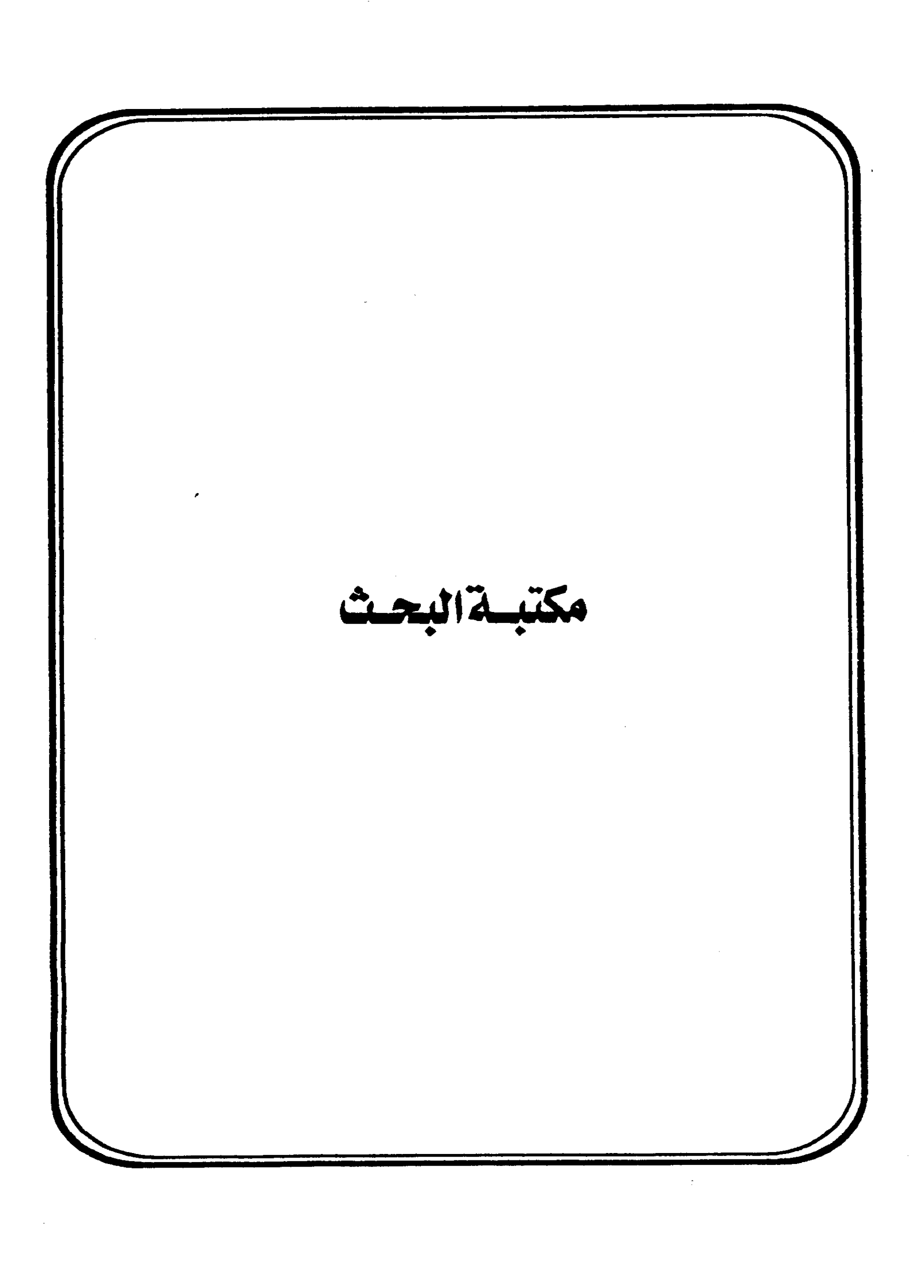
(١٣) الفائز بنصر الله : عيسى أبو القاسم (٥٤٩-٥٥٥هـ=١١٥٤-١١٦٠م) [مصر]

(١٤) العاضد لدين الله : عبد الله أبو محمد (٥٥٥-٥٦٧هـ=١١٦٠-١١٧١م) [مصر]

[٧]

جدول طائفتى الإمامية الإثنا عشرية والإسماعيلية أو السبعية




مكتبة البحث

مكتبة البحث

أولاً : المصادر والمراجع العربية والمعربة

• **إبراهيم حمادة :**

(١) خيال الظل وتمثيليات ابن دانيال ، القاهرة ١٩٦٣م .

• **الأبشيهي : شهاب الدين محمد بن أحمد الأبشيهي (ت٨٥٠هـ/١٤٤٦م)**

(٢) المستطرف في كل فن مستظرف ، دار الجيل، بيروت ، ١٩٩٢م.

• **ابن الأثير : عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم (ت٦٣٠هـ/١٢٣٨م)**

(٣) الكامل في التاريخ ، تحقيق تورنبرغ، دار صادر ، بيروت ١٩٩٥م، عشرة أجزاء .

• **أحمد أمين**

(٤) ظهر الإسلام ، ط٧ ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٩٩م.

• **أحمد عيسى :**

(٥) تاريخ البيمارستانات في الإسلام ، دمشق ١٩٣٩م .

• **الأشعري : أبو الحسن علي بن إسماعيل (ت٣٢٤هـ/٩٣٥م)**

(٦) مقالات الإسلاميين ، تحقيق هلموت ريتر ، فرانز شتاينر ، فرانكفورت ١٩٦٩م .

• **ابن أبي أصيبعة : موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم الخزرجي (ت٦٦٨هـ/١٢٧٠م) :**

(٧) عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، دار الثقافة، بيروت ١٩٨٧م .

• **أمارى : ميتشيل**

(٨) المكتبة الصقلية العربية ، ليبزج سنة ١٨٨١م .

• **الأنطاكى : يحيي بن سعيد الأنطاكى (ت٤٥٨هـ/١٠٦٦م) :**

(٩) تاريخ الأنطاكى ، تحقيق عمر عبد السلام تدمرى ، بيروت ١٩٩٠م.

• **ابن إياس : محمد بن أحمد بن إياس الحنفى (ت٩٢٨هـ/ ١٥٢٣م)**

(١٠) بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، تحقيق محمد مصطفى ، فرانزشتاينر ، ڤيسبادن ١٩٦١م .

• **ابن أيبك الداوداري : أبو بكر عبد الله بن أيبك (كان حيا سنة٧٣٦هـ/١٣٤٦م)**

(١١) كتاب الدرة المضية فى أخبار الدولة الفاطمية ، وهو الجزء السادس من كتاب كنز الدرر وجامع الغرر ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، المعهد الألمانى للآثار ، القاهرة ١٩٦١م .

• **إيزيدوروس (الأنبا) : (عاش فى القرن الخامس الهجري/ الحادى عشر الميلادي)**

(١٢) الخريدة النفيسة فى تاريخ الكنيسة ، نشره القمص عطا الله أرنسانيوس ، القاهرة ١٩٦٤م .

• **أيمن فؤاد سيد :**

(١٣) الدولة الفاطمية فى مصر ، تفسير جديد ، الدار المصرية اللبنانية ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٤١٣هـ/١٩٩٢م .

• **بتروفسكى :**

(١٤) الإسلام فى إيران ، ترجمة السباعى محمد السباعى ، القاهرة ١٩٩٤م .

* بروكلمان (كارل) :

(١٥) تاريخ الشعوب الإسلامية ، ترجمة نبيه أمين فارس ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٩٨م .

* البغدادى : أبو منصور عبد القاهر بن طاهر (ت٤٢٩هـ/١٠٣٧م)

(١٦) الفرق بين الفرق ، القاهرة ١٣٢٨هـ .

* البكرى : أبو عبيد الله بن عبد العزيز (ت٤٨٧هـ/١٠٩٤م) :

(١٧) كتاب المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب، تحقيق دى سلان، الجزائر ١٩٥٧م .

* البلاذرى : أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر (ت٢٧٩هـ/٨٩٢م)

(١٨) أنساب الأشراف ، تحقيق دى غويه ، ليدن ١٨٨٩م .

* بنيامين التطيلى

(١٩) رحلة بنيامين التطيلى، ترجمة عزرا حداد ، بغداد سنة ١٩٤٥م.

* جروهمان : (أدولف)

(٢٠) أوراق البردى العربية ، ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرون ، دار الكتب المصرية ١٩٤٩م .

* جمال الدين الشيال :

(٢١) مجموعة الوثائق الفاطمية ، القاهرة ١٩٥٨م .

(٢٢) تاريخ مصر الإسلامية ، القاهرة ١٩٦٣م .

* ابن الجوزى : جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن على (ت٥٩٧هـ/١٢٠١م)

(٢٣) المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم . حيدر آباد ، الدكن ١٣٥٩هـ .

* جولدتسيهر (إجناز) :

(٢٤) العقيدة والشريعة فى الإسلام ، ترجمة محمد يوسف موسى ، دار الكتاب العربى ، القاهرة ١٩٥٩م .

* ابن حجر العسقلانى : شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن على الكنانى (ت٨٥٣/١٤٤٩م)

(٢٥) الإصابة فى تمييز الصحابة ، القاهرة ١٩٢٣م .

(٢٦) رفع الإصر عن قضاة مصر ، تحقيق حامد عبد الجيد ، القاهرة ١٩٦١م .

* حسن إبراهيم حسن :

(٢٧) عبيد الله المهدى ، بالاشتراك مع طه شرف ،القاهرة ١٩٤٧م .

(٢٨) الفاطميون فى مصر ، مطبعة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٦٤م.

* حسن حبشى :

(٢٩) نور الدين والصليبيون ، دارالفكر العربى ، القاهرة ١٩٤٧م .

(٣٠) الحرب الصليبية الأولى ، دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٤٨م .

* الحسن بن الحسين : أبو عبد الله (عاش فى أواخر القرن الرابع الهجرى)

(٣١) كتاب البيزرة ، تحقيق محمد كرد على ، دمشق ١٩٥٣م .

* ابن حوقل : أبو القاسم محمد بن حوقل البغدادى (عاش فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى)

(٣٢) المسالك والممالك ، تحقيق دى غويه ، ليدن ١٨٨٩م .

* ابن خلدون : ولى الدين أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الحضرمى (ت٨٠٨هـ/١٤٠٥ـ١٤٠٦م)

(٣٣) العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ٧ أجزاء ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٩٢م .

● **ابن خلكان : شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد (ت٦٨١هـ/١٢٨١م)**

(٣٤) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق إحسان عباس ، بيروت ١٩٧٢م .

● **خواندمير : محمد بن خاوندشاه (ت٩٠٣هـ/١٥١٥م)**

(٣٥) حبيب السير ، تهران ١٣٣٣هـ .

● **أبو داود : سليمان بن الأشعث السجستاني (ت٢٧٥هـ/٨٨٦م)**

(٣٦) سنن أبي داود ، تحقيق عبيد الدعاس ، دمشق ١٩٦٩م .

● **درويش النخيلي :**

(٣٧) السفن الإسلامية على حروف المعجم ، الإسكندرية ١٩٧٤م .

● **رشيدالدين : رشيد الدين فضل الله الهمذاني (ت٦٩٨هـ/١٣٠٨م)**

(٣٨) جامع التواريخ ، ترجمة فؤاد عبد المعطى الصياد وآخرون ، القاهرة ١٩٧٠م .

● **زامباور (إدوارد فون) :**

(٣٩) معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في الإسلام ، ترجمة زكي محمد حسن وآخرون ، بيروت ١٩٨٠م .

● **زكي محمد حسن :**

(٤٠) كنوز الفاطميين ، دار الآثار العربية ، القاهرة ١٩٣٧م .

● **ابن سعد : أبو عبد الله محمد كاتب الواقدي (٢٣٠هـ/٨٤٠م)**

(٤١) الطبقات الكبرى، لجنة نشر الثقافة الإسلامية، القاهرة ١٩٥٨م.

● **ابن سعيد الأندلسي : علي بن سعيد المغربي (ت٦٨٥هـ/١٢٧٤م)**

(٤٢) المغرب في حلى المغرب . القسم الخاص بالفسطاط ، تحقيق زكي محمد حسن وآخرون ، القاهرة ١٩٥٣م .

(٤٣) النجوم الزاهرة فى حلى حضرة القاهرة ، تحقيق حسين نصار ، مركز تحقيق التراث ، القاهرة ١٩٧٢م .

* السلاوى : أحمد بن خالد الناصرى (ت١٣١٥هـ/١٨٩٧م)

(٤٤) الاستقصا فى تاريخ المغرب الأقصى ، الدار البيضاء ١٩٥٤م .

* السيوطى : جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر بن محمد (ت٩١١هـ/١٥٠٥م)

(٤٥) حسن المحاضرة فى تاريخ مصروالقاهرة ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ١٩٦٦م .

(٤٦) تاريخ الخلفاء ، تحقيق قاسم الرفاعى وآخرون ،دار القلم - بيروت ١٩٨٦م .

* الشابشتى : أبو الحسن على بن محمد (ت٣٨٨هـ/٩٩٧م)

(٤٧) كتاب الديارت ، تحقيق كوركيس عواد ، مكتبة المثنى ، بغداد ١٩٦٦م .

* أبو شجاع : ظهير الدين على بن محمد الروذراورى (ت٤٨٨هـ/١٠٩٥م)

(٤٨) ذيل تجارب الأمم ، تحقيق هـ. أمد روز وهو نفسه جـ٣ من كتاب تجارب الأمم لمسكويه ، مكتبة المثنى ، بغداد ، ١٩١٦م .

* الشهرستانى : محمد بن على بن عبد الكريم (ت٥٤٧هـ/١١٥٣م)

(٤٩) الملل والنحل ، القاهرة ١٩٥١م .

* شوقى ضيف :

(٥٠) البحث الأدبى ، طبيعته ، مناهجه ، أصوله ، مصادره ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف بمصر (د. ت) .

* أبو صالح الأرمنى : الشيخ أبو صالح الأرمنى (ت٦٦٠هـ/١٢٠٨م)
(٥١) تاريخ الكنائس والأديرة ، تحقيق إيفتس ، لندن ١٨٩٥م .
* ابن الصيرفى : تاج الرئاسة أمين الدين أبو القاسم على بن منجب ابن سليمان (ت٥٤٢هـ/١١٤٧م)
(٥٢) الإشارة إلى من نال الوزارة ، تحقيق أيمن فؤاد سيد ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ١٩٩٠م .
* ضياء الدين الريس :
(٥٣) النظريات السياسية الإسلامية ، الطبعة الرابعة ، القاهرة ١٩٦٧م.
* ابن طباطبا : محمد بن على بن الطقطقى (ت٧٠٩هـ/١٣٠٩م)
(٥٤) الفخرى فى الآداب السلطانية ، دار صادر ، بيروت د.ت .
* الطبرى : أبو جعفر محمد بن يزيد بن جرير (ت٣١٠هـ/٩٢٢م)
(٥٥) تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٩م .
* طه ندا :
(٥٦) الأعياد الفارسية فى العالم الإسلامى ، مجلة كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ، مجلد ١٧ ، ١٩٦٣م .
* ابن ظافر الأزدى : جمال الدين أبو الحسين بن أبى منصور (ت٦١٢هـ/١٢١٥م)
(٥٧) أخبار الدول المنقطعة ، تحقيق أندريه فريه ، المعهد الفرنسى للآثار الشرقية ، القاهرة ١٩٧٢م .
* عبد القادر الأنصارى : محمد بن عبد القادر بن إبراهيم الجزيرى (كان حيا سنة ٩٧٦هـ/١٥٨٦م)
(٥٨) درر الفوائد المنتظمة ، الرياض ١٩٨٣م .

* **عبد المنعم سلطان :**

(٥٩) تاريخ الشرطة فى مصر الإسلامية فى عصر الولاة ، الاسكندرية ١٩٨٥م .

(٦٠) الحياة الاجتماعية فى العصر الفاطمى ، دراسة تاريخية وثائقية ، الاسكندرية ١٩٩٩م .

* **عبد المنعم ماجد :**

(٦١) السجلات المستنصرية ، القاهرة ١٩٥٤م .

(٦٢) نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر ،الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٥٥م .

* **ابن العبرى : أبو الفرج غريغوريوس الملطى (ت٦٨٥هـ/١٢٩٥م)**

(٦٣) التاريخ السريانى المطول المعروف بـ تاريخ الزمان ، ترجمه عن السريانية إسحق أرملة ، دار المشرق ، بيروت د. ت .

(٦٤) تاريخ مختصر الدول ، تحقيق أنطون صالحانى اليسوعى ، بيروت ١٩٠٨م .

* **ابن العديم : كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله العقيلى (ت٦٦٠هـ/١٢١٦م)**

(٦٥) زبدة الحلب فى تاريخ حلب ، تحقيق سامى الدهان ، المعهد الفرنسى للدراسات العربية ، دمشق ١٩٦٨م .

* **ابن عذارى : أبو عبد الله محمد بن محمد المراكشى (ت٦٩٥هـ/١٢٩٥م)**

(٦٦) البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب ، تحقيق س. كولان وليفى بروفنسال ، ليدن ١٩٤٨م .

* عريب بن سعد : القرطبي (ت٣٦٦هـ/ ٩٧٦-٩٧٧م)
(٦٧) صلة تاريخ الطبرى ، تحقيق دى غويه ، ليدن ١٨٩٧م .
* عطية مشرفة :
(٦٨) تاريخ البريد فى مصر ، القاهرة ١٩٣٤م .
(٦٩) القضاء فى الإسلام ، القاهرة ١٩٣٩م .
(٧٠) نظم الحكم بمصر فى عصر الفاطميين ، دار الفكر العربى ، ١٩٤٨م .
* على إبراهيم حسن :
(٧١) تاريخ جوهر الصقلى ، القاهرة ١٩٣٣ .
* على مبارك :
(٧٢) الخطط التوفيقية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٩٤م.
* عماد الدين إدريس : الداعى إدريس بن الحسن القرشى (ت٨٧٢هـ/ ١٤٦٧م)
(٧٣) كتاب زهر المعانى فى توحيد المبدع الحق ، نشر د. حسين الهمدانى ، الثقافة الإسلامية ، ١٩٣٧م .
* عمارة اليمنى : أبو محمد عمارة بن الحسن على بن زيدان (ت٥٦٩هـ/١١٧٤م)
(٧٤) النكت العصرية فى أخبار الوزارة المصرية ، تحقيق درنبرج ، شالون ١٨٩٧م .
* العمرى : شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله (ت٧٤٩هـ/ ١٣٥٩م)
(٧٥) مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار ، تحقيق أحمد زكى باشا ، القاهرة د. ت .

* ابن العميد : الشيخ المكين جرجس بن العميد (ت٦٧٢هـ/١٢٨٢م)

(٧٦) تاريخ المسلمين ، ليدن ١٩٢٥م .

* الغزالى : أبو حامد محمد بن محمد الطوسى (ت٥٠٥هـ/١١١٦م)

(٧٧) كتاب فضائح الباطنية وفضائل المستظهرية ، مؤسسة دار الكتب ، الكويت ١٩٦٤م .

* فارمر (هنرى) :

(٧٨) مصادر الموسيقى العربية ، ترجمة د. حسين نصار ، القاهرة ١٩٥٧م .

* أبو الفدا : الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل (ت٧٣٢هـ/١٣٣١م)

(٧٩) المختصر فى أخبار البشر ، دار المعرفة ، بيروت ، د. ت .

* فنسنك : وآخرون :

(٨٠) المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى ، ليدن ١٩٣٦م .

* ابن قتيبة الدينورى : أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت٢٧٦هـ/ ٨٨٩م)

(٨١) الإمامة والسياسة ، بيروت ١٩٨٢م .

* ابن القلانسى : أبو يعلى حمزة ابن القلانسى (ت٥٥٥هـ/١١٦٠م)

(٨٢) ذيل تاريخ دمشق ، مطبعة الآباء اليسوعيين ، بيروت ١٩٠٨م .

* القلقشندى : أبو العباس أحمد بن على بن أحمد (ت٨٢١هـ/ ١٤١٨م)

(٨٣) صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٣٨م .

* الكليني : العلامة محمد بن يعقوب (ت٣٢٨هـ/٩٣٩م)

(٨٤) كتاب الكافي ، في الأصول والفروع ، ثلاثة أجزاء ، فارس ١٢٨٩هـ.

* الكندي : أبو عمر بن يوسف (٣٥٠هـ/٩٦١م)

(٨٥) الولاة والقضاة ، بيروت ١٩٠٨م .

* الماوردي : أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري (ت٤٥٠هـ/١٠٥٨م)

(٨٦) الأحكام السلطانية والولايات الدينية، دار الكتب العلمية، بيروت (د. ت) .

* أبو المحاسن : جمال الدين أبو المحاسن بن تغرى بردى الأتابكي (ت٨٧٤هـ/١٤٦٩م) :

(٨٧) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٥٩م .

* محمد جمال الدين سرور :

(٨٨) النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٦٤م .

(٨٩) قيام الدولة العربية الإسلامية ، دار الفكر العربي ، القاهرة ١٩٧٧م.

(٩٠) الدولة الفاطمية في مصر ، دار الفكر العربي ، القاهرة ١٩٧٩م.

(٩١) سياسة الفاطميين الخارجية، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٨١م.

* محمد الحسين آل كاشف :

(٩٢) أصل الشيعة وأصولها ، بيروت ، (د. ت) .

* محمد حمدى المناوى :

(٩٣) الوزارة والوزراء فى العصر الفاطمى دار المعارف، القاهرة ١٩٧٠م.

* محمد رمزى :

(٩٤) القاموس الجغرافى للبلاد المصرية ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٥٣م.

* محمد عبد الله عنان :

(٩٥) الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية ، القاهرة ١٩٥٩م.

* المؤيد فى الدين : هبة الله بن موسى بن داود الشيرازى (ت٤٧٠/١٠٧٧)

(٩٦) سيرة المؤيد فى الدين ، تحقيق محمد كامل حسين ، القاهرة ١٩٤٩م .

(٩٧) المجالس المؤيدية ، تحقيق محمد عبد القادر ، القاهرة ١٩٧٥ .

* المُسَبِّحى : الأمير المختار عز الملك محمد بن عبد الله (٤٢٠هـ/١٠٢٩م)

(٩٨) أخبار مصر فى سنتين ٤١٤ـ٤١٦هـ ، تحقيق وليم ميلورد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٠م .

* المسعودى : أبو الحسن على بن الحسين بن على (ت٣٤٦هـ/٩٥٦م)

(٩٩) التنبيه والإشراف ، تحقيق دغويه ، ليدن ١٨٩٤م .

(١٠٠) مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ط٢ ،العالمية للكتب ، بيروت، ١٩٩٠م .

* مسكويه : أبو على أحمد بن محمد (ت٤٢٠هـ/١٠١٠م)

(١٠١) تجارب الأمم وتعاقب الهمم ، تحقيق أمدروز ، مكتبة المثنى ، بغداد ، ١٩١٦م .

* مسلم : أبوالحسين مسلم بن الحجاج القشيرى النيسابورى (ت٢٦١هـ/٨٧١م)

(١٠٢) صحيح مسلم ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى ، الرياض ١٩٨٠م .

* مصطفى زيادة : السجون فى مصر فى العصور الوسطى

(١٠٣) مجلة الثقافة ، العدد ٢٦٠ سنة ١٩٤٧م .

* المقدسى : شمس الدين أبى عبد الله محمد بن أبى بكر (ت٣٧٧هـ/٩٨٧م)

(١٠٤) أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، تحقيق دى غويه ، ليدن ١٩٠٩م .

* المقريزى : تقى الدين أحمد بن على (ت٨٤٥هـ/١٤٤١م)

(١٠٥) النزاع والتخاصم فيما بين بنى أمية وبنى هاشم ، المطبعة الإبراهيمية ، القاهرة ١٩٣٧م .

(١٠٦) إغاثة الأمة بكشف الغمة ، تحقيق محمد مصطفى زيادة وآخرون ، القاهرة ١٩٤٦م .

(١٠٧) المقفى الكبير ، تحقيق محمد البعلاوى ، بيروت ، ١٩٩١م.

(١٠٨) اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة ٢٠٠١م .

(١٠٩) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط ، دار صادر ، بيروت . (د. ت) .

* ابن المقفع : الأنبا ساويرس أسقف الأشمونين (عاصر أحداث النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى)

(١١٠) سير البيعة المقدسة المعروف بسير الآباء والبطارقة ، تحقيق يسى عبد المسيح وآخرون ، القاهرة ١٩٧٤م .

* ابن مُيَسَّر : تاج الدين محمد بن على بن يوسف بن جلب راغب (ت٦٧٧هـ/١٢٧٨م)

(١١١) المنتقى من أخبار مصر ، تحقيق أيمن فؤاد سيد ، المعهد الفرنسى للآثار الشرقية ، القاهرة ١٩٨١م .

* ناصر خسرو : ناصر خسرو علوى (كان حياً سنة ٤٤٠هـ)

(١١٢) سَفَرْنامَة المعروف برحلة ناصر خسرو ، ترجمة يحيى الخشاب، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٩٣م .

* النعمان بن حيون (القاضى) (٣٦٣هـ/٩٧٤م)

(١١٣) كتاب الهمة فى آداب اتباع الأئمة ، نشر د. محمد كامل حسين ، دار الفكر العربى ، القاهرة (د. ت) .

(١١٤) كتاب دعائم الإسلام ، جزءان ، تحقيق آصف بن على أصغر، دارالمعارف ، القاهرة ١٩٦٥م .

(١١٥) المجالس والمسايرات ، تحقيق محمد البعلاوى وآخرون ، تونس ١٩٧٨م .

* النَّوْبَخْتى : أبو محمد الحسن بن موسى (ت٣١٠هـ/٩٢٢م)

(١١٦) فرق الشيعة ، تحقيق هلموت ريتر ، النجف الأشرف ١٩٥٩م.

* النويرى : شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب البكرى (ت٧٣٣هـ/ ١٣٣٣م)

(١١٧) نهاية الأرب فى فنون الأدب ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٧م .

* النيسابورى : أحمد بن إبراهيم (عاش أواخر القرن الرابع الهجرى)

(١١٨) استتار الإمام ، تحقيق ايفانوف ، مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة مجلد ٤ جـ٢ مايو ١٩٣٦م .

* ابن واصل : جمال الدين محمد بن سالم بن واصل (ت٦٩٧هـ/ ١٢٩٧م)

(١١٩) مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، تحقيق جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٦٠م .

* ابن الوردى : زين الدين عمر بن المظفر (ت٧٤٩هـ/ ١٣٦٠م)

(١٢٠) تتمة المختصر فى أخبار البشر المعروف بتاريخ ابن الوردى ، النجف ، العراق ١٩٦٩م .

* ياقوت الحموى : شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الرومى (٦٢٦هـ/١٢٢٩م)

(١٢١) معجم البلدان ، ٥ مجلدات ، بيروت ١٩٦٦م .

* اليعقوبى : محمد بن على بن واضح (ت٢٨٢هـ/٨٩٥م)

(١٢٢) كتاب البلدان ، تحقيق دى غويه ، ليدن ١٨٩١م .

(١٢٣) تاريخ اليعقوبى ، مطبعة النجف ، العراق ١٣٥٨هـ .

ثانيا : المراجع الأجنبية

Arnold (Sir. t) :

(1) The Caliphat, Oxford - 1924 .

Defremery :

(2)Essai Sur L'Histoire des Ismaeliens, Cambridge 1940 .

De Goeje :

(3) Memoire sur les Carmattes du Bahrain et les Fatimides, Leyden 1866 .

De Sacy . S :

(4) Recherches sur L'imilation à la siècle Ismaelienne (J. A. R. S) 1824 .

Dozy . R :

(5) Essai Sur L'Islamisme, Paris, 1879.

(6) Dictionnaire detaillé des noms des Vêtements chez les Arabes, Amsterdam, 1945 .

Finlay :

(7) History of the Byzantine Empire . London, 1856 .

Hitti . F :

(8) History of Syria , London, 1957 .

(9) History of the Arabs, London, 1965 .

Ivanow . W :

(10) The Rise of Fatimids , Calcutta, 1924 .

(11) A Guide to Ismaili Literature, London, 1933 .

Lane-Poole. S :

(12) The Story of Cairo, London, 1912 .

(13) Mohammadan Dynasties, London 1895 .

(14) A History of Egypt In The Middle Ages . London, 1901 .

Lewis, Bernard :

(15) The Origins of Ismailism, Cambridge, 1940.

O'Leary :

(16) A short History of the Fatimids Khaliphat, London, 1933 .

Runciman . S :

(17) A History of the Crusades, Cambridge University, 1951 .

Setton : K. M :

(18) A History of the Crusades, Pennsylvania , 1958 .

Wellhausen :

(19)The Arab Kingdom and its fall, Calcutta, 1947.

Wiet . G :

(20) Histoire de la Nationale Egyptienne 7 vols - Paris 1931 - 1940 .

(21) Precise de l'Histoire d'Egypte 4 vols. le Caire . 1935 .

Zaki Hassan :

(22) Les Tulunides, Paris, 1933 .

الفهرست

* * *